

أطب
الدنيا والكين

تأليف
أبي الحسن الماوردي

طبعة جديدة

شرح وتعليق
محمد كريم راجح

طاد اقرا
بكيوت

الماوردي

كتاب الدنيا والكين

طاد اقرا

أَدَبُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ

تَأْلِيفُ

الْعَالِمِ الْعَلَّامَةِ الْكَبِيرِ الْفَهَامَةِ الْإِمَامِ الْمُحَقِّقِ الشَّهِيدِ أَقْضَى الْقَضَاةِ
أَبِي الْحَسَنِ عَلِيِّ بْنِ مُحَمَّدٍ بْنِ حَبِيبٍ الْبَصْرِيِّ الْمَأْوَزِيِّ
رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى

طبعة جديدة
منقحة

شَرَحَ وَتَعَلَّقَ
مُحَمَّدُ كَرِيمُ رَاجِحُ

دار اقرأ

الطبعة الرابعة

١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م

جميع حقوق الطبع محفوظة

دار افرا

بيروت - الرملة البيضاء - سنتر ملكارت التجاري - ص.ب. ١٣٥٨١٨ - هاتف: ٨٠٦٢٥٢

ترجمة مؤلف هذا الكتاب

هو أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري المعروف بالماوردي . ولد بالبصرة ونشأ بها ثم استوطن بغداد وفوض إليه القضاء في بلدان كثيرة . وكان جليل القدر متقدماً عند السلطان ديناً تقياً كثير المجاهدة لنفسه دائماً في مراقبتها . وهو من وجوه فقهاء الشافعية وكبارهم وكان حافظاً للمذهب وله فيه كتاب الحاوي الذي لم يطالعه أحد إلا شهد له بالتبحر والمعرفة التامة بالمذهب . ومن مصنفاته كتاب أدب الدنيا والدين والأحكام السلطانية وقانون الوزارة وسياسة الملك . درس ببغداد والبصرة سنين كثيرة وانتفع الناس به بمصنفاته في حياته وبعد مماته . وكانت وفاته يوم الثلاثاء سلخ ربيع الأول سنة ٤٥٠ هـ (٢٦ مايو سنة ١٠٥٨ م) وله من العمر ٨٦ سنة ودفن بمقبرة باب حرب ببغداد رحمه الله تعالى ورضي عنه .

والماوردي نسبة إلى بيع الماورد هكذا قال السمعاني أه مقتطفاً من وفيات الأعيان وغيره مع التصريف في العبارة .

أحمد إبراهيم

بسم الله الرحمن الرحيم

قال القاضي أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي رحمه الله تعالى:

الحمد لله ذي الطول^(١) والألاء^(٢) وصلى الله على سيدنا محمد خاتم الرسل والأنبياء وعلى آله وأصحابه الأتقياء (أما بعد) فإن شرف المطلوب بشرف نتائجه وعظم خطره^(٣) بكثرة منافعه وبحسب منافعه تجب العناية به وعلى قدر العناية به يكون اجتناء^(٤) ثمرته. وأعظم الأمور خطراً وقدرأ وأعمها نفعاً ورفداً ما استقام به الدين والدنيا وانتظم به صلاح الآخرة والأولى لأنه باستقامة الدين تصح العبادة وبصلاح الدنيا تتم السعادة ✕ وقد توخيت^(٥) بهذا الكتاب الإشارة إلى آدابها وتفصيل ما أجمل من أحوالها على أعدل الأمرين من إيجاز وبسط أجمع فيه بين تحقيق الفقهاء وترقيق الأدباء^(٦) فلا ينبو^(٧) عن

(١) الطول: بفتح الطاء وسكون الواو: القدرة، أو الغنى. أو الفضل والزيادة.

(٢) الألاء: بالمد: الفم - مفردة ألى بكسر الهمزة أو فتحها وسكون اللام. أو مفردة ألو مثل ولو أو ألى مثل رحي.

(٣) خطره: الحظ بفتح الحاء الطاء الشرف والقدرة.

(٤) اجتناء: اقتطاف.

(٥) توخيت: من توخى رضاه بمعنى تحراه، أو من تأخى الشيء إذا تحرى ما هو اللائق.

(٦) وترقيق الأدباء: لأنهم يؤدون المعاني الحسان بأسلوب مناسب سهل، وألفاظ عذاب لا غموض فيها ولا لبس.

(٧) لا ينبو: لا يبعد، يقال: نبا السيف إذا بعد عن مضربه.

فهم ولا يلق في وهم^(١). مستشهداً من كتاب الله جل اسمه بما يقتضيه ومن سنن رسول الله صلوات الله عليه بما يضاهيه^(٢) ثم متبعاً ذلك بأمثال الحكماء وآداب البلغاء وأقوال الشعراء لأن القلوب ترتاح إلى الفنون المختلفة وتسأم من الفن الواحد وقد قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه^(٣): إن القلوب تمل^(٤) كما تمل الأبدان فأهدوا إليها طرائف الحكمة^(٥) فكان هذا الأسلوب يجب التنقل في المطلوب من مكان إلى مكان وكان المأمون رحمه الله تعالى يتنقل كثيراً في داره من مكان إلى مكان وينشد قول أبي العتاهية رحمه الله:

لا يصلح النفس إذ كانت مدبرة^(٦) إلا التنقل من حالٍ إلى حال

وجعلت ما تضمنه هذا الكتاب خمسة أبواب (الباب الأول) في فضل العقل وذم الهوى (الباب الثاني) في أدب العلم (الباب الثالث) في أدب الدين (الباب الرابع) في أدب الدنيا (الباب الخامس) في أدب النفس. وأنا أستمد من الله تعالى حسن معونته وأستودعه حفظ موهبته بحوله ومشيبته وهو حسبي من معين وحفيظ.

باب فضل العقل وذم الهوى

إعلم أن لكل فضيلة أساً^(٧) ولكل أدب ينبوعاً^(٨). وأس الفضائل

(١) لا يلق في وهم: لا يخفها، والمراد أن كل مخاطب يفهمه.

(٢) يضاهيه: يشابهه في مدلوله.

(٣) علي بن أبي طالب: هو أمير المؤمنين، أبو الحسن، وكناه رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا تراب. روي له عن رسول الله ٥٨٦ حديثاً. وولي الخلافة خمس سنين إلا شهراً قتل بالكوفة سنة أربعين عن ثلاث وستين سنة. وصفه ابن عباس: فقال: هو قمر باهر في ضوئه وبهائه وأسد خاور في شجاعته ومضائه، وفرات زاخر في جوده وسخائه، وربيع باكر في خصيه وحيائه، رضي الله عنه.

(٤) تمل: تسأم، وبابه علم.

(٥) طرائف الحكمة: نوادرها أو حسناتها.

(٦) مدبرة: معرضة ركائبة.

(٧) أساً: بضم الهمزة: هو أصل كل شيء، كأصل البناء.

(٨) ينبوعاً: عيناً تتفجر الآداب منها، كما تتفجر المياه من ينبوع.

وينبوع الآداب هو العقل الذي جعله الله تعالى للذين أصلاً وللدنيا عماداً فأوجب التكليف بكماله وجعل الدنيا مدبرة بأحكامه وألف به بين خلقه مع اختلاف همهم ومآربهم^(١) وتباين أغراضهم ومقاصدهم وجعل ما تعبدهم به قسمين: قسماً وجب بالعقل فوكده الشرع وقسماً جاز في العقل فأوجبه الشرع فكان العقل لهما عماداً. وروي عن النبي ﷺ أنه قال: ما اكتسب المرء مثل عقل يهدي صاحبه إلى هدى ويرده عن ردى. وروي عن النبي ﷺ أنه قال: لكل شيء دعامة^(٢) ودعامة عمل المرء عقله فبقدر عقله تكون عبادته لربه أما سمعتم قول الفجار: لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير^(٣). وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أصل الرجل عقله وحسبه دينه ومروءته خلقه. وقال الحسن البصري رحمه الله: ما استودع الله أحداً عقلاً إلا استنقذه به يوماً ما. وقال بعض الحكماء: العقل أفضل مرجو والجهل أنكى^(٤) عدو وقال بعض الأدباء: صديق كل امرئ عقله وعدوه جهله. وقال بعض البلغاء: خير المواهب العقل وشر المصائب الجهل. وقال بعض الشعراء وهو إبراهيم ابن حسان:

يزين الفتى في الناس صحة عقله	وإن كان محظوراً ^(٥) عليه مكاسبه
يشين الفتى في الناس قلة عقله ^(٦)	وإن كرمتم ^(٧) أعراقه ^(٨) ومناسبه ^(٩)
يعيش الفتى في الناس بالعقل إنه	على العقل يجري علمه وتجاربه
وأفضل قسم ^(١٠) الله للمرء عقله	فليس من الأشياء شيء يقاربه

(١) ومآربهم: جمع مأربة - بفتح الراء وضمها: الحاجة.

(٢) دعامة: بكسر الدال: عماد البيت.

(٣) الحديث: رواه في الأحياء عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٤) أنكى عدو: أي لا يرحم أصلاً، بل يقتل من صادفه.

(٥) محظوراً: ممنوعاً.

(٦) قلة عقله: فساد رأيه.

(٧) كرمتم: عزت وشرفت.

(٨) أعراقه: جمع عرق بكسر العين: أصل الشيء.

(٩) مناسبة: جمع نسب على غير قياس، وهو القرابة من الجانبين، أو من جانب الأب خاصة.

(١٠) قسم بفتح فسكون: مصدر قسم. وهو ما يقسمه الله بين الناس من الحظوظ والمواهب.

إذا أكمل الرحمن للمرء عقله فقد كُملت أخلاقه ومآربه^(١)
وأعلم أنه بالعقل تعرف حقائق الأمور ويفصل بين الحسنات والسيئات.
وقد ينقسم قسمين غريزي ومكتسب.

فالغريزي هو العقل الحقيقي وله حد يتعلق به التكليف لا يجاوزه إلى
زيادة ولا يقصر عنه إلى نقصان وبه يمتاز الإنسان عن سائر الحيوان فإذا تم في
الإنسان سمي عاقلاً وخرج به إلى حد الكمال كما قال صالح بن عبد
القدوس:

إذا تم عقل المرء تمت أموره وتمت أمانيه^(٢) وتم بناؤه^(٣)
وروى الضحاك^(٤) في قوله تعالى: ﴿لينذر من كان^(٥) حياً﴾ أي من
كان عاقلاً واختلف الناس فيه^(٦) وفي صفته على مذاهب شتى^(٧) فقال قوم هو
جوهر^(٨) لطيف يفصل به بين حقائق المعلومات ومن قال بهذا القول
اختلفوا في محله فقالت طائفة منهم: محله الدماغ لأن الدماغ محل الحس وقالت
طائفة أخرى منهم: محله القلب لأن القلب معدن الحياة ومادة الحواس وهذا
القول في العقل بأنه جوهر لطيف^(٩) فاسد من وجهين أحدهما أن الجواهر متماثلة

(١) مآربه: حاجاته.

(٢) أمانيه: جمع أمنية، بضم الهمزة وكسر النون وتشديد الياء، أي تحت مقاصده.

(٣) بناؤه: أي بناء جسمه، لأن فيه محل العقل.

(٤) الضحاك: هو ابن مزاحم الهلالي الخراساني، يروى عن أبي هريرة وابن عباس وابن عمر

وأنس رضي الله عنهم، وروى عنه خلق، وثقه أحمد، وابن معين، وضعفه شعبة. أخرج له

أصحاب السنن الأربع، - أي عدا النجاري ومسلم - وتوفي سنة ١٠٥ هـ.

(٥) من كان حياً: حي القلب.

(٦) فيه: أي في حقيقة العقل وما هية.

(٧) شتى: جمع شتيت: بمعنى المنفرد.

(٨) جوهر: الجوهر: هو القائم بذاته الذي يأخذ محلاً من الفراغ. ويقابله العرض، وهو ما لا

يقوم بذاته، بل يحتاج في وجوده إلى محل يقوم به.

(٩) لطيف: روحاني لا يشاهد بالأبصار كالألوان المحتاجة في وجودها إلى أجسام تحمل بها.

فلا يصح أن يوجب بعضها ما لا يوجب سائرهما^(١) ولو أوجب سائرهما ما يوجب بعضها لاستغنى العاقل بوجود نفسه عن وجود عقله والثاني أن الجوهر يصح قيامه بذاته فلو كان العقل جوهر لجاز أن يكون عقل بغير عاقل كما جاز أن يكون جسم بغير عقل فامتنع بهذين أن يكون العقل جوهرًا. وقال آخرون: العقل هو المدرك للأشياء على ما هي عليه من حقائق المعنى وهذا القول وإن كان أقرب مما قبله فبعيد من الصواب من وجه واحد وهو أن الإدراك من صفات الحي والعقل عرض يستحيل ذلك منه كما يستحيل أن يكون متلذذاً أو ألماً أو مشتتاً. وقال آخرون من المتكلمين: العقل هو جملة علوم ضرورية وهذا الحد غير محصور لما تضمنه من الإجمال وتناوله من الاحتمال والحد إنما هو بيان المحدود بما ينفي عنه الإجمال والاحتمال. وقال آخرون وهو القول الصحيح: إن العقل هو العلم بالمدرجات الضرورية وذلك نوعان أحدهما ما وقع عن درك الحواس والثاني ما كان مبتدأ في النفوس. فأما ما كان واقعاً عن درك الحواس فمثل المرئيات المدركة بالنظر والأصوات المدركة بالسمع والطعوم المدركة بالذوق والروائح المدركة بالشم والأجسام المدركة باللمس فإذا كان الإنسان ممن لو أدرك بحواسه هذه الأشياء لعلم ثبت له هذا النوع من العلم لأن خروجه في حال تغميض عينيه من أن يدرك بهما ويعلم لا يخرج من أن يكون كامل العقل من حيث علم من حاله أنه لو أدرك لعلم. وأما ما كان مبتدأ في النفوس فكالعلم بأن الشيء لا يخلو من وجود أو عدم وأن الموجود لا يخلو من حدوث أو قدم وأن من المحال اجتماع الضدين وأن الواحد أقل من الاثنين وهذا النوع من العلم لا يجوز أن ينتفي عن العاقل مع سلامة حاله وكمال عقله فإذا صار عالماً بالمدرجات الضرورية من هذين النوعين فهو كامل العقل. وسمي بذلك تشبيهاً بعقل الناقة لأن العقل يمنع الإنسان من الإقدام على شهواته إذا قبحت كما يمنع العقول الناقة من الشرود^(٢) إذا نفرت ولذلك قال عامر بن عبد القيس: إذا عقلك عقلك عما لا ينبغي فأنت عاقل وقد جاءت السنة بما يؤيد هذا القول في العقل وهو ما

(١) سائرهما: باقيها.

(٢) الشرود: على وزن عقود: الفرار.

روى النبي ﷺ أنه قال: «العقل نور في القلب يفرق به بين الحق والباطل» وكل من نفى أن يكون العقل جوهرًا أثبت محله في القلب لأن القلب محل العلوم كلها. قال الله تعالى: ﴿أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها﴾ فدللت هذه الآية على أمرين أحدهما أن العقل علم والثاني أن محله القلب. وفي قوله تعالى: يعقلون بها تأويلان أحدهما يعلمون بها والثاني يعتبرون بها فهذه جملة القول في العقل الغريزي. وأما العقل المكتسب فهو نتيجة العقل الغريزي وهو نهاية المعرفة وصحة السياسة وإصابة الفكرة وليس لهذا حد لأنه ينمو إن استعمل وينقص إن أهمل وثمرته يكون بأحد وجهين إما بكثرة الاستعمال إذا لم يعارضه مانع من هوى ولا صاد من شهوة كالذي يحصل لذوي الأسنان من الحنكة^(١) وصحة الروية^(٢) بكثرة التجارب وممارسة الأمور ولذلك حدثت العرب آراء الشيوخ حتى قال بعضهم: المشايخ أشجار الوقار^(٣) ومنابع الأخبار لا يطيش^(٤) لهم سهم ولا يسقط لهم وهم^(٥) إن رأوك في قبيح صدوك وإن أبصروك على جميل أمدوك. وقيل: عليكم بآراء الشيوخ فإنهم إن فقدوا ذكاء الطبع فقد مرت على عيونهم وجوه العبر وتصدت^(٦) لأسماعهم آثار الغير^(٧). وقيل في منشور الحكم: من طال عمره نقصت قوة بدنه وزادت قوة عقله. وقيل فيه: لا تدع الأيام جاهلاً إلا أدبته. وقال بعض الحكماء: كفى بالتجارب تأديباً ويتقلب الأيام عظة. وقال بعض البلغاء: التجربة مرآة العقل والغرة^(٨) ثمرة الجهل. وقال بعض الأدباء: كفى مخبراً

(١) الحنكة: بضم الحاء: استحكام العقل، ومثانة الفكر بالتجارب.

(٢) الروية: الفكرة، يقال: هو شديد الروية أي صائب الفكر.

(٣) الوقار: الرزانة والتمكين. ويقابله الخفة.

(٤) لا يطيش لهم سهم: هو كناية عن إصابة ظنونهم وفراستهم. وطاش السهم حاد عن الهدف فلم يصبه.

(٥) وهم: الوهم: ادراك المعنى الجزئي المتعلق بالمحسوس. أي لا يخطئون في الكليات ولا في الجزئيات.

(٦) تصدت: تعرضت.

(٧) آثار الغير: وهي حوادث الدهر. ومنه الدهر ذو غير أي ذو أحداث متغيرة.

(٨) الغرة: بكسر الغين وتشديد الراء: الغفلة، أي الانخداع بالأمانى الباطلة.

عما بقى ما مضى وكفى عبراً لأولي الألباب ما جربوا. وقال بعض الشعراء:
ألم تر أن العقل زين لأهله وأن تمام العقل طول التجارب
وقال آخر:

إذا طال عمر المرء في غير آفة^(١) أفادت له الأيام في كرها عقلاً
وأما الوجه الثاني فقد يكون بفرط الذكاء وحسن الفطنة وذلك جودة
الحدس^(٢) في زمان غير مهمل^(٣) للحدس فإذا امتزج بالعقل الغريزي
صارت نتيجتهما نمو العقل المكتسب كالذي يكون في الأحداث من وفور العقل
وجودة الرأي حتى هرم بن قطبة^(٤) حين تنافر إليه عامر بن الطفيل
وعلقمة بن علاثة^(٥): عليكم بالحديث السن الحديد الذهن ولعل هرمأ أراد
أن يرفعهما عن نفسه فاعتذر بما قال لكن لم ينكرا قوله إذعانا للحق فصارا إلى
أبي جهل لحدائثه سنة وحدة ذهنه فأبى أن يحكم بينهما فرجعا إلى هرم فحكم
بينهما وفيه قال ليبد:

يا هرم ابن الأكرمين منصبا إنك قد أوتيت حكماً معجبا
وقد قالت العرب: عليكم بمشاورة الشباب فإنهم ينتجون رأيا لم ينله
طول القدم ولا استولت عليه رطوبة^(٦) الهرم. وقد قال الشاعر:
رأيت العقل لم يكن انتهابا ولم يقسم على عدد السنين
ولو أن السنين تقاسمته حوى الأباء أنصبه البنينا

(١) آفة: آفة العقل: اتباع الهوى والشهوات، وكثرة الهوموم والمشاكل.

(٢) الحدس: هو الظن، والتخمين.

(٣) مهمل: هكذا. لا مهمل، كما وقع في أكثر النسخ. مُصَحَّفًا.

(٤) هرم بن قطبة: هو ابن سنان الفزاري، حكم من حكام العرب، يقضي بين السادات
فيرضون بقضائه، ولا يرد قوله، أدرك الإسلام وله صحة.

(٥) تنافر إليه: تحاكم إليه، والمنافرة: المحاكمة بين اثنين بحضور جمع ليقضي أحد العقلاء في
أيهما أعز نفراً عامر بن الطفيل، وعلقمة بن علاثة: كل منهما سيد من سادات قومه، فارس
شاعر.

(٦) رطوبة الهرم: ضعفه لتناقص الحرارة الغريزية.

وحكى الأصمعي^(١) رحمه الله قال: قلت لغلام حدث^(٢) من أولاد العرب كان يحادثني فأمتعني^(٣) بفصاحة وملاحة: أيسرك أن يكون لك مائة ألف درهم وأنت أحق قال لا والله قال: فقلت ولم قال: أخاف أن يجني على حمقي جناية تذهب بمالي ويبقى على حمقي فانظر إلى هذا الصبي كيف استخرج بفرط ذكائه واستنبط بجودة فريخته ما لعله يدق على من هو أكبر منه سناً وأكثر تجربة. وأحسن من هذا الذكاء والفطنة ما حكى ابن قتيبة^(٤) أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه مر بصبيان يلعبون وفيهم عبد الله بن الزبير^(٥) فهربوا منه إلا عبد الله فقال له عمر رضي الله عنه: مالك لم لا تهرب مع أصحابك فقال يا أمير المؤمنين: لم أكن على ريبة فأخافك ولم يكن الطريق ضيقاً فأوسع لك فانظر ما تضمنه هذا الجواب من الفطنة وقوة المنة^(٦) وحسن البديهة^(٧) كيف نفى عنه اللوم وأثبت له الحجة فليس للذكاء غاية ولا لجودة القرينة نهاية. وحكى أن سليمان بن عبد الملك أمر الفرزدق^(٨) بضرب أعناق

(١) الأصمعي: هو أبو سعيد عبد الملك بن قريب بن علي بن أصمع كان حافظاً عالماً فطناً عارفاً بأشعار العرب وأخبارها كان يقول: أحفظ ستة عشر ألف أرجوزة توفي في البصرة سنة ٢١٦ هـ وهو ابن ٩٤ سنة.

(٢) حدث: بفتحين: الشاب، وجمعه أحداث.

(٣) فأمتعني: أفادني ونفعني.

(٤) ابن قتيبة: هو أبو محمد بن مسلم المروزي، صاحب كتاب العوارف وأدب الكاتب.

(٥) عبد الله بن الزبير بن العوام، هو أول من ولد في الإسلام للمهاجرين بالمدينة، ولدت له أمه أسماء بنت الصديق بقاء، فأنت به النبي ﷺ فوضعه في حجره، فدعا بتمرة فمضغها، ثم تفل فيه وحنكه، فكان أول شيء دخل في جوفه ريقه ﷺ، ثم دعا له وكان صواماً، قواماً. بويح له بالخلافة بعد موت يزيد بن معاوية، واجتمع على طاعته أهل الحجاز واليمن والعراق وخراسان ما عدا الشام، وجدد عمارة الكعبة وجعل لها بابين، وحج بالناس ثمانى حجج وبقي بالخلافة إلى أن حضره الحجاج بمكة سنة اثنين وسبعين، ولم يزل يحاصره إلى أن أصابته رمية حجر، فمات وصلب جسده، وحمل رأسه إلى خراسان.

(٦) المنة: بضم الميم: القوة.

(٧) البديهة: المفاجأة.

(٨) الفرزدق: همام بن غالب الشاعر المشهور صاحب جرير، لقب بالفرزدق لجهامة وجهه، وغاظه - الفرزدق: القطعة الضخمة من العجين - وكنية أبو فراس. كان كريم الآباء، شريف =

أسارى^(١) من الروم^(٢) فاستعفاه^(٣) الفرزدق فلم يفعل وأعطاه سيفاً لا يقطع شيئاً فقال الفرزدق؛ بل أضربهم بسيف أبي. رغوان مجاشع يعني سيف نفسه فقام فضرب به عنق رومي منهم فنبا^(٤) السيف عنه فضحك سليمان ومن حوله فقال الفرزدق:

أيعجب الناس أن أضحكت سيدهم خليفة الله يستسقى^(٥) به المطر
لم ينب سيفي من رعب ولا دهش عن الأسير ولكن آخر القدر
ولن يقدم نفساً قبل ميتهما جمع اليدين ولا الصمصامة^(٦) الذكر^(٧)
ثم أغمد^(٨) سيفه وهو يقول:

ما إن يعاب سيد إذا صبا^(٩) ولا يعاب صارم^(١٠) إذا نبا
* ولا يعاب شاعر إذا كبا^(١١) *

ثم جلس وهو يقول كأني بآبن المراغة^(١٢) قد هجاني^(١٣) فقال:

= البيت، شيعياً ماثلاً لبني هاشم، ونزع في آخر عمره عما كان عليه من الفسق والقذف، وراجع طريقة الدين، ومات بالبادية سنة ١١٠ هـ .

- (١) أسارى: على وزن سكارى. جمع أسير.
- (٢) الروم: يتنسبون إلى روم بن عيصويه اسحق عليه السلام.
- (٣) فاستعفاه: طلب عفوّه عن القتل والضرب.
- (٤) فنبا: كلّ وارتدّ، ولم يمض في عنق الرومي.
- (٥) يستسقى به المطر: يطلب به الغيث.
- (٦) الصمصامة: السيف الذي لا ينثني.
- (٧) الذكر: نعت للسيف، وهو أجود الحديد والفولاذ.
- (٨) غمد سيفه: جعله في الغمد.
- (٩) صبا: مال إلى جهة الفتوة والصابوة.
- (١٠) صارم: الصارم السيف القاطع.
- (١١) كبا: زل لسانه، أو حصر ولم يتكلم.
- (١٢) المراغة: لقب جرير، لقبه به الفرزدق أو الأخطل تحقيراً له، لأن المراغة معناها الأتان التي لا تمنع الفحولة بل تطلبها.
- (١٣) هجاني: رماني بالجين.

بسيف أبي^(١) رغوان سيف مجاشع ضربت ولم تضرب بسيف ابن ظالم^(٢)
ثم قام فانصرف وحضر جرير وخبر بالخبر ولم ينشد له الشعر فأنشأ
يقول:

بسيف أبي رغوان سيف مجاشع ضربت ولم تضرب بسيف ابن ظالم
ثم قال يا أمير المؤمنين كأي بابن القين^(٣) وقد أجابني فقال:
ولا نقتل الأسرى ولكن نفكهم إذا أثقل الأعناق حمل المغارم^(٤)
فاستحسن سليمان حدس الفرزدق على جرير ثم أخبر الفرزدق بشعر
جرير ولم يخبر بحدسه فقال الفرزدق:

كذلك سيوف الهند تنبوظباتها^(٥) وتقطع أحياناً مناط التمام^(٦)
ولن نقتل الأسرى ولكن نفكهم إذا أثقل الأعناق حمل المغارم
وهل ضربة الرومي جاعلة لكم أباعن كليب^(٧) أو أخأ مثل دارم^(٨)

فشاع حديث الفرزدق بهذا حتى حكى أن المهدي أتى بأسرى من الروم
فأمر بقتلهم وكان عنده شبيب بن شيبة^(٩) فقال له: إضرب عنق هذا
(١) أبي رغوان: كنية مجاشع جد الفرزدق.

(٢) سيف بن ظالم: هو سيف يزيد بن الملهب بن أبي صفرة.
وأبو صفرة: هو ظالم بن سراقه بن كندي. وكان الملهب وبنوه من أكبر القواد في الدولة
الأموية وهو صاحب حروب الأزارقة، وولاه عبد الملك خراسان بعد الأزارقة سنة ٧٩ ومات
سنة ٨٣.

(٣) ابن القين: هو الفرزدق. والقين الحداد، لقبه به جرير.

(٤) المغارم: جمع مغرم، وهو ما يلزم أدائه كالدين.

(٥) ظبائها: جمع ظبة بالضم مثل ثبة، وهو حد السيف الذي يضرب به.

(٦) التمام: جمع تميمة، وهي الخرزات التي تعلق على الصبي لدفع النظر، وإصابة العين،
والمناطق اسم مكان من ناط به إذا علق عليه. أي وتقطع أحياناً الأعناق مع أعالي الصدور.

(٧) كليب: أخو مهلهل الشاعر، وخال امرئ القيس، وكان أعز الناس في العرب، يضرب به
المثل فيقال: أعز من كليب.

(٨) دارم: هو ابن مالك بن حنظلة التميمي، وهو أبو مجاشع، وبيته أكبر بيوت بني تميم.

(٩) شبيب بن شيبة: عده الجاحظ من الخطباء. ابتداءً بحلاوة ورشاقة، وسهولة وعذوبة، فلم =

العلج^(١) فقال يا أمير المؤمنين قد علمت ما ابتلى به الفرزدق فغير به قومه إلى اليوم فقال: إنما أردت تشريفك وقد أعفيتك وكان أبو الهول الشاعر حاضراً فقال:

جزعت من الرومي وهو مقيد فكيف ولو لاقسيته وهو مطلق
دعاك أمير المؤمنين لقتله فكاد شبيب عند ذلك يفرق^(٢)
فنج شبيباً عن قراع كتيبة^(٣) وأدن شبيباً من كلام يلفق

وليس العجب من كلام الفرزدق ان صح من جودة القريحتين ولكن من اتفاق الخاطرين ولثل ذلك قالت الحكماء: آية العقل سرعة الفهم وغايته اصابة الوهم وليس لمن منح جودة القريجة وسرعة الخاطر عجز عن جواب وإن أعضل^(٤) كما قيل لعلي رضي الله عنه: كيف يحاسب الله العباد على كثرة عددهم فقال: كما يرزقهم على كثرة عددهم وقيل لعبد الله بن عباس: أين تذهب الأرواح إذا فارقت الأجساد فقال: أين تذهب نار المصابيح عند فناء الأدهان وهذان الجوابان جوابا إسكات تضمننا دليلا إذعان وحجتي قهر. ومن غير هذا الفن وإن كان مسكناً ما حكى عن إبليس لعنه الله أنه حين ظهر لعيسى بن مريم عليه السلام قال: ألسنت تقول إنه لن يصيبك إلا ما كتبه الله عليك قال نعم قال: فارم نفسك من ذروة^(٥) هذا الجبل فإنه إن يقدر لك السلامة تسلم فقال له: يا ملعون إن لله أن يختبر عباده وليس للعبد أن يختبر ربه ومثل هذا الجواب لا يستغرب من أنبياء الله تعالى الذين أمدهم بوحية وأيدهم بنصره وإنما يستغرب ممن يلجأ إلى خاطره ويعول^(٦) على بديته. وروى

= يزل يزداد منها حتى صار في كل موقف يبلغ بقليل الكلام ما لا يبلغه الخطباء المصاقع بكثيره.

(١) العلج: بكسر فسكون.

(٢) يفرق: يفزع ويضطرب.

(٣) الكتيبة: العسكر من المائة إلى الألف.

(٤) أعضل اشتد وأشكل.

(٥) ذروة الجبل: أعلاه: بضم الذال وكسرهما.

(٦) يعول: يعتمد.

قثم^(١) بن العباس رضي الله عنهما قال: قيل لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه كم بين السماء والأرض قال: دعوة مستجابة قيل فكم بين المشرق والمغرب قال: مسيرة يوم للشمس فكان هذا السؤال من سائله إما اختياراً وإما استبصاراً فصدر عنه من الجواب ما أسكت. فأما إذا اجتمع هذان الوجهان في العقل المكتسب وهو ما ينميهِ فرط الذكاء بجودة الحدس وصحة القرينة بحسن البديهة مع ما ينميهِ الإستعمال بطول التجارب ومرور الزمان بكثرة الاختبار فهو العقل الكامل على الإطلاق في الرجل الفاضل بالاستحقاق. روى أنس بن مالك رضي الله عنه قال: أثنى على رجل عند رسول الله ﷺ بخير فقال: كيف عقله قالوا يا رسول الله: إن من عبادته إن من خلقه إن من فضله إن من أدبه فقال كيف عقله قالوا يا رسول الله: نثني عليه بالعبادة وأصناف الخير وتساءلنا عن عقله فقال رسول الله ﷺ: إن الأحق العابد يصيب بجهله أعظم من فجور الفاجر وإنما يقرب الناس من ربهم بالزلف^(٢) على قدر عقولهم. واختلف الناس في العقل المكتسب إذا تناهى وزاد هل يكون فضيلة أم لا فقال قوم: لا يكون فضيلة لأن الفضائل هيئات متوسطة بين فضيلتين ناقصتين كما أن الخير متوسط بين زديلتين^(٣) فما جاوز المتوسط خرج عن حد الفضيلة وقد قالت الحكماء لاسكندر: أيها الملك عليك بالاعتدال في كل الأمور فإن الزيادة عيب والنقصان عجز هذا مع ما وردت به السنة عن رسول الله ﷺ أنه قال: خير الأمور أوسطها^(٤). وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: خير الأمور النمط^(٥) الأوسط إليه يرجع العالي وبه يلحق التالي. وقال الشاعر:

(١) قثم: على وزن زُفَر: وأصله كثير العطاء.

(٢) بالزلف: جمع زلفة بضم الزاي، وهي الدرجة الرفيعة والقربة.

(٣) بين زديلتين: هما الإفراط والتفريط.

(٤) أوسطها: جمع وسط بفتح السين.

(٥) النمط: بفتحتين: الأسلوب والطريقة.

لا تذهبن في الأمور فرطاً^(١) لا تسألن إن سألت شططاً^(٢)
وكن من الناس جميعاً وسطاً

قالوا: لأن زيادة العقل تفضي بصاحبها إلى الدهاء والمكر وذلك مذموم وصاحبه ملوم وقد أمر عمر بن الخطاب رضي الله عنه أبا موسى^(٣) الأشعري أن يعزل زيادا عن ولايته فقال زياد: يا أمير المؤمنين أعن موجدة^(٤) أو خيانة فقال لا عن واحدة منها ولكن خفت أن أحمل على الناس فضل عقلك. ولأجل هذا المحكي عن عمر ما قيل قديماً إفراط العقل مضر بالجسد وقال بعض الحكماء: كفاك من عقلك ما ذلك على سبيل رشدك. وقال بعض البلغاء: قليل يكفي خير من كثير يطغى^(٥). وقال آخرون وهو أصح القولين: زيادة العقل فضيلة لأن المكتسب غير محدود وانما تكون زيادة الفضائل المحدودة نقصاً مذموماً لأن ما جاوز الحد لا يسمى فضيلة كالشجاع اذا زاد على حد الشجاعة^(٦) نسب إلى التهور^(٧) والسخي إذا زاد على حد السخاء^(٨) نسب إلى التبذير^(٩) ولبس كذلك حال العقل المكتسب لأن

(١) فرطاً: بفتحين يستوي فيه المفرد والجمع، المتقدم السابعة ويضمّتين الأمر المجاوز فيه حده، ومنه قوله تعالى «وكان أمره فرطاً».

(٢) شططاً: الشطط: مجاوزة الحد، والتباعد عن الحق، كمن يسأل للإعنات والتبكيث.

(٣) أبو موسى الأشعري: هو عبد الله بن قيس الأشعري الصحابي الكبير، استعمله رسول الله على زييد، واستعمله عمر على الكوفة والبصرة. له ثلاثمائة وستون حديثاً. روى عنه أنس ابن مالك، وخلق من التابعين. مات بمكة أو بالكوفة سنة (٤٥) عن ٦٣ سنة. رضي الله عنه.

(٤) موجدة: بفتح الميم وكسر الجيم: غضب.

(٥) يطغى: الطغيان مجاوزة الحد.

(٦) الشجاعة: هيئة حاصلة للقوة الغضبية بين التهور والجبن، بها يقدم على أمور ينبغي أن يقدم عليها كالقتال مع الكفار، ما لم يزدوا على ضعف المسلمين.

(٧) التهور: هيئة حاصلة للقوة الغضبية بها يقدم على أمور، لا ينبغي أن يقدم عليها كالقتال مع الكفار إذا كانوا زائدين على ضعف المسلمين.

(٨) السخاء: بذل ما يحتاج إليه عند الحاجة، وأن يوصل إلى مستحقه بقدر الطاقة.

(٩) التبذير: هو الجهل بمواقع الحقوق.

الزيادة فيه زيادة علم بالأمر وحسن إصابة بالظنون ومعرفة ما لم يكن إلى ما يكون وذلك فضيلة لا نقص. وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: أفضل الناس أعقل الناس. وروي عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: العقل حيث كان ألوف مألوف وقد قيل في تأويل قوله تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكَلْتِهِ﴾^(١) أي بحسب عقله. وقال القاسم بن محمد^(٢): كانت العرب تقول من لم يكن عقله أغلب خصال الخير عليه كان حقه في أغلب خصال الخير عليه. وقيل في منشور الحكم: كل شيء إذا كثرت رخص إلا العقل فإنه إذا كثر غلا. وقال بعض البلغاء: إن العاقل من عقله في إرشاد ومن رأيه في إمداد فقله سديد وفعله حميد والجاهل من جهله في إغواء ومن هواه في إغراء فقله سقيم وفعله ذميم. وأنشدني ابن كنك^(٣) لابي:

من لم يكن أكثره^(٤) عقله أهلكه أكثر ما فيه
أما الدهاء والمكر فهو مذموم لأن صاحبه صرف فضل عقله إلى الشر ولو صرفه إلى الخير لكان محموداً. وقد ذكر المغيرة بن شعبه^(٥) عمر بن الخطاب فقال: كان والله أفضل من أن يخدع وأعقل من أن يخدع وقال عمر: لست بالخب^(٦) ولا يخدعني الخب. واختلف الناس فيمن صرف فضل عقله

(١) على شاكلته: على مذهبه وطريقته التي تشاكل حالته في الهوى والضلالة.

(٢) القاسم بن محمد: بن أبي بكر الصديق، المدني، أفضل أهل زمانه كان ثقة عالماً: فقيهاً من الفقهاء النسبة بالمدينة إماماً ورعاً من خيار التابعين. مات سنة بضع ومائة.

(٣) ابن كنك: أبو الحسين البصري، كان رفيع القدر في الأشعار والعربية والأدب. كان من الشعراء العباسيين.

(٤) أكثره: أي أكثر خصاله.

(٥) المغيرة بن شعبه: أبو عبد الله بن عامر الثقفي، وهو من دهاة العرب وقد أحسن في الإسلام ألف امرأة، وقد أصيب بعينه في اليرموك، وحضر في اليمامة، وفتح الشام، وهاوند وهمدان، واستعمله عمر على البصرة، ثم على الكوفة، ثم استعمله معاوية على الكوفة إلى أن توفي فيها سنة ٥٠ هـ.

(٦) الخب: بالفتح والكسر الرجل الخداع. نقول منه: خبيت يا رجل بالكسر خباً بالكسر أيضاً. هـ مختار.

إلى الشر كزياد^(١) وأشباهه من الدهاة هل يسمى الداهية منهم عاقلاً أم لا فقال بعضهم: أسميه عاقلاً لوجود العقل فيه وقال آخرون: لا أسميه عاقلاً حتى يكون خيراً ديناً لأن الخير والدين من موجبات العقل فأما الشرير فلا أسميه عاقلاً وإنما أسميه صاحب روية وفكر وقد قيل: العاقل من عقل عن الله أمره ونهيه حتى قال أصحاب الشافعي^(٢) رضي الله عنه فيمن أوصى بثلاث ماله لأعقل الناس: انه يكون مصروفاً في الزهاد لأنهم انقادوا للعقل ولم يغتروا بالأمل. وروى لقمان بن أبي عامر عن أبي الدرداء^(٣) أن رسول الله

(١) كزياد: ابن أبيه. أمير، من الدهاة القادة الفاتحين الولاة من أهل الطائف. اختلفوا في اسم أبيه، فقيل: عبيد الله الثقفي، وقيل: أبو سفیان. ولدته أمه سمية في الطائف، وتبناه عبيد الثقفي (مولى الحارث بن كلدة) وأدرك النبي ﷺ ولم يره، وأسلم في عهد أبي بكر، وكان كاتباً للمغيرة بن شعبة، ثم لأبي موسى الأشعري أيام امرته على البصرة، ثم ولاء علي ابن أبي طالب إمرة فارس، ولما توفي علي امتنع زياد على معاوية، وتحصن في قلاع فارس، وتبين لمعاوية أنه أخوه من أبيه (أبي سفیان) فكتب إليه بذلك، فقدم زياد عليه، وألحقه معاوية بنسبه سنة ٤٤ هـ فكان عضده الأقوى، وولاه البصرة والكوفة وسائر العراق، فلم يزل في ولايته إلى أن توفي سنة ٥٣ هـ ولم يخلف غير ألف دينار. قال الشعبي: ما رأيت أحداً أخطب من زياد.

عمر بن العاص: بن وائل السهمي القرشي، أبو عبد الله، فاتح مصر، وأحد عظماء العرب ودهاتهم، وأولى الرأي والحزم والمكيدة فيهم. كان في الجاهلية من الأشداء على الإسلام، وأسلم في هجرة الحديبية، وولاه النبي ﷺ إمرة جيش (ذات السلاسل) وأمه بأبي بكر وعمر، ثم استعمله على عمان، ثم كان من أمراء الجيوش في الجهاد بالشام في زمن عمر، وهو الذي افتتح قيسرين، وصالح أهل حلب ومنبج وأنطاكية، وولاه عمر فلسطين، ثم مصر فافتتحها، وعزله عثمان. ولما كانت الفتنة بين علي ومعاوية كان مع معاوية، فولاه معاوية على مصر سنة ٣٨ هـ توفي بالقاهرة ٤٣ هـ.

(٢) الشافعي: محمد بن ادريس. أبو عبد الله أحد الأئمة الأربعة وإليه نسبة الشافعية كافة. ولد في غزة (بفلسطين) وحمل منها إلى مكة وهو ابن ستين، وزار بغداد مرتين وقصد مصر سنة ١٩٩ فتوفي بها، وقبره معروف في القاهرة.

قال المبرد: «كان الشافعي أشعر الناس وأدبهم وأعرفهم بالفقه والقراءات» كان ذكياً مفرطاً، له تصانيف كثيرة، أشهرها كتاب «الأم». توفي سنة ٢٠٤ هـ.

(٣) أبو الدرداء: اسمه عويمر بن زيد الانصاري، من أفاضل الصحابة، وفرض له عمر رزقاً لجلالته، وولى قضاء دمشق في خلافة عثمان، ومات بها.

صلى الله عليه وسلم قال: يا عويمر ازدد عقلاً تزدد من ربك قرباً قلت بأبي أنت وأمي ومن^(١) لي بالعقل قال: اجتنب محارم الله وادّ فرائض الله تكن عاقلاً ثم تنفل^(٢) بصالحات الأعمال تزدد في الدنيا عقلاً وتزدد من ربك قرباً وبه عزاً. وأنشدني بعض أهل الأدب هذه الأبيات وذكر أنها لعلّي بن أبي طالب رضي الله عنه:

إن المكارم أخلاق مطهرة	فالعقل أولها والدين ثانيها
والعلم ثالثها والحلم رابعها	والجود خامسها والعرف سادسها
والبر سابعها والصبر ثامنها	والشكر تاسعها واللين عاشيها
والنفس تعلم اني لا أصدّقها	ولست أرشد إلا حين أعصيها
والعين تعلم من عيني محدّثها	إن كان من حزبيها ^(٣) أو من أعاديها
عينك قد دلتا عيني منك على	أشياء لولاهما ما كنت تبديها

واعلم أن العقل المكتسب لا ينفك عن العقل الغريزي لأنه نتيجة منه وقد ينفك العقل الغريزي عن العقل المكتسب فيكون صاحبه مسلوب الفضائل موفور الرذائل كالأنوك^(٤) الذي لا تجد له فضيلة والأحمق الذي قلما يخلو من رذيلة: وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال: الأحمق كالفخار^(٥) لا يرقع ولا يشعب^(٦) وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: الأحمق أبغض خلق الله إليه إذ حرمه أعز الأشياء^(٧) عليه. وقال بعض الحكماء: الحاجة إلى العقل أقبح من الحاجة إلى المال. وقال بعض البلغاء:

-
- (١) ومن لي: الاستفهام للاستبعاد، أي من يتكفل ويضمن لي؟
(٢) النفل: الزيادة مطلقاً في أي شيء. وفي الشرع: اسم لما شرع زيادة على الفرائض والواجبات. وقد يسمى المندوب والمستحب والتطوع.
(٣) الحزب: بكسر فسكون: الأصحاب المعينة، والجند المخصوصون.
(٤) الأنوك: مثل الأحمق لفظاً ومعنى.
(٥) الفخار: الخزف.
(٦) لا يشعب: لا يصلح.
(٧) حرمه أعز الأشياء عليه: أي حرمه العقل.

دولة الجاهل عبرة العاقل^(١) وقال أنو شروان^(٢) لبزرجمهر^(٣): أي الأشياء خير للمرء قال: عقل يعيش به قال: فإن لم يكن قال: فإخوان يسترون عيه قال: فإن لم يكن قال: فمال يتحبب به الى الناس قال: فإن لم يكن قال: فعى^(٤) صامت قال: فإن لم يكن قال: فموت جارف. وقال سابور بن^(٥) أردشير: العقل نوعان: احدهما مطبوع والآخر مسموع ولا يصلح واحد منهما إلا بصاحبه فأخذ ذلك بعض الشعراء فقال:

رأيت العقل نوعين	فمسموع ومطبوع
ولا ينفع مسموع	إذا لم يك مطبوع
كما لا تنفع الشمس	وضوء العين ممنوع

وقد وصف بعض الأدباء العاقل بما فيه من الفضائل والأحق بما فيه من الرذائل فقال العاقل: إذا والى بذل في المودة نصره وإذا عادى رفع عن الظلم قدره فيسعد مواليه بعقله ويعتصم معاديه بعدله إن أحسن إلى أحد ترك المطالبة بالشكر وإن أساء إليه مسيء سبب له أسباب العذر أو منحه الصفح والعفو والأحق ضالّ مضلّ إن أونس تكبر وإن أوحش تكدر وإن استنطق تخلف^(٦) وإن ترك تكلف مجالسته مهنة^(٧) ومعاتبته محنة ومحاورته تعر^(٨)

(١) يعتبر بها: أي ليعلم أن الحظوظ ليست بالكسب والاستحقاق بل بمحض خلق الله وإحسانه، غير أنه لا بد من الجهد والسعي.

(٢) أنو شروان: الملك، العادل ملك العرب والعجم، وكان موصوفاً بالعدل، معروفاً بحسن الدعابة والفضل. ملك ٤٩ سنة.

(٣) بزرجمهر: كان وزير أنو شروان، وأكثر الفرس حكماً ومواعظ.

(٤) فعى: عدم الاهتمام إلى التكلم.

(٥) سابور: اسم ملك من ملوك الفرس، معرب شابور، مخفف عن شاه بور، وهو سابور بن أردشير بن بابل.

(٦) تخلف: نطق بالخلاف.

(٧) مهنة: نوع من الحفارة للجليس.

(٨) تعر: والعُر بالضم: الحرب، والمراد لازمه أي توجب الفم وضيق الصدر وانكسار القلب. وهو هكذا في منهاج اليقين. خلاف ما في طبعة الحلبي «تفر».

وموالاته تضر ومقاربتة عمى ومقارنته شقا. وكانت ملوك الفرس إذا غضبت على عاقل حبسته مع جاهل والأحمق يسيء إلى غيره ويظن أنه قد أحسن إليه فيطالبه بالشكر ويحسن إليه فيظن أنه قد أساء إليه فيطالبه بالوتر^(١) فمساوىء الأحمق لا تنقضي وعيوبه لا تنتهى ولا يقف النظر منها إلى غاية إلا لوحث^(٢) ما وراءها بما هو أدنى منها وأردى وأمر وأدهى فما أكثر العبر لمن نظر وأنفعها لمن اعتبر. وقال الأحنف^(٣) بن قيس: من كل شيء يحفظ الأحمق إلا من نفسه وقال بعض البلغاء: إن الدنيا ربما أقبلت على الجاهل بالاتفاق وأدبرت عن العاقل بالاستحقاق فإن أتتك منها^(٤) سهمة مع جهل أو فاتتك منها بُغية^(٥) مع عقل فلا يحملنك ذلك على الرغبة في الجهل والزهد في العقل فدولة الجاهل من الممكنات ودولة العاقل من الواجبات وليس من أمكنه شيء من ذاته كمن استوجبه بآلته وأدواته وبعد فدولة الجاهل كالغريب الذي يحن^(٦) إلى النقلة ودولة العاقل كالنسيب^(٧) الذي يحن إلى الوصلة فلا يفرح المرء بحالة جليلة نالها بغير عقل أو منزلة رفيعة حلها بغير فضل فإن الجهل ينزله منها ويزيله عنها ويحطه إلى رتبته ويرده إلى قيمته بعد أن تظهر عيوبه وتكثر ذنوبه ويصير مادحه حاجياً ووليه معادياً. واعلم أنه بحسب ما ينتشر من فضائل العاقل كذلك يظهر من رذائل الجاهل حتى يصير مثلاً في الغابرين وحديثاً في الآخرين مع هتكه في عصره وقبح في دهره كالذي رواه عطاء عن جابر قال: كان في بني إسرائيل رجل له حمار فقال يا رب: لو كان لك حمار لعلفته مع

(١) الوتر: بكسر الواو: الحقد والبغض.

(٢) لوحث: لمعت بما وراءها. أي كشفت عما وراءها.

(٣) الأحنف بن قيس: اسمه الضحاك، وقيل: صخر، ويكنى أبا بحر أدرك النبي ﷺ ولم يره، وسمع علياً وعمر والعباس وغيرهم، وروى عنه الحسن وغيره. وسمي الأحنف لأن أمه كانت ترقصه وهو طفل وتقول:

والله لولا حنفي في رجله ما كان في فتيانكم من مثله

ويضرب به المثل في الحلم والسيادة. مات بالكوفة سنة ٦٧ هـ.

(٤) سُهْمَة: على وزن غرفة: النصيب.

(٥) بُغْيَة: بكسر الباء وضمها: المطلوب والحاجة.

(٦) يحن: يشفق.

(٧) النسيب: أحد أفراد العائلة. وعكسه الغريب: أي الأجنبي.

حماري فهم به نبي من بني إسرائيل فأوحى الله إليه إنما أثيب كل إنسان على قدر عقله. واستعمل معاوية رجلاً من كلب^(١) فذكر المجوس^(٢) يوماً عنده فقال: لعن الله المجوس ينكحون أمهاتهم والله لو أعطيت عشرة آلاف درهم ما نكحت أُمي فبلغ ذلك معاوية فقال: قبحه الله أترونيه لو زادوه فعل وعزله وولى الربيع العامري (وكان من النوكي^(٣)) سائر اليمامة فأقاد كلباً^(٤) بكلب فقال فيه الشاعر:

شهدت بأن الله حق لقاءه وأن الربيع العامري رقيق^(٥)
أقاد لنا كلباً بكلب ولم يدع دماء كلاب المسلمين تضيع
وليس لمعار^(٦) الجهل غاية ولا لمضار الحمق نهاية قال الشاعر:

لكل داء دواء يستطب به إلا الحماقة أعيت^(٧) من يداويها
(فصل) وأما الهوى^(٨) فهو عن الخير صا^(٩) وللعقل مضاد لأنه ينتج من

الأخلاق قبائحها ويظهر من الأفعال فصائحها ويجعل ستر المروءة مهتوكاً ومدخل الشر مسلوكة. قال عبد الله بن عباس^(١٠) رضي الله عنهما: الهوى إله
(١) كلب: علم قبيلة.

(٢) المجوس: على وزن صبور، معرب منج كوش أي صغير الأذن، كان علم شخص، اخترع عبادة النار ووضعها، ودعا الناس إليها، ثم سمي أتباعه بالمجوس.

(٣) النوكي: على وزن سكري جمع أنوك.

(٤) فأقاد كلباً بكلب: أي قتل الكلب القاتل بدل الكلب المقتول قصاصاً.

(٥) رقيق: أحق، كأن عقله مرقع. أو محتاج إلى الرقعة لخرقه.

(٦) لمعار: المعار جمع معرة: الضر والعار.

(٧) أعيت: أعجزت طبيعتها المداوي لامتناع تداويها.

(٨) الهوى: ميل النفس إلى خلاف ما يقتضيه الشرع، لأنه يهوي بصاحبه إلى الداهية في الدنيا، والهاوية في العقبى. فهو من هوى يهوي هويّاً بضم الهاء. أي سقط.

(٩) صا: مانع وصارف.

(١٠) عبد الله بن عباس: بن عبد المطلب القرشي الهاشمي، أبو العباس حبر الأمة، الصحابي الجليل، ولد بمكة، ونشأ في بدء عصر النبوة، فلازم رسول الله ﷺ وروى عنه الأحاديث الصحيحة، وشهد مع علي رضي الله عنه الجمل وصفين، وكف بصره في آخر عمره، فسكن الطائف، وتوفي بها. سنة ١١٨ هـ له في الصحيحين ١٦٦٠ حديثاً. قال ابن مسعود: نعم ترجمان القرآن ابن عباس. كان آية في الحفظ، أنشده ابن ربيعة قصيدته التي مطلعها: «إن آل نعم أنت غاد فمبكر» فحفظها في مرة واحدة، وهي ثمانون بيتاً.

يعبد من دون الله ثم تلا ﴿أَفَرَأَيْتَ مِنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ وقال عكرمة ^(١) في قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ كُنْتُمْ تَقْتُمُونَ أَنْفُسَكُمْ﴾ يعني بالشهوات ﴿وَتَرَبَّصْتُمْ﴾ يعني بالتوبة ﴿وَارْتَبْتُمْ﴾ يعني في أمر الله ﴿وَعَرَّيْتُمْ الْأُمَانِي﴾ يعني بالتسويق ﴿وَحَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ يعني الموت ﴿وَعَرَّيْتُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورَ﴾ يعني الشيطان. وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: طاعة الشهوة داء وعصيانها دواء وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: اقدعوا ^(٢) هذه النفوس عن شهواتها فإنها طلالة ^(٣) تنزع ^(٤) إلى شر غاية إن هذا الحق ثقیل مری ^(٥) وأن الباطل خفيف وبي ^(٦) وترك الخطيئة خير من معالجة التوبة ورب نظرة زرعت شهوة وشهوة ساعة أورثت حزناً طويلاً. وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: أخاف عليكم اثنين اتباع الهوى وطول الأمل فإن اتباع الهوى يصد عن الحق وطول الأمل ينسى الآخرة. وقال الشعبي: إنما سمي الهوى هوى لأنه يهوي بصاحبه. وقال أعرابي: الهوى ^(٧) هوان ولكن غلط باسمه فأخذه الشاعر وقال:

ان الهوان هو الهوى قلب اسمه فاذا هويت فقد لقيت هوانا

(١) عكرمة: مولى ابن عباس، هو أبو عبد الله المدني، أصله من البربر، من أهل المغرب، سمع مولاه، وعبد الله بن عمر وخلقا من الصحابة وكان من العلماء في زمانه بالعلم والقرآن، وسمع عنه خالد الحذاء، وأيوب وخلق، وتكلم عليه لرأيه رأي الخوارج. وكان جوالاً في البلاد، مات بالمدينة سنة ١٠٧ هـ ومات في يومه كثير الشاعر فقيلاً: مات اليوم أفقه الناس، وأشعر الناس.

(٢) اقدعوا: بالبدال المهملة، أمر من قدعه مثل ضعه لفظاً ومعنى.

(٣) طَّلعة: بضم ففتحتين مثل همزة، يقال: نفس طلعة إذا كانت تكثر التطلع إلى الشيء، يعني كثرة الميل إلى ما تشتهيه.

(٤) تنزع: تميل وتسرع.

(٥) مَرِيٌّ: على وزن دُرى. والمرى: دواء معروف بين الأطباء، به الحق.

(٦) وَبِيٌّ: على وزن ورى. أي من طبعه الإهلاك كالوباء، والياء في مري وبي لنسبة المشبه إلى المشبه به.

(٧) هوان: بالفتح: ذل وخزي.

وقيل في منشور الحكم: من أطاع هواه أعطى عدوه مناه^(١). وقال بعض الحكماء: العقل صديق مقطوع^(٢) والهوى عدو متبوع^(٣) وقال بعض البلغاء: أفضل الناس من عصى هواه وأفضل منه من رفض ديناه. وقال هشام بن عبد الملك^(٤) بن مروان:

إذا أنت لم تعص الهوى قاذك الهوى إلى كل ما فيه عليك مقال
قال ابن المعتز رحمه الله: لم يقل هشام بن عبد الملك سوى هذا البيت
وقال الشاعر:

إذا ما رأيت المرء يقتاده الهوى فقد ثكلته عند ذاك ثواكله^(٥)
وقد أشمت^(٦) الأعداء جهلاً بنفسه وقد وجدت فيه مقالاً عواذله^(٧)
وما يردع النفس اللجوج^(٨) عن الهوى من الناس إلا حازم الرأي كامله
ولما كان الهوى غالباً وإلى سبيل المهالك مورداً جعل العقل عليه رقيباً

(١) مناه: أي أنواع ما قصده وأراده عدوه منه.

(٢) مقطوع: يقطعه كثير من الناس لمنعه عن الشهوات.

(٣) متبوع: يتبعه كثير من الناس لاغرائه على الشهوات.

(٤) هشام بن عبد الملك: بن مروان: من ملوك الدولة الأموية في الشام، ولد بدمشق، وبويع فيها بعد وفاة أخيه يزيد سنة ١٠٥هـ وخرج عليه زيد بن علي بن الحسين سنة ١٢٠ بأربعة عشر ألفاً من أهل الكوفة، فوجه إليه من قتله وقل جمعه. ونشبت في أيامه حرب هائلة مع خاقان الترك فيها وراء النهر، انتهت بمقتل خاقان، واستيلاء العرب على بعض بلاده، واجتمع في خزائنه من المال ما لم يجتمع في خزانة أحد من ملوك بني أمية في الشام، وبني الرصافة (على أربعة فراسخ من...) وهي غير رصافتي بغداد والبصرة، وكان يسكنها في الصيف وتوفي فيها سنة ١٢٥هـ وكان حسن السياسة، يقطاً في أمره، يباشر الأعمال بنفسه. من كلامه: «ما بقي عليّ من لذات الدنيا إلا أخ أرفع مؤنة التحفظ بيني وبينه». وهو عاشر ملوك الدولة الأموية.

(٥) ثواكله: جمع ثاكلة، يقال: ثكل فلان الحبيب، أو الولد إذا فقد، وبابه علم.

(٦) أشمت الأعداء...: جعل أعداءه فرحين لجهالته.

(٧) عواذله: جمع عاذلة. والعدل الملامة، وقد عذله من باب نصر.

والاسم العذل بفتح الحاء، أسند الثكل والعدل إلى جماعة النساء لأنها من الأوصاف الغالبة فيهن.

(٨) اللجوج: كصبور: صيغة مبالغة من اللجاج، وهو العناد والتمادي فيما هو ممنوع.

جَاهِداً يلاحظ عشرة ^(١) غفلته ويدفع بادرة ^(٢) سطوته ويدفع خداع حيلته لأن سلطان الهوى قوى ومدخل مكره خفى ومن هذين الوجهين يؤق العاقل حتى تنفذ أحكام الهوى عليه أعنى بأحد الوجهين قوى سلطانه وبالأخر خفاء مكره فأما الوجه الأول فهو ان يقوى سلطان الهوى بكثرة دواعيه حتى تستولى عليه غلبة الهوى والشهوات فيكل العقل عن دفعها ويضعف عن منعها مع وضوح قبجها في العقل المقهور بها وهذا يكون في الأحداث أكثر وعلى الشباب أغلب لقوة شهواتهم وكثرة دواعي الهوى المتسلط عليهم وأنهم ربما جعلوا الشباب عذراً لهم كما قال محمد بن بشير:

كل يرى أن الشباب له في كل مبلغ لذة عذر
ولذلك قال بعض الحكماء: الهوى ملك غشوم ^(٣) ومتسلط ظلوم ^(٤).
وقال بعض الأدباء: الهوى عسوف ^(٥) والعدل مألوف. وقال بعض الشعراء:

يا عاقلاً أردى ^(٦) الهوى عقله مالك قد سدت عليك الأمور
أتجعل ^(٧) العقل أسير الهوى وإنما العقل عليه أمير
وحسم ^(٨) ذلك أن يستعين العقل بالنفس النفور ^(٩) فيشعرها ما في

(١) عشرة: بكسر العين: الزلة.

(٢) بادرة: البادرة من البدور بمعنى الظهور، والسطوة: القهر والغلبة.

(٣) غشوم: مبالغة فاعل، يقال: غشمه إذا ظلمه.

(٤) ظلوم: مبالغة ظالم، أي لا يرحم أصلاً.

(٥) عسوف: مثل ظلوم لفظاً ومعنى.

(٦) أردى: غلب وأذل.

(٧) أتجعل: الاستفهام للإنكار.

(٨) وحسم ذلك: أي طريق قطعه وإزالته.

(٩) النفور: المتباعدة عن الطاعات غاية البعد.

عواقب الهوى من شدة الضرر وقبح الأثر وكثرة الأجرام وتراكم الآثام. فقد قال النبي ﷺ: «حفت^(١) الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات» أخبر أن الطريق إلى الجنة باحتمال المكاره والطريق إلى النار باتباع الشهوات. قال علي ابن أبي طالب رضي الله عنه: إياكم وتحكيم الشهوات على أنفسكم فإن عاجلها ذميم وآجلها وخيم^(٢) فإن لم ترها تنقاد بالتحذير والارهاب فسوفها بالتأهيل والارغاب فإن الرغبة والرغبة إذا اجتمعتا على النفس ذلت لهما وانقادت. وقد قال ابن السماك^(٣)؛ كن لهواك مسوفاً ولعقلك مسعفاً^(٤) وانظر ما تسوء عاقبته فوطن نفسك على مجانبته فإن ترك النفس وما تهوى داؤها وترك ما تهوى دلوها فاصبر على الدواء كما تخاف من الداء. وقال الشاعر:

صبرت على الأيام حتى تولت وألزمت نفسي صبرها فاستمرت
وما النفس إلا حيث يجعلها الفتى فإن أطمعت تأقت^(٥) وإلا تسلت^(٦)

فإذا انقادت النفس للعقل بما قد أشعرت من عواقب الهوى لم يلبث الهوى أن يصير بالعقل مدحوراً^(٧) وبالنفس مقهوراً ثم له الحظ الأوفى في ثواب الخالق وثناء المخلوقين قال الله تعالى: «وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى». وقال الحسن البصري: أفضل الجهاد جهاد الهوى. وقال بعض الحكماء: أعز العز الامتناع من تملك الهوى. وقال بعض البلغاء: خير الناس من أخرج الشهوة من قلبه وعصى هواه في طاعة ربه.

(١) حفت: حجبت. والمراد: أحيطت الجنة بالمكاره، والحديث رواه الشيخان، وأحمد بن حنبل والترمذي عن أنس مرفوعاً.

(٢) وخيم: ثقیل لا یوافق المزاج.

(٣) ابن السماك: أبو العباس محمد بن صباح العجلي، كان من الزهاد، وذا قدر عند الرشيد توفي سنة ١٨٣ هـ بالكوفة.

(٤) مسعفاً: اسم فاعل، من أسعفه بحاجته إذا قضاها له.

(٥) تأقت: من التوقان. أي اشتاقت.

(٦) تسلت: نسيت هواجسها.

(٧) مدحوراً: مطروداً.

وقال بعض الأدباء: من أمارت شهوته فقد أحميا مروءته وقال بعض العلماء: ركب الله الملائكة من عقل بلا شهوة وركب البهائم من شهوة بلا عقل وركب ابن آدم من كليهما فمن غلب عقله على شهوته فهو خير من الملائكة ومن غلبت شهوته على عقله فهو شر من البهائم. وقيل لبعض الحكماء: من أشجع الناس وأحراهم^(١) بالظفر في مجاهدته قال: من جاهد الهوى طاعة لربه واحترس في مجاهدته من ورود خواطر الهوى على قلبه. وقال بعض الشعراء:

قد يدرك الحازم ذو الرأي المنى بطاعة الحزم وعصيان الهوى
وأما الوجه الثاني فهو أن يخفى الهوى مكره حتى تنموه^(٢) أفعاله على العقل فيتصور القبيح حسناً والضرر نفعا وهذا يدعو إليه أحد شيئين إما أن يكون للنفس ميل إلى ذلك الشيء فيخفى عنها القبيح لحسن ظنها وتتصوره حسناً لشدة ميلها ولذلك قال النبي ﷺ؛ حبك الشيء^(٣) يعمي ويصم أي يعمي عن الرشد ويصم عن الموعظة. وقال علي رضي الله عنه: الهوى عمى. قال الشاعر^(٤):

* حسن في كل عين من تود *

وقال عبدالله بن معاوية^(٥) بن عبدالله بن جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه :

ولست براء عيب ذي الود كله ولا بعض ما فيه إذا كنت راضيا

(١) أحراهم: أليقهم.

(٢) تنموه: تشتبه. يقال: موه النحاس أو الحديد إذا طلاه بفضة أو ذهب.

(٣) حبك الشيء: الحديث رواه أبو داود والبخاري في تاريخه عن أبي الدرداء رضي الله عنه.

(٤) قال الشاعر: هو عمر بن عبد الله بن أبي ربيعة المخزومي القرشي، شاعر مجيد، جميع أشعاره

في الغزل، في هند بنت الحارث المريّة.

ليت هنداً أنجزتنا ما تعد	وشفت أنفسنا مما تجد
واستبدت مرة واحدة	إنما العاجز من لا يستبد
ولقد قالت لأترب لها	ذات يوم وتعرّت تتبرد
أكما ينعتني	الله أم لا يقتصد
فتضحكن وقد قلن لها	حسن في كل عين من تود
حسدأحملنه من أجلها	وقديماً كان في الناس الحسد

فعين الرضا عن كل عيب كليلة^(١) ولكن عين السخط تبدي المساويا
وأما السبب الثاني فهو استثقال الفكر في تمييز ما اشتبه وطلب الراحة في
اتباع ما يسهل حتى يظن أن ذلك أوفق أمريه وأحمد حاله اغتراراً بأن الأسهل
محمود والأعسر مذموم فلن يعدم أن يتورط بخدع الهوى وزينة المكر في كل
مخوف حذر ومكروه عسر ولذلك قال عامر بن الظرب^(٢): الهوى يقظان
والعقل راقد فمن ثم غلب. وقال سليمان بن وهب: الهوى أمنع^(٣) والرأي
أنفع وقيل في المثل؛ العقل وزير ناصح والهوى وكيل فاضح^(٤). وقال
الشاعر:

إذا المرء أعطى نفسه كل ما اشتتهت ولم ينهها تآقت إلى كل باطل
وساقت إليه الاثم والعار بالذي دعته إليه من حلاوة عاجل

وحسم السبب الأول أن يجعل فكر قلبه حكماً على نظر عينه فإن العين
رائد الشهوة^(٥) والشهوة من دواعي الهوى والقلب رائد الحق والحق من دواعي
العقل. وقال بعض الحكماء: نظر الجاهل بعينه وناظره ونظر العاقل بقلبه
وخطره ثم يتهم نفسه في صواب ما أحبت وتحسين ما اشتتهت ليصبح له
الصواب ويتبين له الحق فإن الحق أثقل محملاً وأصعب مركباً فإن أشكل عليه
أمر أن اجتنب أحبهما إليه وترك أسهلها عليه فإن النفس عن الحق أنفر وللهمو

= (٥) عبد الله بن معاوية: كان من فتيان بني هاشم وأجوادهم وفصحائهم، وكان صديقاً للحسين
ابن عبد الله بن عباس، ثم وقع بينهما أمر فتهاجرا فقال: ولست براء... وقبله:
وإن حسيناً كان شيئاً ملفقاً فمحضه التكشيف حتى بدا لياً
وأنت أخي ما لم تكن لي حاجة فإن عرضت أبقت أن لا أخاليا
(١) كليلة: ضعيفة.

(٢) عامر بن الظرب: على وزن كَيْف: العدواني، كان أحد حكام العرب في الجاهلية
المشهورين.

(٣) أمنع: أشد مناعة وقوة.

(٤) فاضح: كاشف للمساوي.

(٥) رائد الشهوة: والرائد: هو الذي يتقدم القوم يطلب لهم مرعى ومتزلاً.

آثر. وقد قال العباس^(١) بن عبد المطلب: إذا اشتبه عليك أمران فدع أحبهما إليك وخذ أثقلهما عليك وعلة هذا القول هو أن الثقل تبطئ النفس عن التسرع إليه فيصح مع الأبطاء وتطاول الزمان صواب ما استعجم^(٢) وظهور ما استبههم. وقد قال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: من تفكر أبصر والمحبوب السهل تسرع النفس إليه وتعجل بالأقدام عليه فيقصر الزمان عن تصفحه^(٣) ويفوت استدراكه ليقضي فعله فلا ينفع التصفح بعد العمل والإستدراك بعد الفوت. وقال بعض الحكماء: ما كان عنك معرضاً فلا تكن له متعرضاً^(٤) وقال الشاعر:

أليس طلاب ما قد فات جهلاً وذكر المرء ما لا يستطيع
ولقد وصف بعض البلغاء حال الهوى وما يقارنه من محن الدنيا فقال
الهوى مطية الفتنة والدنيا دار المحنة فاترك الهوى تسلم واعرض عن الدنيا
تغنى ولا يغرنك هواك بطيب الملاهي ولا تفتنك دنياك بحسن العواري^(٥) فمددة
اللهو تنقطع وعارية الدهر ترجع ويبقى عليك ما ترتكبه من المحارم وتكتسبه

(١) العباس بن عبد المطلب: بن هاشم بن عبد مناف، كنيته أبو الفضل، من أكابر قريش في الجاهلية والإسلام وهو جد الخلفاء العباسيين، قال رسول الله في وصفه: «أجود قريش كفاً، وأوصلها، هذا بقية آبائي». وهو عمه، وكان محسناً لقومه، شديد الرأي، واسع العقل، مولعاً باعتاق العبيد كارهاً للرق، اشترى ٧٠ عبداً وأعتقهم، وكانت له سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام. أسلم قبل الهجرة، وكنم إسلامه وأقام بمكة يكتب إلى رسول الله أخبار المشركين، ثم هاجر إلى المدينة، وشهد وقعة «حنين» فكان ممن ثبت حين انهزم الناس، وشهد فتح مكة، وعمي في آخر عمره، وكان إذا مر بعمر أثناء خلافته ترجل عمر اجلالاً له، وكذلك عثمان، واحصى ولده سنة ٢٠٠ هـ فبلغوا ٣٣٠٠ ثلاثة آلاف وثلاثمائة وكانت وفاته في المدينة عن عشرة أولاد ذكور سوى الإناث سنة ٣٢ هـ له في الصحيحين ٣٥ حديثاً.

(٢) استعجم، استبههم: بالبناء للمفعول فيهما أي أشكل وأغلق.

(٣) تصفحه: التصفح: امعان النظر، وطول التأمل في صفحات الشيء ووجوهه.

(٤) متعرضاً: متصدياً، ومباشراً ابتداء.

(٥) العواري: جمع عارية: أراد بها متاع الدنيا.

من المآثم. وقال علي بن عبد^(١) الله الجعفري: سمعتني امرأة في الطواف وأنا أنشد:

أهوى هوى الدين واللذات تعجبنى فكيف لي بهوى اللذات والدين؟
فقالت؛ هما ضربتان فذر أيهما شئت وخذ الأخرى. فأما فرق ما بين
الهوى والشهوة مع اجتماعهما في العلة والمعلول واتفاقهما في الدلالة والمطلوب
فهو أن الهوى يختص بالآراء والاعتقادات والشهوة مختصة بنيل المستلذات
فصارت الشهوة من نتائج الهوى وهي أخص والهوى أصل هو أعم. ونحن
نسأل الله أن يكفيننا دواعي الهوى ويصرف عنا سبل الردى ويجعل التوفيق لنا
قائداً والعقل لنا مرشداً. فقد روي أن الله تعالى أوحى إلى عيسى عليه
السلام عظ نفسك فإن اتعظت فعظ الناس وإلا فاستحي مني. وقال محمد بن
كناسة:

ما من روى أدباً ولم يعمل به ويكف عن زيغ الهوى بأديب
حتى يكون بما تعلم عاملاً من صالح فيكون غير معيب
ولقلما تغنى إصابة قائل أفعاله أفعال غير مصيب
وقال آخر^(٢):

يأبى الرجل المعلم غيره هلا لنفسك كان ذا التعليم
تصف الدواء لذي السقام وذى الضنى^(٣) كيما يصح به وأنت سقيم
إبدأ بنفسك فأنها عن غيرها فإذا انتهت عنه فأنت حكيم

(١) علي بن عبد الله الجعفري: المديني، الامام المبرز، قال البخاري: ما استصغرت نفسي عند أحد قط إلا عند ابن المديني، وقال عبد الرحمن، علي أعلم الناس بحديث رسول الله ﷺ خاصة، وقال الأمين: رأيت مستلقياً وأحمد بن حنبل عن يمينه، ويحيى بن معين عن يساره وهو علي عليها. ولد بسامرا ومات بالعسكر سنة ٢٣٤ هـ.

(٢) وقال آخر: هو أبو الأسود الدؤلي من قصيدة طويلة ومنها:

حسدوا الفتى إذ لم ينالوا سعيه فالكل أعداء له وخصوم
كضرائر الحسناء قلن لوجهها حسداً وبغضاً إنه لديم

(٣) الضنى: على وزن العصى: المرض المخامر الذي كلما ظن برأه نكس.

فهنالك تعذر إن وعظت ويقتدى بالقول منك ويقبل التعليم
لا تنه عن خلق وتأتي مثله عار عليك إذا فعلت عظيم
حكى أبو^(١) فروة أن طارقاً صاحب شرطة^(٢) خالد بن عبد^(٣) الله
القسري مر بابن^(٤) شبرمة وطارق في موكبه فقال ابن شبرمة:

أراها وإن كانت تحب كأنها سحابة صيف عن قريب تقشع^(٥)
اللهم لي ديني ولهم دنياهم فاستعمل ابن شبرمة بعد ذلك على القضاء
فقال له ابنه أبو بكر أتذكر قولك يوم كذا أن مر بك طارق في موكبه فقال يا
بني إنهم يجردون مثل أبيك ولا يجد أبوك مثلهم إن أباك أكل من حلوائهم
فخبط في أهوائهم^(٦) أما ترى هذا الدين^(٧) الفاضل كيف عوجل بالتقريع
وقوبل بالتوبيخ من أخص ذويه ولعله من أبر بنيه فكيف بنا ونحن أطلق منه

(١) أبو فروة: هو عدي بن عدي الجزري الكندي التابعي، روى عن أبيه وعمه: بن عميرة،
وهما صحابييان. قال البخاري: هو سيد أهل الجزيرة وكان عامل عمر بن عبد العزيز على
الجزيرة والموصل. توفي سنة ١٢٠ هـ.

(٢) الشرطة: الطائفة المخصوصة من أعوان الوالي والحاكم.

(٣) خالد القسري: بن عبد الله بن يزيد بن أسد القسري.

كان من أمراء الدولة الأموية، وأخا هشام من الرضاعة، ولي اليمن ومكة من قبل الوليد بن
عبد الملك، وولاه هشام العراقيين بعد عمرو بن هبيرة، وهو الذي قتل الجعد بن درهم أول
من تكلم بخلق القرآن، ثم طلب فهرب، ثم نزل الكوفة فتعلم منه الجهم بن صفوان الذي
تنسب إليه الجهمية. كان خالد جواداً فصيحاً، عظيم الهمة، وله أخبار ومكايد. مات بالشام
سنة ١٢٠ هـ.

(٤) ابن شبرمة: هو عبد الله بن شبرمة الكوفي القاضي فقيه أهل الكوفة وكان راوية شاعراً خطيباً
ناسباً، وكان حاضر الجواب. وكان يشبه بعامر الشعبي، والبيت الذي تمثل به لعمران بن
قحطان.

(٥) تقشع: تنكشف وتضمحل.

(٦) خبط في أهوائهم: سقط فيما سقطوا.

(٧) الدين: على وزن سيد: عظيم الدين.

عنانا^(١) وأقلق جنانا^(٢) إذا رمقتنا^(٣) أعين المتبعين وتناولتنا ألسن المتعنتين هل نجد غير توفيق الله تعالى ملاذاً وسوى عصمته معاذاً^{(٤)؟}

باب أدب العلم^(٥)

إعلم أن العلم أشرف ما رغب فيه الراغب وأفضل ما طلب وجد^(٦) فيه الطالب وأنفع ما كسبه واقتناه^(٧) الكاسب لأن شرفه ينم على صاحبه وفضله ينمى عند طالبه. قال الله تعالى: ﴿قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون﴾ فمنع سبحانه المساواة بين العالم والجاهل لما قد خص^(٨) به العالم من فضيلة العلم وقال تعالى: ﴿وما يعقلها﴾^(٩) إلا العالمون. ﴿فنفى أن يكون غير العالم يعقل عنه أمراً أو يفهم منه زجراً. وروي عن النبي ﷺ أنه قال: أوحى الله إلى إبراهيم عليه السلام اني عليم أحب كل عليم. وروى أبو أمامة قال: سئل رسول الله ﷺ عن رجلين أحدهما عالم والآخر عابد فقال ﷺ فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم رجلاً. وقال علي بن أبي

(١) عنانا: العنان بكسر العين: اللجام الذي تمسك به الدابة. أراد به اللسان.

(٢) جنانا: بفتح الجيم أي أضيق منه قلباً.

(٣) رمقتنا: الرمق: اللحظ الخفيف، وذلك النظر هو نظر الاستخفاف والاستهزاء.

(٤) معاذاً: ملجأً

(٥) العلم: هو الاعتقاد الجازم المطابق للواقع، والجهل نقيضه.

والمعرفة إدراك الشيء بتفكير وتدبر لأثره، فلا يقال: يعرفه الله، بل يعلمه الله.

والعلم: قسمان: قديم، وهو علم الله، وحادث، وينقسم العلم الحادث إلى قسمين: بدهي،

ويعبر عنه بالضروري. واستدلالي، ويعبر عنه بالاكْتِسَابِي فالبدهي: ما لا يحتاج إلى تقديم

مقدمة، كالعلم بوجود المرء نفسه، والعلم الحاصل بالحواس الخمس الظاهرة، والاستدلالي:

ما يحتاج إلى تقديم مقدمة، كالعلم بثبوت الصانع وقدمه، وحدث الأعيان والأعراض، وله

أنواع وتقسيمات كثيرة متعلقة بكل من هو مخصوص.

(٦) جد: سعى وجهد.

(٧) اقتناه: اتخذه.

(٨) خص به: تميّز به.

(٩) وما يعقلها: وما يعقل صحتها وحسنها وفائدتها.

طالب رضي الله عنه: الناس أبناء^(١) ما يحسنون. وقال مصعب^(٢) بن الزبير لابنه: تعلم العلم فإن يكن لك مال كان لك جماً وإن لم يكن لك مال كان لك مالاً. وقال عبد الملك بن مروان^(٣) لبنيه يابني: تعلموا العلم فإن

(١) أبناء ما يحسنون: أبناء ما يتسبون إليه من العلوم والصنائع، فيقال: فلان العالم، وفلان المجاهد، وفلان الطبيب...

(٢) مصعب بن الزبير: بن العوام، أبو عبد الله، من أهل المدينة والتابعين، وكان يجالس أبا هريرة، وحكى عن عمر، وروى عن أبيه، وسعد، وأبي سعيد الخدري، وكان يقال له: النحل، لجوده، وكان وسيماً جميلاً شجاعاً نشأ بين يدي أخيه عبد الله بن الزبير، فكان عضده الأقوى في تثبيت ملكه في الحجاز والعراق، وولاه عبد الله البصرة سنة ٦٧ هـ فقصدها وضبط أمورها، وقتل المختار الثقفي، وولاه أخوه علي الكوفة مع البصرة وتجرد عبد الملك بن مروان لقتاله فسير إليه الجيوش، فكان مصعب يفلها، حتى خرج إليه عبد الملك بنفسه، فلما دخل العراق خذل مصعباً قواد جيشه وأصحابه، فثبت فيمن بقي معه، فأنفذ إليه عبد الملك أخاه (محمد بن مروان) فعرض عليه الأمان وولاية العراقين أبداً ما دام حياً، ومليون درهم صلة، على أن يرجع عن القتال فأبى مصعب، فشده عليه جيش عبد الملك، وطعنه زائدة بن قيس فقتله، وحمل رأسه إلى عبد الملك، وبمقتله نقلت بيعة أهل العراق إلى ملوك الشام، وكان قتله سنة ٧٢ هـ وعمره ٣٥ سنة.

(٣) عبد الملك بن مروان: بن الحكم الأموي، أبو الوليد، من أعظم الخلفاء ودهاتهم، نشأ في المدينة، فقيهاً واسع العلم، متعبداً ناسكاً، وشهد يوم الدار مع أبيه، واستعمله معاوية على المدينة وهو ابن ١٦ سنة، وانتقلت إليه الخلافة بموت أبيه سنة ٦٥ هـ فضبط أمورها، وظهر بمظهر القوة، فكان جباراً على معانديه، قوي الهيبة. واجتمعت عليه كلمة المسلمين بعد مقتل مصعب وعبد الله ابني الزبير في حربهما مع الحجاج الثقفي، ونقلت في أيامه الدواوين من الفارسية والرومية إلى العربية، وضبطت الحروف بالنقط والحركات، وهو أول من صك الدنانير في الإسلام، وكان عمر بن الخطاب قد صك الدراهم، وكان يقال: معاوية للحلم، وعبد الملك للحزم.

ومن كلام الشعبي: «ما ذكرت أحداً إلا وجدت لي الفضل عليه، إلا عبد الملك، فما ذاكرته حديثاً ولا شعراً إلا زادني فيه. كان نقش خاتمه «أمنت بالله مخلصاً». وفي معجم الطبراني من حديث عبد الملك، قال: كنت أجالس بريدة في المدينة، فكانت تقول لي: يا عبد الملك، إني أرى فيك خصالاً، وإنك لخليق أن تلي هذا الأمر، فإن وليته فاحذر الدنيا فلاني سمعت رسول الله يقول: إن الرجل ليرفع عن باب الجنة بعد أن ينظر إليها بملء محجمة من دم يريقه من مسلم بغير حق كانت وفاته سنة ٨٦ هـ.

كنتم سادة فقتم وإن كنتم وسطا سدتكم وإن كنتم سوقة^(١) عشتكم وقال بعض الحكماء: العلم شرف من لا قدر^(٢) له والأدب مال لا خوف عليه وقال بعض الأدباء: العلم أفضل خلف^(٣) والعمل به أكمل شرف. وقال بعض البلغاء: تعلم العلم فإنه يقومك ويسدّدك^(٤) صغيراً ويقدمك ويسودك^(٥) كبيراً ويصلح زيغك^(٦) وفاسدك ويرغم^(٧) عدوك وحاسدك ويقوم^(٨) عوجك^(٩) وميلك ويصحح همتك وأملك. وقال علي رضي الله تعالى عنه: قيمة كل امرئ ما يحسن فأخذه الخليل^(١٠) فنظمه شعراً فقال:

لا يكون العلي مثل الدني لا ولا ذو الذكاء مثل الغبي
قيمة المرء قدر ما يحسن المرء قضاء من الإمام علي
وليس يجهل فضل العلم إلا أهل الجهل لأن فضل العلم إنما يعرف
بالعلم وهذا أبلغ في فضله لأن فضله لا يعلم إلا به فلما عدم الجهال العلم
الذي به يتوصلون إلى فضل العلم جهلوا فضله واستردّلوا أهله وتوهّموا أن ما

(١) سوقة: بضم السين: الرعية، يستوي فيه المفرد والجمع والمذكر والمؤنث سماوا به لأن السلطان والأمير يسوقهم حيث شاء.

(٢) لا قدر له: بفتح فسكون، أي لا يقاس به شيء.

(٣) خلف: بفتح الخاء واللام: الولد الصالح، وما يستخلف من شيء.

(٤) ويسدّدك: يرشدك للصواب من القول والعمل.

(٥) ويسودك: يجعلك سيداً.

(٦) زيغك: أصل الزيف: الدراهم المغشوشة.

(٧) ويرغم: يلصق أنفه بالرغام، وهو التراب، وهو كناية عن الذل.

(٨) ويقوم: يسدّد.

(٩) عوجك: على وزن عنب وهو ضد الاستقامة.

(١٠) الخليل: أبو عبد الرحمن البصري الفراهيدي، ولد بالبصرة سنة ١٠٠ هـ. ونشأ بها، واشتغل بالعلوم، وصنف الكتب الكثيرة، ووضع علم العروض وتبعه فيه الناس، وكان من أزهّد الناس، وأعلامهم نفساً، وأشدّهم تعفّفاً، ولقد كان الملوك يقصدونه ويتعرفون إليه، لينال منهم، فلم يكن يفعل، وكان يعيش من بستان له، خلفه عليه والده، وكان يغزو سنة ويحج أخرى حتى جاءه الموت سنة ١٦٠.

تميل إليه نفوسهم من الأموال المقتناة^(١) والطرف^(٢) المشتهاة أولى أن يكون إقبالهم عليها وأحرى^(٣) أن يكون اشتغالهم بها. وقد قال ابن المعتز^(٤) في منشور الحكم: العالم يعرف الجاهل لأنه كان جاهلاً والجاهل لا يعرف العالم لأنه لم يكن عالماً وهذا صحيح ولأجله انصرفوا عن العلم وأهله إنصرف الزاهدين وانحرفوا عنه وعنهم انحرف المعاندين لأن من جهل شيئاً عاداه. وأنشدني ابن لنكك لأبي بكر بن دريد^(٥):

جهلت فعاديت العلوم وأهلها كذاك يعادي العلم من هو جاهله
ومن كان يهوى أن يرى متصداً ويكره لا أدري^(٦) أصيبت مقاتله

وقيل لبزر جهمر: العلم أفضل أم المال فقال بل العلم قيل: فما بالناس نرى العلماء على أبواب الأغنياء ولا نكاد نرى الأغنياء على أبواب العلماء فقال ذلك لمعرفة العلماء^(٧) بمنفعة المال وجهل الأغنياء بفضل العلم. وقيل لبعض

(١) المقتناة: المكتسبة.

(٢) والطرف: بضم الطاء، جمع طريف، يقال: مال طارف وطريف: حديث مستحدث، ويقابله التالد والتلبد.

(٣) وأحرى: واليق.

(٤) ابن المعتز: بالله، من أقدم شعراء العرب في الأوصاف والتشبيهات أخذ من المبرد وثعلب ونحوهما، ومن المنقول أن ابن المعتز مع كماله وغزارة فضله كان لم يزل منغصاً في حدة حياته، بوقع له بالخلافة وظن أن الحظ قد تنبه له، فلم يتم الأمر له إلا يوماً واحداً، ثم قبض عليه وقتل رحمه الله.

(٥) ابن دريد: على وزن زبير: محمد بن الحسن البصري، إمام عصره في الأدب والشعر واللغة، صاحب كتاب الجماهر، عرض له في رأس التسعين من عمره الفالج فسقي له الترياق فبرأ، ثم عاوده بعد أحوال، فكان يحرك يده حركة خفيفة، وكان مع هذا الحال ثابت الذهن، كامل العقل، توفي سنة ٣٢١.

(٦) لا أدري: إذا سئل عما لا يعرف حكمه.

(٧) لمعرفة العلماء بمنفعة...: كان هذا، أو هذا في العلماء الذين وصلهم علمهم بالله، فأدركوا الحقائق، أما اليوم فقد رأينا من هم على علم جم يخرون للأذقان في سبيل دنيا يصيبونها من غنى، أو مركز ينالونه من حاكم. فتراه على أبواب الأغنياء والأمراء كالقمامات المنبوذة على الأبواب، فيضعون قدرهم، لا قدر العلم، ويجنون على مقامهم لا على مقام العلم. ولو أنهم عرفوا الله بما علمهم لكان لهم شأن آخر من الاحترام والتقدير: ولو أن أهل العلم صانوه صانهم ولو عظموه في الصدور عظمهم.

الحكماء: لم لا يجتمع العلم والمال فقال: لعز الكمال. وأنشدت لبعض أهل هذا العصر:

وفي الجهل قبل الموت موت لأهله فأجسامهم قبل القبور قبور
وإن امرأ لم يحمي بالعلم ميت فليس له حتى النشور^(١) نشور

ووقف بعض المتعلمين بباب عالم ثم نادى تصدقوا علينا بما لا يتعب
خسراً ولا يسقم نفساً فأخرج له طعام ونفقة فقال: فاقني إلى كلامكم أشد
من حاجتي إلى طعامكم إني طالب هدى لا سائل ندى^(٢) فأذن له العالم وأفاده
عن كل ما سأل عنه فخرج جذلاً^(٣) فرحاً وهو يقول علم أوضح لبساً^(٤) خير
من مال أغنى نفساً * وأعلم أن كل العلوم شريفة ولكل علم منها فضيلة
والإحاطة بجميعها محال. قيل لبعض الحكماء: من يعرف كل العلوم فقال:
كل الناس^(٥). وروي عن النبي ﷺ أنه قال: من ظن أن للعلم غاية فقد
بخسه^(٦) حقه ووضع في غير منزلته التي وصفه الله بها حيث يقول: ﴿وما
أوتيتم من العلم إلا قليلاً﴾. وقال بعض العلماء: لو كنا نطلب العلم لنبلغ
غايته لكننا قد بدأنا العلم بالنقيصة ولكننا نطلبه لنقص في كل يوم من الجهل
ونزداد في كل يوم من العلم. وقال بعض العلماء: المتعمق في العلم كالسباح
في البحر ليس يرى أرضاً ولا يعرف طولاً ولا عرضاً وقيل. وقيل لحماة^(٧) الراوية:
أما تشبع من هذه العلوم فقال: استفرغنا فيها المجهود فلم نبلغ منها المحدود فنحن
كما قال الشاعر:

= ولكن أهانوه فهانوا ودنسوا عبادة بالأدران حتى تجهما

(١) للنشور: القيام من القبور للبعث.

(٢) ندى: عطية، أي شيئاً من العطاء.

(٣) جذلاً: على وزن كفف: مسروراً، ومتبهجاً.

(٤) لبساً: شبهة.

(٥) كل الناس: أي بطريقة انقسام الأحاد إلى الأحاد.

(٦) بخسه: ظلمه ونقصه، وبابه فتح.

(٧) حماد الراوية: أبو القاسم حماد بن ميسرة الشيباني، من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية،

لقب بالراوية، لكثرة روايته لأشعار العرب. توفي سنة ١٦٥.

* إذا قطعنا علماً بدأ علم^(١) *

وأنشد الرشيد^(٢) عن المهدي بيتين وقال أظنها له :

يا نفس خوضي بحار العلم أو غوصي^(٣) فالناس ما بين معوم ومخصوص^(٤)
لا شيء في هذه الدنيا نحيط به إلا إحاطة منقوص بمنقوص
وإذا لم يكن إلى معرفة جميع العلوم سبيل وجب صرف الاهتمام إلى
معرفة أهمها والعناية بأولها وأفضلها. وأولى العلوم وأفضلها علم الدين لأن
الناس بمعرفته يرشدون وبجهله يضلون إذ لا يصح أداء عبادة جهل فاعلها
صفات أدائها ولم يعلم شروط إجرائها. ولذلك قال رسول الله ﷺ: فضل
العلم خير من فضل العبادة وإنما كان كذلك لأن العلم يبعث على فعل العبادة
والعبادة مع خلو فاعلها من العلم بها قد لا تكون عبادة فلزم علم الدين كل
مكلف. ولذلك قال النبي ﷺ: « طلب العلم^(٥) فريضة على كل مسلم »
وفيه تأويلان: أحدهما علم ما لا يسع جهله من العبادات. والثاني جملة العلم
إذا لم يقدّر بطلبه من فيه كفاية. وإذا كان علم الدين قد أوجب الله تعالى
فرض بعضه على الأعيان وفرض جميعه على الكفاية كان أولى مما لم يجب فرضه
على الأعيان ولا على الكفاية. قال الله تعالى: ﴿ فلولوا نفر من كل فرقة^(٦) ﴾
منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم
يخذرون ﴿ . وروى عبد الله^(٧) بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ دخل

(١) علم: بفتحين: الجبل، أي إذ افرغنا من أمر حدث أمر آخر.

(٢) الرشيد: أبو جعفر هارون الرشيد بن محمد المهدي، بويج له بعد أخيه موسى وكانت خلافته

عرس الدنيا، قرأ الموطأ على مالك، وكان راغباً في العلم وأهله. مات بطوس سنة ١١٣.

(٣) غوص: من غاص في الماء إذا نزل تحته. وكذا الخوص.

(٤) معوم ومخصوص: محكوم على بعضهم بالعامية، وعلى بعضهم بالخاصية.

(٥) طلب العلم فريضة: رواه الطبراني، وأسانيده ضعيفة، لكن تقوى بكثرة طرقه.

(٦) من كل فرقة طائفة: أي من كل جماعة كثيرة جماعة قليلة منهم.

(٧) عبد الله بن عمر: بن الخطاب رضي الله عنهما القرشي العدوي، أسلم بمكة قديماً مع أبيه

وهو صغير، وهاجر معه، واستصفر عن أحد، وشهد الخندق وما بعدها، وهو أحد الستة

الذين هم أكثر الصحابة رواية بعد أبي هريرة. مات بقرب مكة سنة ٧٣ هـ بعد مقتل ابن

الزبير بثلاثة أشهر.

المسجد فإذا هو بمجلسين أحدهما يذكرون الله تعالى والآخر يتفقهون فقال رسول الله ﷺ؛ كلا المجلسين عليّ خير وأحدهما أحب إليّ من صاحبه. أما هؤلاء فيذكرون الله تعالى ويسألونه فإن شاء أعطاهم وإن شاء منعهم وأما المجلس الآخر فيتعلمون الفقه ويعلمون الجاهل وإنما بعثت معلماً وجلس إلى أهل الفقه وروى مروان بن جناح عن يونس بن ميسرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: الخير عادة والشر لاجبة^(١) ومن يرد الله به حيراً يفقهه^(٢) في الدين. وروى عن النبي ﷺ أنه قال: خيار^(٣) أمتي علماؤها وخيار علمائها فقواؤها. وروى معاذ بن رفاعه عن إبراهيم بن عبد الرحمن العدوي قال: قال رسول الله ﷺ يحمل هذا العلم من كل خلف عدوؤه ينفون عنه تحريف الغالين^(٤) وانتحال^(٥) المبطلين وتأويل الجاهلين. وروى عن النبي ﷺ أنه قال: عليّ بخلفائي^(٦) قالوا: ومن خلفاؤك؟ قال: الذين يحبون سنتي يعلمونها عباد الله. وروى حميد عن أنس أن النبي ﷺ وسلم قال: الفقه في الدين فرض على كل مسلم ألا فتعلموا أو علموا وتفقهوا ولا تموتوا جهالاً. وروى سليمان بن يسار عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: ما عبد الله بشيء أفضل من فقهه^(٧) في

(١) لاجبة: لما فيه من الاعوجاج وضيق النفس والكرب. وأصل اللجاجة الخوصمة.

(٢) يفقهه في الدين: أي يفهمه ويبصره في كلام الله ورسوله.

(٣) خيار أمتي...: رواه أبو نعيم عن أبي هريرة.

(٤) الغالين: من الغلو، وهو مجاوزة الحد في التشدد في الدين.

(٥) وانتحال المبطلين: يقال: انتحل الشيء إذا ادعاه لنفسه، وهو لغيره، والمراد أن الغالين يدخلون في الدين ما ليس منه، ومنه ما قال الله عن أهل الكتاب: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ...﴾.

(٦) عليّ بخلفائي: اثنوني بهم.

(٧) عن أبي هريرة: اختلف في اسمه واسم أبيه على نحو ثلاثين قولاً، وأقربها عبد الله أو عبد الرحمن بن صخر الدوسي وهو أول من كنى بهذه الكنية، لمرة كان يلعب بها، وكان عريف أهل الصفة أسلم عام خيبر وشهدها، وهو أكثر الصحابة رواية بإجماع، روى له خمسة آلاف حديث وثلاثمائة وأربعة وسبعون حديثاً، روى عنه أكثر من ثمانمائة رجل من أصحاب وتابع. مات بالمدينة، ودفن بالقيع سنة ٥٩ هـ، وهو ابن ثمان وسبعين سنة رضي الله عنه.

(٨) من فقه في الدين: من فهم ما شرعه الله من الأحكام الشرعية.

الدين ولفقيه واحد أشد على الشيطان من ألف^(١) عابد ولكل شيء عماد وعماد الدين الفقه. وربما مال بعض المتهاونين بالدين إلى العلوم العقلية ورأى أنها أحق بالفضيلة وأولى بالتقدمة استثقلاً لما تضمنه الدين من التكليف واسترذالاً^(٢) لما جاء به الشرع من التعبد والتوقيف والكلام مع مثل هذا في أصل لا يتسع له هذا الفصل ولن ترى ذلك فيمن سلمت فطنته وصحت رويته لأن العقل يمنع من أن يكون الناس هملاً^(٣) أو سدى يعتمدون على آرائهم المختلفة وينقادون لأهوائهم المتشعبة لما تؤول إليه أمورهم من الاختلاف والتنازع وتفضي إليه أحوالهم من التباين والتقاطع فلم يستغنوا عن دين يتألفون به ويتفقون عليه ثم العقل موجب له أو تابع له ولو تصور هذا المختل التصور أن الدين ضرورة في العقل وأن العقل للدين أصل لقصر عن التقصير وأذعن للحق ولكن أهمل نفسه فضل وأضل. وقد يتعلق بالدين علوم قد بين الشافعي^(٤) رحمه الله فضيلة كل واحد منها فقال: من تعلم القرآن عظمت قيمته ومن تعلم الفقه نبل^(٥) مقداره ومن كتب الحديث قويت حجته ومن تعلم الحساب جزل^(٦) رأيه ومن تعلم اللغة رق طبعه ومن لم يصن نفسه لم ينفعه علمه. ولعمري إن صيانته النفس أصل الفضائل لأن من أهمل صيانة نفسه ثقة بما منحه العلم من فضيلته وتوكلاً على ما يلزم الناس من صيانته

(١) من ألف عابد: أي غير فقيه.

(٢) واسترذالاً: في القاموس: استرذله: ضد استجاده.

(٣) هملاً: بفتحين، وسدى على وزن هدى، يقال: ابل هملاً أي سدى، غير مقيدة متروكة ليلاً ونهاراً، بغير راع يرعاها.

(٤) الشافعي: محمد بن إدريس، وهو إمام الأنام، ونظام الإسلام، وأحد الأئمة الأربعة. ولد في غزة بفلسطين. قال المبرد: كان الشافعي رحمه الله أشعر الناس، وأدب الناس، وأعرفهم بالفقه، والقراءات. كانت وفاته في رجب ليلة الجمعة سنة ٢٠٤، ودفن في صبيحتها وهو ابن ٥٤ سنة ومن كلامه: «أظلم الظالمين لنفسه من تواضع لمن لا يكرمه ورغب في مودة من لا ينفعه، وقبل مدح من لا يعرفه» وقال رحمه الله: «من غلبت عليه شدة الشهوة بحب الدنيا لزمته العبودية لأهلها».

(٥) نَبَلْ مقداره: علا قدره.

(٦) جزل: قوي وحسن.

سلبوه فضيلة علمه ووسموه بقبیح تبدله^(١) فلم يف ما أعطاه العلم بما سلبه التبدل لأن القبيح آنم^(٢) من الجميل والرديلة أشهر من الفضيلة إذ الناس لما في طبائعهم البغضة والحسد ونزاع المنافسة^(٣) تنصرف عيونهم عن المحاسن إلى المساوىء فلا ينصفون محسناً ولا يحابون مسيئاً لا سيما من كان بالعلم موسوماً وإليه منسوباً فإن زلته لا تقال^(٤) وهفوته^(٥) لا تعذر إما لقبح أثرها واغترار كثير من الناس بها. وقد قيل في منثور الحكم: زلة العالم كالسفينه تغرق ويغرق معها خلق كثير. وقيل لعيسى بن مريم عليه السلام: من أشد الناس فتنه قال زلة العالم إذا زل هلك بزله عالم كثير فهذا وجه وإما لأن الجاهل بدمه أغرى^(٦) وعلى تنقيصه أجراً ليسلبوه فضيلة التقدم ويمنعوه مباينة التخصيص عناداً لما جهلوه ومقتاً^(٧) لما باينوه لأن الجاهل يرى العلم تكلفاً ولؤماً كما أن العالم يرى الجاهل تخلفاً وذماً. وأنشدت عن الربيع للشافعي رضي الله عنه:

ومنزلة السفيه من الفقيه كمنزلة الفقيه من السفيه
فهذا زاهد في قرب هذا وهذا فيه أزهد منه فيه
إذا غلب الشقاء على سفيه تنطع في مخالفة الفقيه
وقال يحيى بن خالد^(٨) لابنه: عليك بكل نوع من العلم فخذ منه فإن

(١) تبدله: التبدل: ضد الصيانة.

(٢) آنم: أشبع.

(٣) المنافسة: نافس في الشيء منافسة، ونفاساً بالكسر، إذا رغب فيه على وجه المباراة في الكرم وتنافسوا فيه: أي رغبوا به. مختار.

(٤) لا تقال: لا يقص عنها.

(٥) وهفوته لا تقدر: لأن العيب الصغير يعظم في حق أهل المروءات.

(٦) أغرى: أحرص وأدلع، يقال: غرى به إذا أولع.

(٧) ومقتاً: بغضاً، يقال مقتته إذا أبغضه.

(٨) يحيى بن خالد: البرمكي وزير المهدي، قال أبو العيناء: تذاكروا السخاء فاتفقوا على آل

المهلب في الدولة المروانية، وعلى البرامكة في الدولة العباسية وفي يحيى يقول القائل:

سألت الندى هل أنت حر فقال: لا ولكنني عبد ليحيى بن خالد
فقلت: شراء قال: لا، بل وراثته تواريخه والد عن والد

المرء عدو ما جهل وأنا أكره أن تكون عدو شيء من العلم وأنشد:

تفنن وخذ من كل علم فإنما يفوق امرؤ في كل فن له علم
فأنت عدو للذي أنت جاهل به ولعلم أنت تتقنه سلم^(١)

وإذا صان ذو العلم نفسه حق صيانتها ولازم فعل ما يلزمها أمن
تغيير^(٢) الموالي وتنقيص المعادي وجمع إلى فضيلة العلم جميل الصيانة وعزة
النزاهة^(٣) فصار بالمنزلة التي يستحقها بفضائله. وروى أبو الدرداء أن النبي ﷺ
قال: العلماء ورثة الأنبياء لأن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً وإنما ورثوا
العلم. وروى أبو هريرة أن النبي ﷺ قال للأنبياء: على العلماء فضل درجتين
وللعلماء على الشهداء فضل درجة. وقال بعض البلغاء: إن من الشريعة أن
تجل^(٤) أهل الشريعة ومن الصنعة أن ترب^(٥) حسن الصنعة^(٦) فينبغي إن
استدل بفطنته على استحسان الفضائل واستقباح الرذائل أن ينفي عن نفسه
رذائل الجهل بفضائل العلم وغفلة الأهمال باستيقاظ المعاناة^(٧) ويرغب في
العلم رغبة متحقق لفضائله واثق بمنافعه ولا يلهيه عن طلبه كثرة مال وجدة^(٨)
ولا نفوذ أمر وعلو منزلة فإن من نفذ أمره فهو إلى العلم أحوج ومن علت
منزلته فهو بالعلم أحق. وروى أنس بن مالك^(٩) عن النبي ﷺ أنه قال: إن
الحكمة تزيد الشريف شرفاً وترفع العبد المملوك حتى تجلسه مجالس الملوك.

(١) سلم: مسالم ومصالح.

(٢) تغيير الموالي: تقبيح الصديق.

(٣) النزاهة: نزه الرجل إذا تباعد عن كل مكروه.

(٤) أن تجل: من أجله إذا عظمه.

(٥) أن ترب: يقال رب الأمر يربّه إذا ساسه وقام بتدبيره: ومنه قيل للحاضنة: رابّة.

(٦) الصنعة: هي ما اصطنته من خير.

(٧) المعاناة: الممارسة للشيء.

(٨) وجدة: وجد في المال وجداً بضم الواو وفتحها.

(٩) أنس بن مالك: يكنى أبا حمزة خادم رسول الله ﷺ خدمه عشر سنين روي له عن رسول الله

١٢٦٦ حديثاً وكان أكثر الصحابة ولداً وهو آخر من مات من الصحابة بالبصرة سنة ٩٣

وعمره أكثر من مائة سنة.

وقد قال بعض الأدباء: كل عز لا يوطده علم مذلة وكل علم لا يؤيده عقل مضلة. وقال بعض علماء السلف: إذ أراد الله بالناس خيراً جعل العلم في ملوكهم والملك في علمائهم وقال بعض البلغاء: العلم عصمة الملوك لأنه يمنعهم من الظلم ويردهم إلى الحلم ويصدهم عن الأذية ويعطفهم على الرعية فمن حققهم أن يعرفوا حقه ويستبطنوا^(١) أهله فأما المال فظل زائل وعارية مسترجعة وليس في كثرته فضيلة ولو كانت فيه فضيلة لخص الله به من اصطفاه لرسالته واجتباؤه لنبوته وقد كان أكثر أنبياء الله تعالى مع ما خصهم الله به من كرامته وفضلهم على سائر خلقه فقراء لا يجدون بلغة^(٢) ولا يقدرون على شيء حتى صاروا في الفقر مثلاً قال البحرني^(٣):

فقر كفقر الأنبياء وغربة وصبا^(٤) ليس البلاء بواحد
ولعدم الفضيلة في المال منحه الله الكافر وحرمه المؤمن قال الشاعر:

كم كاسفر بالله أمواله تزداد أضعافاً على كفره
ومؤمن ليس له درهم يزداد إيماناً على فقره
يالائم الدهر وأفعاله مشتغلاً يزري على دهره
الدهر مأمور له أمر ينصرف الدهر على أمره

وقد بين علي بن أبي طالب رضي الله عنه فضل ما بين العلم والمال فقال: العلم خير من المال العلم يحرسك وأنت تحرس المال العلم حاكم والمال محكوم عليه مات خزان الأموال وبقي خزان العلم أعيانهم مفقودة

(١) ويستبطنوا أهله: أي يتخذوا أهل العلم بطانة لهم وخاصتهم يستشيرونهم ويستودعونهم أسرارهم.

(٢) بلغة: على وزن غرفة: ما يتبلغ به من العيش ويكفي.

(٣) البحرني: هو الوليد بن عبيد بن يحيى الطائي: أبو عبادة البحرني يقال لشعره: سلاسل الذهب توفي بمدينة منبج في سورية.

(٤) الصبا: الشوق أو رفته أو رقة الهوى يعني العشق مع الحرارة.

وأشخاصهم في القلوب موجودة. وسئل بعض العلماء أيما أفضل المال أم العلم؟ فقال: الجواب عن هذا أيما أفضل المال أم العقل. وقال صالح بن عبد القدوس:

لا خير فيمن كان خير ثنائه في الناس قولهم غني واجد
وربما امتنع الانسان من طلب العلم لكبر سنه واستحيائه من تقصيره في
صغره أن يتعلم في كبره فرضي بالجهل أن يكون موسوماً به وآثره على العلم
أن يصير مبتدئاً به وهذا من خدع^(١) الجهل وغرور^(٢) الكسل لأن العلم إذا
كان فضيلة فرغبة ذوي الأسنان فيه أولى والابتداء بالفضيلة فضيلة ولأن
يكون شيخاً متعلماً أولى من أن يكون شيخاً جاهلاً. حكى أن بعض الحكماء
رأى شيخاً كبيراً يحب النظر في العلم ويستحي فقال له يا هذا: أنتحي أن
تكون في آخر عمرك أفضل مما كنت في أوله. وذكر أن إبراهيم بن المهدي
دخل على المأمون وعنده جماعة يتكلمون في الفقه فقال: يا عم ما عندك ما
يقول هؤلاء فقال يا أمير المؤمنين: شغلونا في الصغر واشتغلنا في الكبر فقال:
لم لا تتعلمه اليوم قال: أويحسن بمثلي طلب العلم قال نعم والله لأن تموت
طالباً للعلم خير من أن تعيش قانعاً بالجهل قال: وإلى متى يحسن بي طلب
العلم؟ قال: ما حسنت بك الحياة لأن الصغير أعذر وإن لم يكن في الجهل عذر
لأنه لم تطل به مدة التفریط ولا استمرت عليه أيام الإهمال. وقد قيل في منشور
الحكم: جهل الصغير معذور وعلمه محقور^(٣) فأما الكبير فالجهل به أقبح
ونقصه عليه أفضح لأن علو السن إذا لم يكسبه فضلاً ولم يفده علماً وكانت
أيامه في الجهل ماضية ومن الفضل خالية كان الصغير أفضل منه لأن الرجاء
له أكثر والأمل فيه أظهر وحسبك نقصاً في رجل يكون الصغير المساوي له في
الجهل أفضل منه. وأنشدت لبعض أهل الأدب:

(١) خدع الجهل: خدعه، إذا أراد به المكروه من حيث لا يعلم والخداع بالكسر اسم منه.

(٢) الغرور: بالضم: ما اغتر به.

(٣) محقور: أي عند العوام.

إذا لم يكن مر السنين مترجماً^(١) عن الفضل للإنسان سميته طفلاً وما تنفع الأعمام حين تعدها ولم تستفد فيهن علماً ولا فضلاً أرى الدهر من سوء التصرف مائلاً إلى كل ذي جهل كأن به جهلاً

وربما امتنع من طلب العلم لتعذر المادة^(٢) وشغله اكتسابها عن التماس العلم وهذا وإن كان أعذر من غيره مع أنه قلما يكون ذلك إلا عند ذي شره^(٣) وعيب وشهوة^(٤) مستعبدة فينبغي أن يصرف للعلم خطأً من زمانه فليس كل الزمان زمان اكتساب ولا بد للمكتسب من أوقات استراحة وأيام عطلة ومن صرف كل نفسه إلى الكسب حتى لم يترك لها فراغاً إلى غيره فهو من عبيد الدنيا وأسراء الحرص. وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: لكل شيء فترة^(٥) فمن كانت فترته إلى العلم فقد نجا. وروي عن النبي ﷺ أنه قال: كونوا علماء صالحين فإن لم تكونوا علماء صالحين فجالسوا العلماء واسمعوا علماً يدلکم على الهدى ويردکم عن الردى^(٦). وقال بعض العلماء: من أحب العلم أحاطت به فضائله. وقال بعض الحكماء: من صاحب العلماء وقى^(٧) ومن جالس السفهاء حقر^(٨). وربما منعه من طلب العلم ما يظنه من صعوبته وبعد غايته ويخشى من قلة ذهبه وبعد فطنته وهذا الظن اعتذار ذوي النقص وخيفة أهل العجز لأن الأخبار قبل الاختبار جهل والخشية قبل الابتلاء عجز وقد قال الشاعر:

لا تكونن أسلأمر هيوباً^(٩) فإلى خيبة يصير الهيوب

(١) مترجماً: مبيناً.

(٢) المادة: المال الذي يعيش به.

(٣) شره: الشره: الحرص.

(٤) شهوة: مستعبدة: أي يتبع شهوته كأنه يعبدها.

(٥) فترة: زمان سكون واستراحة بعد نشاط وجد.

(٦) الردى: الضلال والهلاك.

(٧) وقى: عظم مهم على سبيل التبعة، أو مطلقاً لتأديبه بأدائهم.

(٨) حقر: لتخلقه بأخلاقهم.

(٩) الهيوب: على وزن صبور: الجبان، أو ضعيف النفس الذي يخاف ويكون دائماً على حذر.

وقال رجل لأبي هريرة رضي الله عنه: أريد أن أتعلم العلم وأخاف أن أضيعه فقال: كفى بترك العلم إضاعة. وليس وإن تفاضلت الأذهان وتفاوتت الفطن ينبغي لمن قل منها حظه أن ييأس من نيل القيل وإدراك اليسير الذي يخرج به من حد الجهالة إلى أدنى مراتب التخصيص فإن الماء مع لينه يؤثر في صم الصخور فكيف لا يؤثر العلم الزكي في نفس راغب شهوي وطالب خلي لا سيما وطالب العلم معان. قال النبي صلى الله عليه وسلم: «إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يطلب» وربما منع ذا السفاهة من طلب العلم أن يصور في نفسه حرفة^(١) أهله وتضايق الأمور مع الاشتغال به حتي يسمهم بالأدبار ويتوسمهم بالحرمات فإن رأى محبرة^(٢) تطير منها وإن وجد كتاباً أعرض عنه وإن رأى متحلياً بالعلم هرب منه كأنه لم ير عالماً مقبلاً وجاهلاً مديراً ولقد رأيت من هذه الطبقة جماعة ذوي منازل وأحوال كنت أخفى عنهم ما يصحني من محبرة وكتاب لئلا أكون عندهم مستثقلاً وإن كان البعد عنهم مؤنساً ومصلحاً والقرب منهم موحشاً ومفسداً. فقد قال بزرجمهر الجهل في القلب كالنثر^(٣) في الأرض يفسد ما حوله لكن اتبعت فيهم الحديث المروي عن أبي الأشعث عن أبي عثمان عن ثوبان^(٤) عن النبي ﷺ أنه قال: «خالطوا الناس بأخلاقهم وخالقوهم في أعمالهم». ولذلك قال بعض البلغاء: رب جهل^(٥) وقيت به علماً وسفه حميت به حلماً. وهذه الطبقة ممن لا يرجى لها صلاح ولا يؤمل لها فلاح لأن من اعتقد أن العلم شين وأن تركه زين وأن للجهل إقبالاً مجدياً^(٦) وللعلم أدباراً مكدياً^(٧) كان ضلاله مستحسناً ورشاده

(١) الحرفة: بضم الحاء وكسرها: الحرمان من الحظ واليخت.

(٢) المحبرة: في القاموس الحبر بالكسر النفس - المادة التي يكتب بها - وموضعه المحبرة بالفتح لا بالكسر، وغلط الجوهرى: وحكى محبرة كمقبرة، وقد تشدد الراء وبائعه الحبري لا الخبر.

(٣) النثر: بفتح النون وكسرهما وتشديد الزاي: ما يتحلب ويترشح من الأرض من ماء.

(٤) ثوبان: يكنى أبا عبد الله من موالى النبي ﷺ توفي في حص سنة ٥٤ هـ.

(٥) جهل: الجهل هنا أراد به التجاهل.

(٦) مجدياً: أي معطياً أموالاً جمة ومنازل رفيعة، من أجدها إذا أعطاه عطية.

(٧) مكدياً: أي مانعاً عن المال والمنازل، من أكدى الرجل إذا قل خيريه أو بخل ومنع عطاءه.

مستبعداً وكان هو الخامس الهالك الذي قال فيه علي بن أبي طالب رضي الله عنه: (١) عالماً أو متعلماً أو مستمعاً أو محباً ولا تكن الخامس (٢) فتهلك. وقد رواه خالد (٣) الحذاء عن عبد الرحمن (٤) بن أبي بكرة عن النبي ﷺ مسنداً وليس لمن هذه حاله في العذل نفع ولا في الاستصلاح مطمع وقد قيل لبزرجهر: ما لكم لا تعاتبون الجهال فقال: إنا لا نكلف العمى أن يبصروا ولا الصم أن يسمعوا وهذه الطائفة التي تنفر من العلم هذا النفور وتعاند أهله هذا العناد ترى العقل بهذه المثابة وتنفر من العقلاء هذا وتعتقد أن العاقل محارف (٥) وأن الأحق محظوظ وناهيك بضلال من هذا اعتقاده في العقل والعلم هل يكون لخير أهلاً أو لفضيلة موضعاً.

وقد قال بعض البلغاء: أخبث الناس المساوي (٦) بين المحاسن والمساوي (٧) وعلة هذا أنهم ربما رأوا عاقلاً غير محظوظ وعالماً غير مرزوق فظنوا أن العلم والعقل هما السبب في قلة حظه ورزقه وقد انصرفت عيونهم عن حرمان أكثر النوكى (٨) وإدبار أكثر الجهال لأن في العقلاء والعلماء قلة وعليهم من فضلهم ولذلك قيل: العلماء غرباء لكثرة الجهال فإذا ظهرت سمة (٩)

(١) أغد: أي سر في وقت الصباح.

(٢) الخامس: هو هنا من يبغض العلم وأهله.

(٣) خالد الحذاء: بن مهران أبو المنازل بضم الميم، مولى أبي عبد الله عامر بن كرز القريشي، ولا يكن بحذاء، وإنما كان يجلس إليهم يقال: إنه ما حذا نعلأ قط وهو تابعي، رأى أنس ابن مالك قال أبو حاتم: يكتب حديثه ولا يحتج به. وقال يحيى وأحمد: ثقة.

(٤) عبد الرحمن بن أبي بكرة: واسم أبي بكرة نفيح بن الحارث، وكنته عبد الرحمن أبو عمر الثقفي البصري، وعبد الرحمن أول مولود ولد في الإسلام بالبصرة سنة ١٤ هـ سمع أباه وعلياً وغيرهما، وروى عنه ابن سيرين وخالد الحذاء وعبد الملك بن عمير توفي سنة ٩٩ هـ.

(٥) محارف: محروم، كأنه محال ومصروف عن جهة الرزق، وهو مقابل المسعود، والمبارك.

(٦) المساوي: من المساواة.

(٧) المساوي: جمع سوء.

(٨) النوكى: بالضم والفتح: الحمق - قاموس.

(٩) سمة: أماراة وعلامة يتميزون بها.

فضلهم وصادف ذلك قلة حظ بعضهم تنهوا^(١) بالتمييز واشتهروا بالتعيين فصاروا مقصودين بإشارة المتعنتين^(٢) ملحوظين بإيماء الشامتين^(٣) والجهال والحمقى لما كثروا ولم يتخصصوا انصرف عنهم النفوس فلم يلحظ المحروم منهم بطرف شامت^(٤) ولا قصد المحدود^(٥) منهم بإشارة عانت فلذلك ظن الجاهل المرزوق أن الفقر والضيق مختصان بالعلم والعقل دون الجهل والحمق ولو فتشت أحوال العلماء والعقلاء مع قلتهم لوجدت الاقبال في أكثرهم ولو اختبرت أمور الجهال والحمقى مع كثرتهم لوجدت الحرمان في أكثرهم وإنما يصير ذو الحال الواسعة منهم ملحوظاً مشتهراً لأن حظه عجب وإقباله مستغرب كما أن حرمان العاقل العالم غريب وإقلاله عجيب. ولم تزل الناس على سالف الدهور من ذلك متعجبين وبه معتبرين حتى قيل لبزرجهر ما أعجب الأشياء فقال نجح الجاهل وإكداء^(٦) العاقل لكن الرزق بالحظ والجد لا بالعلم والعقل حكمة منه تعالى يدل بها على قدرته وإجراء الأمور على مشيئته. وقد قالت الحكماء: لو جرت الأقسام على قدر العقول لم تعش البهائم فنظمه أبو تمام الطائي فقال:

ينال الفتى من عيشه وهو جاهل ويكدي الفتى من دهره وهو عالم
ولو كانت الأرزاق تجري على الحجا^(٧) هلكن إذن من جهلهن البهائم
وقال كعب بن زهير^(٨) بن أبي سلمى :

لو كنت أعجب من شيء لأعجبني سعي الفتى وهو مخبوء له القدر
يسعى الفتى لأمر ليس يدركها والنفس واحدة والهـم منتشر

(١) تنهوا: تنهوا مطاوع نوه فلاناً إذا رفع قدره بالتعريف والتطهير.

(٢) المتعنتين: المفسدين.

(٣) الشامتين: الفرخين ببلايا أعدائهم أ. هـ المختار.

(٤) بطرف شامت: بعينه.

(٥) المحدود: المحروم، وهو مقابل المحدود بالجيم، وهو المحظوظ.

(٦) أكداء العاقل: خبيته.

(٧) الحجا: بكسر الحاء: العقل.

(٨) كعب بن زهير بن أبي سلمى: على وزن حُبل، وليس لهم بالضم غيره واسم أبي سلمى =

على أن العلم والعقل سعادة وإقبال وإن قل معها المال وضافت معها الخال والجهل والحمق حرمان وإدبار وإن كثر معها المال واتسعت معها الحال لأن السعادة ليست بكثرة المال فكم من مكثر شقي ومقل سعيد وكيف يكون الجاهل الغني سعيداً والجهل يضعه أم كيف يكون العالم الفقير شقياً والعلم يرفعه. وقد قيل في منشور الحكم: كم من ذليل أعزه علمه ومن عزيز أذله جهله. وقال عبد الله بن المعتز: نعمة الجاهل كروضة مزبلة. وقال بعض الحكماء: كلما حسنت نعمة الجاهل إزداد قبحاً. وقال بعض العلماء لبيته: يا بني تعلموا العلم وأن لم تنالوا به من الدنيا حظاً فلأن يذم الزمان لكم أحب إلى من أن يذم الزمان بكم. وقال بعض الأدباء: من^(١) لم يفد بالعلم مالا كسب به جمالاً وأنشد بعض أهل الأدب لابن طباطبا^(٢):

حسود مريض القلب يخفي أنيته^(٣) ويضحى كتيب البال^(٤) عندي حزينه
يلوم على أن رحت^(٥) للعلم طالباً إجماع من عند الرواة فنونه

= ربيعة بن رباح بكسر الراء. مات زهير قبل المبعث، وهو والد كعب، صاحب «بانت سعاد» وولد كعب عُقبة وكان شاعراً. وولد عُقبة العوام وكان شاعراً وأبو سلمى شاعر وسُلَمى شاعرة، وأخت زهير الخنساء شاعرة. ولذا قال الأخطل: أشعر الناس قبيلة بني قيس، وأشعر الناس بيتاً آل أبي سُلَمى، وأشعر الناس رجلاً رجل في قميص، يعني نفسه.

(١) من لم يُفد: من لم يستفد، وفي المختار: أفدت المال أعطيته، وأفدته أيضاً: استفدته.
(٢) ابن طباطبا: يحتمل أنه أبو القاسم أحمد بن إبراهيم، يتصل نسبه بسيدنا علي رضي الله عنه. كان أديباً وشاعراً، توفي في مصر سنة ٣٤٥ ومن شعره:

خليلي إني للشر يا لحاسد وإني على ريب الزمان لواجد
أبقى جميعاً شملها وهي سبعة ويفقد من احبته وهو واحد
أو أنه أبو الحسن محمد بن أحمد بن إبراهيم طباطبا المتوفى في أصفهان سنة ٣٢٢ وكان أديباً وشاعراً، ومن شعره:

يا من حكى الماء فرط رقة وقلبه في قساوة الحجر
يا ليت حظي كحظ ثوبك من جسمك يا واحداً من البشر

(٣) يخفي انيته: أراد أن يخفي آلام الحسد وغيظه، وتأوّه.

(٤) كتيب البال: أي سيء الحال مغموماً منكراً من حزنه. والمراد أنه يظهر لديّ حزنه كأنه يتوجع لي، والواقع أنه يخفي في قلبه الحسد الشديد عليّ

(٥) رحت: من راح يراح. منهاج اليقين، وفي القاموس: وراح لذلك الأمر يراح رواحاً....

فاعرف أبكار الكلام^(١) وعونه واحفظ مما استفيد عيونه^(٢)
 ويزعم أن العلم لا بكسب الغنى ويحسن بالجهل الذميمة طنونه
 فيا لاثمي دعني أغالي بقيمتي فقيمة كل الناس ما يحسنونه
 وأنا أستعيز بالله من خدع الجهل المذلة وبوادر^(٣) الحقم المضلة وأسأله
 السعادة بعقل رادع يستقيم به من زل وعلم نافع يستهدي به من ضل. فقد
 روي عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا استرذل^(٤) الله عبداً حظر^(٥) عليه
 العلم».

فينبغي لمن زهد في العلم أن يكون فيه راغباً ولمن رغب فيه أن يكون له
 طالباً ولمن طلبه أن يكون منه مستكثراً ولمن استكثر منه أن يكون به عاملاً ولا
 يطلب لتركه احتجاجاً ولا للتقصير فيه عذراً. وقد قال الشاعر:
 لا تعذراني^(٦) في الاساءة إنه شرار الرجال من يسيء فيعذر
 ولا يسوف نفسه بالمواعيد الكاذبة ويمنيها^(٧) بانقطاع الأشغال المتصلة فإن
 لكل وقت شغلاً ولكل زمان عذراً. وقال الشاعر^(٨):

أشرف له وفرح. وفيه أيضاً: وراح للمعروف يراح راحة: أخذته له خفة، وأريحته، ويده
 لكذا خفت، ومنه قوله ﷺ: «ومن راح في الساعة الثانية الحديث، لم يردبه، رواح النهار،
 بل المراد خف إليه أ. هـ. فالظاهر أنه في منهاج اليقين أراد هذا المعنى. وحينئذ يقرأ بكسر الراء.
 (١) أبكار الكلام وعونه: العون بضم العين جمع عَوَان. أراد بالأبكار ما كان مقبولاً من جنس
 الكلام، وبالعون ما كان مبتدلاً بكثرة الاستعمال، لأن العوان الأثنى التي نتجت بعد بطنها
 البكر.

(٢) عيونه: جمع عين، والمراد: أعلاه وما كان قريباً من حد الإعجاز.

(٣) بوادر: جمع بادرة، وهي ما تبدو في حال الغضب من خطأ أو هفوة.

(٤) استرذله: أراد رذله، أي أن يجعله خسيساً دنيئاً.

(٥) حظر: منع، وحجر.

(٦) فلا تُعذراني: هو من أعذر الرجل: صار ذا عذر، والمراد: لا تجعل عذري مقبولاً.

(٧) ويمنيها: من التمنية، يقال: مثاه إياه وبه أي جعل له أمنيته.

(٨) الشاعر: هو قُثم بن حبيبة بن عبد القيس من معاصري الفرزدق وجريز.

(٩٨) تَفْدُو بَعْبَرَاتٍ رَوَّحِيَّةً وَالْقَلْبَ مِنْ غِلْظِ يَنْوَعٍ وَيُطْلِمُ

صار الدمع يقبل بعضه ففادت تقرب لقبلات التحبات وهي تبكي فرحاً ثم تعود ورجع وعدالت اللثم والمستثم فبكي القلب لأنه لم يقبل شيئاً ولا محبوبه كما قبل الوجه بما فيه نظيره وجيبه كيف ذين وهو أسنى المحبة والحوار ملاً تابعة طب القلب ١٢

- أنه قلا ذين المحبة تفتد صفحات وهوها بيد لقار وما في إلا عبرات فرقة غدت مخرجت هو وحبته محبوباً فم عادت وقد ظفرت بسعادته بل زاد شوقاً لذومه لئله بسعادة ثالثة والثالثة إلى الأبد عادت وقد قبلت وقبلت .

هذه المظهر المستحي المشاهد كنه أنه عرقنا إلى الداخل وما يبدى به كونه - إشارة إلى ما قد يعرض له المحبوبة من العوارض وما تأثيرها عليهم وعلى الغير وتمايل طعم - فظاهر الأبيات غريب أما المقصود فلهذا هو غيرة الحب على محبوبه من سائر الأغيار وعنه العاشق فيه سيأتي البيان أنه شاء الله عز وجل .

مطلب ١: يقول الشيخ سعيد النورسي رحمه الله :

(١) أنه الشفقة فالصفة لا مقابل طارئة وهي وسيلة للوصول إلى اسم [الودود] ودوار ألم الشفقة فالله خير حامطاً وهو أرحم الراحمين ١٦٤ وهي أتم من العشرة الذي يقضي الأجرة فالبقار والسم ودوام الفكرة والعشرة وسيلة للوصول إلى اسم [الرحيم] فالعشرة لئله تقضي المقابل، أما الشفقة وضمنها الإحوة ولذوبة والأموعة لا تقضي المقابل والأجرة وتضرب مثلاً صغيراً وهو

أنه الأعم تدانخ عنه ولدها حتى الموت دونه أنه بطلبه بأجر ومقابلته
ولم يطيح به ليلًا ومنازلًا وسورها دونه أي سئى بطلبه به لا يرحم
المعويص به بذلك فليشأ.

فتأمل الأضداد القالية مباشرة وسأشير إلى الإشارة لا شراً
وعليك من المقصود.

قال: أيه الفارصه رحمه الله :

بعضي يغار عليك من بعضي وك
وروى عنه جاء إليه السبيكي يوله :

كأن كيف شئت عنه أطوى لا أنتهي
شبهه الضمير خبي :

تأبه دفعنا غداً فراقنا
مؤمناً تكسو المدام همرة
ورفعى يكسو همرة اللوم وحبتي

وقال أيه مرداس في معنى الشطر الثاني :

أقول لسؤال الحبيب لله أطنا
فقال وفي أمشأت همرة الجوى
تذكرت أو طاني فقلبي كما ترك
وسئل الحبيد عنه السفقة فقال :

(هي أنه تعطي من نفسك ما يطلبونه ولا تحلمهم ما لا يطيقونه)

ولا تقا صبرهم بما لا يعامونه.)

أي تسخو عليهم بنفسك، وتحمل عنهم مؤونتهم، وترى أجسادهم
وعقوطينهم وتصور في إلهامهم والتخبط والحيرة.

(٢٩) وعند غيب القلب من فرط الجوى
(٣٠) وتلويح نار الأسى بصراف
ولحاله كل الجوانح تألم
وعند سرور القلب قزنا يتلهم

إن القلب إشارة إلى الحب، إذا رأى محبوبه يعامل غيره كما يعامله فإنه يطار
وتألم طناء التسوية التي تعني أنه ليس المحبوب المفضل عنده.
هذه صورة أخرى منفصلة عن الأبيات الأولى، وطائفة دائرة سيطرة
السطر في سطرها العلوي في عالم خاص، وسترها السفلي في عالم آخر
لكنهما ضمن هذه الدائرة الواحدة.

ومنه يدري مقدار العلاقة والحب فيما بينه المحب ومحبوبه، لذا زاه يكي
من يعادى يوت بقاء، لما رأى شيئاً يخشى منه أنه قد تفرقت بينهما،
أو سرفاً في علاقتهما.

وقلما طال الوقت يجهل الحقيقة فلما ازداد العناد والضياح، وانقلب لسره
الذي علم الجميع إلى حزنه وذلك لحزنه الحب، هذا الحزن الذي حزنه هذا الحزن
الذي توهم واعتد كما حزنه الألفاظ، وشقت الذمات، فقد اكل واحد منه
المصور يسرع بفكره وخطاله، يفتك ويسرة، أماماً وخلفاً، وكل ذهب
فكره في غير ما ذهب فكر صاحبه في التأويل والتعليل لما يحدث.

قال ابنه لقلب يا صهر الدنيا: قلنت يوم البينة جيد مودعي درأ، نكمت عقودها مع أدعي

ودعتم ثم انشئت حسرة

يا صاهبي أنصت لدفء اطرولى

يا نفس قد فارقت يوم فراقهم

هيكات يرجع شملنا بالذهرج

نينا تكم جودوا على تكم ما

تركت معالم معهدي فالبلقع

ما شئاً لئلا أنه يقول ولا يعي

طبيب الحياة ففي البقا لا تطعمي

ويعود أهيا في الذمات كانوا معي

فمسي خيالكم يلتم بمناجعي

فلقد عدت الصبر يوم فراقكم
يا نازحيه فكل لكم من عورة
انه لم تعودوا للدار فترجعوا
أترى يعود الدهر جمع بيتنا
ويقر قلب قد أطيل مفوقه
وتنام عليه بعدكم لم تسمعوا
ويكذب طيب حديثكم في مسمعوا

مطلب: قالوا **التصوف** مقاساة القلب في مراعاة القلب: ولما يتجلى في دوام الوحد
والشوق للقاء المحبوب، وسلك كل الطرق الموصلة إليه، وعدم ترك أي شيء يمكنه
أن يربطه بالمحبوب، أو يوصله إليه، أو يزيد المحبة له، ويفتح السبل، لا تقا القرب
والاصطفاء، فالمريد الحق هو الذي يرى قلبه متأججا باللهيب الشوق مولاه
عز وجل، وهو الذي لا يترك أدنى فعل يمكنه أن يقربه إلى حضرة مولاه، فيأتي
بالواجبات على أكمل، ويتخذ السنن له جلبا بالانقياس من كثرة السنن التي
يتصل بها، ويبحث عنه فعل الخير والإحسان والمعروف بما في ذلك خدمة عباد الله
ولا ينظر قدم الخمر حتى يفعل بل يسعى بها من الفعل، والبحث عنه في أي
مكان، ولا يترك عبادته، ما لم يكن راعيا، أو جاهدا، كل ذلك محبة لله عز وجل
فما لعه العباد، وطلبا لرضا، والقرب من حضرة الأنس بالله والظفر مقام المحبة
قالت **أبنة لعدوية** لو كان حبك صادقا لأطعته، إنه الحب لمحب وطوع
فيأذراعي العلاء والسبل الموصلة إلى حضرة القرب، والتمسك حتى يصل فيكم
إلى ميب اللبيب والسوق، ويأنس بظهوره، ويفتح في حبه، فخذ
الحنية نسا بسبب البعد الذي يقاسيه الحب بسبب المحبة الكثيفة والظلمات
حتى إذا جهده رسول ربه فرح لقرب لقاء ربه (من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه)
وسمى كره لقاء الله كره الله لقاءه، ونرى سيدنا بلال، رضي الله عنه يقول عند الإحضار
(واطرباه.. غداً ألقى الأبهة محمداً وصحبه) فما أعظم هذا الحب وما أسمر هذا الشوق
وقالوا: (هو السكون إلى اللبيب والحسنة إلى الطيب).

(٦١) **أُسْرَرْتُ** : ما هذا الخيب بفرحة ؟ **فأجابني** : هذا قناني .. **أأُحرم** ؟
 (٦٢) **فصبر** : فأجابني : لا صبر طي والصبر عنه سلب طوي لا يكرم

تساءل عنه سيب هذا البقاء في بوتقة السرور الذي عظم ؟ فقال له : إنه هذا
 معه الحب وغاية التي يروى ما هذا فكيف أعطى غيره : إنه لأمر عجيب ..
 لا يمكن أن يكون .. كيف ليقت المحبوب (الغير محبوب) ؟ ..
 رجاؤه بالصبر على أي آلام وجده ، فرد قائلاً : إلى لم أظنه ذلك بل
 ، ألا يغار الحب على محبوبه ، والغيرة منه أوصاف المحبة ، وإن صبره على انتقال
 المحبة من المحبوب (الغير محبوب) هو كسب طالح لا يجد في هذه المحبة ، لكنه هذا الحب
 لم يدر للوهلة الأولى أنه [سلب العموم لا يعني عموم السلب] لأن
 المتروكة وتالم لكنه بعد ذلك يظنه وليقدر ..
 قال **باب الفارصة** ، **عنه الله** :

وبانت فأعاسه صبري فخافني وأقا هفولي بالبقاء موقفة
أدب : منه أدب المرید مع رفوانه أنه يراقب قلبه من جهة إخوانه فمهما
 حدث له تغير في قلبه من أهله من الماشية فليصع في إزالته وليظنه بأهله
 خيراً ، ومنه مقومات الصحة أنه على المرء لو أصدر من الأهلية فعل أو كلام
 فيه أذى فيما يبذله احتمال الأذى منهم فربما والله كما تصوره أذى
 لم يكن فكدهم لا يذاؤ ، أو أنهم جهلوا بأنه يؤذيه فيه أنهم ما نوا
 يدعيونه لإسعادهم وذلك لا فائدة الطبع والآراء .
 فما جعل نفس هينة لينت طيبة ، تقبل كل ما يأتيه دونه صدم أو
 صدم ، وأهله الظن فمالم تستطع فلا تفكر فيما جرى ووقع في نفسك
 فياه الخطوء الضير على مثل ذلك وليجت في الصحة وسر في طأ .

بأذنه .. لا تفكر فيما جرى وما به هي تتعود على الجاهل والتعافل عنه عيوب
وزادت الناس بهم جميعاً فإنه السبب العاقل هو الفطنة المتعافل كماله
قال الإمام الشافعي رضي الله عنه وأرضاه:

قيل: لمجد به المنكر. رحمه الله: أي العمل أحب إليك؟

قال: (إذا قال السرور على المؤمن) قالوا: فما بقي منه لذلك؟ قال:

(إلا فضال على الإقواء) - أي - جبر القلوب .

- وإليك وصية الإمام الرابع المجدد مولانا قال البغدادى الفقيه:

أعمل الله درجاته دائماً وأمداً بمجده:

(كنه مع الله بالصدق، وكنه مع الشيخ بالطهارة،

وكنه مع العلماء بالتواضع، وكنه مع الفقهاء بالسخاء، وكنه مع الفضل بالثقة،

وكنه مع الأهل بالإتصاف، وكنه مع النفس بالصبر، وكنه مع الدنيا بالذم،

بالنصيحة، وكنه مع الجاهل بالسكوت.)

قال سيدنا أبو الدرداء رضي الله عنه وأظناه:

(إذا تغير أقوالك وحاله عما قام عليه فلا تدع له جلد ذلك فإنه أخاك

يعود مرة ويستقيم أخرى.)

وقال إبراهيم التيمي رضي الله عنه:

(لا تقطع أخاك ولا تاجر به عند الذنب بذنبه فإنه يرتكبه اليوم ويركبه غداً.)

وقال: (لا تحذروا الناس بزلّة العالم فإنه العالم يزل مرة ثم يركها.)

وقال الشيخ محمد الحافى رحمه الله:

(أما كونه أظف فلما فيه من الرفع والتعطف والسمالة المفضية إلى الرجوع

والتوبة لا ستمار الحيار عند دوام الصحة، ومهما قوطع وانقطع طمعه من الصحة

أصبر واستمر وأفا كونه أفقر فله حيث أنه الدهوة عقد يزل عقلة لغيره.)

فلما انقضت تأكد الحقد ووجب الوفاء بموجب العقد ومنه الوفاء أنه لا يرمله أيام
فقره وما جبهه وفقر الديه أشد منه فقر الدنيا وقد أصابته هائجة وألمته به آفة
افتقر بسبيل دينه فينبغي أنه يراقب ويراعي ويدبر بل لا يزال يتلطف به
ليعانه على الحال من عه الواقعة القى ألمته به والأفقوة عِدَّةً للفتيان وهادن
الزمانه وهذا من أشد النوائب (١) في
وهذا حال المرشد لا يزال يتلطف مع المريدين ولو كان كثير الذنوب ولا يفرقه
بذنبه أو يوقظه بل يتلطف معه بالصحبة حتى يخلصه من المصيبة
التي ألمت به منه فانه له مرشد فليقتدر به.

(٢٨) وتَدَاعَتْ الْأَفْرَاحُ فِي يَمِّ الْأَسَى وَفَبِأَشْعَارِ السَّعْدِ قُلْ لَا أَعْلَمُ !

فلما نطعه بسبب ألمه ازداد ألماً وما بقي من السرور قد تبادى على جنبات الموقف
في ذلك البحر العظيم من الحزن والألم. وعبر باليم [البحر] وتداعى الأفراح فيه
لبانه حدة الحزن واتساعه. ولم يبق فرح وبرد ذرة من سرور وما
السرور قد غمره بالآلام واشتفى ولم يبق له أثر. وهذا الوصف من
السرور الذي هل وقد أد أنه يؤذنه بعمومه ندد شي بظلم الحزن الذي
يلبسه. وكأنه لم يكن من قبل أبداً.

قل لا أعلم، أنه هناك سروراً قد طاه. نظراً لانه الحزن والرأس الذميمة عمالها
قال حسن البصري في ماله عبيد وغريبة. والله الجمال بديعة وغريبة

يا من أعيد بهاله بجلاله
ألم تكن عيني فإلك نورها
ألم تكن عيني فإلك نورها
لم يبق لي سر أقول تديعه
هذا عليه من العيون نصيبه
ألم تكن قلبي فأنت همي
عني ولا قلب أقول تديعه

(٢٤) هَمَّ مَلِكٌ رَأَى الْجَبِيبَ يَجِبُ

(٢٥) أَنْتَ الْجَبِيبُ أَنَا لِحَقِّهِ وَالْه

(٢٦) أَأَرَأَيْكَ تَرْضَى عَنْهُمْ وَتُحِبُّنِي

فَأَلَّا تَقْبِلُهُ بِدَمٍ يُسَجِّمُ

بَلْ عَنِيْعٌ . . وَالْقُلُوبُ مَنِيْعٌ لِنَفْسِهِمْ

هَذَا شَأْنُكَ أَمْ تَقْصِيْ غُرَّتِيَا بِحُجْمٍ

هذا دليل الصدق في المحبة، وهذا فطرته أنه [الحب العموم لا يعني عموم السلب] فرغم ظنه أنه ظالم صده جيبه نراه وفيه لم يتركه لتقصير يرى منه موهبه أنك تقصير، إذ قد نجاني المحبوب بحبه تعلما له وتاديبا وتمكينا هذه الحية، وقبل هذه المحبة لا يؤثر فيه القرب والبعد، بينما الحب الطبيعي المعروف يؤثر فيه القرب والبعد على قدر القطعية، فقد يكون القرب سببا لزيادة المحبة وقد يكون سببا للتفور ببعده المحبة لأنه بالقرب تجلي حقيقة الوهم، واللذة المتوهمة في الحب الطبيعي الفاني السريع الزوال، وكذلك البعد قد يزيد الوهم وقد يقطع الود أحيانا، وذلك لأنه ليس للروح الحظ الدؤوبي، وإنما الحظ الدؤوبي للنفس الأماراة بالسوء وكما تعلمونه [لذلك كن حكما القل].

قال الشاعر: «جرير»:

لَا تَحْسَبُوا أَنَّكُمْ عَنَّا بَغِيرُنَا إِذْ طَلَمَّا غَيَّرَ النَّأْيُ الْمَحَبَّةَ

ويقول: «أبو داود الطائي رحمه الله»:

(أه مودة يغيرها قلّة اللقاء لمودة مدفولة)

لأن الحب الصادق يعني المحبة وله ثلاثة أوجه: الأولى هي المحبة المحبوبة وإياه فإن المحبوب سببا لزيادته، بكنه عند تركه وصفا لا يفسد الروح لا الجسد، والآخر واج لا تجب عنه بعضه إذا احتاجت النظر الحماقة محبوه ليل عن ما جادته ليل قال: [دعني حواء حبيب سخطني عنك]

وهذا هو القطار في المحبة .

وإذا رأيت طبيعة لا وقلة لقراره محبوبك فصله . والعمل بقول طيب
الأعظم عليه الصلوة والسلام عندما سئل عنه الخلق الحسن ؟ فقال
عليه الصلوة والسلام (أنه تعفو عنه ظلمك ، وأصل من قطعك ، وتعطي من حرمك
وقالوا :) أهل أمرك عند سدة أفيلك على اللب . وعند طبيعة على الوصل
وانظر لفعل الشاعر وقوله :

وكنْتُ إذا الصديقُ أراد غيظي على صنعة واسترقني برقي
غفرت ذنوبه وكظمت غيظي مخافة أنه أظلم بالاصدق

القلب هو المحب الأول . بل طبع المحبة يستقي منه كل المحبة هوله . وكل
منهم يأخذ من محبته على قدر استعدادهم . فكما أنه مضغ السم الذي فيه
حركة الجسم وحياته . ومنه يتوزع السم ، إلى الجسد كل حسب كفايته
وتحملة وماجته . لأن هو . القلب . أصل المحبة ثم تتجلى الآثار على الجوارح
شعاعاً للصدر من القلب من السرور أو غيره . لأنه أثره سرور الجوارح فطقت
كما هو أنه عزه عزت وأتأملت . وإني سعد سعدت لسعدته وفرحه .

قال الشريف موسى : أفديه إني فقط الطوى أوضيحا . ملن القواد ثم لمسى أنه أضحا

من لم يذمه ظلم الجيب ظلمه هو أفقد همل المحبة وأدعى
هل في قوادك رحمة لطيم ضمت هواك في قوادك موبعا
هل من سبيل أنه أت صبا بتي أو شكري بلواي أو أنظر عا

ويقول الشاعر في معنى القواد :

لأنه علمت بالتفريجه قلبي فأنت بخا طري أبداً مقيم
ولكنه للمعانيه لطيف معف له سأل المعاليه القليم

(٤٧) **دُرِّ بِرْ** نَظْمُ **الْحَبِيبِ** لِلْوَعْدِ : مَا قَانَهُ هَذَا ظَنُّ **حَبِيبٍ يَعْلَمُ** ..
 (٤٨) **أَنَّ** **الْحَبِيبَ** فِي **الْفَوَادِ** لَشَرَطِ وَغِيَابِهِ يَعْنِي **الْحَبِيبَ** لَعَدَمِ

وهنا يوضح للحب أنه سلب العموم لا يعني عموم السلب وأنه هذا تعليم للحب أنه لا يظن بحبوبة حورا أبداً لأنه للناس عليه حقوقاً وعليه أنه يعطي كل ذي حق حقه.

نظوه بالمنهج الذي عليه الأهمية ليزيل ما وقع في القلب من خواطر فقال **[ما قانَهُ هَذَا ظَنُّ حَبِيبٍ يَعْلَمُ]** عتاب لطيف لا سدة فيه ولا استعزاز فليم يزد العقب بل زاد به برود القلب وراحت وأكدر على أنه محب في قناعت لا مدعياء وأنه قبيل هذه الحبة منه مما أتلج القلب وكظم الغيظ وشرح الصدر ليطمئنه بذلك الحب المحبوبة ويتقبل منه عتابه وعلامه ومثل هذا العتاب هو هذا نوع الحببة التي فيل تسويج الصدر والقلوب وتطمئنه فيل وهي ثمار الأوداء **[مجرد]** ودليل الضم خواطه حسه ومرقان التسوية لما يرى منه نصيح أفيه له ولولا محبته له لما نصحه فيزداد الميل إليه وكذلك التسوية ويقول نحو حديثه وهو راحة الوجد بهب الإطمئنان إلى مبادلة المحبة ولما المسفة الناصح وهو الحببة لما في الدافل ومنزل الإلباس عنه الحبوبة والمحببة ومجاة من دائرة الشكوك والظنونة والروهام **مطلب:** **[أَنَّ** **الْحَبِيبَ** فِي **الْفَوَادِ** لَشَرَطِ] في هذا قول أصولي.

الحببة شرطاً للقلب، وتعريف الأصولية للشرط **[هو الذي يلزم من عدمه]** والقلب شرط يلزم من عدمه العدم أي غياب القلب يلزم غياب المحبة والشرط في التعريف **[ولا يلزم من وجوده]**

وجود ولا عدم [إذنه عدم وجود القلب يلزم عدم وجود المحبة وهذا
التعريف ينطبق على الشرط الثاني] **وعلايه** يعني المحبة لعدم [وليس
لعدم] لأنه المعنى يصح توحيد ثم لعدم والعدم للمكانة الوجود الذي
قانه ثم عدم أما لعدم هي الأصل مع تعريف الشرط أي **يدو** وجود لا
أصله لعدم وجود شرطه وهو القلب **فلا محبة بدونه قلب**
أما وجود القلب لا يلزم أنه توحيد فيه محبة أو لا **فالقول قائم لا**
الإلزام إذنه هو [معنى الحبب] **الاستم** وهذا مؤكد لقوله [بل منبع
والقل في لئس]

[اللوغة] اللوغة عند المحبة دائمة لكنه هذه لوغة مختلفة فاصلة **فأخوف** لتغير
مرجى المحبوب بالمكانة **والحبة** تنبع من القلب لتتبدل بتأثيرها على من يحب
إلى باقي الجسد **فالدم** ينبع من القلب نظيفاً صافياً ثم يسري في الجسد
ويعمل بكونه قوياً تطهى على العقل فتدبر في تأثير فيه أنه القلب معني
ومرتفع ومرتاح **الحبيب** الذي **الاستم** والأسلم ليرتاح فيه إليه **فلولا** القلب
ما كان البقاء ولا السرور ولا الفناء **ولذلك** المحبة كما قلنا
عقد حب الوفاء **فبغنة** به سداح يد فلهم الموت من أجل أنه
يتم من رقة ويعترف به والله ثم يكف من الزواج **بابنة** على **عملية**
فل ذلك لغاية القرب من المحبوب **والفناء** لأجله.

يقول الله عز وجل **لا اله الا هو** **المؤمنين** رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه
فمنهم من قضى حاجته ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً **ليجزى**
الله الصادقين بصدقهم ويعذب المنافقين **له** شاء أو يوب عليهم **إله**
الله ما عفو راء **هيا** **الذوات** **٤٤**
فأول صدقوا **ليجزى** **الذوات** **٤٤**

فأبى إلى الله.

انظر إلى الصوفية بذلوا حياتهم وأعرضوا عن الدنيا وما فيها وهاجوا
وسمروا الليالي ضارعيه إلى الله طالبيه رضاه ورضى هيبته عليه
الصدارة والسلام.

والحال ألا سعى في صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم رضي الله
عنهم جميعاً بذلوا أرواحهم وهم يتدافعون إلى الموت فدى لرسول الله
«فأني ذهبت إلى أخصاري فوضعتهم في عمير» وباقي الصحابة رضوان الله
عليهم أجمعين بشرهم الله سبحانه وتعالى بقوله:

«لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة» الفق

«القد تاب الله على النبي والمؤمنة والمؤمنين» نوبة ١١٧

والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم

بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجري تحتها

الأنهار خالدون فيها أبداً ذلك الفوز العظيم» نوبة ١١٨

قال حمزة بن الزبير رضي الله عنه:

لما جئنا الناس وتهيؤوا للخروج قال المصطفى صلى الله عليه وسلم ودع

عنكم فقال عبد الله بن رواحة رضي الله عنه:

لكنني أسأل الله بدمعة فقيرة وضربة ذات فرخ تقذف الزبد

أوطعت بيدي هراة مجبرة بحربة تنفذ الأشياء والكبد

حتى يقولوا إذا مروا على جدي: أرسلك الله من غار وقدر شدا

فرخي: واسعة الزبد: رغو الدم هراة: شديد بطش مجبرة: سرعة القتل

ولما استعرت المعركة قال سيدنا جعفر رضي الله عنه بعد أن

استقام الراية من ريد رضي الله عنهم وأرضاهم:

يا هبنا الجنات واقتربنا
والروم روم قد دنا عذابا
صليبة وباردا شرابا
حاضرة بعيدة أنسابا
علي اذ لا ميعاد صوابا

ثم استشهد رضي الله عنه ما رماه فاستسلم الراية عبد الله بن رواحة
رضي الله عنه فأنشد:

أقسمت يا نفس لتتزلزلي
لست زلت أوتكرهنت
لأنه أجلب الناس وكروا برته
مالي أراي تكرهية الجنة
قد طاد ما كنت مطمئنة
هل أنت إلا نظفة في شنة

ثم قال:

يا نفس إنه لا تقتلي محوي
هذا همام الموت قد صولية
وما كنت فقد أعطيت
إياه تفعل فعلها هدية
فربيع للقتال وأبلى بلادنا حتى استشهد كما استشهد صواباه
رضي الله عنهم أجمعين ما ضاهم.

ورسول الله صلى الله عليه وسلم بخير الصحابة الكرام بما جرى في
مؤتة ويقول وهو يذرف الدموع:

(قاتل زيد حتى استشهد واستسلم الراية) بمفره وقاتل
حتى استشهد واستسلم الراية عبد الله بن رواحة
سكت صلى الله عليه وسلم قطعه الناس أنه عبد الله بن رواحة
سئي ثم قال صلى الله عليه وسلم (وقاتل حتى استشهد واستسلم
الراية سيفه سيفه) وهذه السكت به ذكر
استسلم الراية واستشهد عبد الله بن رواحة إنما كانت بين استشهاده في المركة
وهذه الحجة أرفقت الذراع في سبل محبوبه ويقول مؤكداً لهذا الأمر.

(٢٩) لَوْلَاكَ مَا هُطِلَتْ عِيُونُهُ بِدُفْعٍ وَمَا تَفَانَتْ فِي الْعِظَامِ عِظَائُهُ
(٤٠) هَجَرَ الْحُبُّونَ الْمَنَامَ بِبَيْلِهِمْ وَغَدَوْا سَيَاهُونَ الْحَبِيبَ لِقَائِهِمْ

النصائح بالحب تحريك للقلب وتأهيج للشعور الوهابي وتأصيل لحنود
الحبة وتقوية لساقها فلم يبدؤا شرعياً ولا مبدئياً شئياً من أعاصير الوشاة
أو أذى الطساد وهكذا يجب أن تكون الحبة بلبه الماسية وببسه لذهاب
الصالحية وقال حبيب العالميه عليه الصلوة والسلام:

(إِذَا أَحَبَّ الرَّجُلُ أَطَاهُ فَلْيُخْبِرْهُ بِحَبِّهِ بِرَأَاهُ)

فيزيل بذلك الخطاير السيئة والسواث المعركة التي تولد البرود وسود
الظلمة الذي يشرف في المحبة وربما يقطعها هذه هي العلة من الإخبار
وإذ أتاكم مثل هذا المهم صارعوا بها حقيقة لا وهمياً.

وترى سلفاً الصالح رضي الله عنهم قد بذلوا كل شئ بسبب هذا الحب
تركوا الدنيا ولذاتها وألقوا أرقادهم فهاجروا المنام ولذاته من
أجل أنه خلوا مع حبيبهم الأول مولاهم وقال لهم عز وجل: سَيَاهُونَهُ
وَيَدْعُونَهُ وَمَنَاهُمْ أَنَّهُ يَجْعَلُ لَهُمْ لِقَاءَهُ الْعَزِيزَ وَهُوَ هُنَا وَهُمْ وَمَنَاهُمْ
وَمَنَّتْهُمْ سَعِيدٌ رِضَاهُ عَزَّوَجَلَّ لَا يَبْغُونَ جَنَّةَ وَلَا تَخْشَوْنَ نَاراً
لأنه مولاهم رضي عليهم وأسكنهم في عميم رضوانه.

قال الشاعر: نِالَ الْوَصْلَ مِنْ سَمَرِ الْيَالِي عِلَا الْأَقْدَامِ وَاسْتَحَالَ لِقِيَامُ
وَنَادَاهُمْ عِبَادِي لَا تَنَامُوا نِالَ الْوَصْلَ مِنْ هَجْرِ الْمَنَامِ
فَمَا مَقْصُودُهُمْ هِبَاتٌ عَدَّةٌ وَلِلْخَوَرِ الْحَادِ وَالْخَفَاةِ
سَوَى نَظَرِ الْجَلِيلِ وَدَامَاهُمْ وَهَذَا مَقْصِدُ الْقَوْمِ الْأَكْرَامِ

عبد الله في الحديث الشريف (من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه) ومن أحب الله لقاءه أحب الله فأفضل بذلك في جمعية «الحبب» وتحتوننا»
 (والذين آمنوا أسعدهم الله) البقرة ١٦٥ / المائدة ٤٥
 عندها تتلوا على القلوب المناجيات ملولها في مجلس الرهات والسدم
 لأرواحها.

قال الله عز وجل محمد ما عبادته:

«إنه المتقين في جنات ونعيم» آخذية ما آتاهم ربهم إنهم كانوا قبل
 ذلك محسبين. كانوا قليلاً من الليل ما يهجعونه. وبالأسماء
 هم يستغفرون. وفي أموالهم حصة للساأل والمحروم / الزاريات ١٩١٥
 أعطاهم ما يشاؤون وذلك لأسباب، كانوا يأتونه العبادة والمناجاة
 في الليل أكثر من نومه على حبه غفلة من الناس وعملهم في السر أفضل
 وأهمه من عملهم في العلن أمام الناس، والسبب الآخر هو كثرة استغفارهم
 وبقينهم الكبير الذي لا يحدله بالله الغفار، وقد بذلوا ما عندهم في
 سبيل الله وقاموا بالعطف والمساعدة لعباد الله عز وجل

مطلب:

منها الله ثلاثة في ثلاثة:

(ساعة الإجابة يوم الجمعة، وليلة القدر في شهر رمضان، ووليته يومه الناس.)

قال الإمام الغزالي رضي الله عنه: «وهنا الله ثلاثة في ثلاثة:

(رحمته في طاعته، وغضبه في معصيته، ووليته يومه الناس.)

أدب: قال سيدنا أبو بكر بن أبي شيبة رضي الله عنه:

(والله الصادق لا يستعظم بليته، ولا يستكثر عبادة، لغرضه وإيمانه

المخالص.)

(٤١) إِنَّهُ الْقُلُوبُ إِذَا تَدَلَّتْ صَفُوهَا ^{لَمْ يَبْقَ لِلْأَشْيَاءِ هَالٌ قَائِمٌ}

إِذَا صَدَقَتِ الْقُلُوبُ وَتَدَلَّتْ بِالْحُبِّ فَدَعَبَتْهُ لَذَّةُ جَادٍ فَلَا يَحْزَنُ الْمَحِبُّ
إِذَا رَأَى مَحْبُوبَهُ مَعَ غَيْرِهِ لِأَنَّ الْقُلُوبَ مَعَ بَيْنِهَا الْجَدُّ مَعَ غَيْرِهِ لَنَ لَا يُؤْثِرُ
الْبَعْدُ فِي هَذِهِ الْحُبِّ الصَّادِقَةِ الصَّافِيَةِ الَّتِي تَزِيدُ وَتَقْوِي وَإِنَّهُ لَمْ يَكُنْ
هَنَانٌ لِقَارِحِ الْمَحْبُوبِ ^{لَكِنَّا فِي هَالِ الصَّادِقَةِ الَّتِي لَعِبُوهَ النَّبِيُّ}
عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَلَمْ يَرَوْهُ أَوْ لَمَّا يَرَوْهُ بَعْدَ صَلَواتِهِ عَلَيْهِ
وَسَلَامِهِ وَهَذَا يُسَمَّى (الْقَارِحُ فِي الْمَحْبُوبِ) وَإِذَا قَامَ بِهِ اشْتِغَاوُ
عَادَتِيهِ لِيُؤَامِرَ الْخَوَاصَّ أَوْ يَأْمُرَ عَامَةَ النَّاسِ وَالْظُّرْفَانِ مِنْهُ عَامَتُهُمْ
يُسَمَّى (الْقَارِحُ فِي الدُّعْوَانِ)

وطلب: يقول الإمام الأكوثر رحمه الله:

(أَرْتَبِطْنَا بِهِ) وَنَسَبْنَا انْفِصَالِي وَأَنْصَبْنَا لِي لَا يَتَفَاوَتْ فِي
الْقَرَبِ وَالْبَعْدِ (أَهْ)
(أَرْتَبِطْنَا بِهِ) مَثَلُ السُّلُوكِ فِي طَرِيقَتِنَا هُوَ الْمُسْتَعِدَّةُ وَالْحُبُّ الصَّافِيَةُ وَذَلِكَ
اِقْتِدَاءٌ بِالصَّدِيقِ الْأَكْبَرِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ الَّذِي قَامَتْ عَارِقَتُهُ مَعَ
النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هِيَ الْقَارِحَةُ فِي الْمَحْبُوبِ وَالْحُبُّ يَسْلَمُ لِلْمَا يَأْتِيهِ مِنْ مَحْبُوبِهِ
وَيَزِيدُ لِمَا فِي الْعَقْلِ عَنْهُ وَيَسْلَمُ تَفَهُهُ لِمَحْبُوبِهِ وَهَذَا يَسْتَلْزِمُ الطَّاعَةَ
الْمُطْلَقَةَ وَالسُّلُوكَ الْأَغْيَارَ وَلَهَا مَاءَ الْمَرْكُوبَةِ صَبِيغَتِ الْمَعْرَاةِ
كَهَالِ الصَّدِيقِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ إِنَّهُ صَاحِبُكَ يَقُولُ: إِنَّهُ سَرَى بِهِ إِلَى الْأَرْضِ
وَعَنْهُ إِلَى السَّمَاوَاتِ وَعَادَ فِي لَيْلَةٍ وَاحِدَةٍ أَدَا بِذَلِكَ أَنَّهُ يَفْرَمُوا
بِهِ الصَّدِيقِ وَمَحْبُوبِهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ الصَّدِيقُ
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَدَعَا عَقْلَهُ لِأَمْرِ النَّبِيِّ الْأَعْظَمِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ

فقال جوابه: **إني ما به قال ذلك فقد صدقته.**
 ومرة أخرى عند ما أتاه النبي صلى الله عليه وسلم وأخبره أنه الله عز وجل أمره
 بالهجرة قال **لصدوقه صلى الله عليه وسلم: (الصحة يا رسول الله) واقتارعه**
الله ليكون رفيقه رسول الله صلى الله عليه وسلم في الهجرة العظمى
وقال عنه النبي صلى الله عليه وسلم (ما مضاكم أبو بكر بكثرة صيام ولا صلاة)
وكنه بشي وقر في صدره)

وهذا هو مقام **الحبيبة** فالعفة والمحبة في الإبتدأ فلتعلقه بها لذهل
 قطعه عما سوى جناب الجوه تعالى وليا من المقاصد بل لذهل قصيل مقام
 العبودية إذ لا يكون عبد الله إلا إذا انقطع عما سواه والعشق والمحبة
 وسيلة الإلتحاق لما فيها من الإشتغال بالمحبوب والصدور عنه كل ما سواه
 فإنه من حب السادة النقشبندية يتشرف جذتهم له إذا أصبح مقصدا
 بنا بحبته ومن يتسبب إليه ينكس عليه من أنوارهم وأحوالهم
 فيغدو المرير به أبهى مثال للشيخ وملاذنه أو ظلاله وقائمه
 الشيخ نفسه في كلامه وحرمانه وأخلاقه فيصبح بصيغة الشيخ و
 الأدب الكرام وإذا ما كثر دأب الإلتصال به انقطاع وصار في مقام
 الشيخ لا يؤثر القرب والبعد فيه لا اتصال الأرواح.

وبار في الارغام من نقل عنه نور الهدى قال **الدهوري:**

(الولي في الدنيا كالسيف في غمده فإذا أمان تجرد عنه فيكون أقوى في الحروف)
ويقول مولانا الشيخ أتم الله درجاته دائما:

(من ينسب إلى طريقتنا لا يطرد منا فليس عندنا طرد)

وقال مولانا السكاه: كل من حال الدنيا أو انتسب إلى مجتمعاتها أو تربى لا بد أن تلحق بغيره كل يوم
وقلت: من لي بهذا الوداد أرتضيه به خلا به الروح تسوقها سلما

(٤٤) قَدْ كُنْتُ فِي سِيرِ الْحَيَاةِ مُوَادِعًا أَفْطُو، وَلَدَا أَفْشَى الرُّوْي، لَدَا أَجْرَمِ

كثيراً ما بغير المرر بقله، ويعطي نفسه الثقة التامة بأننا مثال
كل ما يتغير من أرب، وله يمنع من الاستي، وكذلك لغير بقله وقليه
على هدى وصواب ولا يقنع ببقوله من سواه، لقيام الاعتماد على عقله فحب،
وهذا خطأ، فربما يفكر الصغير تفكيراً سليماً أضيق ما يفكر به كبير
السنه، وذلك لصفا فكره انه ماله ناعياً ومركزاً نائياً عنه التداخلات
المعاشية، لكنه الأصل انه كبير السنه أو على، وأكثر انزائاً، لكنه قد سوية
تلك التداخلات فتسوية تفكيره، لذا على المرر انه لا يطلعه لنفسه
العناية للسعي وراء عقله دائماً وبشغل أعمى.
مرحلة عمر الإنسان هي الطفولة ثم الفتوة ثم الشباب ثم الرجولة وأخيراً
الكهولة والشيخوخة.

وهنا مرحلة الطفولة الوادية حيث الروح زكية، والنفس
صافية، لم تعترها الشهوات لكي تنمرد وتستعطي، فلا هدف ولا
معنى يقصد إلا ما قام به من أجل الحياة والتمتع بالمعاشاة والوصول إلى
ما يريد من دونه مانح، والطفل لا يدرك خطورة الأمور ولا يحكم لديه
انه يستوعب وقعة المصائب، وليس له من هل يسود البقاء، لذا
نراه لا تخشى بل يقدم عليها غير آبه بالتأني، وربما يقوم بما يعجز
عنه الكبار، الذية يفكره في العواقب، ويعرفونه أثر المخاطر وأسبابها،
وبتقل عام الطفل لا يميل إلى المعاصي والجرائم إلا ما حذ منهم أو
رُئي على ذلك بتجربته من الكبار، لأنه لا يدرك معناها بل يميل
إلى ما يرى فيه سعادته ولذته، وربما إذا رأى قتالاً أو صراعاً

يُطِيعُ ذَلِكَ الْمُسْتَهْد فِي ذَهْنِهِ **ويزرع الخوف والإحجام** **ويريد أنه**
يطهره ما رآه **إنه نال منه غريبه** **ولو بعد عمره وهذا سهل عليه الإجماع** **ما يؤثر على نموه** **ولم يمش في ماله نفية يائسة**
لأنه النفس لم تعظم لديه بعد **ولم يملأ العقل للراجع حتى يفكر ويتخلص**
من أوهامه.

والطفل لم تشد حال النفس لديه بل هي لينة تسير وراء عنادي لروح
 لذاته يطرعه بما سيكون.

ولذلك ما يقول في **موزينه** **في هذا المعنى**:

فهو وإن لم يبلغ درجته الكمال ولكنه طفلي الغالي **عزيزي إلى نفسي** **مد قل عند قلبي** **بجميل في عيني** **وهو بستانه وإن كان قد تيرى بيته ثماره**
ما هو فحش غير يانع **غير أن لا هديك فتؤادي** **وأزهار فكري ولي** **وهي**
من مهدي ما قدمت **وهي من أثمرت** **أه**.

مطلب: قال أبو عمرو المستقيم رحمه الله:

التصوف رؤية الكون بعينه نقية **بدفعة النظر عنه كل ناقص ليسا له مد**
منزه عنه النقص **أذا تأدب المرید بأداب الزمان والمقام والأشخاص وضبط**
هو **وراقب أهواله** **وتجنب أن يضع قدمه على الخامة المعنوية أي**
تجنب أي فعل أو خاطر يكرهه الله **فعند ذلك يرى الدنيا وما هو طامه الألوام**
ناقصة فائية **بل وتجنب الالتفات أو التعلل بما هو فاني هو يصل إلى**
السهود **ولا يلتفت إلا إلى ما لقيه عز وجل بقلبيته إليه** **لا**
يعيقه عنه ذلك عائقه **ولا تنفيه عزيمته** **وهذا أول مقام**
مقامات العبودية.

(٤٢) جِلَّتْ الحَيَاةُ بِقُلُوصِ عَلِيٍّ أَلْقَى السِّلَافَةَ مِنْهُ طُوبَى تَقْدِمُ

المرحلة الثانية [مرحلة الفتوة] يشعر فيها الفتي بنوع من طرية الواسعة ويكون ذا خيال واسع نشيط، ويشعر بقدرته على تحقيقه كل ما يريد، فيطرحه مسائل الحياة لكنه يرى طامعا طامعا تقف بوجهه تمنعه من تحقيقه ما يريد، وفي المرحلة التي تليها الخاطر أشد، فيحاول جاهداً أنه يتخذ الوقاية مما قد يعرضه له في مسيرة دربه وهو مخوف، بعقله الذي يظهر أنه ينجيه.

يريد الأمانة من حيث لا يعرف أنه هو؟ وكيف يكون؟ فينحط في هذه المسألة، ويجول في هذه الحياة في كل صوب، وفطنته عسى أنه يتغير، ويصل إلى أمانته المبتغى، ويسلم من طوبى تقدم من إقدام أي لا تتأثر بل تستمر وتصبح قديمة فلا تزول في آليكم طويلاً، وعليه أنه ينجو من هذه الطوبى حقاً لا تصبح قديمة كي لا تأمره به طوبى تقدم من إقدام من التي تأتي وتعرضه طريقه مستقبلاً، تقدم من إقدام أي الإمام أي تسبقه وتمنع، وهي سريرة من لوط بالقدم أي لشدته وضعف عزيمة وموتته أقامه وصياعه فطنته بأقدامه، فيغدو ذليلاً راغماً، كل ذلك خوف من شرور تقدم حياته، وتقسيه، وآماله، وجعلها مقوضه في ظلمة الخيال الزائف والكرب الخائفة.

فصل: قال عليه الصلاة والسلام:

(إنه المُنْتَبَه لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى).

لأنه لا يمضي على طريقه بل يتخطى بمينة ريسرة فيضيع لوقت وسيفد الراد وليس له دليل.

أذن: على الطالب أن يكون عالماً ذاهلاً وفقيراً بالأفوار إضافة إلى الإهمام
وكما قال الأئمة: **من تصوف ولم يتفقت فقد نزعها** **ج**
وليس التفقه هو معرفة الإهمام من عبادات ومعاملات فحسب بل أنه
يفهم لما يراد عليه من الأحوال في عباداته **و** يعرف كيف يفتن ساعات
التجلى بالعبادة والذكر **و** يفهم مضمون الأمر وكيفية العمل وساعاته
لكي لا يكون من الذين أتعبوا أنفسهم بعمل كثير لكنه ثوابه قليل وذلك
على حساب عمل قليل دائم وثوابه عظيم جداً **ل**كنه الخير الكثير أفضل من
القليل **و** القليل خير من العدم **ف**خير العمل أدوم **و** إنه قل
انظر إلى قول النبي عليه الصلاة والسلام **محرراً على الله سترادة من طيرة وعم**
الرضا بالقليل بقوله (سلوا الله الفردوس من الأعلى) **ج**
والحديث السابق في هذا المعنى (إنه المنيب لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى) **ج**
ولدت نفس قول الحبيب عليه الصلاة والسلام:
(أحب الأعمال إلى الله أشدها) أي راية (أهمها) ولا يعني هذا
أنه نترك العمل السافر لتحقيق أعماله نظر ثوابه لغيره فعملنا العمل
على حسب علمنا وإلزامنا فليس لنا الحق بل لا نستطيع أن نقدر ثواب
العمل ولا الحكم بقوله أولاد نكنه علينا العمل بما علمنا والله
هو المحاسب المجازي وهو أعلم لعباده ومقاصدهم
مصل: يؤتى برجل يوم القيامة وليس له من حسنة فيؤمروه بالسجود في كتابه
فيجده بطانة مكتوب عليه [لا إله إلا الله] قد قالها قالصة من قلبه
فتوضع في الميزان فتزح أعماله وتطش فيدخل الجنة
فخير العمل أدوم وإنه قل وأصدق وإنه قل فكم من صائم
ليس له من صيام إلا الجوع والنصب

(٤٤) هَتَّى لَجَأَتْ إِلَى لَوْرَى إِذْ صَحَرَتْ فِي ذَلِكَ الْكَرَى وَغَمَّ الْحَقِيقَةُ أَفْضَمَّ

ثم بعد ذلك مرحلة الشباب، ويخالط الناس عاقرهم دونه فاقصمهم لقلّة معرفته بالحياة وبالناس وبالدين، فيقع في ذلّ يغفلت عما قامه يرنو إليه، ويجهد في تعب في متاهة هذه الغفلة، ويشعر فيعدم عنه نيل الحقيقة النضرة فلا يراها، أو حتى لا يرى وميضاً منه بعيد [و غمّ الحقيقة أعظم] وأقصم أبداً. فلما ازدادت تعمّقاً مع عوام الناس وعاملته دونه فواهمهم [الصالحية] - لتألمه بنفسه التي علمها بمسلكي الأمان، والخطوة للمعار، فلما تدرّجت في الحياة، أصبحت أرى خطورة المسالك ووعور لا يعلمها تدرّجت أكثر، فلما أتقنت بسيرة هؤلاء، وهي تتبدّى لي بمظاهر حسنة رائعة فادعته ..

مطلب: إنه السير في مسلك الحياة منفرداً بلا معلم، أو صاحب علم بتلك المسالك خطر هدا، كذلك الحال في الخلطة عوام الناس [أهل ليل و نهار لغلطة] فإنهم يضرون بالروح أكثر من أن ينفعوا. وقد ما به الظن القديم بالقدرة على تحقيقه المثال منفرداً، غروراً يقع عليه جلّ الشباب، وهذا الغرور بمعرفة المسالك دفعني فأوقعتني في وحل الجول.

أدب: قال مولانا قباله البغدادي النقشبندی رضي الله عنه للشيخ أحمد سعيد مكرمه في معرضه الاعتذار لما طلبوا منه السماح لهم بالخلطة:

(أنا ما جئت هنا لخالطة الناس بل فراراً عنه اليوسفيناس بالناس الذي هو صفة الإفساد). (٤٥) لأنه خالطة الناس تزيد التلويح بهم، فيشغل القلب عبد الله عز وجل فتقصمه

الهمة **ويزول السؤوف** **أما** صحبة الصالحين تزيد السؤوف وتقوي الهمة
في التقرب إلى الله عز وجل .

أدباً منه قال **أنا** غريب فلو بعيد **ومنه** حال أنا بعيد فلو غريب **هذا** مع
الإيقان بالقول **لأنه** المرء كلما ازداد علماً كلما رأى جهله أكثر فيظنه نفسه
بعيداً وهو غريب **والجاهل** يظنه نفسه عالماً وهو بعيد عن العلم وهو يدري جهله
لأنه في ظلمة جهله **والعالم** لا يرى محله **لأنه** في نور علمه القوي **لذا** على
المريد أن يرى نفسه **ولا يفرح** به **رأها** تنزعها وتزداد علماً أو تقرباً **فإنه**
ذلك **لشور** يقصيه عن حقيقة

لأن لا يظنه نفسه مقرباً **إلا الشيخ** ولا يظنه ذاته صالحاً **إذا** ما قرّبه
الشيخ المربي **بل** عليه لئيم ولتزداد من لطافة وتقوى ولتقبل في نفسه
إلى شيء **لذلك** يقربني الشيخ حتى أتوب مشقة علي **وإذا** غصه الشكر
عنه الطرف ولم يلتفت إليه **ومأنة** لا يعرفه فليقبل إلى شيء من أهل
المعاصي لم يعرفني **لأنني** لست من الصالحين **لذا** على المستزادة من الحاجة
هذه المعرفة **تكشف** هذا الجهل فلما أصبح عالماً عارفاً بزيف ظنّه
بشيء له **أنه** لم يصل بعد إلى الحقيقة **بل** لم يصل إلى طريقها فهو
يسير بدونه طريقه **دلالة** **ويبتعد** عن الحقيقة شيئاً فشيئاً .

طلب: التصوف أقدم من وهو سهل محتاج إلى معرفة تامة وعقل
راجح **ومضبور** وتسلیم مامل **ومكانه** قوي **منه** نفسه **حتى** لا يحكم عليه
ألا غرامه **التفنية** **وليجعل** القرآن **أما** **فلقد** القرآن **فالتصوف**
أمر سهل لمن أخذ من أهل هذه الطريقة **على** يد مرشد مرئي **محقق** و
مستقيم **لأن** المرشد المربي **ولا** يجعل في قلبه اعتراضاً على فعل المرشد **و**
ليجعل ما يظنه عالماً عنده بعيداً **ولقد** يستنبط لنفسه **أهلاً** **منجزة** عن
مزاياه **الحق** **فينفذ** **منه** **الذي** **فعل** **معه** **وهم** **يحبونه** **أنهم** **يحبونه** **منها** .

(٤٥) فَأَفَقَتْ نَبِيَّهَا ^{وَالْأَمِي} وَأَفِي تَائِيَّةً ^{وَالْأَمِي} وَنَطَّ الظَّلَامُ بِهِ الضَّيَاحُ ^{وَالْأَمِي} أَمِي

مرحلة الرقولة هي مرحلة الإدراك والوعي وقد تكونه فصنعت مرحلة
الشباب فأقامه من عالم الغرور الميَّطر عليه الغرور بالقدرة على العلم
الصعاب فتفردا وهذه هي بداية الصحو من سكر الغفلة
ولنتظر كيف كبر عنده هذه الصورة في يومئذ ^{قال}:

(ليجد نفسه منظر ما أبهى تدفيع ليل أسود مظلم قد توارت
من سمائه النجوم في فلاة فاستعصا لا تجوب على أرضا قد
ولا يرعرع في سماء جناح وقد أطبوع عليها جوف من النسيان
الذهول) وفي أحسن به حق يشعر أنه افتقده.

أقامه وانتبه من غفلة الجهل الذي يتخبط فيه ورأى نفسه
مقيدة بنير الجلالة في ظلمات فلاة النسيان فلما حاول أنه ينهض
من رقاذه أثقلت الأحمه وهكذا أنه أشبه ما يكون برأس
ومناحه يحاول أن يفتح عينيه يحاول أنه يصحو لكنه يغلبه النسيان
فينام ليميل برأسه إلى الأرض وهكذا واليك يتأرجح بين
صحو وخوم بين نهوض واسترخاء للأفول أو عينة وسيرة
كدمية لينتبه بين يدي طفل يلاعبه ويقابل دمه استقرار

وقال ^{البوصيري} رحمه الله:

والنفس في الطفل أنه تامله شئ على ^{حب} الرضاخ فله تقطعه تقطع
هذا الطفل الذي يلعب به فيقه هو النفس التي تلعب بصاحبها لترديته
^{مطلب}: سكر الغفلة أسند من سكر الخمر لأنه سكر الغمرزول
لمرغمه فيصحو لكنه سكر الغفلة لا يصحو إلا بالموتة لا بإقارب

فَتُؤَمُّ عَلَيْهِ مَهْلِكَةُ الْعُقُلَاتِ .

قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ (لَا تَجَالِسُوا الْأَمْوَاتَ فَيَمُوتَ قُلُوبُكُمْ)

يَعْنِي لَا تَجَالِسُوا الْأَغْنِيَاءَ قُلُوبُكُمْ يَمُوتُ . فَيَمُوتُ فِي مَجَالِسِهِمْ عَمَلُهُمْ فَقَطْ . بَلَّغْتُمْ اسْتَقْرَبْتُمْ ؟ بَلَّغْتُمْ ؟ ...

وَيَقُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ (الدُّنْيَا جَبِيضَةٌ نَضَّتْ وَطَلَّابُهَا مُثَلَّانِ)

مطلب: أول منازل العبودية [اليقظة] وهي [تزعم إلى روعة الانتباه منه

رقعة الغافل] . فَا تَقْعَلُ إِلَى مَنْزِلَةِ الْعَزْمِ عَلَى الْمَسِيرِ وَمُضَارَقَةِ كُلِّ قَاهِلٍ

وَمَعْوَةٍ وَمُزَامَقَةٍ كُلِّ مَعِينٍ وَمَوْصِلٍ فَإِذَا اسْتَيْقَظَ جَاءَتْهُ [الفارقة] وهي

[تحدث القلب نحو المطلوب] . وَإِذَا صَحَّتْ فِكْرَتُهُ جَاءَتْهُ الْبَصِيرَةُ فَقَدْ

عَمَّ شَرَحَ « شَطْرُ بَيْتِ الْعَارِضِيَّةِ »

وَقَالَ فِي « زِيَةِ الدِّيَةِ عَيْدٍ » قَصِيدَةً بِعَنْوَانِ « أَلَمْ دَهْشِرَةِ » :

أَدْنَى السُّرُورِ ضَمِينٌ فَلَا نَزْلُكَ صَبَاباً وَلَا فِي الْمَسَا

فَهْدٍ رَحْمَتُ بَيْتِكَ فَهِيَ هُوَ الْبُؤْسُ وَالْخِزْيَةُ فِيهِمْ سَا

ضَبَابُ الْإِهْمِ كَسَاهِمٌ فَلَا ثِيَابٌ عَلَيْهِمْ إِلَّا الْأَسَى

وَلَوْ أَنَّ سَتْرَهَا رَفَعَهُ الْإِهْمُ رَأَيْتَ الْعَجَابَ وَلَهُ تَحَا

فَلَوْ أَنَّ كُلَّ الْقَوْمِ أَقْوَاتَهُ وَكُنَّا عَلَيْهِ صَبِينَا الْحَسَا

فَلَمْ يَمِدَّ الْغَيْظُ أَعْيُنَهُ وَلَهُ يَفْتَحُ الْقَضَمُ لَهُ يَبِينَا

وَقَالَ سَيِّدُنَا عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ :

(فَاتَّقُوا اللَّهَ عِبَادَ اللَّهِ ، وَجِدُّوا فِي الطَّلَبِ ، وَبَادِرُوا بِالْعَمَلِ قَبْلَ هَادِمِ اللَّذَاتِ ،

فَإِنَّ الدُّنْيَا لَا يَدُومُ نَعِيمُهَا ، وَلَيْدَتُومُهُمْ خِجَانُهَا)

وَقَالَ عَمَّا الدُّنْيَا (غُرُورٌ عَائِلٌ ، عَسَادٌ فَائِلٌ) ع .

(٤٦) تَهْدِيهِمُ الظَّالِمَاتُ إِلَى الْخَوَافِي هَيْبَتُهُ شَرٌّ لِي جَيْشِي وَتَقَرُّمُ
(٤٧) طَوِي الذُّنُوبُ بِقُلْ عَبْدٌ قَدْ هَوَى وَهَوَى النُّفُوسُ إِلَى الْبَوَارِ يَلْجِمُ

لما استيقظ رأى نفسه في ظلمات الجهل التي تتقاذفه بأمواله المتلاطمات وإليه السُّرُورُ لتخطيه إمامة الحياة الجائفة بفريسة وإنه بسببه تزداد غفلاً وشراسة شأنه الحياة الجائفة عندما ترى اللحم وتستهيه وتزداد رغبةً واندهاشاً لا لئلا يترك نفسه بيد تربية وأطلعها العناء وهو واقع بما يملأه عقله الجاهل بالحياة وصروفها فأغراها بالشهوات وأذاعها لما طربست ظناً منه أنها ستكفه لكنه الشقي منه وعظي به غيره وقد قال الإمام أبو بصير رضي الله عنه فبشر على فظورة هذا المسلك فلا ترمم بالمعاصي كسر شهواتك إنه الطعام يقوي شهوة لنهم نعم فالنفس الأمارة بالسوء تؤدي بالتباعد إلى الردى والفصل والبعد عن الحق الذي لأجله خلعه الإنسان ولهذا أدب زكراً دائماً عالم طوبى بالجاهل والصالح هي شهوة الروح على النفس وتعلم على قال الله عز وجل:

«وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمْنَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا وَقَدْ فَابَ مَن دَسَّاهَا» الشَّعْرُ ٧

ما غلب على نفسه به فهو قال أبو محمد الحارثي رحمه الله:

(من استولت عليه النفس صار أسيراً في عالم الشهوات) في صورة في سجن طوى فخر سم الله على قلبه لفوائد فلا يستلذ بقلعه ولا يستعمله وإنه كثر تردده على السادة

(٤٨) فَمَعْقَلٌ .. وَنَزِيلٌ لَشَهْوَةٍ ؟
 (٤٩) يَا بَنِي الْأَمَالِ .. هِيَ عُدِيَّةٌ
 قَدَّرَ فَإِنَّ الْمَعْقَلَ فِيكَ لَمُسْتَقَمٌ
 رَفَقاً بِرُوحِكَ ، إِنَّا نَسْتَعْدِمُ

وَتُعَى بِمَعْقَلِهِ وَنَفْسِهِ وَهَوَاهُ قَطْرُهُ بِذَاتِهِ التَّعْقَلُ والتدبير أحسنه وهو يعلم أنه لو كان ذلك الظن صحيحاً فلم الخوض لذل الشهوات لظانية قَدَّرَ أنه ذلك الظن غيبه وغروره كما أنه العقل الذي يزعمه ناضجاً هو في الحقيقة سقيم بغروره عليل بهواه إذ لم يفتي من المال الكثير هنا العقل في مخيلته وهي لدى التحقق وهذا يؤكد سيطرة المفارقة والغرور بأمانيك كحقيقه أي شيء ربما صعب وعزٌّ وهذا يدل على كثرة الجهل وسور الفهم ودليل ذلك أنه ذليل عند كل فادح وضعف أمام ما هو أضعف منه وما يخزيه وينزله وتجعله يندم حتى يضح رأسه في التراب فتعلوه القمات وهي الغبار في محاولة غيبية منه ليوفقا لنفسه عما لا يفرس وهذا يعني سيرة ما يجده في قلبه وضميره من الإلهاب وإرادة الوثاق في مال العجز الفاضح أنت الذليل لقل أمر لقيم والبعض لا يحس بالندم لأنه قلبه مات بل جاهر بذهله ومعضيته أدب يقول الإمام السهرندي رضي الله عنه :

ينبغي للمسالاة قبل بلوغه كنه الأمر أنه بعد تقليد علماء أهل الحق لا زحاً لنفسه مع مخالفة كشفه وإطامته وأنه يعتقد أنه العلماء حقيرون ونفسه فطنت لأنه مستند العلماء تقليد الأبياد عليهم الصلوة والسلام المؤتدية بالوحي المعصوم فيه عن الخطأ والغلط وكشفه وإطامته على تقدير مخالفتهم للأحكام الثابتة خطأ وغلطاً

(٥٠) دُنْيَا أَتَيْتُ بِهَا ... أُمَّ الْحَلَمِ الْمَرْوُوعِ نَيْشِي فِيهِ الْفُؤَادُ وَيَقْلَمُ

كل ما تقدم من سير وخطبات في صروف الحياة وما لقيت من المصائب جعل لها المراد في هيرة ميامره والتبست عليه الأمور فلم يميز بين الحقيقة والباطل وإبهامه البلباء والفتنة التي طامسه فيها والشبهات التي رآوده من كل جانب جعلته لا يفرقه بين الحلم والحقيقة ولا بين النور والظلام ولد بين الشك واليقين فلم يعرف ليله من ليله فقال لها مصيبة له فترادى له الشك وأزاحه مخيلته ومجود طريقه آفئة أو صبيحة فخلص ناصحه لكثرة ما رأى في سيرة الجاهل من أناس يزيدونه أذيتا في إبطار النصح وثياب الناصح فيثخن من الخلة ومثانه يقول

فلا زاد فأهملته لدي	ولد رزق كلف به قصاي
فمالي في الحياة من صديقه	ولد صخب ما لقيت إلهاي
ولامته ناصح عدل صديقه	نيا صرختي بلا همز العتاب
وسار القل في هجرى وأقصوا	كنائي الراجلات من العقاب
وصرت كذرة تلقى مرارة	على جمر العضا يحيى التلاي
وصحبي قد سر بلهم فساد	تعيت به وكما في السحاب
طامعت وهل بظلم قد هجرت	سؤال قد نجاة لله محاري
مضيت صحابي لا أرى خيلا	لعلني أحتدي حسنة الإياب

هذه الحيرة أخلت بتفكيره فلم يميز بين البقعة والناس هل هو سيئ في الدنيا؟ وهل بما فيه ظلمة؟ ومنه من؟ أم هو في عالم كرى حلم مروع يقطع الخلق قاسم؟ ترى هل كانت الأيام تمضي على الحياه سكرى في اضطراب ثم يبين سبب هذه الحيرة والدافع لها فيقول ...

(٥١) لَمْ ذَا حَوْصٍ بِي اللَّيَالِي مَضِيًّا تِ وَالْفُؤَادُ مِنْهُ الْقَلْبُ يَتَحَطَّمُ

الأحوال كثيرة، والخطوب عظيمة، وهما في ذلك الليل الذي جعل لباساً وسبباً أخذ
له مدة قبيحاً، وحقاً، قيداً يضيء، وفتكاً لحاله، وإبه اللبقة لتترلو اللبقة
وما ينقل ذلك القيد، بل يزيده ألماً، ونرى ذلك الفؤاد من عظيم ما يلحقه
من البعاد والبلاء والبغض منه هوله قروباؤهم لعدوهم، ولحرانه، وتركه هيداً
بعد أنه دفعوه لذلك بسبب الخطوب، وقد هزلوه بسبب أسياب المنية الظاهرة
والباطنة، فراه من كل ذلك يتحطم قلباً وقالهاً ويتحطم بدخله استأخر
والأما سبي.

فصل: يقول سلطانه العارفي سيدنا أبو يزيد البسطامي رضي الله عنه:

(بجالة العارف تدعوك مدست إلى سبت:

(من السلك إلى اليقينية) (ومن الرياء إلى الإخلاص) (ومن الغفلت إلى الذكر)

(ومن الرعية إلى الدنيا إلى الرعية في الدرة) (ومن اللبر إلى التواضع) (ومن الورطوية إلى النصيحة)

(من السلك إلى اليقينية) أنت في موضع خطر وخطأ، والعارف في مقام صحيح أكد فإياه

بالسنة انتفعت به، وإبه القرية إلى المقارنة نسب، وأنت في موقعك على خطأ لأنه

النفس ليس غير مذبذبة وغير مضطربة، والعقل فيال للهوى غير مصوم ولا

محفوظ، فاهمال الخطأ كبير ليدل، بينما العارف موصول برسول الله صلى الله

عليه وسلم، يستمد منه، ويلقيه، والحبيب الأعظم عليه الصلاة والسلام

يؤدي إليه وهو مصوم، وتقليد المصوم يؤدي إلى المحل الذي لا يسب فيه،

وتقليد المصوم فإنه عصية، إلا أنه العصية للذنبيا فتكون فقطاً بدلة

من العصية، وهي تقوم مقام العصية في عدم الخطأ، والله أعلم.

هذا العارف يقطع من الوهم والأذى، ويظهر منهما وتقلل من

شأنه وبر الأمان، إلى طريقه الحق الموصل إلى ما يحببه الله ويرضاه، الخ.
 يقيسه الحقيقة والمجاهدة، بعد أنه كنت تتخبط في ترددات بين ظاهر الأول
 التي يمكن أن تنقصه لأظاهريته، وتتفاوت العقول في تفسيرها أو تطبيقها
 على أفرادها وكما قالوا [فانه دليل إلا ونقصه] وقد قام الإمام الغزالي رحمه الله
 يثبت الشيء بالدليل وينقصه بذات الدليل بأنه واحد، فلم يثبت بالدليل شيء عنده
 متى دفعت ذلك للدخول في مسألة التصوف، فانتقل من الشكوك والتبصير
 الأمور عنه مضافة ومجاهدة، لا فارقاً وهذا قد يكون للنفس فيها حظ
 فصار لديه اليقين بالأمور، نعم، أراد الوصول إلى الحقائق بالعقل البشري
 فعجز، ثم انتقل إلى ثبات اليقين المتولد عن المجاهدة، والمعاناة ليقال
 بصيرة القلب فيما لا يحيط به العقل فوصل.

(ومنه الرياء إلى الافلاس) قد يتعمد المرید لبعضه المقاصد والمراي لحاجته
 ما أثر للمجاهدة، أو يزداد عبادة وتقوى كما يبدو له، ويذوقه من الأول فيأمن
 به، وتزبده له النفس، ويوسوس له الشيطان، فيدخل العجب والرياء على قلبه
 منه باب الطماية، وهذا ضرر عظيم لا سيما المبتدئ، لا بد من تمييزه الحقيقة
 والخيال، ولا اله اليقين لم يرسخ في قلبه بعد، ولما يصطنع بصنفة لقوى
 المحقق [إلهي أنت مقصودي ورضاك مطلوبي] وقال الشيخ محمد طائس
 رحمه الله: (إن الجاهل لا يرى جهله لأنه في ظلماته، فتخطف منه لذات الأحوال
 فيأخذ حجوم قاتلة، ولجب مانعة) وفي وظيفة المرشد أنه لا يرضخ المرید
 إلى التعلق بهذه الأمور، ويخبره من الإغترار، لا، وإذا رأى قلب المرید قد مال
 إلى شيء فليوضع له هذا الأمر ويبيح أنه طريقه هو رضا الله عز وجل لا الرؤى
 المسماة ولذات الأحوال وقال محمد بن سيرين رحمه الله:
 (إن تعبد الله في اليقظة، ولا تغفل في المنام) الخ.

(ومنه العفلة إلى الذكر) لأنه العارف دائم الذكر لله عز وجل فلما حالته تلبث
من غفلتك وتوحيته للذكر.

وقال ذو النون رحمه الله: عليل بصحبة من تذكر الله عز وجل رؤيته وتقوم
هيبته على باطنك، ويزيد في عمالك منقطع، ويزهدك في الدنيا عملك،
ولدت نفسي الله عادت في مربة، يعظك بلسان فعله، ويدعظك بلسان
قوله، (ومنه الرغبة في الدنيا إلى الرغبة في الآخرة) لأنه زاهد في الدنيا طامع
برضاء الله عز وجل في الدنيا والآخرة، وهو كثير الطاعة والإلتجاء إلى الله، وسوء
إليه، وبصحة تنجلي غشاوات الدنيا له قلبك فتزهد فيه وتشتبه إلى
لقاء الله عز وجل.

(ومنه الكبر إلى التواضع) لأنه من زهد في الدنيا قد عرف موقعه فيها، وهم يرونه
أنفسهم فادمية لعباد الله، وقال عليه الصلوة والسلام: (الخلوة عيال
الله، وأهملهم إلى الله أنفوسهم لعياله) والخدعة تستلزم الطاعة
للذمر والتواضع في تنفيذ الأمر، وفي الخدعة.

(ومنه سوء الطوية إلى النصيحة) منه سوء الطبع الذي منشؤه إبطاءه في
أهل عيلة، والطينة التي نشأ منها، (ومنه الخلوة إلى الخلوة) والخلوة إلى الخلوة
الرياضية والمجاهدة والعبادات، لذا من يدخل إلى السلوك يعاود فقاؤه، فينتقل من
الخلوة الذميمة إلى الخلوة الحسنة، قال تعالى: (ومنه يذهب في سبيل الله يجد في الأرض مراغماً
كثيراً وسعة) النساء ١٠٠. (ومنه ينتقل من الخلوة الذميمة إلى الخلوة الحسنة بدراسة
وتميز، فإذا تجرد المرید عنه كل خلوة ذميمة وظهورت فيه الأفاعلة لم يبق عنه خلوة ذميمة،
وتكون عندها قد وصل إلى التواضع ورؤية جميع الخلوة أفضل منه، فانه ذلك نصية
النفس وتكسبه للخلوة، وهذا هو صلة إلى حبة خلوة الله، مما يؤدي إلى
الحسن عليهم والسعي لخدمتهم وتفرغهم، والعمل على راحتهم وسرورهم.

(٥٤) أَلْقَى صُدُوداً، لَا السَّمَاءُ تَضْمِنُ وَالْأَرْضُ مِنْهُ ظُلُمٌ تَصُولُ وَتُوهِمُ

(٥٥) وَالْمَوْجُ لَيْسَ بِرَأْسِهِمْ أَنْ يَبْلُ هَدْيٍ، وَلَدَالٌ يُقِيمُ وَيُعْلِمُ

أَهْلُ الْفَضْلِ وَالْإِيمَانِ يَعْرِفُونَهُ بَعْضُهُمْ سَيِّئَاتُهُمْ وَأَنُورُهُمْ، أَمَا
أَهْلُ الْعَصِيَاءِ وَالْحَرَمَانِ لَا يَعْرِفُونَهُ بَعْضُهُمْ وَلَدَعْرِفُهُمْ أَهْدَى لَأَنَّهُمْ
لَا أُسَاسُ ظُهُمٍ، وَالْإِنْسَانُ الصَّادِقُ السَّامِعُ إِلَى الْحَقِّ إِذَا أَتَى أَهْلُ
الصِّدْقِ وَأَهْلُ اللَّهِ يَرْهَبُونَهُ وَيَكْرَهُونَهُ، وَأَمَّا أَنَّهُمْ يَعْرِفُونَهُ مِنْذُ رَمَةٍ
بَعِيدَةٍ مِنْ عَالَمِ الرُّوحِ مِنْ يَوْمٍ [أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ] قَالُوا بَلَى [وَأَهْلُ الْعَصِيَاءِ
عَرَبَاءُ مَحْضُولُونَ] لَمْ يَنْهَوْهُمْ قَالُوا بَلَى وَلَمْ يَنْهَوْهُمْ عَمَّا طُوعَ، وَتَنَا سَوْهَا
قَالَ اللَّهُ تَعَالَى ((وَلَا تَرَى الَّذِينَ أُشْرِكُوا بِسِرِّهِمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ
شَرُّهُمُ وَإِنَّا لَنَذَرُهُمْ كَمَا نَذَرُوا مِنْ دُونِهِمْ، فَأَلْقُوا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ: إِنَّكُمْ لَفَاذِبُونَ،
وَأَلْقُوا إِلَى اللَّهِ يَوْفِئِدَ السَّلَامِ وَضَلَّ عَنْهُمْ فَأَمَّا نُوا لِفِتْرَتِهِمْ)) فَخَلَّ - ٨٦ -
وَقَالَ تَعَالَى ((وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ
إِلَى بَعْضِهِ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ
لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ، قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا: اللَّهُمَّ صَدِّدْنَاكُمْ
عَنِ الْهَبِيِّ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ، لَمْ يَكُنْ مَجْرُمِينَ)) سَبَأُ - ٩١ -
فَأَنكَرُوا بَعْضُهُمْ بَيْنَهُمَا الْمُؤْمِنُونَ وَالصَّالِحُونَ يَعْرِفُونَهُ بَعْضُهُمْ بِسَيِّئَاتِهِمْ
وَالنَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَعْرِفُ أَقْبَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ سَيِّئَاتِهِمْ
مِنْ أَثَرِ الْوُضُوءِ.

هَذَا الْإِنْسَانُ أَيْنَمَا تَوَجَّهَ لَقِيَ الصَّدُودَ وَالْإِعْرَاصَ، فَلَدَى أَهْلِ السَّمَاءِ
يُجْعَلُونَ مِنْهُمْ لَأَنَّهُمْ عَمَلُهُ خَالَفَ لِمَلَامِهِمْ، فَجْهَلُوهُ، إِذَا أَقْبَلَتْ مِنْهُمْ وَكَذَلِكَ
لَمْ يَأْتِ أَجْلُهُ وَلَمْ يَقْضُ عَلَيْهِ بِالْمَوْتِ فَيَرْتَابُ مِنْ هَذِهِ الْمَصَائِبِ وَلَوْ هَاتَ

أهل سجنهم روحهم إلى حضور ربهم، وتكون مع الصديقين والصالحين
 وهذه أولئهم رفيقاً، فإنه من أهل الفضل والصلاح فيكون معهم
 وإلا فالندامة تقتله، قال عليه الصلاة والسلام (الحشر المرء مع ما أحب)
 وقال أحمد الصالحية (أدالم تكن صالحاً فكنه في قلب رجل صالح، فإنه الله عز وجل
 ينظر إلى قلوبهم فينقر لهم ما فيه من الخير).

أهل الأرض ينكرون، فكثير منهم يظلمونه، فيصولونه ويجولونه، و
 يخذلونه بعضهم، فلا يعينونه، بل يؤذونهم بعونهم وهم يريدونهم هلاكاً
 وعذاباً، فلهذه الطائفت نولهم بقربى ولا تقرب منه، لأنه أهل الفساد
 لا يعرفونه بعضهم، ولوا جتمعوا على إفساد الخلق، لا يملأ قلوبهم بل الأهواء فقط،
 كذلك الموج في البحر لا تترك منه بغوص في البحر إلا وأخرجته ميتاً بعد عذاب
 لأنه لم يكن غواصاً فاهراً، أو لم يوجد منه ينقذه إذا دهمته الدماء.

طلب: السرور والشهوات لا تدع المرء الذي يسير في درب الحياة بدون مرشد
 مرب، يبيد له ما يفعل، ويبدله على طريق الخلاص، إذا لم يخلصه بنفسه،
 تدعه حتى توقعه في قيدها وأسرها، فتذله شراً، إذ لا دل
 والموجه هنا كناية عن الأهوال والشهوات والخواطر الشيطانية.

أدب: على المريد أن لا يسبح إلى حقيقة، أو الغايات المجهولة لديه بل
 طريقاً واضحة وموصلة يقيناً، أي غير متبوعة، لذا لا بد قبل السعي
 للحقيقة من اتخاذ الدليل إلى الغاية، ومرافقه غير بشؤون تلك
 الطريق، لا ولا وكرة فطر، وقد قام الصمداء من البشر إذا أرادوا
 سفرًا أخذوا لهم دليلًا ومهاريًا يحفظ عنهم الآلام ومشقة السفر،
 أو رائدًا للقبيلة قبل كل شيء، وهو موضع ثقة ومهدى وإمانة
 ولهم سر، لا يباقن ولا يجادل كما أنصلا يدل على ما رافقهم ولو كانوا

أحمد بن أبي بشار، وقد قال النبي عليه الصلاة والسلام: (إنه الرائد لا يكذب أهل)

أما ما يكذب في الطريقة فليس برائد بل خاشع، كذلك من يدعي بر شاذ ويعطيه فالأبوصلة بل يعبد له فليس بشيخ بل هو خاشع الأمانة أمام الرسول الأعظم عليه الصلاة والسلام: وأمام الخليفة والظاهر أجمعين. وكذلك شأنه من يدعي مالاً مع الله، ويدعي الإسلام لترتيب يخطو أتباعه أدماً أو يوجهم إلى سلوك وفنهم، ويوهمهم بأنه مسلم سليم وسعد، وهو يعلم أنه على خطأ، أو لا يعلم أنه على خطأ، أو على صواب فهو مباهل بهذه الأمور فعلياً لا يصدر هذا الأمر ولو سجد وأتباعه إلى شيخ حرب مرشد صاوم عالم طاهر السلوك ليرتدوا في كنفه وعائنه وإلا فالجواز له وللمتابعة والعيان بالله.

وخطه نرى أمام المرسلين وقد وثقنا سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام قد عمل ظاهراً بالأسباب فأتخذ لنفسه ولرفيقته دليلاً ليلة الهجرة المباركة، رغم أنه لا مهابة له بالربيل فإياه الله ناصر، وقد قال: (لا تخزبه إني الله فعنا) لأنه صلى الله عليه وسلم أراد أن يعلم الله كيف الطريقة إلى الله وهذا الربيل تشرف بصحبة صلى الله عليه وسلم.

فعلمنا أنه اتخذ مرشداً فوصلنا بالجيب الأعظم عليه الصلاة والسلام في هجرة نظامه الأخلاقية الذميمة إلى الأفلاك الجديدة، ومنه ذهب الدنيا إلى حب الآخرة، ومنه ذهب لقاء القانيات إلى حب الباقي عز وجل، ومنه ذهب لقائه، وقد قال عليه الصلاة والسلام: (من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه) ومنه كره الله لقاء الله لقاءه.

لكنهم جل أهل زماننا سلكوا مسلكاً لا يحسمه ولا يقضي فيه هو **ع**
 عكسوا الحقيقة فعملوها باطلاً وزيفاً، وظنوا الزيف والباطل
 صواباً، تركوا هب الدفرة وتساءلوا عما هب الدنيا ولذا **الفاضلة**
 نسوا الموت وتذكروا الحياة، شأنهم شأنه الذي قال:
«وما أظنه الساعة قائمة ولئن رددت إلى ربي لأجدن خيلاً غيراً مني قلباً»
الأنكف - ٢٦ / وقال الله عنهم **«ولئن أذقناه رحمة منا بعد ضلالتهم فسوف**
لنقولن هذا إلى وما أظنه الساعة قائمة ولئن رجعت إلى ربي لآل
لي عنده الحسن فلننبئهم الذين كفروا بما عملوا ولنذيقنهم من عذاب
 غليظ **فصلت - ٥٠ /**

مطلب: قال نبي الهدى صلى الله عليه وسلم **(يأتي زمانه على أمتي تحبوه فمسا**
وينسوه فمسا: تحبوه الدنيا وينسوه الدفرة، تحبوه المال وينسوه

الحساب، تحبوه الخلق وينسوه الخالق، تحبوه الذنوب وينسوه
 التوبة، تحبوه القصص وينسوه القبور).
 قال سيدنا عثمان رضي الله عنه **(إنما أعظم الدنيا تطلبوا**
بلا الآخرة، فلم يظلموها لتركوا الدين، إنه الدنيا تقنى والدفرة تبقي، فلا
تظننكم الفانية ولا تشغلنكم عن الباقية، فأثروا ما يبقى على ما يبقى له، إنه
الدنيا منقطعة، وإنه المصير إلى الله). ج

مطلب: أوصى الشيخ سعيد النوسي رحمه الله أنه لا يسع المرء إلى الحقيقة بغير
 رب، وبدونه طريقة، بل على المرء أن يسلك الطريقة على يد شيخ ربه يرشده للوصول
 إلى الحقيقة، وقال رحمه الله **(إنما هو كذا أنزلوه لولا أنه ثبتني**
روايتك الشيخ أحمد الفاروقي السهردي، والشيخ عبد القادر الجيلاني
قدس سرهما). ج

(٥٤) طرفي رأيي في ظلام الكون ما يربو به الخير المماط ويسلم

لم يرض أحد فعله فأهل الصلاح لا به فعله ليس كفعلهم فلم يكن منهم وأهل الفساد لم يرضوه وإبهامه فعله كفعلهم لأنهم لا يرضونه في امرئ إلا ولا ذمة.

- السهوات تصدمه بقوة لا يحتمل وهي في أول موعظة
- صفة السور الذية كد لونه ويدفعونه للأوبى
- محاملات إثبات الشخصية ورفضه للخسارة والإمكان
- بالتفات الأتظار إلى كل ذلك ظلمات موعود بعضه وبه الله
هذه الحال فقال سبحانه وتعالى:

«والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله كريع الحساب» أو كظلمات في ظر الجي يغشاها موج من فوقه موج من فوقه لم يجعل الله له نورا فقال له مبه نور // النور - ٢٩ - ٤٠

يجول بطرفه تحت عبادة الظلمات المحيطة به عسى أنه يظن أنه يشقوه على من العباد ويعينهم ويربهم الخالص وهذه الصفات خير قد أنزل الله الناس بل إلى الناس قد أنزلوه عنه أنفسهم فلا تراهم يحبونه الخير إلا لأنفسهم معارضة ضميرهم وأذيتهم.

مطلب اذلق الذي ركب عقله وعمل بفكره المعرور وماض بنفسه من غير معرفة حتى وقع في ظلمة فلم يعرف أنه هو ما سئد؟ ولا يدري كيف الوصول لطرفه الذي رجاه أولاً؟ لا لا يدري موقعه القديم الذي جاء منه ليعود

إليه لا يعرف شاطئه حتى يأمره إليه، ويسلمهم من تلك الأمواج المتداطمة،
 فيهبج نهب البحر وتتدطم أمواجه، وتحقق الشرور، وتصول عليه الشهبان
 وترده إلى القاع، وكلما أفرج نفسه لحظات ليتنفس وهو يظنه أنه هذا
 مخرج دائم ينجوبه فلما تبين أنه مؤقت وأنها الموج سيرة له للمار بدم طوله
 ولبيده عمة الحقيقة ومطالبها. رأى الشرور نرصده لتلتصق بعذاب أليم
 فمدغوا ما هاذقا ينقذه، وهل أيقم موجاً لبحرها في رهم، والجنة بغير علم
 باليوم؟! الهدهد أن الموج لديرهم صد لا يجيد اليوم فيص فلا يوصله إلى
 الخصة إلا بعد فروع الروح من الجسد.

وأهل الآخرة أو هموم بالقرب بصحبته، ولكنهم أرووه في خضم هذا البحر
 المرمر المتلاطم، فكريه أهل الأرض ورجع إلى نفسه فلا يرى
 حقيقاته وآماله فيجز به القلب، ويستسلم لله متحقاً بصفات
 العبودية لأنه الله سبحانه وتعالى وحيه ثم اشتراه ليغنيهم من غير ضابط
 فقال عز وجل: (إن الله اشترى من أنفسهم أنفسهم وأموالهم بأنهم

طهم الجنة) ٩٠. ١١١.

وهمهم أنفسهم بفضله سبحانه، فخلعهم، وجعل طهم السمع والبصر والعقل وال
 القوة والحركة والصورة الحسنة، وجعل الإنسان خليفة في الأرض،
 ثم اشتراهم بالطاعة والجدد حتى يعطيهم ثمناً غالياً وهو الجنة.

طلب: بالاستسلام للمخالعة وترك الكبر والإيقان بالاضيف مع الخضوع لله عز وجل
 تنكشف له الحقائق، وتلوح له السلامة، فيؤمريه الله عز وجل إلى المنجد
 وهو المرشد الرب الذي يقوده للخير ويشره أنه يصير من أهل الشهود،
 مع السلامة التامة، والحفظ في العقل والديه والربنا فيصل إلى رتبة المحو
 المحو وهو [طلعه التوكل] (هنا ما ورد في سطر المحو المار عليه الشيخ محمد طائفي، يعرف)

(٥٥) سأل فما أغضبت هفتي حتى لا
 (٥٦) فبه عرفت برائتي ونهايتي
 ٢ وعفتي فجم هفتي شائتم
 وعرفت ما سر الحياة الأقوم ؟

قالوا [جذ صدقا] تجد مرشدا
 قال الشيخ أحمد سميد قاله باب مولانا قال قدس سره فغلقا فيه ابتداء
 حضوره صحبت الشيخ إلى وقت رجوعه مما قام به خروجه منه غير ضرورة و
 لذل فاز برتبة عالية ينبغي لمريد الطهارة أن يكونوا كذلك
 [هفت] أو [هفت] عرفت وليس [علمت] لأنه المعلم غير المعرفة
 فالمعرفة يسبق الجهل، والمعلم لا يسبق الجهل
 بالخاصة الحفوة علامته الإتيان والاستلام
 انظر إلى ما جاء في «مؤثره» ٤:

(لم يطبعه هفتي على هذه النظرة إلا وقد سرت إلى نفسه روح هدية
 أخذت تمتد من وراء ضلوعه كما يمتد لسان من النور المتوهج بينه تلافيف
 الظلام، ولمست قلبه لمسة بعثت فيه برداً من الرامة والهدوء، و
 اضحلت تلك الوشكة القائمة من موله في روح من الأفسس الغريب
 ذلك هو المرشد الذي قام به يراطني ويتابع مرهاتي من بعيد ومعه
 المذر حتى أنه الأولاد، فظهر لي كمرشد وعرفت بأنه المرشد لي،
 وعرفت بأنه قام به كمرسني من حيث لا أدري، وقد كنت في العفلة التي
 أغشت بصوري عن رؤيته

هذا المرشد دلي ودفعتني إلى طريق الحق والأمان، وكشف لي
 عن الحكمة من هذه الحياة عن ذلك السر الغامض علينا ولا يعلمه
 كثير من الناس بل المخلوقات.

لكنه قد يطالع الله عز وجل العارضة دون غيرهم. وأعني بالسر البسر
الحقيقي، وليست الظاهرة الظاهرة.

مطلب: منه صمد في سعيه ولم يصل بعقله إلى المرشد أدركته
العناية الإلهية فيه يستد عليه الأثر يلزم الله الرجوع إلى الله
والفرار إليه من كل شيء، أو يلزم التلاهي عنه رغبة تقصيره
الذي جعله يفقد الأمل بالنجاة والخلص بحالسة أهل الصفاء،
والسرور حتى يندفع عنه شعور الألم بتقصيره وقلة إقباله
لئلا يقع في القنوط ولا يعالج ذلك بالعزلة فإنما يزيد غمًا، وقد
لا تجد عقابها.

فإذا أهدى بالبط فليزعم الصمت، وليتمل بالسكينة والوقار،
وليكثر منه ذكر الله جلالة، فإنه ذلك يزيد بالخلوص والله أعلم.

قال الله عز وجل:

﴿أَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّا كُنَّا بِكُمْ عَلَىٰ الْعَهْدِ وَأَنْتُمْ كَاذِبُونَ﴾ وجعلنا له نوراً عيشي به في الناس كنه قلبه في
الظلمات ليس بخارج من ذلك رتبة للمفارقة ما كانوا يعملون. **إمام** ١٢٠
فانه ملتفتاً للغير غيار فضل طريقه وأغياره، فلما أنه ترك الناس وراقب أهوال
نفسه واستحضر فطرته رجع لرسله، وترك ليا سى وقد قال: **سفاهة عيشة**
رضي الله عنه (استكوا سجد الحق ولا تستوشوا منه قلة أهلاً) وقلة
أهلاً دليل على غلاد فطرته وأهل الحق في آخر الزمان قليل قال عليه الصلاة والسلام:
(بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً ما بدأ قطوني للفرجاء)

وقال أبو بكر الشبل: **همه الله عندما سئل عن التصوف** (ضبط هو أسلم ومراعاة أنفاسه) **لا**
وسئل عمرو بن أمة البصري: أي رجل ساء، وقاه من هذا؟
فقال: (سأه المبتدي في الصلوة، والذي هداه أستاذاه).

(٥٧) كَمْ طَالَ بَحْثِي عَنْهُ وَثَامٌ صَادِقٌ هَتَّى أَزَلْتُ بِمَرْبُوعٍ لَا يَظْلَمُ

يَقُولُونَ: (مَهْ جِدُّ .. وَجِدْ وَمَهْ سَاعِلُ الدَّرَجِ وَصِلْ)

مَقْضَى أَغْضَى أَيَّامِهِ فِي مَخَاطِرِ الْبَحْثِ عَنْ الْحَقِيقَةِ وَسَدْرِهِ الرُّوحِ وَالنَّفْسِ وَلَمْ يَسْتَلْ بِتِلْكَ الْأَيَّامِ .

بَحْثٌ عَنْ نَفُوسٍ سَالِمَةٍ ، وَقُلُوبٍ صَادِقَةٍ ، وَأَرْوَاحٍ مُنِيرَةٍ ، وَمَا دَافِقًا لِأَهْلِ مَهْ ذَلِكَ هَتَّى لَا يَلْهُوَ وَمِصْصَهُ مَا لِيَبْتَفِيَهُ ، فَلَمَّا جَدَّ السَّيِّئَ لَهُ وَوَصَلَ إِلَيْهِ ، وَدَفَلَ فِي كَتْفِهِ ، وَالتَزَمَ ذَاكَ السَّادَةَ ، وَصَارَ فِي حَضْرَةِ الْأَنْوَارِ وَبُحْبُوحَةِ الصَّالِحِينَ الَّذِينَ أَرْوَاهُمْ نِيرَةً ، وَتَنِيرُ لِأَهْلِ زَمَانٍ طَرِيقَهُمْ ، وَمُقَاصَّةَ الْأَتْبَاعِ الَّذِينَ مَقْصِدُهَا الْوَحْدُ ، وَمَقْصِدُهَا حُبُّ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَرِضْوَانُهُ . هُوَ لَا يَلْهُوَ لَا يَدُمُ نُورُهُمْ لَا فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ ، بَلْ يَرْدَادُ قَلَمًا مَرَّ الزَّمَانُ بِهِمْ لَا يَوْجِدُ عَنْدهُمْ شَيْءٌ مِنْ ظِلْمَاتِ الرِّيَاءِ ، وَالنَّفْسِ ، وَالْهَوَى ، بَلِ النُّفُوسُ تَزْكُو فِي جَالِسِهِمْ هَتَّى تَخْطُجُ بِجَمِيعِ الرُّوحِ ، فَيَا ذَا مَا هَذَا ذَلِكَ ، ذَاكَ هَدْوَةٌ الْإِنْسَانِ بِاللَّهِ ، وَهَدْوَةٌ حُبِّ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ . وَ

وَمِنْ أَفِيدَةٍ مِنَ الْإِشَارَاتِ الْكَثِيرَةِ الْحَقِيقَةِ عَنْ الْحَدِيثِ الَّتِي يَقُولُ الْمُشَائِرُ لِلْمُرِيدِ مَقَاصِدَ وَلِلنَّاسِ عَامَةً فَتَأْمَلْ .. مَا لِلَّهِ أَعْلَمُ .

بَصِيرَةُ الصَّوْطِيَةِ أَنْوَارِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَالْجُودُ فِي السَّمَاءِ تَطْغِي نَفْسًا مَقْطَعًا وَيَبْتَدِي بِهِ ، وَبَعْضُهُمْ قَالِبٌ يَطِيرُ الْكُوفَ ، وَالْبَعْضُ الْآفَرُ نُورَهُمْ

مَا لَشَيْءٍ إِذَا بَدَتْ لَمْ يُبْدِ مِنْهُ كَوْكَبٌ ، تَخْفِي كُلَّ الْأَنْوَارِ أَمَامَ نُورِهَا

أَدَبٌ : يَقُولُ الْإِمَامُ مُحَمَّدٌ بْنُ أَحْمَدَ الْكُوفِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ :

(مَا أَمَّا النَّاقِصُونَ الَّذِينَ أُرْكَمَ مَشَامُ ذَوِقَهُمْ وَاجِدَ الْيَمِّ اسْتِيلَادُ بَرُودَةِ هَوَى الْقَفْسِ ، وَكَثَافَةُ بَخَارِ الطَّبِيعَةِ لَا جَرَمَ مَا لَمْ يَمُتْ مِنْ تِلْكَ النُّفُوسَاتِ

من نصيب إلا بواسطة إنسان كامل تجرد عنه عاداته **[النفس]** الأنفس والآفاق، واتصل بعالم القدس والاطلاق، فهو مختصه جناح النذل لهم بجلته البشرية، ويعالجهم بالجهة الملكية بأنه يحيط عنهم بلزومته فيشموه الروائح القدسية. **[إف]**

أدب: كل فرد من أفراد السالكين إلى الحق له طريقه خاص يقع سلوكه منه لآمنه غيره. قال عز وجل **﴿وهرمنا عليه المراضح﴾** **[العقود - ١١]**

مطلب: اشتاق قلب الشيخ **فالد البغدادي** رضي الله عنه إلى تحصيل المعارف اليقينية، والعلوم الدينية من صحبة أرباب القلوب، وطلب الدلالة عليهم من علمهم الغيوب، لتيقنه أنه الاقتصار على الأولى من غاية القصور، وأنه الكمال إنما هو في الجمع بينهما حسب المقدور، فصار يبحث عن أهوال أهل الكمال، ويفتش عنه تكل الرجال.

قالوا **﴿الصفوف هو الجد في السلوك إلى ملك الملوك﴾** وقال الشيخ **الكوتري**:

رسم الله: السلوك هو المستقيم على المقامات بالطال، وفيه عقبات لا يتيسر قطعها إلا لله وفقه الله تعالى. وأنه الناية الأسمى هي حبة الله ورضاه، فالحبة

أسمى البداية في الشيء على المقامات في السلوك، وبدونها لا يستفيد المريد من شيء ظاهر، وتختصر الإفادة فيما يفده الشيء له، ولا يرى المريد رقيقاً، فهو في حركة بلا ركة، ولا يقف في حبيبة الشيخ، ولا يهوى رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يد في كنه السلوك من التحمل

هذا يقول **سيدنا أبو يزيد رضي الله عنه** الطريقة عندي الصبر على البلاء، وتحمل الأذى من الأذى **﴿الذي﴾** فالحبة بداية السلوك الحمد وفقاً الطبيعة، وهذه الصفة الأبر هي كسوف بصحة الطبيب الأعظم عليه الصلوة والسلام ليلة الهجرة، فكان مسلماً مسلماً، وطلقاً محبوباً، وطلاهاول المشركه تبيته عنه الدنيا صباغ المعراة قال لهم عليه وثبات وتسلم **﴿إنه قال ذلك فقد صمد﴾** فسماه الله عز وجل **الحمدية**.

« تَجَبُّ فِي مَجْهُولٍ ثُمَّ تَفَكَّرُ فِي مَعْقُولٍ »

فَمَا عَرَفْتُ لِلْيَأْسِ فِي مَا طَرَى مَوْضِعاً، وَلَمْ أَشْكُ لَغَيْرِي تَوْقِئِي، لَكِنَّ
الزَّمَالَهَ أَشَقَّتْنِي مِنْهُ شُرْبَةً، فَمَا اسْتَقْبَلْتُ .
فَمَا فُتَّتْ مِنْ سَكْرَتِي وَعُقْلَتِي، وَقَدْ أَوْضَعُوهُ بِكَرْهٍ وَسَطَ التَّلَاطُفِ
الْمُضِلِّ الْمُسْغِلِي .

أَعُوْمْ وَمِنْهُ هَوِيَّ الظُّلُمَاتِ تَرْتَعِينِي، فَلَا قَارِباً أُرَبِّ فِيهِ صَلَاتِي وَرَغَوَاتِي
صَادِقاً مَا ذَقَا "فَيَنْقُذُنِي" وَلَا أَعْرِفُ أَفِي دُنْيَا أُنَيْكُ أُمُّ أَجْهُولٍ فِي هَلَامٍ
يَرْقُوعِي، وَلَا شَرْقاً أَرَى، وَلَا أَدْرِي أَيُّهُ تَعْرِبِي؟! مَرْتَباً وَسَطَ مَوْجِ الْبُخْرِ
الْمُحْدَرِ .

أَقْلَبُ طَرَفِي وَأَدُورُ بِجُرْمِي عَسَى أَنَّهُ أَهْطَى بِوَقْصِهِ يَلُوحِي فَأُغْتَدِي لِأَلْبِ
لَا أَعْرِفُ مَبِيتَ الشَّرَفِ، وَلَا لِلْقَرِيبِ الَّذِي يَهْدِيَنِي، هَتَّى أَعْرِفَ طَرِيقَهُ الْخَلَاصِ
الْمَوْقِلِ، وَلَا أَعْرِفُ أَيُّهُ أَنَا؟ أَوْ مَا وَهَبْتِي الْقِيَّ أَبْعَدُ إِلَيْهِ أَهْدَانِي؟ .
الظُّلُمُ هَالِكٌ، وَالغَيْمُ دَاكِمٌ، وَالرَّعْدُ مُسْتَفْعِلٌ وَهُوَ خَرَجِي، وَقَاطِفِي قَلْبِي يَلْتَوِي
فَلَا أَرْضَا تَضْمِينِي، وَلَا سَمَاءَ تُوَدُّنِي، وَلَا بَحْرَا يَرْحَمُنِي، وَلَا ضَوْؤَ كَحَيَّةٍ لَحِي
أُمْسَتْ مَا نَهَ الْيَأْسُ مِنْهُ الْجَهَاةَ لِحَمْدِ فُؤَادِي، وَظَنَنَهُ انْقِطَاسِي، فَمَا
أُغْمِضْتُ أَبْغَاثِي هَتَّى لَحَيْتَ لَهَا بَارِقاً يَلُوحِي بِتَحْنِي، فَتَضَرَّتْ بِهِ نَظْرِي،
فَانْتَشَى الْقَلْبُ، وَالْيَأْسُ فَشَّ الْقَوَاقِرَ مِنْهُ فَجَدِي، فَهَدَدَتْ يَدِي لِذَلِكَ
النَّجْمِ الْمَتَحْنَةِ قَاصِدَهُ فَأُجَابِنِي .

عِنْدَهَا عَرَفْتُ أَيُّهُ أَنَا، وَإِلَى أَيُّهُ وَهَبْتِي؟ وَعَرَفْتُ الْحَيَاةَ فَا مَضْمُونَهَا؟ وَلَمْ هَي؟
وَذَلِكَ الْهَيْمَةُ أَصْبَحَتْ فِي أَمَانَةٍ لَا أَفْشَى الرَّدَى، وَلَدَ ذَلِكَ الْمَوْجِ الْمُضِلِّ وَرَدَّتْ
التَّزَامُوعُ الْمَاضِي أَيَّامَ عَقْلِي مِنْهُ أَشَدَّ أَعْدَائِي هَظَايِكُهَا، وَبَعْضُهَا بَعْدَ
تَوَدُّدِي مَا ذَبَ... تَبَا "لِسَاعَاتٍ مُضْمِنَةٍ ضَمِياعاً" وَأُضْحِكِيهِ مُسَدًى

نَهَانَتْ مَا لَسَرَابِ الزَّائِلِ، وَلَوْ أَنَّهَا فَلَصَّتْ، وَصَفَتْ، وَدَاعَتْ لَهَا طَيْرٌ عَمِيْقٌ.
 لَقَدْ ضَاعَ الْإِحْضَارُ مِنَ الْوَدَادِ، كَمَا ضَاعَ الْوَفَاءُ مِنْهَا الْحَبِيبُ.
 هَجَرَتْ الْخَلْعَ وَالْأَعْيَارَ حَرًّا، رَجِمَتْ الْخَطَا فَخَوَّ الْمَتَابِ.
 أَهْوَلَ بِطَرَفِي الْمُنْهَضِ بَعِيدًا، عَلَى أَيَّامِنَا قَبْلُ الْمَتَابِ.
 فَتَذَرَفَ دَمْعَةُ الْحَزَنِ الْمَرِيبِ، وَيَكْبِي الْقَلْبَ أَيَّامَ السَّهَابِ.
 لَقَدْ ضَاعَ الْكَيْسُ مِنْهُ الْحَيَاةَ، وَأَيَّامًا تَصَارُ إِلَى التَّرَابِ.
 فَهَلْ أَعْدَدْتَ يَا بَهْلُولُ زَادًا، تَرْوِي بِهِ إِلَى سَفَرِ الْحِسَابِ.
 إِذَا مَا شِئْتَ أَنْ تَلْقَى فَلَا هَـ، بِرَوْصِهِ مِنْهُ مَبَايِدُ الْخُلْدِ غَابِ.
 عَلَيْكَ بِطَاعَةِ اللَّهِ الْمُطِيعِ، بِطَاعَتِهِ تَوْفَعُهُ لِلصَّوَابِ.
 تَجَلَّبَبَ سُنَّةَ الْخَيْرِ دَرَسًا، فَسَمِعَ دُونَ غَرِّ السَّرَابِ.
 وَتَلَزَمَ كُلُّ مَنْ رَضِيَ دَلِيلًا، إِلَى الْخَالِدِ فِي سَارِ الْهَجَابِ.
 فَجَاجَلَ فِي طَرِيقِهِ الْحَقَّ نَفْسًا، تَرْوِي إِلَى الْجِرَارِ وَالْخَرَابِ.
 فَقَدْ هَانَتْ تَتَبُّعِي فِي الْمَعَامِي، وَتَرْفُلُ فِي السَّهَابِ بِلَا مَعَابِ.
 وَخَلِمَ بِاللَّذَائِدِ وَالْمَعَالِي، وَمَا نَتْ مَا لَمُنْضَتِ الْإِهَابِ.
 تَرَى هَلْ هَانَتْ الْأَيَّامُ تَمَضِي، عَلَى الْحَاثِ سَكْرَى فِي اضْطِرَابِ.
 وَهَلْ هَانَتْ تَلَوُّهُ لَنَا بَابِ، لَنَا وَهِيَ بِمُفْتَلِكٍ وَانْتِلَابِ.
 فَلَمْ نَعْمَهُ إِلَى الْأَهْوَالِ هَتَى، دَهَانَا الْأُمُورُ فِي قِطْعِ السَّحَابِ.
 لَقَدْ تَخَنَّا بِلَوْنَاتِ الضَّلَالِ، وَصَهَرْنَا بِسِهْ أُنْيَابِ الدَّنَابِ.
 وَلَوْلَا رَحْمَةُ الرَّحْمَةِ هَلَّتْ، لَكُنَّا الْيَوْمَ فِي شَحْرِ الْخَابِ.
 فَجَادَتْ قَبْلَ أَنْ تُخْرِجَ الْهَدَايَةَ، قَسَرْنَا فِي سَكْوِهِ وَاعْتِرَابِ.
 وَنَرْجُو اللَّهَ أَنْ يَغْفِرَ وَيَرْضَى، فَزَادَ الصَّوْمُ مِنْهُ أَرْصَهُ يَبَابِ.
 وَمَا أَنَّهُ تَمَسَّكْنَا بِدَلِيلِهِ، وَصَهَرْنَا سَجْدًا لِحَقِّ الْقَبَابِ.
 أَتَانَا السُّقْدُ مِنْ كُلِّ الْمَرَامِي، وَأَكْسَى الْقُلُوبَ فِي هَلَاكِ الْعَجَابِ.

وصف الأعباء عند المشافهة لا يأم، فقلما تكرر وصفهم كلما زاد
 شوقاً وعباءاً رغم أنه الأعباء باقوة على ما طمى وأقلا قهرهم بكسر
 سر ذلك الشوق المتجدد مع ذكر الأعباء هو صدمه القلب وفلقه
 من الشوائب فينحصر الفلر فيهم وعند الصفاء تبدو الأنوار بعد
 انجلاء الظلمة واندحارها كذلك شأن المرید الصادق عندما يقبل
 إلى السلوك يقطع من الأغيار والتعلو بهم ويرزى ويصفى حقياً أنس
 بالله عز وجل ويجدد قوة ذلك الأنس وهوارة الذكر فيستوي
 عنده مدح الماديه وذم الدنيه وقد قال الله سبحانه وتعالى:
 ﴿وبشر المحبتين الذين إذا ذكروا الله وجلت قلوبهم وإذا تليت
 عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون﴾ الحج - ١٥ /
 وقال عز وجل: ﴿ألم يأتهم للدنيه آمنوا أنه خضع قلوبهم للذكر الله
 وما أثر له من الحوة﴾ الحديد - ١٦ /
 عندها يخلو ويصفو ويصير قابلاً وأهلاً لاستقبال الأنوار
 والتجليات والفيضات، ما لتربة المصيبة فيقطر في قلبه من العلوم
 التي لا تحصل بالدراسة، تقطر قطرة قطرة من دونه أنه لشعر بل ثم
 تتفجر ينبوع الحكمة حتى تجري على لسانه، وطناً لب دعيت لطريقة
 النقشبندية بطريقت العلماء، وهم العلماء بالله والعارفون بالله
 عز وجل قال عز وجل: ﴿لا واتقوا الله ويعلمكم الله﴾ البقرة - ١٨٠ /
 وطريقنا مبنية على المحبة الكاملة للمرشد الحقيقي، والتأسي به
 حتى يتوصل إلى المحبة الأكمل لرسول الله حياة العالميه عليه
 الصلوة والسلام، ومنه تلك المحبة الأكمل إلى المحبة الفانية
 بالمحبوب، وبعبارة أخرى [الفناء بحبة الملوكة المنعم الرؤوف الرحيم

عز وجل **قال تعالى** **((قال له موسى هل أتبعك على أنه تعلمني مما تخفي من علمك**
رسداً قال إنك له تستطيع معي صبراً وكيف تصبر على عالم خاطئ
به صبراً قال سجد في آية شاء الله صابراً ولا أعصي لأمرأ
قال طوبى لمن اتبعني فلا تسألني عنه شيء حتى أهدث لك منه ذكراً
الكهف - حبة

بالإتيان للعلماء بالله في العلم مع الأديب في الإتيان والآتفاء بتعليم
 العالم بالله والعارف به
 فتأمل أيها السائل طنا المعنى اللطيف **نفمنا الله** وإراكم بمشايخنا
 رسادنا أعل الله عقاباتهم **ووفقنا بصحبته** إلى التخلع
 بأفلاحة الجيب الأعظم سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام.

في شأنه المرید الساعي إلى الحق بنفسه - أي وكيف يسير حتى يصل
 إلى الشيخ **ويخط هنا وهناك ثم يدرك أنه لا حاجة إلا إلى الشيخ المرید**
 وأنه لم يصل إلا بمعينته وصحبته **وأنه كل شيء فانه وما هو له من**
 الأصحاب والأهل لم يجدوه **لكنه انتظر الشيخ ثم جاءه ونقذه**
 فلما قارب على السقوط في الهاوية **وهنا تفيد أنه**

طلب: إذا أراد المرید التوجه بالطريقة الحققة وجعل لقيه ورداً
 عبادان وصلوات ومجاهدات **فإياه المشايخ الكرام لا يتركونه يسير**
لوجهه حتى يجدوه **ويوجهوه إلى الشيخ الذي يتولى تربيته**
ليوصله إلى الحق المبين
 أما الآلهة **سجد شأنه السيوف في أولئك الذين لا يركبون سائلاً**
الموصول إلى الحق بل طول الأهل والركوب للديناء عند اقتضاهم

(٥٨) أَهْبَائِي الْأَقْمَارُ تَرْنُو رَبِّعَهُمْ وَتَشِيحُهُمْ هَقَّ تَعَالَى رِضَاهُمْ

كل المجيب، ومنه ذاته الحب، وكل المحبوبية يؤلوه، ويصدهم سطر من
أهبتهم، ثم يستحقونه المحبة من الكل، بدوامك طم لما يقدرونه
من الخدمة للبشرية والخلد لا يعرفون.
ونرى أولئك المجيبين فتأديبهم في ردادهم الماربع سادائي عسى
أنه يُعبدوا وينالوا نظرة من أهلها تؤذنه طم بالسعادة وليسرور
وقال: إبه الفاصحة، صم الله.

قل من في همال يحوان لك، أنا وهدى بطل من في همال
يحشر العاصقونه تحت لوائى، وجميع الملاح تحت لوائى
مطلب: كل المشايخ والمرتبين بوجوبه نظرتهم وآذانهم وقلوبهم لم
ساداتنا، لينهلوا من علومهم، وفيوضاتهم، لأنهم أئمت هذه الكون،
وسادتيه الأولياء، ومنهم أئمة الوقت، والآن قال لهم: سيأتي بيابن ذلك
إن شاء الله. كذلك يطمعون في السلوك على أيديهم، وفي طريقهم يطمعون
في الشرف، ينيل الرضا منهم، حتى يفوزوا بالسعادة،
لكنهم لقل مقام حال فاصحة به، لذلك أقاموا في مرالهم ومقاماتهم و
داوموا على الوظيفت لى أسندت إليهم، لكنهم لم ينقطعوا عنه دوام
الاحتباس من أنوارهم وعلومهم وآدابهم، لأنهم الكواكب المنيرة
تستمد الأنوار من غيرها، وساداتنا هم منابع النور، هم ورثة
الأنبياء الذين ورثوا العلم منهم، مطي بهذا الميراث حظي، وحظ وافر
معهذه الأنوار ملا الخير الذي يعمونه به البريك، من دعائهم لرفع البلاد
والدستقار عن المذنبين، وكرمية الصالحين، والمؤمنين، ولتخرج المعقودين للناس.

(٥٩) وَالشَّمْسُ شَامَتْ دُرُجًا جَبَّارًا
(٦٠) وَالسَّحَابُ أُظِلَّ لِسُكُنٍ بَعْدَ يُانَثَ لَكَ
مِنْ طَهْرٍ نَوْرٍ أَجْبَتْ قَدْسًا لَمَوْا
طَيْبُ الْكَرَامِ، فَكَيْفَ لَمْ لَا تَعْدَمْ

بَانُوا الذُّرَّةَ فِي كُلِّ فَلَعَةٍ حَمِيدٍ، وَمَا نَوَا لِسَبَّاقِيهِ إِلَى كُلِّ غَيْرِ عَمِيمٍ، لَا طَعْمَ أَهْبَوُا الْحُبُوبَ
الطَّعْمَ عَزَوْهُ لِمَنْ، فَبَذَلُوا أَهْلَ شَيْءٍ فِي سَبِيلِهِ سَجَانَهُ وَتَعَالَى.

قَالَ سَيِّدُنَا أَبُو زَيْدٍ الْبَطَّاحِيُّ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

(إِذَا أَهَبَ اللَّهُ عَبْدًا أَسْبَحَ عَلَيْهِ صِفَاتُ الْمَلَكِ دَلِيلًا عَلَى عَمَلِهِ:

سَخَاةُ لِسَانِهِ الْبَحْرُ، وَإِحْسَانُهُ الشَّمْسُ، وَتَوَاضُعُهُ لِنَوَاضِعِ الْأَرْصَةِ،
فَالشَّمْسُ تَعْمُ بِنُورِهَا عَلَى الْأَرْضِ دُونَ اسْتِقْنَائِهِ، وَالسَّحَابُ يَغْمُرُ الْبِلَادَ
بِإِذْنِ اللَّهِ تَعَالَى دُونَ تَفَرُّغِهِ، فَيُغْفِرُ الْأَرْضَ الَّتِي ظَلَمَ قُلُوبًا
وَمُسَافِحَاتًا وَسَيَادَاتًا أَعْلَى اللَّهُ دَرَجَاتِهِمْ دَائِمًا وَأَبَدًا، أَكْثَرُ وَأَعْظَمُ إِحْسَانًا
مِنَ الشَّمْسِ، وَأَعْظَمُ سَخَاةً مِنَ السَّحَابِ، لَنَدَالَا يُنْظَرُ إِلَى إِحْسَانِ الشَّمْسِ وَ
إِلَى سَخَاةِ الْغَمَامِ أَبَدًا، إِذَا مَا بَدَأَ السَّادَاتُ الَّذِينَ فَضَّلَهُمْ وَإِحْسَانَهُمْ
وَفُضِّلَهُمْ عَلَيْهِمْ وَدَائِمًا لَا انْقِطَاعَ فِيهِ.

أَمَّا إِحْسَانُ الشَّمْسِ فَمَحْدُودٌ بِالضُّوْرِ وَالْحَرَارَةِ، وَمِنَ الْإِشْرَافِ إِلَى الْبُعْدِ وَالسَّحَابِ
بِالْمَاءِ، وَفِي لِسَانِهِ وَأَمِينَانَا، لَكِنَّهُ الْمُرْشِدُ فِيهِ أَكْثَرُ وَأَعْلَى تَقْدِيرًا مِنَ الْفَتْحِ الْمَادِي،
فَهُمْ مَلُوكُ الْأَرْضِ، لَا يَقْصُرُ تَقْدِيرُهُمْ عَلَى الْفَتْحِ الْمَادِي أَوْ الْمَعْنَوِيِّ فِي الدُّنْيَا، وَهُوَ
سَخَاةُ الْأَخْلَاقِ، بَلْ تَقْصُرُ فِي الدُّنْيَا وَفِي الْقَبْرِ، وَفِي الْآخِرَةِ، فَمِنْهُمْ الْقَطْبُ
الْمُتَصَرِّفُ، وَمِنْهُمْ أَقْطَابُ الْبِلَادِ، وَقَطْبُ الْأَقَالِيمِ، فَكَيْفَ يَكُونُ أَمْرٌ فِي الْأَرْضِ
لَا يَعْلَمُهُمْ أَوْ طَلَبُهُمْ.

أَدْنَى: قَالَ الْحَبِيبُ الْأَعْظَمُ سَيِّدُنَا مُحَمَّدٌ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ:

(أَقْرَبَكُمْ مِنِّي مَجَالِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمَا سَبَّحْتُمْ أَخْلَاقًا) قَالُوا وَمَا

الخلوة الحسنة يا رسول الله؟ قال عليه الصلاة والسلام (أنت
تغفون عنه ظلمك، وتعطي من حرمك، وتصل من قطعك).
هذا سخاء النفس لجسده الخلوة، وسخاء في المال وهو أنه يعتبر نفسه
واسطة لا يصلح الرزق بالعباد، أو سبباً لذلك، وأنه المال الذي
يملكه أمانة عنده حتى يؤدى لعباد الله عز وجل.
مطلب: قالوا (التصوف: تجنب كل فعله دني، واستعمال كل فعله سني، وأنه يعمل
لله من غير رؤية العمل).

دعت الشريعة الإسلامية إلى الأخلاق الحميدة والتخلي بـ، وهزرت من
المذمومة ودعت للتوقي من، والتحرز عن، وجعلت لتجنبها ثواباً عظيماً و
فضلاً واسماً.

ومنه السلام على الخلوة الحسنة فقال عليه الصلاة والسلام (أقربكم
مني مجلساً يوم القيامة أما سننكم أخلاقاً) وقال النبي الهدي عليه الصلاة
والسلام (إنما بعثت لأتمم مقام الأخلاق) والنبي عليه الصلاة والسلام
هو قدوة في الأخلاق، يجب التخلو بأخلاقه، وقد مدحه الله عز وجل في
كتاب به فقال (وإنك لعلى خلق عظيم) وفي هذه الآية إشارة
إلى مكانة الخلوة الحسنة ورفعة منزلة صاحبها عند الله عز وجل لذلك
مدح به بقوله (وإنك لعلى خلق عظيم) قوله ٤٠ / وسقطت السيدة
عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها وأرضاها عنه عليه الصلاة والسلام
فقال (ما به خلق القرآن) منه أنعم وتأمل في تعامل النبي عليه الصلاة والسلام
السلام عرف فاهي الأخلاق الحسنة التي أمرنا الله بـ، وأرادها العبادة فيها
قائمة، وفي معاملاتهم حاضرة، وبضدها تميز الأسوأ، فإذا امرفت الخلوة الحسنة
عرفت أنه ضدها خلقه ذميم، وبذلك تتجنبه، وتعال به الرضوان.

(٦١) فاقوا البدو، جُسُنُهُمْ وَهَبَاطُهُمْ صَاغُوا الْهَوَىٰ لَنَا هَبْدًا رَنَمُوا

أَبَانُوا عَنْهُمْ لَمْ يَجِدُوا لِلْحُبَّةِ، لَمَّا غَدَا مُحَلٌّ لِحُلِيِّ الْجَمَالِ، وَصَارُوا يَقْصِدُونَ
بِالْحُبَّةِ، وَهَذَا النَّجْمُ أَطْرَبُ النَّاسِ، فَمَنْ تَحَرَّكَ قَلْبُهُ إِلَيْهِمْ، أَوْعَالَ نَحْوَهُمْ
نَالِ شَرَفٍ هَذَا مِنْهُمْ لَهُ، طَعْنُ أَصْحَابِ مَسَلَطَةٍ يُؤْمَلُ عَلَيْهِ الْعَاسِقُونَ، أَوْ يَتَقَلَّبُونَ
بِالْحُبَّةِ، أَوِ الرَّائِبُونَ، بَلَا لَكُمُ اسْتِعْدَادُهُمْ ضَعِيفٌ.

فَاقُوا غَيْرَهُمْ مِنَ السَّادَاتِ فِي فَتْخِهِمْ وَقُوَّةِ تَصَرُّفِهِمْ، وَاقْدَارِ هَزْبِهِمْ عَلَى
مَنْ يَرِيدُونَهُ، فَفَتَحُوا بَابَ السُّلُوكِ وَالْإِشَادَةِ عَلَى مَصْرَعِيهِ لِيَلْجِ كُلُّ النَّاسِ
فِي أَيِّ لَحْظَةٍ وَبِأَيِّ لَحْظَةٍ (نَظَرَةٌ) وَبِأَيِّ فَاظِرٍ، أَوْ بِي إِجَاهٍ، دُونَ أَيِّ هَمِيهِ،
أَوْ وَاسِطَةٍ، أَوْ أَنْتَظَارٍ، فَخَتَى الْقَلْبَ عَمَّا، أَوِ الْخَاطِرَ رَسَدًا، دُونَ فَهْدٍ لِلْسُّلُوكِ
لَا تَخْصِي تِلْكَ اللَّحْظَةَ، إِلَّا وَقَدْ تَقَعَّوْهُ بِمَا يَسْتَفِيعُ بِهِ الْمُرِيدُ السَّالِكُ
مُطْلَبٌ: لَمَّا قَانُوا سَادَةَ الْمُحِبِّينَ بِإِعْتِبَارِ تَفَوْقِهِمْ عَلَى جَمِيعِ الْمُحِبِّينَ،
كَذَلِكَ مِنْ أَهْلِهِمْ نَالِ السِّيَادَةِ عَلَى بَاقِيِ الْمُحِبِّينَ.

فَالْأَقْمَارُ الَّتِي تَمَثَّلُ أَصْحَابُ الْجَمَالِ الْمُعْشَوْنَ، سَادَتُمْ لِمَنْ جِئَ السَّهْمُ عَسْوَانَهُ
نَالِ نَظَرَةٍ رَضِيَ مِنْهُمْ، فَسَعَدَ بِأَنْوَارِهِمُ الصَّافِيَةُ الْبَاسِطَةُ تَعَمَّتْ
الْقُلُوبَ بِنُورِهَا الصَّافِي، وَهَذَا النُّورُ مِنْ خَيْرِ الَّذِي يَبْدُلُونَهُ لِلْعَوَالِمِ مِنْ
هَذِهِ مَاتَ مَعْنَوِيَّةً [تَوْسِلُ وَتَضَرِّجُ لِنَفْسِهِ الذَّنُوبَ، رَفَعَ الْبِلَادَ، رَفَعَ الْمَقَاطِعَ،
رَفَعَتِ الْعِبَادَ، طَلَبَ الرِّحْمَةَ وَالرِّضَا وَتَسْبِيحَهُمْ فِي تَرْوِطَائِهِ] وَكَذَلِكَ لِعَالِمِ
الَّذِي يَزْرَعُونَ فِي قُلُوبِ الْعِبَادِ الذَّرِّيَّةَ سَلَكُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ خَاصَّةً، وَبَاقِيِ
مَنْ يَخْضِرُ بِجِالسِهِمْ عَامَّةً.

وَمِنْ عَلَى صِفَةِ الصَّدِيقِ الْأَكْبَرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ لَهُ أَهْلُ السَّخَاءِ
بِهِ دُونَ بَلْ مَا يَصِلُ إِلَيْهِمْ، لَوْ مَلَكَوا الدُّنْيَا لَبَدَّلُوهَا قَلْبًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ

وذلك لسر النسبة إلى الصديق الأكبر، والرقيق الأعظم رضي الله عنه وأرضاه بطريقه البيعة والسلوك.

مطلب: اعلم أنه المشايخ الموصولين إلى الله تعالى المسلمين للمريدية كثيرين ولكم المريدية قليلون.

فإن من كل شيء منه حيث أنه فعله أفعال الله تعالى هو شيخ فاعل مرشد إلى الله تعالى، ويقول مولانا الشيخ الرباني أعلم الله درجانه دائماً وأبداً بما معناه (إنه من يسير في الطريق إلى الله، ويجعل لنفسه أوراذاً نأت به ولينا لنوصله إلى الله تعالى) إ.ع.

ولكن أيه المريدون الصادقون في إرادتهم، فإن المرشد إلى الله تعالى فعله تعالى لا غير، والقول أفعاله، لذلك المراد أنه يقصد هذا التوجه فيدله الله على المريد الذي يوصله، على الهداية، والموصوف إلى طهارة من فعل الله وبأمره. وقال الشيخ محمد الدية به عري قد ذكره في كتابه روح القدس (ومن جملة الأشياء التي انتفعنا بهم في طريق الدفرة هذه الأسماء، ميزاب رانية بمدينة فاس في هائط ينزل منه ماء السطح مثل ميزاب الكعبة، فوقف على عبادته مع [اتأمل عبادة الميزاب] واجتهدت بنفس عسى أجري معه في ذلك، ومنهم ظلمي الممتد من شخصي أخذت منه عبادته، قد أخذت نفسه بهما وأشباه ذلك وأما الطيوانان فلنا منهم شيوخ [لنا منهم عبرة نتعلم منهم] ومنه الذي احتج عليهم لفرس فياه عبادته عجيب) أخذت الميزاب السخا والحدوة، ومنه الظل التواضع والزهة وترك زينة الدنيا، ومتابعة أسسه وتقليده، والفرس رغم قوته وقوته أخذت منه الطاعة والتسليم، والتحمل على المصائب، وهكذا شأنه الباقية [خاطر كيف لم يقصر في المشايخ على القاطنين منهن بنو آدم، فياه الصادق في طلب الحق تعالى إلى كل شيء شيئاً له مرشداً فاعلاً، يدله ويوصله إلى الله تعالى، وإذا لم يصبه فلا يصح ولو أجمعوا بالفر مرشداً، كما المتأقنين وشركوك لم يصبوا مع كل المرشدين فهل كانوا.

(٦٤) يُصَيِّطُهُمْ مِنْ نَالٍ مِنَ الْخَاطِئِينَ رَوَى خَلِيلُ الْقَلْبِ إِنَّهُ يَهْوَاهُمْ

محببتهم هائلة على العيوب والقلوب، فمنه نظر إليهم وقع أسوأ بهم، نظر جلال و
اهترام، ومنه يهواههم يجد عندهم رواية خليل محبتهم عندهم بطعم الخالص
- المريرة عندهم على سقايته

الأول: صادقه في طلب الحق، ويتوجه إلى ما يوصله، فيتابعون سيره وكوهره،
فيذوق المصاعب والأشياء، إذا قارب على الاستسلام هذه
المصاعب أجدوه، فيذوق لذة السلوك عندهم، ويذوق هلاوة الأمانه
الأخيرة معهم، بعد أنه قام يذوق المرارة والمصاعب.

الثاني: عنده استعداد للتوجه والتقرب، لكنه لا يبذل جهداً في ذلك،
فيؤدي عبادته بما يسقط للواجب فقط، فيكسب له القرب

إلى الله تعالى، فهذا يجد حقيقت ولذة العبادة عندهم بعد أنه جاذبه
رغماً عنه، وهو لا يريد لأنه لا يتحمل المسؤولية، ولا الشدة، بل يحب

الراحم في كل شيء، فمنه تفجع عليه أنظارهم، وتحيطه عنايتهم معه، وهو الجالس
سوار في الدنيا، أو في عالم الذر، أو يوم الهجرة الشريفة فإنه ياذن الله

تعالى لا بد وأفل همهم، ويعيش في كفرهم، ويخضعوه للتربية الشريفة
على أيديهم المباركة، حتى يرتقى إلى مقام الطائفة، وقد تعلموا هذا المسلك

وأسمعوا بهذا العطاء، ولو أبى الذي تحرك قلبه وقام به الهوى والوجد
قصدهم وتابعهم سجد دواؤه عندهم، فيوجهوا هذا الحب الصغير لديه

إلى الحب الحقيقي، فينظم لديه الحب، ويصفونهم ينسج، فيلحسون
أو يدلون، أو يوجهونه هذا الهوى، إلى مقصده، لأنه يتحرك ولا يعرف وجهه

ولا متعلقه، حتى يوجهه صاحبه الذي قام به إلى متعلقه، وصاحب طوى جلال

بدونه مرشد كامل، لئلا يوجهه هواه هنا وهناك، حتى يعكره وانه لم يكن به
أولم يجد ذلك سبيلاً للهجانه ملّة، ثم يستقلّ بالاعلى ٥، وهناك حتى إذا
صدمه يصل إلى المحبوب الذي فانه سبيلاً تحركه، فيصفوا لوجهه ويسكنه صباهه
إليه، وتتوهم المحبة وتزبد.

وقد قلت: ذقت الطوى ما كنت أعلمه ولا أدري بجه أهوى وإلى مفرم
حتى إذا ذكر الجيب تعلقته رومي بهم وصفت حال منهم
وقلت: رسم السوادي قد أباه إماما كشف اللثام عنه الجمال لينفروا

وتعود إلى الشغل الأول ونورد قصيدة مولانا الشاه النقشبندى على الله
درجانه دائماً وأبداً عندما ذهب إلى أهد المشايخ وبات عنده فقال أبه الشيخ
للشيخ انه هذا الشخص (أي مولانا الشاه) مجتهد أفند تملكه وتطيعه
البيعة، فبكى الشيخ وقال (انه هذا أبه الشيخ) أمير قلال وليس عندي
ولذلك فانه الشيخ ناظم عادل الحقاقي يترى عند الشيخ سعيد السباعي
رسمه الله فيهم فأرسل إليه مولانا سلطان الأولياء الشيخ
عبد الله الفائز الدغستاني على الله درجانه دائماً وأبداً (انه لنا عندكم
مريداً اسمه ناظم فأرسلوه لنا) فأطاع الشيخ سعيد السباعي وأرسل
الشيخ ناظم إلى الشام فملن الطريقة النقشبندية العلوية على يد
مولانا الشيخ عبد الله الدغستاني على الله درجانه دائماً وأبداً وصار
من المجتهدية وقد نشر هذه الطريقة العلوية في سائر بقاع الأرض
الحمد لله فدخل في بيعته الملايين فقامت بذلك سعادتهم في الدنيا والآخرة
مطلب: قال في البيعة السنية:

إذا ما به من يقبل على الطريق بقله لا يظفر من إلا ببعض فكيف به تكون

فَلَيْسَ لغيرها فاعلم ذلك ^{٨١} **الآن** صف السلوك التسليم القابل للشيخ المزي المرشد
والتسليم والطاعة تستلزم القناعة في المحبة للمرشد المزي **فإذا** أفني في محبة
شيخه سلم له نفسه وعقله **فيوجه** الشيخ لما فيه غيره ومادته
مطلب ثم إنه السالكية على قسمين: **سالك مجذوب** و**مجذوب سالك**.

فالأول يشهد الآثار أولاً **ثم** يستدل بالأسماء **ويستدل** بالأسماء
على شئ الأوصاف **ويثبتون** الأوصاف على وجود الذات **لأنه** محال أنه يقوم
الوصف بنفسه **ولهذا** هو شأن العموم **وأكثر ما في** الكتاب والسنة يشير إلى ذلك
كقوله تعالى **إنه في خلقه السماوات والأرضه واختلاف الليل والنهار والظلمة**
تجري في البحر بما يفتح الناس وما أنزل من السماء من ماء فأعيا به الأحيه بعد موتها
وبين فيل من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرضه
آيات لقوم يعقلونه **البقرة - ١٦٦**

والثاني **المجذوب السالك** يشهد الذات أولاً **ويكشف** له ما يليه باستعداد **ثم**
يرد إلى شهود الصفات **ثم** يرجع إلى التعاليم بالأسماء **ثم** **الشهود** الآثار **عكس**
مقابل السالك الأول عليه **فتلبي** السالك المجذوب بداية المجذوب السالك لا بمعنى
واحد **فإنه** مراد السالك المجذوب شهود الأشياء لله **ومراد** المجذوب السالك
شهود الأشياء بالله تعالى **فأولها عامل** بتحقيقه القناء والجو **والثاني** **مسلك**
بطريقه البقاء والصحو **ومنه** هنا تعلم أنه المجذوب السالك أعلم من السالك المجذوب
وزيادة المجذوب السالك بأنه يشهد الأشياء بالله تعالى **وهذا** أعلم من شهودها
لله تعالى **والسالك المجذوب ينتهي إلى القناء** **وهذه** ينتهي إلى البقاء والصحو
بعد القناء **وهذا** أكل ما الأول **لأنه** مقام الأبناء ووارثهم من المرسدين
المكملين **إذ** مقام الإرشاد لا يصح ولا يصلح إلا أنه تحقيقه بالبقاء بعد القناء
وقال سادات النقشبندية **(يسلكون مسدريه وسلكون غيرنا مستطيل)**

وأضرب مثلاً لتقريب فهم الفروغ بينه شهود الذات ثم الذئور بينه الأثر ثم الذات
 فمثال السالك المحزون: **لكنه يرى الضوء والنور فيقول بأنه الشمس أشرقفت**
 ومثال المحزون السالك: **لكنه يرى الشمس فيحكم بطلوع أنوارها على الأشياء**
 والمريد صاحب وقت، والمتوسط صاحب حال، والمنتهي صاحب نفس،
 عمل المريد يسير وبقائه أعتال الجبال، عمد العارف كثير وانه فانه كمثل ذرة،
 فالمريد المنتهي في السلوك الذي يرى له وجوداً وعملاً مستقون في طلب المراد،
 والمتوسط مطالب بأداب المنازل وهو صاحب تلويح وهو عبارة عنه تحويل حال
 السالك من أجل إلى أجل آخر لا نه يرتقي من حال إلى حال وهو في التزادة
 والمنتهي الواصل محمول قد باور المقامات وهو في محل التكمية وهو عبارة عنه دوام
 كشف الحقيقة لأنه الصمتان القلب يقرب لا غيره إلا هو وال لا تؤثر فيه الأهوال
وطلب: سئل الحسية الحلاج رحمه الله عنه المريد؟

فقال: **(هو الرامي بأول قصده إلى الله تعالى فلا يعرج حتى يصل)** إلى
(مقام المتوسط) ركوب الأهوال في طلب المراد ومراعاة الصدق في الأهوال و
 استعمال الأدب في المقامات

(ومقام المنتهي الصحو والتكمية وإجابة الحق فيه دعاء) قد استوى في حاله
 الشدة والرفاء والمنع والمطار والجفاد والوفاء أطله كجوى ونومه كسره قد
 فني فظوظه وبقيت هتوقه ظاهرة مع الخلعة وباطنه مع الحق وكل ذلك منقول
 من أهوال النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه وآله ما يتخلل في غار مراد ثم صار مع خلعه
 فلا غمره عنه بين الخلوة والجلوة وكذلك أصحاب الصفة صاروا في حالة التكمية
 أمراء ووزراء في حالة المخالطة لا تؤثر فيهم

وعوداً عما بهد هو لا الربوبية هم الخلداء يضمونه كل شيء في مقامه الملائم المطابقة له
 فيروى الماسقونه والفاصدونه مع مقامهم طلب استعداد لهم

(٦٢) **أَسْرُوا فَوَادِي مَا ضُؤُوا بِفَدَيِّ** **إِلَّا بَأَنَّهُ أَضْمِي أُجِيرًا أُخْذَم**

قال في موزيه **(وماله تداقت عينا الأثير مع هذه النظرات، وتأمل ما كانت كوي**
به من هذا المستطاف حتى سرت رعدة من الرقة والرحمة في سائر

مشاعره **واقعدت إلى سويداء قلبه فنقضت نقضة أليمة، تاقط من كل**
ماتلعه به من قسوة، وغضب، وبدأ يخفقه بالرحمة **الح**

وهنا يتجلى فعل المشايخ به هو طيب **لكنه الأهل والفقير تقصير** **يُرعى** **الطير**
فيأتي عندها يعملون سرهم **ويعذبونه** **والهم** **ويتقضونه** **قلبه** **نقضت قوبة**
تخلصت من كل شائبة **ثم تزرع بكل محبة ومهنة**

ملكوا قلبه **وأضوف بهم الشفقة** **غرز في قلبي وروحي** **ألم يقوه من اشتدادهم**
فأوقعو في أسر جهنم **وداؤوني بأدبهم** **فصرت فادعاً لما أروني** **وذلك من سلمات**
الأسر **لم يكن له فداد** **وحاولت جاهداً أنه أفتدي نفسي كيافي الأسرى**

الذي يؤسرونه في الحرب **لكنه الأسر هنا باطني وليس ظاهرياً** **حيث يفتدي بالمال**
الأسر للمروج والقلب والعقل **لا يرضونه بترك هذا المراد** **بما حاول الإنقاذ عنهم**
حتى يهذب ويصفى **ويعلم من علومهم** **فيميلج ستراف الانتساب إليهم** **وهذا أدب**

ومنه دخل هي قوم تأدب بأدبهم **كذلك الأسير ليس له أنه يتخذ ما شاء**
أمره **لأنه الأمر بيد من أسره** **إنه شاء ففاد** **وراه شاء فقله** **وراه شاء فحقه**

أدب **المبتدئ في السلوك قد تأتيه الخواطر والنساؤلات** **والاعتراضات**
بطريقه مباكرة **أو غير مباكرة** **فالسالك تأتيه من طريق غير مباكرة** **أي ليس**
من طريق الإنقاذ **إنما من طريق الاستفسار والفضول والجهل بالأدب** **و**

ذلك لعدم حقه مطلقه التسليم **ولقلة إحصائه بالمعارف والتدبير**
حتى إذا أتى في الطريقة علمه المرشد مع التسليم له **ولتربيته تتجلى له**

المعارف وتنفع المعرفة، وقد سترأى أعلام محبلة المريد صوراً و
 أسماً لا لا محمد ذكرها في مجلس الشيخ، أو عند اجتماع بالمريدية،
 فالأصل في هذا أنه ما يتخيله هو صورة نفسه الأمانة بالسور،
 فكيف يرى النفس وماذا تميل إليه يتشرب به، فتترأى بما تحبه
 وتستهليه هي ثم تبدي أعلام صاهباً في فطر القير، والمؤمنه مرآة
 أفتية المؤمن، فعلم المريد أنه لا يلتفت إلا لهذه الخواطر، ولا يفكر إلا بل
 يتأدب بأدب المجلس فيسمع، ويفكر في كلام الشيخ، أو المريدية نزول
 ذلك الخاطر عنه، وإلا يسمى الأدب بترك الإضيات، وسيرسخ هذا
 الخاطر في قلبه، وقالوا: ليس أنه لا يأت الخاطر أبداً بل أنه لا يستقر
 بل بحر رياح الصيف لا سقاء ولا نعيم.

أما المبتدى في الخصور، أو العبادة من غير سلوك، فقد تأتت به خواطر أيضاً
 إضافة لما قبله، بطريقة مباشرة من باب الإفتقاد على الشيخ المريدية
 ما إذا أدب بما ذلك، ولم يعمل على إزالة تلك، وقع في المزلزلة، إلا أنه
 يبايع الشيخ، وخاصة إذا انتقد عليه، فلا حاجة له إلا يبيده
 والتأدب معه.

مطلب: قالوا الصوف (الفتوة للرئوة، والرفق للفتوة) والأسر هنا فتوة لأنه به
 يقطع المرء عنه العالم، وعن الحياة العادية، وهنا يقطع القلب عن كل متعلقات الدنيا الغانية
 حتى يصل هذا القلب بالخلوة التي في الخلوة، مع قابعة المشائخ له إلى
 الصفاء والتحققة بالإخلاص والتسليم، فقال [حتى عفت نفسي لأمرهاهم]
 وهو ربي ورئوه وقوله [فلتم أوفلتهم بهواهم] فتوة فيه وصل فأقبل على
 الله بقليل، ولا تترك لملك فظاً، ولا لرأيل مكاناً، هي لا تعترضه ولا تستقدو له
 في سره، وأخلص العمل لله عز وجل وسلم تسلم يؤمن الله أجرك من ربه

(٦٤) كيف القول بأسر سر عندنا لكنه يعرف في الهوى لا يحرم.

بطل الأمر فقا س من الباطن على حكم الظاهر ونسي أنه الاستحسان وهو العمل
به قياس ظاهره في المقياس في فجاهه الجواب بأنه العرف وهو في الحب العمل
به يقتضي أنه أسير الحب والهوى لا يحرم ولا يفدي وعرف المحبة أنه الله سر
وأحب للمحبة حتى تسمى محبة وقد يكونه مندوباً إليه.

وقال الشاعر:

يا قلب لا تشك الصباية بعدا أ وقعت نفسك في الهوى وهو انه
طوى وتطوى أنه تفر منه الهوى كيف الفرار وأنت له ضمانه
لم أله قبل المشقة ناراً أفرقة بشرأ وهب المصطفى بجانته
لعله أرعوا أهوة البنية الأولى فشوقهم أضحى سيمري وزد ما في

مطلب: الصوف هو العلم الذي لا يحتاج إلى وجود فالعرف أنه المحبة لا يثبت لغيره
قدراً أمام محبته والمصوف يجب أن يكونه محباً لذاته لا يثبت لغيره أثراً
ولا قدراً بل يحل آثاره وعلمه وقياسه وأي شعور بالوجود والاستقلال
وسلم نفسه لشرف سيئته كما لو كان تفتت من صوف في رهبان الرخ فلا يشعر به
أحد في حركته أو سكونه فيفضي في محبة سيئته الذي يتولى ربيته ويسلم له
وبدونه هذا التسليم والقضاء لا يرقى المريد في المقامات التي وصلها المقربون
شأنه كشأن النجاة التي تسلم نفسه لراعيها فيجز صوفاً فيجملها و
يهدأ به السمت وما علمه في الصوف من الأوساخ فتفرج جلافتها و
منزلاً أما التي تنمرد وتعاذ صاملاً فيجز صوفاً لكن لا تجمل به
لغنادها بل قد تشوه به فيرى بعضه جميلاً سوية ولا فر مقطع
شمتاً فتأمل أيا السالك.

(٦٥) إِنَّهُ قَلَّتْ خَلُوعًا سَادَتِي قَلْبِي تَلُوعًا هَيْلَاتِي ذَنْبٌ فِي الْهَوَى بَلْ أَغْطِيهِمْ

تَلُوعًا

السلوة المقروءة تكرر : من جاءهم أولاً ذنبهم لم يدعوه حتى يهرطوه إلى مقاعد
ومرادهم وينال فناءه الحقد ولو كان لا يعرفه هو من قبل وصوله ولا الله
وهذا دليلهم ودأبهم يتكرر مع كل امرئ جاءهم أو قصدتهم فوظفتهم
فدعة البشرية دونه تفريجه وترك ذلك عار عليهم بل كبيرة من الكبار
في حكم الحب وقضائه فلهم مجبروه فاطر كل المخلوقات عامة فكيف بمحمد
قصدتهم واستغاثهم ثم يروي غليل القلب من مقادهم

قال عليه الصلاة والسلام : (والله في عونه العبد مادام العبد في عونه أفيق)
وقال النبي الهدي عليه الصلاة والسلام : (إذا أحب الله عبد أحبته إليه
هو آخر الناس)

أدب وتبليغ : من طلب الطريقة وعند التفات إلى غيرها فهو مستنزى بالطريقة
وقال مولانا الشاه النقشبندي : أعيا الله درجاته دائماً :

(من أحرصه على طريقنا فهو على خطر عظيم) الح
لأنه طريقهم رضي الله عنهم هو منجى النبي صلى الله عليه وسلم والصحاب
الكرام والتابعين من بعدهم رضي الله عنهم أجمعين والمعرض عن الشريعة
الغفراء والشفقة السنية فلا شك أنه على خطر عظيم

مطلب : قال معروف الكرخي رحمه الله ورضي عنه :
(إذا أراد الله بعبد خيراً زوى - نحى - الخذلانه عنه وأسكنه
بيته الفقراء الصادقين وإذا أراد به شراً عطله عن العمل الصالح
وأركنه بين الأغنياء) الح

(١٦٦) **أَسْرَأُ مَوْتِي بِالْخُرُوفَاتِ** **هِيَ عَفَتْ نَفْسِي لِأَمْرِ هُوَاهُمْ**
 قال مولانا الشيخ: لا يفعل المريد الصادق شيئاً أو يترك إلا بأمر الشيخ
 منه نظراً إليهم وقع أسيراً بهم، **أَوْ نَظَرُوا إِلَيْهِ**، وإذا أحبهم لقي خالص
 المودة وصداقاً، وصفاؤها فلا يجد عنهم أبداً، وترقى على أيديهم وفي
 كفهم **هِيَ صَاحِبَةٌ** فإدماً لعباد الله طيعاً، وصار لربيبته أو كفلت
 صوف (نفتك) يقابل الهواء كيف يشاء، **دَوْهَ** أي امتناع من في حال عدم
 وجود أي ذرة من مقاومة أو قوة أو شاقلة.

أَدَبُ: حال الإمام لشيخه إلى قدسه سره:

(من علامة المريد الصادق أنه لا يكون له مناقشة ولا جدال في شريعة ولا
 حقيقة لأنه) **قال** في طريقه الترقى لا التفات له، وللحال أهل والطريقه أهل
 وقال: **رَأْسُ** قال المريد الصادق المحبة والتسليم، والقاد عصا المعاندة
 والمخالفة، والسكون تحت مراد شيخه وأمره، **فَإِذَا** حاله المريد كل يوم في
 زيادة محبة شيخه وطريقه وزيادة تسليم له، **أَمَّا** القطع فإنه عوارض
 الطريق، وعقبات الإلتفات، **وَالْإِرَادَاتُ** هي التي تقطع عن الإقدام، وتجب لمريد
 عنه الوصول إلى المراد.

مطلب: ينبغي للشيخ إذا جاء طالب بالمال الصدوق يطلب الطريقة وطهارة و
 الإرشاد فلا يستعمل تباينه، **وَيُصَرِّفُهُ** حتى يتبين صدقه في هذه الأمور
 بالعرفان الإلهي، ثم ينظر إلى استعداده، **فَإِنْ** حاله استعداده يوافق طريقه المقربين
 فيعلمه طريقه المقربين، ويكون من الطرق طريقه لظواهره وبناءه على الموت الإلهي
 لا اختيارياً، **لَمَّا قِيلَ** (موتوا قبل أن تموتوا) وهو الخروج من الإرادة الطبيعية لقي تعالى على اختيار
 الإنسان كما في الموت الاختياري يخرج الإنسان من جميع الإرادات بلا اختيار
 ولا رأي استعداده، **لَا** طريقه الأبرار، فيعلم ما يكون في طريقه الأبرار ويرغبه

يرهبه بذكر الجنة والنار حتى يميل إلى العبادة ويختار الرياضة الشاقة
فيأمره بالصلوات الزوائد وصيام النوافل مما يكون مختار العلماء الصوفية المحققين
ويأمره بحفظ الأوقات وكسب التوفل والصبر والقناعة فإنه لم يبط الله
أحد أفرقة الاستعداد وما يكون مبعث رتبة الاستعداد فتعليم الذكر و
المباينة والمصاحفة والنصيحة عليه هرام
ويوجد منه لا يحتاج لأنه يتقن ويعرف الاستعداد بل يعرفه من قبل أنه
يأتي المرید اليك لا أن يؤجله بل يسلك وهذا العمل مما قبله
بكثير فتأمل

طلب: قال الشيخ محمد الشاذلي رحمه الله:

(من المحال أن يفتح باب الملكوت والمعارف وبالقلب شهوة لا أنه من المحال
أن يفتح باب العلم بالله تعالى من حيث المشاهدة وفيه لمح للعلم بأمره
الملكوت والمكوت) الخ

وعودة إلى الأجيال حتى عفت نفسي ودرست فيها ذكرها وحج أثرها فلم يقدر
الافروء ولهمها الأقروبة وضاعت واضمحلت سمر لا في صياها الزجاجة فلم أجد
نفسى أو تصور لها ذاتاً متقلة وإنما تذكر بذكر السادة الذين تولوا ربي
ولهذا هي البداية بداية السلوك وتكون بالصغار في الشيخ أو كما

طلب: يسمى (المحو) حيث تنمحى صفات المرید في صفات الشيخ المرشد المرئي
فينزل كل أخلاقه وهرماته التي المتأد عليها وتصبح أخلاقه الجديدة وهرماته
وسكناته ما أخلاقه وهرماته وسكنات شيخه ومكانه ظل له فتشعل العربة
حامل الجرد والروح معاً وقد قال سائر المشه الإلهي رحمه الله الفارص رحمه الله:

أخذتم مؤادي وهو بطني فما الذي يضرب لم أنه يتبعوه لخلق

أدب: قال الشيخ محمد الشاذلي رحمه الله: (أدخلوني في هذه الطريقة بطرية الفضل) الخ

بولا نا الشاه القشيري

أي بطريقه التفضل علي واليد **اليد** لا بطريقه اهل الدي وتؤدي وفنا في
أدب سلم نفسك للمرشد يغسلك عنه كل ما تمل النفس اليه وهو
 أصلاً إلى التراب تنقل الإنسان إلى الأرض عند ما يطر الشيطان عليه لا يريد
 له السمو إلى عالم الروح. وإن الشيخ يجارب النفس التي فيه هبيل فيقتل
 منه شهواته. ويفعل بقاء الحياة لتتوهم بهديه وتبلي نداء لقلب وروح
 بعد أنه كانت تبلي نداء النفس والشهوات.

وقال **الشيخ** النفس بئس شيء إلى الله درجانه دائماً في معنى الجسد **لقد** نفسي
 وصيبتك فارفعها **إشارة** إلى النفس المظلمة المتشرفة ظلمة
 (اللامارهم) التي «وقد يحصل لبعض الأولياء حال بحيث يصلونه في الانقياد
 إلى مقام إذا أقروا بشيء لا تمكنهم المخالفة»
 وقد قضى **الشيخ** اثنا عشر عاماً كما أخبره الحضر والجليم الترمذي في المنام
 فأفذه حال غريب وطلع صبح سعادة محبة في أفق قلبه ثم أقبل بالمناجاة
 التامة علي وقبلني أنه أكون عبداً له
 قال أهدهم: لو ضلوني خبروه كنت لا أرضى بعقبي.

درجانه في مجموعته ١٤

(استكملتم روحنا بيتنا وانتفعت منا علائق الحيوانية والقضائية) أريد
 عما بيتنا هجلاً وأستارها نعم سوف يتوارى هذا الجسم بعد قليل في
 تراب. لكنه روحه له يمنة أي ستم من نعيم وودها لها
مطلب: الأول: بأهل الباطنية الخلوة والإعتزال أي. الإعتزال الروحي لا الجسدي
 الآ في هذا العصر خلاف الزمة السابقة حيث قامت الخلوة للروح والجسد
 معاً بآه واحد أما الآه فالخلوة بالروح فقط والجسد مع الناسي أما الروح مع الله
 عز وجل وهو ما يسمى [الخلوة في الخلوة] وهو الأسر المقصود إذ يطوف في عمق الخلوة بالذات والجل
 وقلت: هجرت الخلوة والأغيار سرًا وبجهرته الخطأ نحو المخاب

عبد الأعلى^(١) بن عبد الله الشامي رحمه الله تعالى :

العمر ينقص والذنوب تزيد وتقال عشرات الفتى فيعرد
هل يستطيع جحود ذنب واحد رجل جوارحه عليه شهود؟
والمرء يسأل عن سنيه فيشتهي تقليلها وعن الممات يحيد
واعلم أن لأعمال الطاعة ومجانبة المعاصي آفتين: إحداهما تكسب
الوزر. والأخرى توهم الأجر. فأما المكسبة للوزر فأعجاب بما سلف من
عمله وقدم من طاعته لأن الإعجاب به يفضي إلى حالتين مذمومتين:
إحداهما أن المعجب بعمله ممتنّ به والممتنّ على الله تعالى جاحد لنعمه
قال ابن عباس رضي الله عنهما: أوحى الله تعالى إلى نبيّ من أنبيائه أما
زهدي في الدنيا فقد استعجلت به الراحة وأما انقطاعك إليّ فهو عزٌّ لك
فهذان لك وبقيت أنا. والثانية أن المعجب بعمله مدلّ به والمدلّ بعمله
مجترىء والمجترىء على الله عاص. وقال مؤرق العجلي: خير من العجب
بالطاعة أن لا تأتي بطاعة. وقال بعض السلف: ضاحك معترف بذنبه خير
من باك مدلّ على ربه وباك نادم على ذنبه خير من ضاحك معترف بلهوه.
وأما الموهنة للأجر فالثقة بما أسلف والركون إلى ما قدّم لأن الثقة تؤول إلى
أمرين: أحدهما يحدث اتكالاً على ما مضى وتقصيراً فيما يستقبل ومن قصر
واتكل لم يرج أجراً ولم يؤدّ شكراً. والثاني أن الواثق آمّن والأمن من الله
تعالى غير خائف ومن لم يخف الله تعالى هانت عليه أوامره وسهلت عليه
زواجه. وقال الفضيل بن عياض^(٢) رهبة المرء من الله تعالى على قدر علمه

(١) عبد الأعلى: كنيته أبو مهر، قيل: ما روي أحد في كورة من الكور أعظم قدراً ولا أجل عند أهلها من أبي مهر بدمشق وكان إذا خرج إلى المسجد اصطف الناس يسلمون عليه ويقبلون يده، وحمله المأمون إلى بغداد أيام المحنة وفضل القتل على أن يقول بخلق القرآن، ومد رأسه إلى السيف، فلما راوا ذلك منه حل إلى السجن فمات ببغداد سنة ٢١٨ هـ.

(٢) الفضيل بن عياض: أبو علي الحرساني من ناحية مرو، ولد بسمرقند ومات في الحرم سنة ٢٨٧ هـ.

بالله تعالى . وقال مؤرق العجلي : لأن أبيت نائماً وأصبح نادماً أحب إليّ من أن أبيت قائماً وأصبح ناعماً . وقال الحكماء : ما بينك وبين أن لا يكون فيك خير إلا أن ترى أن فيك خيراً . وقيل لرابعة العدوية رحمها الله : هل عملت عملاً قط ترين أنه يقبل منك قالت : إن كان شيء فخوفي من أن يردّ عليّ عملي . وحكي أن بعض الزهاد وقف على جمع فنادى بأعلى صوته : يا معشر الأغنياء لكم أقول : استكثروا من الحسنات فإن ذنوبكم كثيرة يا معشر الفقراء لكم أقول . أقلوا من الذنوب فإن حسناتكم قليلة فينبغي - أحسن الله إليكم بالتوفيق - أن لا تضع صحة جسمك وفراغ وقتك بالتقصير في طاعة ربك والثقة بسالف عملك فاجعل الاجتهاد غنيمة صحتك والعمل فرصة فراغك فليس كل الزمان مستعداً ولا ما فات مستدركاً وللغفران زيغ^(١) أو ندم وللخلوة ميل أو أسف . وقال عمر بن الخطاب : الراحة للرجال غفلة وللنساء غلطة^(٢) . وقال بزرجمهر : إن يكن الشغل مجهدة^(٣) فالغفران مفسدة . وقال بعض الحكماء : إياكم والخلوات فإنها تفسد العقول وتعتقد المحلول . وقال بعض البلغاء : لا تمض يومك في غير منفعة ولا تضع مالك في غير صنعة فالعمر أقصر من أن ينفد في غير المنافع والمال أقل من أن يصرف في غير الصنائع والعاقل أجل من أن يفني أيامه فيما لا يعود عليه نفعه وخيره وينفق أمواله فيما لا يحصل له ثوابه وأجره . وأبلغ من ذلك قول عيسى بن مريم على نبينا وعليه السلام : البر ثلاثة : المنطق والنظر والصمت فمن كان منطقاً في غير ذكر فقد لغا ومن كان نظره في غير اعتبار فقد سها ومن كان صمته في غير فكر فقد لها .

واعلم أن للإنسان فيما كلف من عباداته ثلاثة أحوال : إحداها أن يستوفيها من غير تقصير فيها ولا زيادة عليها والثانية أن يقصر فيها والثالثة أن يزيد عليها . فأما الحال الأولى فهي أن يأتي بها على حال الكمال من غير

(١) زيغ : ميل أو عدول عن الحق .

(٢) غلطة : هي غلبة الشهوة الجماعية ، أي تورث ذلك .

(٣) مجهدة : سبب تعب وكلال .

تقصير فيها ولا زيادة تطوع على راتبها فهي أوسط الأحوال وأعدلها لأنه لم يكن منه تقصير فيذم ولا تكثير فيعجز وقد روى سعيد بن أبي سعيد رضي الله عنه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «سَدُّوا وقاربوا ويسروا واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة^(١)» وقال الشاعر:

عليك بأوساط الأمور فإنها نجاة ولا تركب ذلولاً ولا صعباً
وأما الحال الثانية وهو أن يقصر فيها فلا يخلو حال تقصيره من أربعة
أحوال: إحداهما أن يكون لعذر أعجزه عنه أو مرض أضعفه عن أداء ما
كلف به فهذا يخرج عن حكم المقصرين ويلحق بأحوال العاملين لاستقرار
الشرع على سقوط ما دخل تحت العجز. وقد جاء الحديث عن النبي ﷺ
أنه قال: «ما من عامل كان يعمل عملاً فيقطعه عنه مرض إلا وكل الله تعالى
به من يكتب له ثواب عمله». والحال الثانية أن يكون تقصيره فيه اغترار
بالمسامحة فيه ورجاء العفو عنه فهذا مخدوع^(٢) العقل مغرور بالجهل فقد
جعل الظن ذخراً والرجاء عدة فهو كمن قطع سفيراً بغير زاد ظناً بأنه سيجده
في المفاوز^(٣) الجدبة^(٤) فيفضي به الظن إلى الهلكة وهلا كان الحذر أغلب
عليه وقد ندب الله تعالى إليه. وحكى أن إسرائيل بن محمد القاضي قال:
لقيني مجنون كان في الخربات فقال: يا إسرائيل خف الله خوفاً يشغلك عن
الرجاء فإن الرجاء يشغلك عن الخوف وفرّ إلى الله ولا تفرّ منه. وقيل
لمحمد بن واسع رحمه الله: ألا تبكي؟ فقال: تلك حلية الأمنين. وحكي

(١) الدلجة: هي سير آخر الليل.

(٢) مخدوع العقل: أي قليله يقال: خدع المطر: إذا قل.

(٣) المفاوز: البراري المهلكة، وتسميتها بالمفاوز للتفاؤل كتسمية اللديغ سليماً.

(٤) الجدبة: لا خصب فيها.

أن أبا حازم الأعرج^(١) أخبر سليمان بن عبد الملك بوعيد الله للمذنبين فقال سليمان: أين رحمة الله؟ قال: قريب من المحسنين. وقال عبد الله ابن عباس رضي الله عنهما: ما انتفعت ولا اتعظت^(٢) بعد رسول الله ﷺ بمثل كتاب كتبه إلى علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: أما بعد فإن الإنسان ليسرّه درك ما لم يكن ليفوته ويسوءه فوت ما لم يكن ليدركه فلا تكن بما نلت من دنياك فرحاً ولا لما فاتك منها ترحاً ولا تكن ممن يرجو الآخرة بغير عمل ويؤخر التوبة لطول الأمل فكأن قد والسلام. وقال محمود الوراق رحمه الله:

أخاف على المحسن المتقي وأرجو لذي الهفوات المسي
فذلك خوفي على محسن فكيف على الظالم المعتدي؟
على أن ذا الزينغ قد يستفيق ويستأنف الزينغ قلب التقي
والحال الثالثة أن يكون تقصيره فيه ليستوفي ما أخل به من بعد فيبدأ
بالسيئة في التقصير قبل الحسنة في الإستيفاء اغتراراً بالأمل في إهماله ورجاء
لتلافي ما أسلف من تقصيره وإخلاله فلا ينتهي به الأمل إلى غاية ولا يفضي
به إلى نهاية لأن الأمل هو في ثاني حال كهو في أول حال. فقد روي عن
النبي ﷺ أنه قال: «من يؤمل أن يعيش غداً فإنه يؤمل أن يعيش أبداً»
ولعمري ان هذا صحيح لأن لكل يوم غداً فإذا يفضي به الأمل إلى الفوت
من غير درك ويؤديه الرجاء إلى الإهمال من غير تلاف فيصير الأمل خيبة
والرجاء يأساً. وقد روى عمرو بن سعيد عن أبيه عن جده أن النبي ﷺ
قال: «أول صلاح هذه الأمة بالزهد واليقين وفسادها بالبخل والأمل» وقال

(١) أبو حازم الأعرج: هو سلمة بن دينار الأعرج روى عنه سهل بن سعد، وروى عنه مالك والثوري وغيرهما قال أبو علي الجبائي: أبو حازم رجلان تابعيان يكتنيان بأبي حازم يرويان عن الصحابة، وكلاهما ثقة. فالأول الأشجعي الكوفي مولى عزة الأشجعية اسمه سلمان، روى عن أبي هريرة رضي الله عنه روى عنه الأعمش ومنصور وفضيل بن غزوان. والثاني هو سلمة بن دينار الأعرج.

(٢) اتعظت: أي اتعظت بما وعظت، وحذف الفعل بعد (قد) كثير لدليل يدل عليه.

الحسن البصري رحمه الله: ما أطال عبد الأمل إلا أساء العمل. وقال رجل لبعض الزهاد بالبصرة: ألك حاجة ببغداد؟ قال: ما أحب أن أبسط أجلي إلى أن تذهب إلى بغداد وتجيء. قال بعض الحكماء: الجاهل يعتمد على أمله والعاقل يعتمد على عمله. وقال بعض البلغاء: الأمل كالسراب غرّ من رآه وخاب من رجاه. وقال محمد بن يزدان: دخلت على المأمون وكنت يومئذ وزيره فرأيتَه قائماً ويده رقعة فقال: يا محمد أقرأت ما فيها؟ فقلت: هي في يد أمير المؤمنين فرمى بها إليّ فإذا فيها مكتوب:

إنك في دار لها مدّة يقبل فيها عمل العامل
أما ترى الموت محيطاً بها يقطع فيها أمل الأمل؟
تعجل بالذنب لما تشتهي وتأمل التوبة من قابل
والموت يأتي بعد ذا بغتة ما ذاك فعل الحازم العاقل
فلما قرأتها قال المأمون رحمه الله تعالى: هذا من أحكم شعر قرأته.
وقال أبو حازم الأعرج: نحن لا نريد أن نموت حتى نتوب ونحن لا نتوب حتى نموت. وقال بعض البلغاء: زائد الامهال رائد الالهال^(١). والحال الرابعة أن يكون تقصيره فيه استثقلاً للاستيفاء وزهداً في التمام واقتصاراً على ما سنع وقلة أكثره بما بقي فهذا على ثلاثة أضرب: أحدها أن يكون ما أخل به وقصر فيه غير قادح في فرض ولا مانع من عبادة كمن اقتصر في العبادة على فعل واجباتها وعمل مفترصاتها وأخل بمسنوناتها وهيئاتها فهذا مسيء فيما ترك إساءة من لا يستحق وعيداً ولا يستوجب عقاباً لأن أداء الواجب يسقط عنه العقاب وإخلاله بالمسنون يمنع من إكمال الثواب. وقد قال بعض الحكماء: من تهاون بالدين هان ومن غالب الحق لان وقال الشاعر:

ويصون توبته ويت ترك غير ذلك لا يصونه
وأحق ما صان الفتى ورعى أمانته ودينه
والضرب الثاني أن يكون ما أخل به من مفروض عبادته لكن لا يقدر

(١) رائد الإهمال: أي جاسوسه الذي يتقدمه، ويهيء له مرعى ومزلاً.

ترك ما بقي فيما مضى كمن أكمل عبادات وأخل بغيرها فهذا أسوأ حالاً ممن تقدّمه لما استحقه من الوعيد واستوجبه من العقاب. والضرب الثالث أن يكون ما أخل به من مفروض عبادته وهو قاذح فيما عمل منها كالعبادة التي يرتبط بعضها ببعض فيكون المقصر في بعضها تاركاً لجميعها فلا يحتسب له ما عمل لإخلاله بما بقي فهذا أسوأ أحوال المقصرين وحاله لاحقة بأحوال التاركين بل قد تكلف ما لا يسقط فرضاً ولا يؤدي حقاً فقد ساوى التاركين في استحقاق الوعيد وزاد عليه في تكلف ما لا يفيد فصار من الأخسرين أعمالاً الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ثم لعله لا يفتن لشأنه ولا يشعر بخسرانه وقد خسر الدنيا والآخرة ويفتن لليسير من ماله إن وهى^(١) واختل. وأنشدني بعض أهل العلم:

أبني إن من الرجال بهيمة في صورة الرجل السميع المبصر
فطن بكل مصيبة في ماله وإذا يصاب بدينه لم يشعر

وأما الحال الثالثة وهو أن يزيد فيما كلف فهذا على ثلاثة أقسام: أحدها أن تكون الزيادة رياء للنظارين وتصنعاً للمخلوقين حتى يستعطف به القلوب النافرة ويخدع به العقول الواهية فيتبهرج بالصلحاء وليس منهم ويتدلس في الأخيار وهو ضدّهم وقد ضرب رسول الله ﷺ للمرائي بعمله مثلاً فقال: «المتشعب بما لا يملك كلابس ثوبي زور» يريد بالمتشعب بما لا يملك المتزين بما ليس فيه وقوله كلابس ثوبي زور هو الذي يلبس ثياب الصلحاء فهو بريائه محروم الأجر مذموم الذكر لأنه لم يقصد وجه الله تعالى فيؤجر عليه ولا يخفى رباؤه على الناس فيحمد به قال الله تعالى: ﴿فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً﴾ قال جميع أهل التأويل: معنى قوله ولا يشرك بعبادة ربه أحداً أي لا يرائي بعمله أحداً فجعل الرياء^(٢) شركاً لأنه جعل ما يقصد به وجه الله تعالى مقصوداً به غير الله تعالى. وقال الحسن البصري رحمه الله تعالى في قوله تعالى: ﴿ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها﴾

(١) وهى: يقال: وهى الثوب إذا تمزق وانشق.

(٢) رياء: الرياء ترك الإخلاص في العمل بملاحظة غير الله فيه.

قال: لا تجهر بها رياء ولا تخافت بها حياء. وكان سفيان بن عيينة رحمه الله يتأول قوله تعالى: ﴿إِنْ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ﴾ أن العدل استواء السريرة والعلانية في العمل لله تعالى والإحسان أن تكون سريرته أحسن من علانيته والفحشاء والمنكر أن تكون علانيته أحسن من سريرته وكان غيره يقول العدل شهادة أن لا إله إلا الله والإحسان الصبر على أمره ونهيه وطاعة الله في سره وجهره وإيتاء ذي القربى صلة الأرحام وينهى عن الفحشاء والزنا والمنكر القبائح والبغي الكبير والظلم وليس يخرج الرياء بالأعمال من هذا التأويل أيضاً لأنه من جملة القبائح وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «أخوف ما أخاف على أمتي الرياء الظاهر والشهوة الخفية». وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «أشد الناس عذاباً يوم القيامة من يرى أن فيه خيراً ولا خير فيه». وقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: لا تعمل شيئاً من الخير رياء ولا تتركه حياء. وقال بعض العلماء: كل حسنة لم يرد بها وجه الله تعالى فعلتها قبح الرياء وثمرتها سوء الجزاء. وقد يفضي الرياء بصاحبه إلى استهزاء الناس به كما حكى أن طاهر ابن^(١) الحسن قال لأبي عبد الله المروزي: منذ كم صرت إلى العراق^(٢) يا أبا عبد الله قال: دخلت العراق منذ عشرين سنة وأنا منذ ثلاثين سنة صائم فقال: يا أبا عبد الله سألتك عن مسألة فأجبت عن مسألتين. وحكى الأصمعي رحمه الله: أن أعرابياً صلى فأطال وإلى جانبه قوم فقالوا: ما أحسن صلاتك! فقال: وأنا مع ذلك صائم:

صلى فأعجبني وصام فرابني^(٣) نح القلوص^(٤) عن المصلي الصائم
فانظر إلى هذا الرياء مع قبحه ما أدله على سخف^(٥) عقل صاحبه.

(١) طاهر بن الحسن: بن مصعب الخزاعي الملقب بذي اليمين، كان أمير جيش المأمون بذلك لما قتل في حرب علي بن عيسى أمير جيش الأمين رجلاً بالسيف الذي كان في يساره، وهو الذي قتل الأمين، وجمع الخلافة في المأمون وتوفي سنة ٢٠٧ في خراسان والياً عليها.

(٢) العراق: العراق عراقان: عراق العرب وهو بغداد، وعراق العجم أصبهان.

(٣) فرابني: أوقعني في الريبة والشك في أنه مخلص.

(٤) القلوص: هي الناقة الشابة، وهي بمنزلة البكر من الإنسان.

(٥) سخف: السخف: الفساد.

وربما ساعد الناس مع ظهور ريائه على الإستهزاء بنفسه كالذي حكى أن زاهداً نظر إلى رجل في وجهه سجادة^(١) كبيرة واقفاً على باب السلطان فقال: مثل هذا الدرهم بين عينيك وأنت واقف ههنا فقال: إنه ضرب على غير السكة وهذا من أجوبة الخلاعة^(٢) التي يدفع بها تهجين^(٣) المذمة. ولقد استحسن الناس من الأشعث بن قيس قوله وقد خفف صلاته مرة فقال بعض أهل المسجد خفت صلاتك جداً فقال: إنه لم يخالطها رياء فتخلص من تنقيصهم بنفي الرياء عن نفسه ورفع التصنع في صلاته وقد كان الإنكار لولا ذلك متوجهاً عليه واللوم لاحقاً به. ومرّ أبو أمامة^(٤) ببعض المساجد فإذا رجل يصلي وهو يبكي فقال له: أنت أنت لو كان هذا في بيتك فلم ير ذلك منه حسناً لأنه اتهمه بالرياء ولعله كان بريئاً منه فكيف بمن صار الرياء أغلب صفاته وأشهر سماته مع أنه أثم فيما عمل وأنم^(٥) من هبوب النسيم^(٦) بما حمل ولذلك قال عبد الله بن المبارك: أفضل الزهد إخفاء الزهد وربما أحسن ذو الفضل من نفسه ميلاً إلى المراءاة فبعثه الفضل على هتك^(٧) ما نازعته النفس من المراءاة فكان ذلك أبلغ في فضله وقال عمر بن عبد العزيز^(٨)

(١) سجادة: هي الأثر والعلامة التي تبقى في جبهة الساجد.

(٢) الخلاعة: يقال: رجل خليع، وخليع العذار، أي قليل الحياء، وليس لوجهه ماء.

(٣) تهجين المذمة: أي قبح التحقير، والمهجنة في الناس والخيل، إنما تكون من قبل الأم، فإن كان الأب عتيقاً والأم ليست كذلك كان الولد هجيناً. والأقواف: من قبل الأب.

(٤) أبو أمامة: بضم المهملة قال العيني: وهو كنية ستة من الصحابة، ولعله أسعد بن سهل بن حنيف الأوسي، وكان جده أبو أمامة أوصى بيناته إلى رسول الله ﷺ فزوج عليه الصلاة والسلام بنته حبيبة سهل بن حنيف، فولد له أسعد هذا، فسماه رسول الله وكناه باسم جده لأمه وكنيته، وبرك عليه ومات سنة ١٠٠ وهو ابن نيف وتسعين.

(٥) أنم: هذا خبر بعد خبر، يقال: نم الحديث إذا رفعه وأشاعه.

(٦) النسيم: هو الريح الخفيف، ويكون أكثر هبوه في الفجر، وينقل الروائح الطيبة والخبثية، ويقال لها: الصبا، وفي الحديث: نصرت بالصبا، ويعبر عنها بالبريد.

(٧) هتك: يقال: هتكه إذا جذبته فقطعه من موضعه.

(٨) عمر بن عبد العزيز: بن مروان بن الحكم بن العاص الأموي القرشي الإمام العادل، أحد الخلفاء الراشدين، وصلى أنس خلفه قبل خلافته، ثم قال: ما رأيت أحداً أشبه صلاة برسول الله من هذا الفتى، تولى الخلافة سنة ٩٩ ومدة خلافته سنتان وخمسة أشهر نحو =

لمحمد بن كعب القرظي^(١) عظمي . فقال : لا أرضى نفسي لك واعظاً لأنني أجلس بين الغني والفقير فأميل على الفقير وأوسع للغني ولأن طاعة الله تعالى في العمل لوجهه لا لغيره . وحكى أن قوماً أرادوا سفراً فحادوا عن الطريق فانتهوا إلى راهب فقالوا : قد ضللنا فكيف الطريق فقال : ههنا وأوماً بيده إلى السماء .

والقسم الثاني أن يفعل الزيادة اقتداءً بغيره وهذا قد تشرمه مجالسة الأخيار الأفاضل وتحديثه مكاثرة الأمثال^(٢) . ولذلك قال النبي ﷺ : « المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل » . فإذا كثرتهم المجالس وطاوله المؤانس أحب أن يقتدي بهم في أفعالهم ويتأسى بهم في أعمالهم ولا يرضى لنفسه أن يقصر عنهم ولا أن يكون في الخير دونهم فتبعته المنافسة^(٣) على مساواتهم وربما دعتهم الحمية إلى الزيادة عليهم والمكاثرة لهم فيصبرون سبباً لسعادته وباعثاً على استزادته والعرب تقول : لولا الوثام^(٤) لهلك الأناس أي لولا أن الناس يرى بعضهم بعضاً فيقتدي بهم في الخير لهلكوا . ولذلك قال بعض البلغاء : من خير الاختيار صحبة الأخبار ومن شر الاختيار مودة الأشرار وهذا صحيح لأن للمصاحبة تأثيراً في اكتساب الأخلاق فتصلح أخلاق المرء بمصاحبة أهل الصلاح وتفسد بمصاحبة أهل الفساد . ولذلك قال الشاعر :

رأيت صلاح المرء يصلح أهله ويعيدهم داء الفساد إذا فسد
يعظم في الدنيا بفضل صلاحه ويحفظ بعد الموت في الأهل والولد
وأنشدني بعض أهل الأدب لأبي بكر الخوارزمي :

= خلافة الصديق رضي الله عنه ، فعلاً الأرض قسطاً وعدلاً ، وأمه حفصة بنت عاصم ابن عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

(١) محمد بن كعب القرظي : المدني حليف الأوس ، سمع زيد بن أرقم وغيره ، توفي بالمدينة سنة ١١٧ وهو ابن ٩٨ سنة .

(٢) الأمثال : جمع أمثل كأفضل لفظاً ومعنى .

(٣) المنافسة : يقال : ناس في الكرم فلاناً إذا رغب فيه على وجه المباراة .

(٤) الوثام : من واءمه وثاماً إذا وافقه أو باهاه .

لا تصحب الكسلان في حالاته كم صالح بفساد آخر يفسد
عدوى البليد إلى الجليد سريعة والجمر يوضع في الرماد فيخمد^(١)

والقسم الثالث أن بفعل الزيادة ابتداء من نفسه التماساً لثوابها ورغبة من الزلفة^(٢) بها فهذا من نتائج النفس الزاكية ودواعي الرغبة الوافية الدالين على خلوص الدين وصحة اليقين وذلك أفضل أحوال العاملين وأعلى منازل العابدين وقد قيل: الناس في الخير أربعة: منهم من يفعله ابتداءً ومنهم من يفعله اقتداءً ومنهم من يتركه استحساناً ومنهم من يتركه حرماناً فمن فعله ابتداءً فهو كريم ومن فعله اقتداءً فهو حكيم ومن تركه استحساناً فهو رديء ومن تركه حرماناً فهو شقي. ثم لما يفعله من الزيادة حالتان: إحداهما أن يكون مقتصداً فيها وقادراً على الدوام عليها فهي أفضل الحالتين وأعلى المنزلتين عليها إنقرض أخيار السلف وتبعمهم فيها فضلاء الخلف. وقد روت عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: «أيها الناس افعلوا من الأعمال ما تطيقون»^(٣) فإن الله لا يملّ من الثواب حتى تملوا من العمل وخير الأعمال ما ديم عليه والعرب تقول القصد والدوام وأنت السابق الجواد. ولأن من كان صحيح الرغبة في ثواب الله تعالى لم يكن له مسرة إلا في طاعته. وقال عبد الله بن المبارك قلت لراهب: متى عيدكم؟ قال: كل يوم لا أعصي الله فيه فهو يوم عيد. أنظر إلى هذا القول منه وإن لم يكن مقاصد الطاعة ما أبلغه في حب الطاعة وأحبه على بذل الإستقامة. وخرج بعض الزهاد في يوم عيد في هيئة رثة فقيل: لم تخرج في مثل هذا اليوم في مثل هذه الهيئة والناس متزينون؟ فقال: ما يتزين لله تعالى بمثل طاعته. والحالة الثانية أن يستكثر منها استكثار من لا ينهض بدوامها ولا يقدر على اتصالها فهذا ربما كان بالمقصر أشبه لأن الاستكثار من الزيادة إما أن يمنع من أداء اللازم فلا يكون إلا تقصيراً لأنه تطوّع بزيادة أحدثت نقصاً وبفعل منع فرضاً وإما أن

(١) يحمد: يقال خدت النار إذا سكن لهبها، ولم يطفئها، بخلاف همدت.

(٢) الزلفة: القرية، والمرتبة.

(٣) ما تطيقون: أي قدر طاقتكم، أو الذي تطيقونه، والمعنى أبلغوا بالعمل غايته التي تطيقونها مع الدوام من غير عجز في المستقبل.

يعجز عن استدامة الزيادة ويمنع من ملازمة الاستكثار من غير إخلال بلازم ولا تقصير في فرض فهي إذا قصيرة المدى قليلة اللبث والقليل العمل في طويل الزمان أفضل عند الله عز وجل من كثير العمل في قليل الزمان لأن المستكثر من العمل في الزمان القصير قد يعمل زماناً ويترك زماناً فربما صار في زمان تركه لاهياً أو ساهياً والمقلل في الزمان الطويل مستيقظ الأفكار مستديم التذكار. وقد روى أبو صالح عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «إن للإسلام شرة^(١) وللشرة فترة^(٢) فمن سدد^(٣) وقارب فأرجوه ومن أشير إليه بالأصابع فلا تعدّوه» فجعل للإسلام شرة وهي الإيغال في الإكثار وجعل للشرة فترة وهي الإهمال بعد الاستكثار فلم يخل بما أثبت من أن تكون هذه الزيادة تقصيراً أو إخلالاً ولا خير في واحد منهما. واعلم جعل الله العلم حاكماً لك وعليك والحق قائداً لك وإليك أن الدنيا إذا وصلت فتبعات^(٤) موبقة^(٥) وإذا فارقت ففجعات محرقة وليس لوصولها دوام ولا من فراقها بدّ فرض نفسك على قطيعتها لتسلم من تبعاتها وعلى فراقها لتأمن فجعاتها فقد قيل: المرء مقترض من عمره المنقرض مع أن العمر وإن طال قصير والفراغ وإن تمّ يسير. وأنشدت لعلي بن محمد^(٦) رحمه الله تعالى:

إذا كملت للمرء ستون حجة فلم يحظ من ستين إلا بسدسها
ألم تر أن النصف بالليل حاصل وتذهب أوقات المقيّل بحمسها
فتأخذ أوقات الهموم بحصة وأوقات أوجاع تميت بمسها
فحاصل ما يبقى له سدس عمره إذا صدقته النفس عن علم حدسها^(٧)

(١) شرة: بكسر الشين وتشديد الراء أي حرصاً على الشيء ونشاطاً ورغبة في الخير أو الشر.

(٢) فترة: أي وهناً وسكوناً وضعفاً.

(٣) سدد وقارب: أي جعل عمله متوسطاً، وتجنب طرق إفراط الشرة وتفریط الفترة.

(٤) فتبعات: التبعة ما بقي في الذمة واجباً أدّؤه.

(٥) موبقة: مهلكة.

(٦) علي بن محمد: بن العباس، أبي حيان التوحيدي المعتزلي من الجاحظين، وهو شيخ الصوفية، وفيلسوف الأدباء، وأديب الفلاسفة وإمام البلغاء.

(٧) حدسها: الحدس: الظن والتخمين.

ورياضة نفسك لذلك تترتب على أحوال ثلاث وكل حالة منها تشعب وهي لتسهيل ما يليها سبب:

(فالحالة الأولى) أن تصرف حب الدنيا عن قلبك فإنها تلهيك عن آخرتك ولا تجعل سعيك لها فتمنعك حظك منها وتوق الركون إليها ولا تكثر آمناً لها. فقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «من^(١) أشرب قلبه حب الدنيا وركن إليها ألتا^(٢) منها بشغل لا يفرغ عنه وأمل لا يبلغ منتهاه وحرص لا يدرك مداه^(٣)». وقال عيسى بن مريم على نبينا وعليه السلام: الدنيا لابليس مزرعة وأهلها له حراث^(٤). وقال علي بن أبي طالب: مثل الدنيا مثل الحية لين مسها قاتل سمها فاعرض عما أعجبك منها لقله ما يصحبك منها وضع عنك همومها لما أيقنت من فراقها وكن أحذر ما تكون لها وأنت آنس ما تكون بها فإن صاحبها كلما اطمأن منها إلى سرور أشخصه^(٥) عنها مكروه وإن سكن منها إلى إيناس أزاله عنها إيجاش. وقال بعض البلغاء: الدنيا لا تصفو لشارب ولا تبقى لصاحب ولا تخلو من فتنة ولا تخلو من محنة فاعرض عنها قبل أن تعرض عنك واستبدل بها قبل أن تستبدل بك فإن نعيمها يتنقل وأحوالها تبدل ولذاتها تفنى وتبعاتها تبقى: وقال بعض الحكماء: أنظر إلى الدنيا نظراً الزاهد المفارق لها ولا تتأملها تأمل العاشق الوامق^(٦) بها. وقال بعض الشعراء:

ألا إنما الدنيا كأحلام نائم وما خير عيش لا يكون بدائم
تأمل إذا ما نلت بالأمس لذة فأفنيته هل أنت إلا كحالم
فكم غافل عنه وليس بغافل وكم نائم عنه وليس بنائم
وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «من هوان الدنيا على الله أن لا يعصى

(١) من أشرب قلبه: رواه أبو نعيم عن ابن مسعود.

(٢) التا: التزق، والمعنى الزق بنفسه حب الدنيا واستوجه.

(٣) مداه: غايته.

(٤) حراث: فلاحون.

(٥) أشخصه: ازعجه وأهربه.

(٦) الوامق: المحب المقرط.

إلا فيها ولا ينال ما عنده إلا بتركها». وروى سفيان أن الخضر قال لموسى عليها السلام: يا موسى أعرض عن الدنيا وابذها وراءك فإنها ليست لك بدار ولا فيها محل قرار وإنما جعلت الدنيا للعباد ليتزودوا منها للمعاد. وقال عيسى بن مريم عليه السلام: الدنيا قنطرة^(١) فاعبروها ولا تعمروها. وقال علي كرم الله وجهه يصف الدنيا: أولها عناء وآخرها فناء حلالها حساب وحرامها عقاب من صح فيها أمن ومن مرض^(٢) فيها ندم ومن استغنى فيها فتن ومن افتقر فيها حزن ومن ساعاها فاته ومن قعد عنها أته ومن نظر إليها أعمته ومن نظر بها بصرتة. وقال بعض البلغاء: إن الدنيا تقبل إقبال الطالب وتدبر إدبار الهارب وتصل وصال الملول وتفارق فراق العجول فخيرها يسير وعيشها قصير وإقبالها خديعة وإدبارها فجيرة ولذاتها فانية وتبعاتها باقية فاغتنم غفوة الزمان وانتهاز فرصة الإمكان وخذ من نفسك لنفسك وتزود من يومك لغدك. وقال وهب بن^(٣) منبه: مثل الدنيا والآخرة مثل ضربتين إن أرضيت إحداهما أسخطت الأخرى. وقال عبد^(٤) الحميد: الدنيا منازل فراحل ونازل. وقال بعض الحكماء: الدنيا إما نقمة نازلة وإما نعمة زائلة وقيل في مشور الحكم: من الدنيا على الدنيا دليل. وقال الشاعر:

تمتع من الأيام إن كنت حازماً^(٥) فلإنك منها بين ناه وآمر
إذا أبقت الدنيا على المرء دينه فما فاته منها فليس بضائر

(١) قنطرة: جسر.

(٢) مرض فيها: المراد نافق أو فسق.

(٣) وهب بن منبه: بن كامل، سمع أخاه همام وجابراً وعبد الله بن عباس وغيرهم، وهو مشهور بمعرفة الكتب.

قال: قرأت من كتب الله تعالى: اثنين وتسعين كتاباً. والله أعلم.

(٤) عبد الحميد: بن يحيى بن سعيد كاتب مروان، آخر ملوك بني أمية، وكتب أيضاً للمنصور، وكان رأساً في الكتابة ومقدماً في الفصاحة والخطابة، بليغاً مراسلاً. قال فيه ابن عبد ربه: عبد الحميد أول من فتح أكمام البلاغة وسهل طرقها، وفك رقاب الشعر، وهو صاحب الرسائل والبلاغات، وهو أول من أطال الرسائل، واستعمل التحييدات.

وقيل: بدئت الكتابة بعبد الحميد، وختمت بابن العميد.

(٥) حازماً: عاقلاً متبصراً.

فلن تعدل الدنيا جناح بعوضة ولا وزن درّ من جناح لطائر
 فما رضى الدنيا ثواباً لمؤمن ولا رضى الدنيا جزاء لكافر
 وروى عن النبي ﷺ أنه قال: «الدنيا يومان يوم فرح ويوم هم وكلاهما
 زائل عنك فدعوا ما يزول وأتعبوا نفوسكم في العمل لما لا يزول». وقال
 عيسى بن مريم عليه السلام: لا تنازعوا أهل الدنيا في دنياهم فينازعوكم في
 دينكم فلا دنياهم أصبتم ولا دينكم أبقيتم. وقال عليّ بن أبي طالب: لا
 تكن ممن يقول في الدنيا بقول الزاهدين ويعمل فيها عمل الراغبين فإن
 أعطي منها لم يشبع وإن منع منها لم يقنع يعجز عن شكر ما أوتي ويتغنى
 الزيادة فيما بقي وينهى الناس ولا ينتهي ويأمر بما لا يأتي يحب الصالحين
 ولا يعمل بعملهم ويبغض الطالحين وهو منهم. وقال الحسن البصري:
 الدنيا كلها غم فما كان منها من سرور فهو ربح. وقال بعض العلماء: إن
 الدنيا كثيرة التغير سريعة التنكير شديدة المكر دائمة الغدر فاقطع أسباب
 الهوى عن قلبك واجعل أبعد أملك بقية يومك وكن كأنك ترى ثواب
 أعمالك. وقال بعض الحكماء: الدنيا إما مصيبة موجعة وإما منية مفاجئة.
 وقال الشاعر:

خلّ دنياك ^(١) إنها	يعقب الخير ^(٢) شرها
هي أم تعق من	نسلها من يبرها
كل نفس فإنها	تبتغي ما يسرها
والمنايا تسوقها	والأمانى تفرها
فإذا استحلت الجنى	أعقب الحلو مرها
يستوي في ضريحه	عبد أرض وحرها

فإذا رضت نفسك من هذه الحالة بما وصفت آعتضت منها بثلاث
 خلال: إحداهن أن تكفي إشفاق المحب وحذر الوامق^(٣) فليس لمشفق ثقة

(١) خل دنياك أنها: أي اترك دنياك لأنها...

(٢) يعقب الخير شرها: أي يقوم شرها مقام خيرها، ويخلفه، من أعقبه إذا خلفه.

(٣) الوامق: المقة المحبة، وقد ومقه بكسر الميم فيها أحبه، فهو وامق.

ولا لحاذر راحة. والثانية أن تأمن الاغترار بملاهيها فتسلم من عادية^(١) دواهيها فإن اللاهي بها مغرور والمغرور فيها مذعور. والثالثة أن تستريح من تعب السعي لها ووصب^(٢) الكدّ فيها فإن من أحب شيئاً طلبه ومن طلب شيئاً كدّ له والمكدود^(٣) فيها شقيّ ان ظفر ومحروم ان خاب وروي عن النبي ﷺ أنه قال لكعب^(٤): يا كعب الناس غاديان^(٥) فغاد بنفسه فمعتقها وموبق^(٦) نفسه فموثقها. وقال عيسى بن مريم عليهما السلام: تعملون للدنيا وأنتم ترزقون فيها بغير عمل ولا تعملون للآخرة وأنتم لا ترزقون فيها إلاّ بعمل. وقال بعض البلغاء: من نكد الدنيا أن لا تبقى على حاله ولا تخلو من استحاله^(٧) تصلح جانباً بإفساد جانب وتسر صاحباً بمساءة صاحب فالركون إليها خطر والثقة بها غرر. وقال بعض الحكماء: الدنيا مرتجعة الهبة والدهر حسود لا يأتي على شيء إلاّ غيره ولمن عاش حاجة لا تنقضي. ولما بلغ مزدك^(٨) من الدنيا أفضل ما سمت^(٩) إليه نفسه نبذها وقال: هذا سرور لولا أنه غرور ونعيم لولا أنه عديم وملك لولا أنه هلك وغناء لولا أنه فناء وجسيم لولا أنه ذميم ومحمود لولا أنه مفقود وغنى لولا أنه مُنى وارتفاع لولا أنه اتضاع وعلاء لولا أنه بلاء وحسن لولا أنه حزن وهو يوم لو وثق له بغد. وقال بعض الحكماء: قد ملك الدنيا غير واحد من راغب وزاهد فلا الراغب فيها استبقت ولا عن الزاهد فيها كفت وقال أبو العتاهية:

(١) من عادية دواهيها: أي من هجوم بلاويها.

(٢) وصب الكد: أي مرضه وآفته.

(٣) والمكدود: المتعوب لادراكها.

(٤) لكعب: بن عجرة.

(٥) غاديان: الغادي هو الخارج وقت الغداة للسفر، والمراد أنها مسافران في طريق الآخرة.

(٦) موبق نفسه: أي مهلكها.

(٧) من استحالة: أي من أن تتحول من حال إلى حال.

(٨) مَزْدَك: علي وزن جعفر، وجندب، من الشنوية في مذهب ماني، ومؤسس الزندقة الإباحية.

(٩) سمت: مالت وطلبت.

هي الدار دار الأذى والقذى ودار الفناء ودار العبر^(١)
فلو نلتها بحذافيرها^(٢) لمت ولم تقض منها الوطر^(٣)
أيا من يؤمل طول الخلود وطول الخلود عليه ضرر
إذا ما كبرت وبان الشباب^(٤) فلا خير في العيش بعد الكبر

وروي عن النبي ﷺ أنه قال: اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع
ونفس لا تشبع وقلب لا يخشع وعين لا تدمع هل يتوقع أحدكم إلّا غنى
مطغياً أو فقراً منسياً أو مرضاً مفسداً أو هرمًا مقيداً أو الدجال فهو شر غائب
ينتظر أو الساعة والساعة أدهى وأمر. وحكي أن الله تعالى أوحى إلى عيسى
ابن مريم عليه السلام أن هب لي من قلبك الخشوع ومن بدتك الخضوع
ومن عينك الدموع فإني قريب. وقال عيسى بن مريم عليه السلام: أوحى
الله إلى الدنيا من خدمني فأخدميه ومن خدمك فاستخدميه. وقال بعض
البلغاء: زد من طول أملك في قصير عملك فإن الدنيا ظل الغمام وحلم
النيام فمن عرفها ثم طلبها فقد أخطأ الطريق وحرّم التوفيق. وقال بعض
الحكماء: لا يؤمنك إقبال الدنيا عليك من إدبارها عنك ولا دولة^(٥) لك من
إدالة^(٦) منك. وقال آخر: ما مضى من الدنيا كما لم يكن وما بقي منها كما قد
مضى. وقيل لزاهد: قد خلعت الدنيا فكيف سحت نفسك عنها فقال: أيقنت أني
أخرج منها كارهاً فرأيت أن أخرج منها طائعاً. وقيل لحرقه بنت النعمان: مالك
تبكين؟ فقالت: رأيت لأهلي غضارة^(٧) ولم تمتلئ دار فرحاً إلّا امتلأت ترحاً^(٨).

(١) العبر: بكسر العين: اسم من الاعتبار، أو بفتحها، وهو الدمع الذي لم يمر من العين بعد،
أو الحزن الذي يكون بلا بكاء.

(٢) بحذافيرها: جمع حذفور، يقال: أخذ الشيء بحذافيره أي بأسره، أو بجوانبه.

(٣) الوطر: الحاجة والفرص، أو المهم منها.

(٤) وبان الشباب: أي ظهر دواهي.

(٥) دولة لك: أي انقلابها الموافق لك.

(٦) من ادالة عليك: يقال: أدال الشيء إذا جعله متداولاً، وتقول: أدالنا الله من عدونا أي
جعل الكرة لنا عليهم فظفرنا وأخذنا ثأرنا.

(٧) غضارة: نعمة واسعة وخصباً.

(٨) ترحاً: هو ضد الفرح.

وقال ابن السماك: من جرعت الدنيا حلاوتها بيمله إليها جرعتة الآخرة مرارتها لتجافيه عنها. وقال صاحب كلیلة^(١) ودمنة: طالب الدنيا كشارب ماء البحر كلما ازداد شرباً ازداد عطشاً وكان عمر بن عبد العزيز يتمثل بهذه الأبيات:

نهارك يا مغرور سهو وغفلة وليك نوم والأسى لك لازم
تسرّ بما يفنى وتفرح بالمنى كما سرّ باللذات في النوم حالم
وشغلك فيما سوف تكره^(٢) غبه كذلك في الدنيا تعيش البهائم
وسمع رجل رجلا رقول لصاحبه: لا أراك الله مكروهاً فقال: كأنك
دعوت على صاحبك بالموت إن صاحبك ما صاحب الدنيا فلا بد أن يرى
مكروهاً. وقال أبو العتاهية:

إن الزمان ولو يلي من لأهله لمخاشن
خطواته المتحركا ت كأنهن سواكن

(والحالة الثانية) من أحوال رياضتك لها أن تصدّق نفسك فيما منحتك من رغائها وأنالتك من غرائبها فتعلم أن العطية فيها مرتجعة والمنحة فيها مستردة بعد أن تبقى عليك ما احتقبت من أوزار وصولها إليك وخسران خروجها عنك. فقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «لا تزول قدما ابن آدم حتى يسأل عن ثلاث شبابيه فيما أبلاه وعمره فيما أفناه وماله من أين اكتسبه وفيم أنفق». وروي عن عيسى بن مريم عليه السلام أنه قال: في المال ثلاث خصال. قالوا: وما هن يا روح الله. قال: يكسبه من غير حله. قالوا: فإن كسبه من حله. قال: يضعه في غير حقه. قالوا: فإن وضعه في حقه. قال: يشغله عن عبادة ربه. ودخل أبو حازم على بشر بن مروان فقال: يا أبا حازم ما المخرج مما نحن فيه قال: تنظر ما عندك فلا تضعه إلا في حقه وما ليس عندك فلا تأخذه إلا بحقه قال: ومن يطيق هذا يا أبا حازم قال: فمن أجل ذلك ملئت جهنم من الجنة والناس أجمعين. وعيرت اليهود

(١) صاحب كلیلة ودمنة: هو بيديا الفيلسوف الهندي، رأس البراهمة، عمله لدبشليم ملك الهند، وترجمه بالفارسية برزويه أنو شروان، وترجمه بالعربية عبد الله بن المقفع لأبي جعفر المنصور.

(٢) غِبْهُ: بكسر الغين وتشديد الباء أي عاقبه.

عيسى بن مريم عليه السلام بالفقر فقال: من الغنى دهيتم^(١). ودخل قوم منزل عابد فلم يجدوا شيئاً يقعدون عليه فقال: لو كانت الدنيا دار مقام لاتخذنا لها أثاثاً. وقيل لبعض الزهاد: ألا توصي قال بماذا أوصي والله مالنا شيء ولا لنا عند أحد شيء ولا لأحد عندنا شيء. أنظر إلى هذه الراحة كيف تعجلها وإلى السلامة كيف صار إليها ولذلك قيل: الفقر ملك ليس فيه محاسبة. وقيل لعيسى بن مريم عليهما السلام: ألا تتزوج؟ فقال: إنما نحب التكاثر في دار البقاء وقيل: لو دعوت الله تعالى أن يرزقك حماراً؟ فقال: أنا أكرم على الله من أن يجعلني خادم حمار. وقيل لأبي حازم رضي الله عنه: ما مالك؟ قال شيثان: الرضا عن الله والغنى عن الناس وقيل له: إنك لمسكين فقال: كيف أكون مسكيناً ومولاي له ما في السموات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى؟. وقال بعض الحكماء: رب مغبوط بمسرة هي داؤه ومرحوم من سقم هو شفاؤه. وقال بعض الأدباء: الناس أشتات ولكل جمع شتات^(٢). وقال بعض البلغاء: الزهد بصحة اليقين وصحة اليقين بنور الدين فمن صح يقينه زهد في الثراء^(٣) ومن قوى دينه أيقن بالجزاء فلا تغرنك صحة نفسك وسلامة أمسك فمدة العمر قليلة وصحة النفس مستحيلة. وقال بعض الشعراء:

رب مغروس يعاش به عدمته عين مغترسه
وكذاك الدهر مأتمة^(٤) أقرب الأشياء من عرسه^(٥)

فإذا رضت نفسك من هذه الحال بما وصفت اعتضت منها ثلاث خلال: إحداهنّ نصح نفسك وقد استسلمت إليك والنظر لها وقد اعتمدت عليك فإن غاش نفسه مغبون والمنحرف عنها مأفون. والثانية الزهد فيما

(١) دهيتم: أي أصبتم بالداهية والطفيان. ودواهي الدهر: ما يصيب الناس من عظيم نوبه.

(٢) شتات: أي تفرق، يقال: شتت الشمل إذا تفرق.

(٣) في الثراء: يقال: ثرى المال إذا كثر.

(٤) مأتمة: الماتم على وزن مقعد: هو كل مجتمع في حزن أو فرح، أو خاص بالنساء أي بالشواب، وغلب في مجتمع الناس في حزن.

(٥) من عرسه: بفتحين: شدة السرور.

ليس لك لتكفي تكلف طلبة وتسلم من تبعات كسبه. والثالثة انتهاز الفرصة في مالك أن تضعه في حقه وأن تؤتيه لمستحقه ليكون لك ذخراً ولا يكون عليك وزراً فقد روي أن رجلاً قال يا رسول الله: إني أكره الموت قال: ألك مال؟ قال نعم. قال: قَدِّم مالك فإن قلب المؤمن عند ماله. وقالت عائشة رضي الله عنها: ذبحنا شاة فتصدقنا بها فقلت يا رسول الله ما بقي إلا كتفها قال: كلها بقي إلا كتفها. وحكي أن عبد الله بن عبيد^(١) الله بن عتبة بن مسعود باع دار بثمانين ألف درهم فقيل له: اتخذ لولدك من هذا المال ذخراً فقال: أنا أجعل هذا المال ذخراً لي عند الله عز وجل وأجعل الله ذخراً لولدي وتصدق بها. وعوتب سهل بن عبد الله المروزي في كثرة الصدقة فقال: لو أن رجلاً أراد أن يستقل من دار إلى دار أكان يبقى في الأولى شيئاً. وقال سليمان بن عبد الملك لأبي حازم: ما لنا نكره الموت؟ قال: لأنكم أخربتم آخرتكم وعمرتم دنياكم فكهرتهم أن تنتقلوا من العمران إلى الخراب. وقيل لعبد الله بن عمر: ترك زيد بن خارجة مائة ألف درهم فقال: لكنها لا تتركه. وقال الحسن البصري رحمه الله: ما أنعم الله على عبد نعمة إلا وعليه فيها تبعة إلا سليمان بن داود عليه السلام فإن الله تعالى قال له: ﴿هذا عطائنا فامنن أو أمسك بغير حساب﴾ وقال أبو حازم: إن عوفينا من شر ما أعطينا لم يضرنا فقد ما زوى عنا. وقال بعض السلف: قَدِّموا كلا ليكون لكم ولا تخلفوا كلا فيكون عليكم. وقال إبراهيم^(٢) نعم القوم السؤال يدقون أبوابكم يقولون أتوجهون للآخرة شيئاً. وقال سعيد بن^(٣)

(١) عبيد الله... الهزلي المدني، الإمام الجليل، التابعي، أحد الفقهاء السابق. وهو معلم عمر ابن عبد العزيز، وكان قد ذهب بصره. توفي سنة ٩٩، أو ٩٨.

(٢) إبراهيم بن أدهم: البلخي، من كورة بلخ، من أبناء الملوك، وكان من شيوخ الصوفية، ومن رجال الرسالة القشيرية، وفيها كثير من أخباره. دخل الشام ومات فيها سنة ٢٦١ وكان يأكل من عمل يديه. وكان كبير الشأن في الورع.

(٣) سعيد بن المسيب: بفتح الياء على المشهور، وقيل: بالكسر، وكان سعيد يكره فتحها: وهو ابن حزن بن وهب القرشي المخزومي، المدني، إمام التابعين، وفقهه الفقهاء، أبوه وجده صحابيَان أسلما يوم فتح مكة، ولد لستين مضتاً من خلافة عمر رضي الله عنه، مات سنة =

المسيب: مرّ بي صلة بن^(١) أشيم فما تماكنت أن نهضت إليه فقلت: يا أبا الصهباء أدع لي فقال: رغبتك الله فيما يبقى وزهدك فيما يفنى ووهب لك اليقين الذي لا تسكن النفس إلاّ إليه ولا يعول في الدين إلاّ عليه. ولما ثقل عبد الملك بن مروان رأى غسلاً يلوي بيده ثوباً فقال: وددت أني كنت غسلاً لا أعيش إلاّ بما أكتسبه يوماً فيوماً فبلغ ذلك أبا حازم فقال: الحمد لله الذي جعلهم يتمنون عند الموت ما نحن فيه ولا نتمنى نحن عنده ما هم فيه. وروي عن النبي ﷺ أنه قال: يقول ابن آدم مالي مالي وهل لك يا بن آدم من مالك إلاّ ما أكلت فأفئيت أو لبست فألبيت أو أعطيت فأمضيت. وقال خالد بن صفوان: بت ليلتي أتمنى فكسبت البحر الأخضر والذهب الأحمر فإذا يكفيني من ذلك رغيفان وكوزان وطمران^(٢). وقال مؤرق العجلي: يابن آدم تؤتى كل يوم برزقك وأنت تحزن وينقص عمرك وأنت لا تحزن تطلب ما يطغيك وعندك ما يكفيك. وقال أبو حازم: إنما بيننا وبين الملوك يوم واحد أما أمس فقد مضى فلا يجدون لذته وإننا وهم من غد على وجل وإنما هو اليوم فما عسى أن يكون. وقال بعض السلف: تعزّ^(٣) عن الشيء إذا منعه لقلّة ما يصحبك إذا أعطيته. وقال بعض الحكماء: من ترك نصيبه من الدنيا استوفى حظه من الآخرة. وقال آخر: ترك التلبس بالدنيا قبل التشبث بها أهون من رفضها بعد ملاستها وقال آخر: ليكن طلبك الدنيا اضطراراً وتذكرك في الأمور اعتباراً وسعيك لمعادك ابتداراً^(٤). وقال آخر: الزاهد لا يطلب المفقود حتى يفقد الموجود. وقال آخر: من آمن بالآخرة لم يحرص على الدنيا ومن أيقن بالمجازاة لم يؤثر على الحسنی. وقال آخر: من حاسب نفسه ربح ومن غفل عنها خسر. وقال أبو العتاهية:

= ٩٣، أو ٩٤ أو ٩٥ بالمدينة.

(١) صلة بن أشيم: العدوي الصحابي، من زهاد البصرة ونسائها توفي سنة ٣٥ وقد جاوز الـ ١٠٠.

(٢) طمران: ثوبان خلقان، للارتداء والانتزار.

(٣) تَعَزَّى: من التعزي، أي احمل نفسك على الصبر ولا تجزع.

(٤) ابتداراً: أي مسارعة، يقال: ابتدره وإليه وباده إذا عاجله.

أرى الدنيا لمن هي في يديه عذاباً كلما كثرت لديه
تهين المكرمين لها بصغر وتكرم كل من هانت عليه
إذا استغنيت عن شيء فدعه وخذ ما أنت محتاج إليه
وحكى الأصمعي رحمه الله قال: دخلت على الرشيد رحمه الله عليه
يوماً وهو ينظر في كتاب ودموعه تسيل على خده فلما أبصرني قال: أرايت
ما كان مني؟ قلت: نعم يا أمير المؤمنين. فقال: أما إنه لو كان لأمر الدنيا
ما كان هذا ثم رمى إليّ بالقرطاس فإذا فيه شعر أبي العتاهية رحمه الله
تعالى:

هل أنت معتبر بمن خربت منه غداة قضى دساكره^(١)
وبمن أذل الدهر مصرعه فتبرأت منه عساكره
وبمن خلت منه أسرته وتعطلت منه منابره
أين الملوك وأين عزهم؟ صاروا مصيراً أنت صائره!
يا مؤثر الدنيا للذته والمستعدّ لمن يفاخره
نل ما بدا لك أن تنال من الدنيا فإن الموت آخره

فقال الرشيد رحمه الله عليه: والله لكأنني أخاطب بهذا الشعر دون
الناس فلم يلبث بعد ذلك إلا يسيراً حتى مات رحمه الله. ثم الحالة الثالثة
من أحوال رياضتك لها أن تكشف لنفسك حال أجلك وتصرفها عن غرور
أملك حتى لا يطيل لك الأمل أجلاً قصيراً ولا ينسبك موتاً ولا نشوراً.
وروي عن النبي ﷺ أنه قال في بعض خطبه: «أيها الناس إن الأيام تطوى
والأعمار تفتنى والأبدان تبلى وإن الليل والنهار يتراکضان كتراكض البريد^(٢)
يقربان كل بعيد ويخلقان كل جديد وفي ذلك عباد الله ما ألهى عن
الشهوات ورغب في الباقيات الصالحات». وقال مسعر: كم من مستقبل يوماً
وليس يستكمله ومنتظر غداً وليس من أجله ولو رأيتم الأجل ومسيره لأبغضتم

(١) دساكره: جمع دساكرة، وهي القرية والبيوت التي يجتمع فيها السفهاء، ويكون فيها شرب
الخمور وآلاف اللهو.

(٢) البريد: هو الذي يوصل الرسائل والمكاتبات.

الأمل وغروره. وقال رجل من الأنصار للنبي ﷺ: من أكيس الناس قال: أكثرهم ذكراً للموت وأشدهم استعداداً له أولئك الأكياس ذهبوا بشرف الدنيا وكرامة الآخرة. وقال عيسى بن مريم عليه السلام: كما تنامون كذلك تموتون وكما تستيقظون كذلك تبعثون. وقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: أيها الناس اتقوا الله الذي إن قلتم سمع وإن أضمرتم علم وبادروا الموت الذي إن هربتم أدرككم وإن أقمتكم أخذك. وقال العلاء بن المسيب: ليس قبل الموت شيء إلا والموت أشد منه وليس بعد الموت شيء إلا والموت أيسر منه. وقال بعض الحكماء: إن للباقي بالماضي معتبراً وللآخرة بالأول مزدجراً والسعيد لا يركن إلى الخدع ولا يغتر بالطمع. وقال بعض الصلحاء: إن بقاءك إلى فناء وفناءك إلى بقاء فخذ من فنائك الذي لا يبقى لبقائك الذي لا يفنى. وقال بعض العلماء: أي عيش يطيب وليس للموت طيب. وقال بعض البلغاء: كل امرئ يجري من عمره إلى غاية تنتهي إليها مدة أجله وتنطوي عليها صحيفة عمله فخذ من نفسك لنفسك وقس يومك بأمسك وكف عن سيئاتك وزد في حسناتك قبل أن تستوفي مدة الأجل وتقصر عن الزيادة في السعي والعمل. وقيل في منشور الحكم: من لم يتعرض للنوائب تعرضت له. وقال أبو العتاهية:

ما للمقابر لا تجيب	ب إذا دعاهن الكئيب ^(١)
حفر مسقفة عليه	هن الجنادل ^(٢) والكئيب ^(٣)
فيهن ولدان وأط	فال وشبان وشيب
كم من حبيب لم تكن	نفسى بفرقتة تطيب
غادرته في بعضهن	مجنடلاً وهو الحبيب
وسلوت عنه وإنما	عهدي برؤيته قريب

ووعظ النبي ﷺ رجلاً فقال: أقلل من الدنيا تعش حراً وأقلل من

(١) الكئيب: كئب الرجل إذا صار سيء الحال مغموماً منكسراً من حزنه.

(٢) الجنادل: جمع جندل، ما يقله الرجل، ويطلق حملة من الحجر.

(٣) الكئيب: المجتمع من الرمل.

الذنوب يهن عليك الموت وانظر حيث تضع ولدك فإن العرق دساس . وقال الرشيد لابن السماك رحمهما الله تعالى : عظمي وأوجز فقال : أعلم أنك أول خليفة يموت . وعزى^(١) أعرابي رجلاً عن ابن صغير له فقال : الحمد لله الذي نجاه مما ههنا من الكدر وخلّصه مما بين يديه من الخطر . وقال بعض السلف : من عمل للأخرة أحرزها والدنيا ومن آثر الدنيا حرمها والأخرة . وقال بعض الصلحاء : إستغنم تنفس الأجل وإمكان العمل واقطع ذكر المعاذير والعلل فإنك في أجل محدود ونفس معدود وعمر غير ممدود . وقال بعض الحكماء : الطبيب معذور إذا لم يقدر على دفع المحدثور . وقال بعض البلغاء : إعمل عمل المرتحل فإن حادى الموت يحدوك ليوم ليس يعدوك . وروي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال بعد وفاة رسول الله ﷺ :

غَرَّ جهولاً أمله يموت من جا أجله
ومن دنا من حتفه لم تغن عنه حيله
وما بقاء آخر قد غاب عنه أوله
والمرء لا يصحبه في القبر إلا عمله
(وقال أبو العتاهية)

لا تأمن الموت في لحظ ولا نفس وإن تمنعت بالحجاب والحرس
واعلم بأن سهام الموت قاصدة لكل مدّرع^(٢) منها ومترس^(٣)
ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها إن السفينة لا تجري على اليبس
فإذا رضت نفسك من هذه الحالة بما وصفت اعتضت منها ثلاث
خلال : إحداها أن تكفي تسويق أمل يرديك وتسويل محال يؤذك فإن
تسويق الأمل غرار وتسويل المحال ضرار . والثانية أن تستيقظ لعمل آخرتك

(١) عزى : التعزية هي التصبير، وذكر ما يسلى صاحب الميت، ويخفف حزنه، ويهون مصيبته، وهي مستحبة .

(٢) مدّرع : يقال : أدرع الرجل إذا لبس درع الحديد .

(٣) ومترس : يقال : أترس الرجل وتترس إذا تستر بالترس .

وتغتنم بقية أجلك بخير عملك فإن من قصر أمله واستقل أجله حسن عمله .
والثالثة أن يهون عليك نزول ما ليس عنه محيص ويسهل عليك حلول ما
ليس إلى دفعه سبيل فإن من تحقق أمراً توطأ^(١) لحوله فهان عليه عند نزوله .
وروي عن النبي ﷺ أنه قال لأبي ذر: نبه بالتفكر قلبك وجاف عن النوم
جنبك واتق الله ربك . وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لأبي ذر رضي
الله عنه: عظمي فقال: أرض بالقوت وخف من القوت واجعل صومك الدنيا
وفطرك الموت . وقال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه: ما رأيت يقيناً لا
شك فيه أشبه بشك لا يقين فيه من يقين نحن فيه فلتن كنا مقرين إنا
لحمقى ولئن كنا جاحدين إنا لهلكى . وقال الحسن البصري رحمة الله
عليه: نهارك ضيفك فأحسن إليه فإنك إن أحسنت إليه ارتحل بحمدك وإن
أسأت إليه ارتحل بدمك وكذلك ليلك . وقال الجاحظ في كتاب البيان وجد
مكتوباً في حجر: يا بن آدم لو رأيت يسير ما بقي من أجلك لزهدت في
طويل ما ترجو من أملك ولرغبت في الزيادة من عملك ولقصرت من
حرصك وحيلك وإنما يلقاك غداً ندمك لو قد زلت بك قدمك أسلمك
أهلك وحشمك وتبرأ منك القريب وانصرف عنك الحبيب . ولما حضر بشر
ابن منصور الموت فرح فقيل له: أتفرح بالموت فقال: أتجعلون قدومي
على خالق أرجوه كمقامي مع مخلوق أخافه . وقيل لأبي بكر الصديق رضي
الله عنه في مرضه الذي مات فيه: لو أرسلت إلى الطبيب؟ فقال: قد رأي .
قالوا: فما قال لك؟ قال: قال إني فعال لما أريد . وقيل للربيع بن خيثم
وقد اعتل: ندعو لك بالطبيب قال: قد ؛ أردت ذلك فذكرت عادا وثمود
وأصحاب الرس وقروناً بين ذلك كثيراً وعلمت أنه كان فيهم الداء والمداوي
فهلكوا جميعاً . وسئل أنوشروان: متى يكون عيش الدنيا ألد؟ قال: إذا كان
الذي ينبغي أن يعمل في حياته معمولاً . وقال بعض الحكماء: من ذكر
المنية نسي الأمنية . وقال بعض الأدباء: عن الموت تتسل^(٢) وهو كريشة

(١) توطأ: أي تهبأ .

(٢) تتسل: أمر من التسلي .

تُسَلَّ (١). وقال بعض البلغاء: الأمل حجاب الأجل. وأنشد بعض أهل الأدب ما ذكر أنه لعلي رضي الله عنه:

فلو كنا اذا متنا تركنا لكان الموت راحة كل حي
ولكننا إذا متنا بعثنا ونسأل كلنا عن كل شي
(وقال بعض الشعراء)

ألا إنما الدنيا مقييل لراكب قضي وطرا من منزل ثم هجرا (٢)
فراح ولا يدري علام قدومه ألا كل ما قدّمت يبقى موفرا
وروى سعيد بن مسعود رضي الله عنه أن أبا الدرداء رضي الله عنه قال يا رسول الله: أوصني فقال ﷺ: «إكسب طيباً واعمل صالحاً وأسأل الله تعالى رزق يوم بيوم واعدد نفسك من الموتى» وكتب الربيع بن خيثم إلى أخ له: قدّم جهازك وافرغ من زادك وكن وصيّ نفسك والسلام. وقال بعض السلف: أصاب الدنيا من حذرها وأصابت الدنيا من أمنها. ومرو محمد بن واسع رحمة الله عليه بقوم فقيل: هؤلاء زهاد فقال: ما قدر الدنيا حتى يحمد من زهد فيها؟

وقال بعض الحكماء: السعيد من اعتبر بأمسه واستظهر لنفسه والشقي من جمع لغيره وبخل على نفسه. وقال بعض البلغاء: لا تبت من غير وصية وإن كنت من جسمك في صحة ومن عمرك في فسحة فإن الدهر خائن وكل ما هو كائن كائن. وقال بعض الشعراء:

من كان يعلم أن الموت مدركه والقبر مسكنه والبعث مخرجه
وأنه بين جنات ستهجه يوم القيامة أو نار ستنضجه
فكل شيء سوى التقوى به سمج (٣)
ترى الذي اتخذ الدنيا له وطناً لم يدر أن المنيا سوف تزرعه

(١) تسَلَّ: مضارع مجهول من السلول. أي تنزع.

(٢) هَجَّر: ارتحل في الهجرة.

(٣) سمج: قبيح.

وروى جعفر بن محمد عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال في بعض خطبه: «أيها الناس إن لكم نهاية فانتهاوا إلى نهايتكم وإن لكم معالم^(١) فانتهاوا إلى معالمكم وإن المؤمن بين مخافتين أجل قد مضى لا يدري ما الله صانع فيه وأجل قد بقى لا يدري ما الله قاض فيه فليتزود العبد من نفسه لنفسه ومن دنياه لآخرته ومن الحياة قبل الموت فإن الدنيا خلقت لكم وأنتم خلقتم للآخرة فوالذي نفس محمد بيده ما بعد الموت من مستعتب ولا بعد الدنيا دار إلاّ الجنة أو النار». وقال الحسن البصري رحمة الله عليه: أمس أجل واليوم عمل وغداً أمل. فأخذ أبو العتاهية هذا المعنى فنظمه شعراً:

ليس فيما مضى ولا في الذي لم يأت من لذة لمستحليها
إنما أنت طول عمرك ما عم رت في الساعة التي أنت فيها
قنع النفس بالكفاف وإلاّ طلبت منك فوق ما يكفيها

وقيل لزاهد: ما بالك تمشي على العصا ولست بكبير ولا مريض؟ فقال: إني أعلم أني مسافر وأنها دار بلغة^(٢) وأن العصا من آلة السفر. فأخذه بعض الشعراء فقال:

حملت العصا لا الضعف أوجب حملها عليّ ولا أني تحنيت من كبر
ولكنني ألزمت نفسي حملها لأعلمها أني مقيم على سفر
وقال بعض المتصوّفة: الدنيا ساعة فاجعلها طاعة. وقال ذو القرنين عليه السلام: رتعا في الدنيا جاهلين وعشنا فيها غافلين وأخرجنا منها كارهين. وقال عبد الحميد: المرء أسير عمر يسير. وقيل في بعض المواضع: عجباً لمن يخاف العقاب كيف لا يكف عن المعاصي وعجباً لمن يرجو الثواب كيف لا يعمل. وقال بعض الحكماء: المسيء ميت وإن كان في دار الحياة والمحسن حيّ وإن كان في دار الأموات. وقال بعض

(١) معالم: جمع معلم، يقال: هو معلم الخير أي مظهره، والعلامة التي يستدل بها على الشيء.

(٢) بلغة: بضم فسكون: القوت والكفاف.

السلف: الله المستعان على السنة تصف وقلوب تعرف وأعمال تخالف.
 وقال آخر: الليل والنهار يعملان فيك فاعمل فيهما. وقال آخر: اعملوا
 لأخرتكم في هذه الأيام التي تسير كأنها تطير. وقال آخر: الموت قصارك^(١)
 فخذ من دنياك لأخراك. وقال آخر: عباد الله الحذر الحذر فوالله لقد ستر
 حتى كأنه قد غفر ولقد أمهل حتى كأنه قد أهمل. وقال آخر: الأيام
 صحائف أعمالك فخلدوها أجمل أفعالكم. وقيل في منثور الحكم: أقبل
 نصح المشيب وإن عجل. وقيل: ما طلعت شمس إلا وعظت بأمس. وقال
 محمد بن بشير رحمه الله:

مضى يومك الأدنى شهيداً معدلاً ويومك هذا بالفعل شهيد
 فإن تك بالأمس اقترفت إساءة فتن بإحسان وأنت حميد
 ولا ترج فعل الخير منك إلى غد لعل غداً يأتي وأنت فقيد
 وروى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «ما رأيت مثل
 الجنة نام طالبها وما رأيت مثل النار نام هاربها» وقال عيسى بن مريم
 عليهما السلام: ألا إن أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون
 الذين نظروا إلى باطن الدنيا حين نظر الناس إلى ظاهرها وإلى آجل الدنيا
 حين نظر الناس إلى عاجلها فأماتوا منها ما خشوا أن يميت قلوبهم وتركوا
 منها ما علموا أنه سيمتلكهم. وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: الناس
 طالبان يطلبان فطالب يطلب الدنيا فارفضوها في نحره فإنه ربما أدرك الذي
 يطلبه منها فهلك بما أصاب منها وطالب يطلب الآخرة فإذا رأيتم طالباً يطلب
 الآخرة فنافسوه فيها. ودخل أبو الدرداء رضي الله عنه الشام فقال: يا أهل
 الشام اسمعوا قول أخ ناصح فاجتمعوا عليه فقال: مالي أراكم تبنون ما لا
 تسكنون وتجمعون ما لا تأكلون إن الذين كانوا قبلكم بنوا مشيدا وأملوا بعيدا
 وجمعوا كثيراً فأصبح أملهم غرورا وجمعهم ثبورا^(٢) ومساكنهم قبورا.

وقال أبو حازم: إن الدنيا غرت أقواماً فعملوا فيها بغير الحق ففاجأهم

(١) قصارك: بالضم، مبلغ جهدك وغايتك.

(٢) ثبوراً: هلاكاً وخسراناً.

الموت فخلفوا مالهم لمن لا يحمدهم وصاروا لمن لا يعذرهم وقد خلقنا بعدهم فينبغي أن ننظر للذي كرهناه منهم فنجتنبه والذي غبطناهم به فنستعمله. ومرّ بعض الزهاد بباب ملك فقال: باب جديد وموت عتيدي^(١) ونزع شديد وسفر بعيد. ومرّ بعض الزهاد برجل قد اجتمع عليه الناس فقال: ما هذا قالوا: مسكين سرق منه رجل جبة ومر به آخر فأعطاه جبة فقال: صدق الله ﴿إِنْ سَعِيكُمْ لَشَيْءٍ﴾ وقال بعض الحكماء: ما أنصف من نفسه من أيقن بالحشر والحساب وزهد في الأجر والثواب. وقال آخر: بطول الأمل تقسو القلوب وبإخلاص النية تقل الذنوب. وقال آخر: إياك والمني فإنها من بضائع النوكي^(٢) وتثبط^(٣) عن الآخرة والأولى. وقال آخر: قصر أملك فإن العمر قصير وأحسن سيرتك فالبر يسير. وقال عبد الله بن المعتز رحمه الله:

نسير إلى الآجال في كل ساعة وأيامنا تطوي وهنّ مراحل
ولم نر مثل الموت حقاً كأنه إذا ما تخطته الأمانى باطل
وما أقبح التفريط في زمن الصبا فكيف به والشيب في الرأس شامل
ترحل عن الدنيا بزاد من التقى فعمرك أيام تعدّ قلائل
وكان عبد الملك بن مروان يتمثل بهذين البيتين:

فاعمل على مهل فإنك ميت واكدح لنفسك أيها الإنسان
فكأن ما قد كان لم يك إذ مضى وكأن ما هو كائن قد كانا (فيه إقواء)
ونظر سليمان بن عبد الملك يوماً في المرأة فقال: أنا الملك الشاب فقالت له جارية له:

أنت نعم المتاع لو كنت تبقى غير أن لا بقاء للإنسان
ليس فيما بدا لنا منك عيب كان في الناس غير أنك فاني

(١) عتيدي: حاضري.

(٢) النوكي: جمع أنوك مثل أحق لفظاً ومعنى.

(٣) وتثبط: يقال ثبطه تثبطاً قعد به عن الأمر، وشغله عنه تخذيلاً.

وروى عبد العزيز بن عبد الصمد عن أبان عن أنس قال: خطبنا رسول الله ﷺ على ناقته الجدعاء فقال: «أيها الناس كأن الموت فيها على غيرنا كتب وكأن الحق فيها على غيرنا وجب وكأن الذين نشيع من الأموات سفر عما قليل إلينا راجعون نبؤتهم أجدائهم^(١) ونأكل تراثهم كأننا سخلدون بعدهم قد نسينا كل واعظة وأما كل جائحة طوبى^(٢) لمن شغله عيبه عن عيب غيره وأنفق من مال كسبه من غير معصية ورحم أهل الذل والمسكنة وخالط أهل الفقه والحكمة طوبى لمن أدب نفسه وحسنت خليفته وصلحت سريرته طوبى لمن عمل بعلم وأنفق من فضل وأمسك من قلة ووسعته السنة ولم يعدها إلى بدعة» وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «زوروا القبور تذكروا بها الآخرة وغسلوا الموتى فإن معالجة الأجساد الخاوية موعظة بليغة» وحفر الربيع بن خيثم في داره قبراً فكان إذا وجد في قلبه قسوة جاء فاضطجع في القبر فمكث فيه ما شاء الله ثم يقول رب أرجعون لعلي أعمل صالحاً فيما تركت ثم يردّ على نفسه فيقول قد أرجعتك فجدي فمكث كذلك ما شاء الله. وقال أبو محرز الطفاوي: كفتك القبور مواعظ الأمم السالفة. وقيل لبعض الزهاد ما أبلغ العظايات قال: النظر إلى محلة الأموات فأخذه أبو العتاهية فقال:

وعضتك أجدات صمت	ونعتك أزمنة خفت ^(٣)
وتكلمت عن أوجه	تبلى وعن صور سبت ^(٤)
وأرتك قبرك في الحيا	ة وأنت حيّ لم تمت
يا شامتا ^(٥) بميتي	إن المنيّة لم تفت
فلربما انقلب الشما	ت فحلّ بالقوم الشمت

(١) أجدائهم: قبورهم.

(٢) طوبى: اسم الجنة، وقيل هي شجرة فيها، وقيل: مؤنث أطيّب.

(٣) خفت: جمع خافت أي ساكت.

(٤) سبت: مقطوعة ومتفرقة.

(٥) يا شامتاً: يا فرحاً ببلية عدوه.

ووجد على قبر مكتوب قهرنا من قهرنا فصرنا للناظرين عبرة. وعلى آخر: من أمل البقاء وقد رأى مصارعنا فهو مغرور. وقيل في منشور الحكم: ما أكثر من يعرف الحق ولا يطيعه. وقال بعض الحكماء: من لم يمت لم يفت. وقال بعض الصلحاء: لنا من كل ميت عظة بحاله وعبرة بمآله. وقال بعض العلماء: من لم يتعظ بموت ولد لم يتعظ بقول أحد. وقال بعض البلغاء: ما نقصت ساعة من أمسك إلا ببضعة من نفسك فأخذه أبو العتاهية فقال:

إن مع الدهر فاعلمن غدا فانظر بما ينقضي مجيء غده
ما ارتد طرف امرئ بلذته إلا وشيء يموت من جسده

ولما مات الإسكندر قال بعض الحكماء: كان الملك أمس أنطق منه اليوم وهو اليوم أوعظ منه أمس فأخذ أبو العتاهية هذا المعنى فقال:

كفى حزناً بدفئك ثم أني نفضت تراب قبرك عن يديا
وكانت في حياتك لي عظات وأنت اليوم أوعظ منك حيا
وقال بعض الحكماء: لو كان للخطايا ريح لافضح الناس ولم يتجالسوا فأخذ هذا المعنى أبو العتاهية فقال:

أحسن الله بنا أن الخطايا لا تفوح
فإذا المستور منا بين ثوبيه فضوح
وهذا جمعيه مأخوذ من قول النبي ﷺ لو تكاشفت ما تدافنتم^(١).
وكتب رجل إلى أبي العتاهية رحمه الله:

يا أبا إسحاق إنني واثق منك بوذك
فأعني بأبي أنت على عيبي برشدك
(فأجابه بقوله)

أطع الله بجهدك راغباً أو دون جهدك

(١) ما تدافنتم: أي ما تكاتمت من مساويكم شيئاً.

أعط مولاك الذي تطلب ب من طاعة عبدك
وقال بعض الحكماء: من سره بنوه ساءته نفسه فأخذ هذا المعنى أبو
العتاهية فقال:

إبن ذي الابن كلما زاد منه مشرع زاد في فناء أبيه
ما بقاء الأب الملح عليه بدبيب البلى شباب بنيه
وفي معناه ما حكى عن زرّ بن حبیش أنه قال وقد حضرته الوفاة وكان
قد عاش مائة وعشرين سنة:

إذا الرجال ولدت أولادها وارتعشت من كبر أجسادها
وجعلت أسقامها تعتادها تلك زروع قد دنا حصادها
(وكتب رجل إلى صالح بن عبد القدوس)

الموت باب وكل الناس داخله فليت شعري بعد الباب ما الدار
(فأجابه بقوله)

الدار جنة عدن إن عملت بما يرضي الإله وإن فرطت فالنار
هما محلان ما للناس غيرهما فانظر لنفسك ماذا أنت مختار

باب أدب الدنيا

إعلم أن الله تعالى لنافذ قدرته وبالع حكمته خلق الخلق بتدبيره
وفطرهم بتقديره فكان من لطيف ما دبر وبديع ما قدّر أن خلقهم محتاجين
وفطرهم عاجزين ليكون بالغنى منفرداً وبالقدرة مختصاً حتى يشعروا بقدرته
أنه خالق ويعلمنا بغناه أنه رازق فنذعن^(١) بطاعته رغبة ورهبة ونقرّ بنقصنا
عجزاً وحاجة ثم جعل الإنسان أكثر حاجة من جميع الحيوان لأن من
الحيوان ما يستقل بنفسه عن جنسه والانسان مطبوع على الافتقار إلى جنسه
واستعانتة صفة لازمة لطبعه وخلقة قائمة في جوهره ولذلك قال الله سبحانه

(١) فنذعن: يقال أذعن إذا انقاد، وأذعن إذا أسرع.

وتعالى: ﴿وخلق الإنسان ضعيفاً﴾ يعني عن الصبر عما هو إليه مفتقر واحتمال ما هو عنه عاجز. ولما كان الإنسان أكثر حاجة من جميع الحيوان كان أظهر عجزاً لأن الحاجة إلى الشيء افتقار إليه والمفتقر إلى الشيء عاجز عنه وقال بعض الحكماء المتقدمين: إستغناؤك عن الشيء خير من استغنائك به. وإنما خص الله تعالى الإنسان بكثرة الحاجة وظهور العجز نعمة عليه ولطفاً به ليكون ذل الحاجة ومهانة العجز يمنعانه من طغيان الغنى وبغي القدرة لأن الطغيان مركز في طبعه إذا استغنى والبغي مستول عليه إذا قدر وقد أنبأ الله تعالى بذلك عنه فقال: ﴿كلا﴾ (١) إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى ﴿ثم ليكون أقوى الأمور شاهداً على نقصه وأوضحها دليلاً على عجزه وأنشدني بعض أهل الأدب لابن الرومي رحمه الله:

أعيرتني بالنقص والنقص شامل؟ ومن ذا الذي يعطي الكمال فيكمل؟
وأشهد أنني ناقص غير أنني إذا قيس بي قوم كثير تقللوا
تفاضل هذا الخلق بالفضل والحجا ففي أيما هذين أنت تفضل
ولو منح الله الكمال ابن آدم لخلده والله ما شاء يفعل

ولما خلق الله الإنسان ماساً الحاجة ظاهر العجز جعل لنيل حاجته أسباباً ولدفع عجزه حيلة دله عليها بالعقل وأرشده إليها بالفطنة. قال الله تعالى: ﴿والذي قدر فهدى﴾. قال مجاهد قدر أحوال خلقه فهدى إلى سبيل الخير والشر. وقال ابن مسعود في قوله تعالى: ﴿وهديناه النجدين﴾ يعني الطريقين طريق الخير وطريق الشر. ثم لما كان العقل دالاً على أسباب ما تدعو إليه الحاجة جعل الله تعالى الإدراك والظفر موقوفاً على ما قسم وقدر كيلا يعتمدوا في الأرزاق على عقولهم وفي العجز على فطنهم لتدوم له الرغبة والرغبة ويظهر منه الغنى والقدرة وربما عذب (٢) هذا المعنى على من ساء ظنه بخالقه حتى صار سبيلاً لضلاله كما قال الشاعر:

(١) كلا: ردع لمن كفر بنعمة الله بطغيانه.

(٢) عذب: خفى.

سبحان من أنزل الأيام منزلها وصير الناس مرفوضاً^(١) ومرموقاً^(٢)
 فعاقل فطن أعيت مذهبها وجاهل خرق^(٣) تلقاه مرزوقاً
 هذا الذي ترك الألباب حائرة وصير العاقل التحرير^(٤) زنديقاً^(٥)

ولو حسن ظن العاقل في صحة نظره لعلم من علل المصالح ما صار به صديقاً لا زنديقاً لأن من علل المصالح ما هو ظاهر ومنها ما هو غامض ومنها ما هو مغيب حكمة استأثر الله بها. ولذلك قال النبي ﷺ: «حسن الظن بالله من عبادة الله» ثم إن الله تعالى جعل أسباب حاجاته وحيل عجزه في الدنيا التي جعلها دار تكليف وعمل كما جعل الآخرة دار قرار وجزاء فلزم لذلك أن يصرف الإنسان إلى دنياه حظاً من عنايته لأنه لا غنى له عن التزود منها لآخرته ولا له بد من سد الخلة فيها عند حاجته. وليس في هذا القول نقض لما ذكرنا قبل: من ترك فضولها وزجر النفس عن الرغبة فيها بل الراغب فيها ملوم وطالب فضولها مذموم والرغبة إنما تختص بما جاوز قدر الحاجة والفضول إنما ينطلق على ما زاد على قدر الكفاية. وقد قال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿فإذا فرغت فانصب وإلى ربك فارغب﴾. قال أهل التأويل: فإذا فرغت من أمور الدنيا فانصب في عبادة ربك وليس هذا القول منه ترغيباً لنبيه ﷺ فيها ولكن ندبه إلى أخذ البلغة منها. وعلى هذا المعنى قال ﷺ: «ليس خيركم من ترك الدنيا للآخرة ولا الآخرة للدنيا ولكن خيركم من أخذ من هذه وهذه». وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «نعم المطية الدنيا فارتحلوها»^(٦) تبلغكم الآخرة» وذم رجل الدنيا عند علي بن أبي طالب كرم الله

(١) مرفوضاً: يقال: رفض الإبل إذا تركها تتبدد في مرعاها.

(٢) ومرموقاً: والرمق المعيشة التي يسد بها الرمق. والمراد أنه سبحانه صير بعض الناس يرتع في أنواع النعم، وبعضهم يسد رمقه بما تيسر من أنواع.

(٣) خرق: متناه في الحماسة

(٤) التحرير: العالم المتقن، من نحر الأمور علماً أتقنها.

(٥) زنديقاً: كافراً نافياً للصانع. والشعر لأبن الراوندي، وأراد به نفسه فعليه ما يستحق.

(٦) فارتحلوها: يقال: ارتحل البعير بمعنى رحله. أي ارتحلوها وسرجوها، والمراد لازمه أي اركبوا عليها وسوقوها نحو طاعة الله.

وجهه فقال رضي الله عنه: الدنيا دار صدق لمن صدقها ودار نجاة لمن فهم عنها ودار غنى لمن تزود منها. وحكى مقاش: أن إبراهيم^(١) الخليل على نبينا وعليه الصلاة والسلام قال: يارب حتى متى أتردد في طلب الدنيا فقيل له: امسك عن هذا فليس طلب المعاش من طلب الدنيا. وقال سفيان الثوري رحمة الله عليه: مكتوب في التوراة إذا كان في البيت برفتعبد وإذا لم يكن فاطلب يابن آدم حرّك يدك يسبب لك رزقك. وقال بعض الحكماء: ليس من الرغبة في الدنيا اكتساب ما يصون العرض فيها. وقال بعض الأدباء: ليس من الحرص اجتلاب ما يقوت البدن. وقال محمود الوراق:

لا تتبع الدنيا وأيامها ذمّاً وإن دارت بك الدائره
من شرف الدنيا ومن فضلها أن بها تستدرك الآخرة

فإذا قد لزم بما بيناه النظر في أمور الدنيا فواجب سبر أحوالها والكشف عن جهة انتظامها واختلالها لنعلم أسباب صلاحها وفسادها ومواد عمرانها وخرابها لتنتفي عن أهلها شبه الحيرة وتنجلي لهم أسباب الخيرة فيقصدوا الأمور من أبوابها ويعتمدوا صلاح قواعدها وأسبابها .

وآعلم أن صلاح الدنيا معتبر من وجهين: أولهما ما ينتظم به أمور جملتها. والثاني ما يصلح به حال كل واحد من أهلها فهما شيان لا صلاح لأحدهما إلّا بصاحبه لأن من صلحت حاله مع فساد الدنيا واختلال أمورها لن يعدم أن يتعدى إليه فسادها ويقدح فيه اختلالها لأنه منها يستمدّ ولها يستعدّ ومن فسدت حاله مع صلاح الدنيا وانتظام أمورها لم يجد لصلاحها لذة ولا لاستقامتها أثراً لأن الإنسان دنيا نفسه فليس يرى الصلاح إلّا إذا صلحت له ولا يجد الفساد إلّا إذا فسدت عليه لأن نفسه أخصّ -و-اله أمس

(١) إبراهيم عليه السلام: كان في البثر، وهاجر من أرض العراق إلى أرض الشام وبلغ عمره ١٧٥ سنة، ودفن في الأرض المقدسة، وقبره معروف بقرية «حبرون» وهي التي تسمى ببلدة الخليل، وهو أول من ضيف الضيف، وأطعم المساكين عليه السلام.

فصار نظره إلى ما يخصه مصروفاً وفكره على ما يمسّه موقوفاً. وأعلم أن الدنيا لم تكن قط لجميع أهلها مسعده ولا عن كافة دويها معرضه لأن إعراضها عن جميعهم عطب وإسعادها لكافتهم فساد لا تلافهم بالاختلاف والتباين واتفاقهم بالمساعدة والتعاون فإذا تساوى حينئذ جميعهم لم يجد أحدهم إلى الاستعانة بغيره سبيلاً وبهم من الحاجة والعجز ما وصفنا فيذهبوا ضيعة ويهلكوا عجزاً وأما إذا تباينوا واختلفوا صاروا مؤتلفين بالمعونة متواصلين بالحاجة لأن ذا الحاجة وصول والمحتاج إليه موصول. وقد قال الله تعالى: ﴿ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم﴾ قال الحسن: مختلفين في الرزق فهذا غني وهذا فقير ولذلك خلقهم يعني للاختلاف بالغنى والفقر. وقال الله تعالى: ﴿والله فضل بعضكم على بعض في الرزق﴾ غير أن الدنيا إذا صلحت كان إسعادها موفوراً وإعراضها ميسوراً لأنها إذا منحت هنأت وأودعت^(١) وإذا استردت رفقت وأبقت وإذا فسدت الدنيا كان إسعادها مكرراً وإعراضها غدرراً لأنها إذا منحت كدّت وأتعبت وإذا استردت استأصلت^(٢) وأجحفت^(٣) ومع هذا فصلاح الدنيا مصلح لسائر أهلها لو فور أماناتهم وظهور دياناتهم وفسادها مفسد لسائر أهلها لقلّة أماناتهم وضعف دياناتهم وقد وجد ذلك في مشاهد الحال تجربة وعرفاً كما يقتضيه دليل الحال تعليلاً وكشفاً فلا شيء أنفع من صلاحها كما لا شيء أضرّ من فسادها لأن ما تقوى به ديانات الناس وتتوفر أماناتهم فلا شيء أحقّ به نفعاً كما أن ما به تضعف دياناتهم وتذهب أماناتهم فلا شيء أجدر به ضرراً وأنشدت لأبي بكر بن دريد:

الناس مثل زمانهم قدّ الحذاء^(٤) على مثاله

(١) وأودعت: أي صيرت ذادعة وراحة.

(٢) استأصلت: قلعت من أصله.

(٣) وأجحفت: ذهبت بجميعه، كأنها كنست.

(٤) قدّ الحذاء على مثاله: أي يشبهه الناس مع زمانهم كمشابهة أحد النعلين للآخر، والعرب تقول في الشيتين يشتهان: هما حذو النعل بالنعل، لأن كل واحدة من النعلين تقطع على قالب أختها.

ورجال دهر ك مثل ده رك في قلبه وحاله
وكذا إذا فسد الزمان جرى الفساد على رجاله
وإذ قد بلغ بنا القول إلى ذلك فسنبدأ بذكر ما تصلح به الدنيا ثم
نتلوه بوصف ما يصلح به حال الإنسان فيها .

اعلم أن ما به تصلح الدنيا حتى تصير أحوالها منتظمة وأمورها ملتزمة
سنة أشياء هي قواعدها وإن تفرعت وهي : دين متبع وسلطان قاهر وعدل
شامل وأمن وخصب دارّ وأمل فسيح .

(فأما القاعدة الأولى) وهي الدين المتبع فلأنه يصرف النفوس عن
شهواتها ويعطف القلوب عن إرادتها حتى يصير قاهراً للسرائر زاجراً للضمائر
رقبياً على النفوس في خلواتها نصوحاً لها في ملماتها وهذه الأمور لا يوصل
بغير الدين إليها ولا يصلح الناس إلّا عليها فكأن الدين أقوى قاعدة في
صلاح الدنيا واستقامتها وأجدى الأمور نفعاً في انتظامها وسلامتها ولذلك لم
يخل الله تعالى خلقه مذ فطرهم عقلاء من تكليف شرع واعتقاد دين ينقادون
لحكمه فلا تختلف بهم الآراء ويستسلمون لأمره فلا تتصرف بهم الأهواء
وإنما اختلف العلماء رضي الله عنهم في العقل والشرع هل جاء مجيئاً
واحداً أم سبق العقل ثم تعقبه الشرع . فقالت طائفة : جاء العقل والشرع
معاً مجيئاً واحداً لم يسبق أحدهما صاحبه . وقالت طائفة أخرى : بل سبق
العقل ثم تعقبه الشرع لأنه بكمال العقل يستدل على صحة الشرع . وقد قال
الله تعالى : ﴿أيجسب الانسان أن يترك سدى^(١)﴾ وذلك لا يوجد منه إلّا عند
كمال عقله فثبت أن الدين من أقوى القواعد في صلاح الدنيا وهو الفرد
الأوحد في صلاح الآخرة وما كان به صلاح الدنيا والآخرة فحقيق بالعاقل أن
يكون به متمسكاً وعليه محافظاً . وقال بعض الحكماء : الأدب أدبان أدب
شريعة وأدب سياسة فأدب الشريعة ما أدى الفرض وأدب السياسة ما عمر
الأرض وكلاهما يرجع إلى العدل الذي به سلامة السلطان وعمارة البلدان لأن

(١) سدى : أي مهملاً : لا يؤمر بشيء ولا ينهى عن شيء .

من ترك الفرض فقد ظلم نفسه ومن خرب الأرض فقد ظلم غيره. وقال سعيد بن حميد:

ما صحة أبداً بنافعة حتى يصح الدين والخلق
(وأما القاعدة الثانية) فهي سلطان قاهر تتألف برهته الأهواء المختلفة
وتجتمع بهيته القلوب المتفرقة وتنكف بسطوته الأيدي المتغالبية وتنقمع من
خوفه النفوس المتعادية لأن في طباع الناس من حب المبالغة على ما آثروه
والقهر لمن عاندوه ما لا ينكفون عنه إلا بمانع قوي وراذع ملي^(١). وقد
أفصح المتنبى بذلك حيث يقول:

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى حتى يراق على جوانبه الدّم
والظلم من شيم النفوس فإن تجد ذا عفة فلعله لا يظلم
وهذه العلة المانعة من الظلم لا تخلو من أحد أربعة أشياء: إما عقل
زاجر أو دين حاجر أو سلطان رادع أو عز صاّد فإذا تأملتّها لم تجد خامساً
يقترن بها ورهبة السلطان أبلغها لأن العقل والدين ربما كانا مضعوفين أو
بداعي الهوى مغلوبين فتكون رهبة السلطان أشدّ زجراً وأقوى ردعاً وقد روي
عن النبي ﷺ أنه قال: «إن السلطان ظل الله في الأرض يأوي إليه كل
مظلوم» وروي عنه ﷺ أنه قال: «إن الله ليزع بالسلطان أكثر مما يزع
بالقرآن». وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «إن لله حُرَّاساً في السماء وحُرَّاساً
في الأرض فحُرَّاسه في السماء الملائكة وحُرَّاسه في الأرض الذين يقبضون
أرزاقهم ويذبون عن الناس». وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «الإمام الجائر
خير من الفتنة وكل لا خير فيه وفي بعض الشر خيار». وقال عبد الله بن
مسعود: السلطان يفسد وما يصلح الله به أكثر فإن عدل فله الأجر وعليكم
الشكر وإن جار فعليه الوزر وعليك الصبر. وقال أبو هريرة رضي الله عنه:
سبب العجم بين يدي رسول الله ﷺ فنهى عن ذلك وقال: لا تسبوا فإنها
عمرت بلاد الله تعالى فعاش فيها عباد الله تعالى. وقال بعض البلغاء:
السلطان في نفسه إمام متبوع وفي سيرته دين مشروع فإن ظلم لم يعدل أحد

(١) ملي: أي زاجر قادر على منعهم.

في حكم وإن عدل لم يجسر أحد على ظلم. وقال بعض الأدباء: إن أقرب الدعوات من الإجابة دعوة السلطان الصالح وأولى الحسنات بالأجر والثواب أمره ونهيه في وجوه المصالح فهذه آثار السلطان في أحوال الدنيا وما ينتظم به أمورها. ثم لما في السلطان من حراسة الدين والذّب عنه ودفع الأهواء منه وحراسة التبديل فيه وزجر من شذ عنه بارتداد أو بغى فيه بعناد أو سعى فيه بفساد وهذه أمور إن لم تنحسم عن الدين بسلطان قويّ ورعاية وافية أسرع فيه تبديل ذوي الأهواء وتحريف ذوي الآراء فليس دين زال سلطانه إلاّ بذلت أحكامه وطمست أعلامه وكان لكل زعيم فيه بدعة ولك عصر في وهيه^(١) أثر كما أن السلطان إن لم يكن على دين تجتمع به القلوب حتى يرى أهله الطاعة فيه فرضاً والناصر عليه حتماً لم يكن للسلطان لبث ولا لأيامه صفو وكان سلطان قهر ومفسد دهر ومن هذين الوجهين وجب إقامة إمام يكون سلطان الوقت زعيم الأمة ليكون الدين محروساً بسلطانه والسلطان جارياً على سنن الدين وأحكامه. وقد قال عبد الله بن المعتز:

الملك بالدين يبقى والدين بالملك يقوى
واختلف الناس هل وجب ذلك بالعقل أو بالشرع فقالت طائفة: وجب بالعقل لأنه معلوم من حال العقلاء على اختلافهم الفزع إلى زعيم مندوب للنظر في مصالحهم. وذهب آخرون إلى وجوبه بالشرع لأن المقصود بالإمام القيام بأمور شرعية كإقامة الحدود واستيفاء الحقوق وقد كان يجوز الإستغناء عنها بأن لا يرد التعبد بها فبأن يجوز الإستغناء عما لا يراد لها أولى. وعلى هذا اختلفوا في وجوب بعثة الأنبياء فمن قال بوجوب ذلك بالعقل قال بوجوب بعثة الأنبياء ومن قال بوجوب ذلك بالشرع منع وجوب بعثة الأنبياء لأنه لما كان المقصود ببعثتهم تعريف المصالح الشرعية وكان يجوز من المكلفين أن لا تكون هذه الأمور مصلحة لهم لم يجب بعثة الأنبياء إليهم. فأما إقامة إمامين أو ثلاثة في عصر واحد وبلد واحد فلا يجوز

(١) وهيه أثر: الوهاية الشق والضعف، يقال: وهي السقاء إذا استرخى رباطه، وهي الحائط إذا ضعف وهم بالسقوط. والأثر بفتحيتين: ما بقي من رسم الشيء.

إجماعاً. فأما في بلدان شتى وأمصار متباعدة فقد ذهبت طائفة شاذة إلى جواز ذلك لأن الإمام مندوب للمصالح وإذا كان اثنان في بلدين أو ناحيتين كان كل واحد منهما أقوم بما في يديه وأضبط لما يليه ولأنه لما جاز بعثة نبين في عصر واحد ولم يؤد ذلك إلى إبطال النبوة كانت الإمامة أولى ولا يؤدي ذلك إلى إبطال الإمامة. وذهب الجمهور إلى أن إقامة إمامين في عصر واحد لا يجوز شرعاً لما روي عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا بويع أميران فولوا أحدهما» وروي فاقتلوا الأخير منهما. وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا وليتم أبا بكر تجدوه قوياً في دين الله عز وجل ضعيفاً في بدنه وإذا وليتم عمر تجدوه قوياً في دين الله عز وجل قوياً في بدنه وإن وليتم علياً تجدوه هادياً مهدياً» فبين بظاهر هذا الكلام أن إقامة جميعهم في عصر واحد لا يصح ولو صح لأشار إليه ولنبه عليه. والذي يلزم سلطان الأمة من أمورها سبعة أشياء: أحدها حفظ الدين من تبديل فيه والحث على العمل به من غير إهمال له. والثاني حراسة^(١) البيضة والذب عن الأمة من عدو في الدين أو باغي نفس أو مال. والثالث عمارة البلدان باعتماد مصالحها وتهذيب سبلها ومسالكها. والرابع تقدير ما يتولاه من الأموال بسنن الدين من غير تحريف في أخذها وإعطائها. والخامس معاناة المظالم والأحكام بالتسوية بين أهلها واعتماد النصفة^(٢) في فصلها. والسادس إقامة الحدود على مستحقها من غير تجاوز فيها ولا تقصير عنها. والسابع اختيار خلفائه في الأمور أن يكونوا من أهل الكفاية فيها والأمانة عليها. فإذا فعل من أفضى إليه سلطان الأمة ما ذكرناه من هذه الأشياء السبعة كان مؤدياً حق الله تعالى فيهم مستوجباً طاعتهم ومناصحتهم مستحقاً صدق ميلهم ومحبتهم وإن قصر عنها ولم يقم بحقها وواجبها كان بها مؤاخذاً وعليها معاقباً ثم هو من الرعية على استبطان معصية ومقت يتربصون الفرص لإظهارها ويتوقعون الدوائر لإعلانها. وقد قال الله تعالى: ﴿قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعاً﴾ وفي قوله

(١) حراسة البيضة: أي حماية حوزة الاسلام وساحة الأمة.

(٢) النصفة: العدالة.

تعالى: عذاباً من فوقكم أو من تحت أرجلكم تأويلان: أحدهما أن العذاب الذي هو من فوقهم أمراء السوء والذي من تحت أرجلهم عبيد السوء وهذا قول ابن عباس رضي الله عنهما. والثاني أن العذاب الذي هو من فوقهم الرجم والذي من تحت أرجلهم الخسف وهذا قول مجاهد وسعيد بن جبير وفي قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ سِمْيَاءُ﴾ تأويلان: أحدهما أنه الأهواء المختلفة وهذا قول ابن عباس رضي الله عنهما. والثاني أنه الفتن والإختلاط وهذا قول مجاهد. وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «ما من أمير على عشيرة إلا وهو يجيء يوم القيامة مغلوله يده إلى عنقه حتى يكون عمله هو الذي يطلقه أو يوبقه^(١)». وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «خير أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم وشر أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم وتلعنونهم ويلعنونكم» وهذا صحيح لأنه إذا كان ذا خير أحبهم وأحبه وإذا كان ذا شر أبغضهم وأبغضوه. وقد كتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى سعد بن (٢) أبي وقاص رضي الله عنه إن الله تعالى إذا أحب عبداً حبه إلى خلقه فاعرف منزلتك من الله تعالى بمنزلك من الناس وأعلم أن ما لك عند الله مثل ما لك عندك فكان هذا موضحاً لمعنى ما ذكرنا. وأصل هذا أن خشية الله تبعث على طاعته في خلقه وطاعته في خلقه تبعث على محبته فلذلك كانت محبتهم دليلاً على خيره وخشيته وبغضهم دليلاً على شره وقلة مراقبته. وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لبعض خلفائه: أوصيك أن تخشى الله في الناس ولا تخشى الناس في الله. وقال عمر بن عبد العزيز لبعض جلسائه: إني أخاف

(١) يوبقه: يهلكه.

(٢) سعد بن أبي وقاص: القرشي أحد العشرة المبشرة بالجنة، وأحد الستة أصحاب الشورى الذين جعل عمر بن الخطاب أمر الخلافة إليهم، أسلم وهو ابن أربع عشرة سنة، وشهد بدرا وما بعدها من المشاهد، وكان حجاب الدعوة، وهو أول من رمى في سبيل الله، وأول من أراق دماً في سبيل الله. وكان يقال له: فارس الإسلام روى له عن رسول الله ٢٧٠ حديثاً وهو الذي فتح مدائن السرى في زمن عمر، وولاه عمر العراق، وهو الذي بنى الكوفة. ولما قتل عثمان اعتزل سعد الفتن، ومات بقصره بالعقيق على عشرة أميال من المدينة سنة ٥٧ وهو ابن بضع وسبعين سنة، وحمل إلى المدينة على أرقاب الرجال. وصلى عليه مروان بن الحكم والي المدينة، ودفن بالبقيع، وهو آخر العشرة موتاً.

الله فيما تقلدت فقال له : لست أخاف عليك أن تخاف الله وإنما أخاف عليك أن لا تخاف الله وهذا واضح لأن الخائف من الله تعالى مأمون الحيف كالذي روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال لأبي مريم السلولي وكان هو الذي قتل أخاه زيد بن الخطاب : والله إني لا أحبك حتى تحب الأرض الدم قال : أفيمنعني ذلك حقاً؟ قال : لا قال : فلا ضير إنما يأسى^(١) على الحب النساء . وروى عبد الرحمن بن محمد قال : أصدق طلحة ابن عبيد الله أم كلثوم بنت أبي بكر مائة ألف درهم وهو أول من أصدق هذا القدر فمرّ بالمال على عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال : ما هذا قالوا : صداق أم كلثوم ابنة أبي بكر فقال : أدخلوه بيت المال فأخبر بذلك طلحة وقيل له : كلّمه في ذلك فقال : ما أنا بفاعل لئن كان عمر يرى فيه حقاً لا يرده لكلامي وإن كان لا يرى فيه حقاً ليردّنه قال : فلما أصبح عمر أمر بالمال فدفع إلى أم كلثوم .

وحكي أن الرشيد حبس أبا العتاهية فكتب على حائط الحبس :

أما والله إن الظلم لؤم وما زال المسيء هو الظلوم
إلى ديان يوم الدين تمضي وعند الله تجتمع الخصوم
ستعلم في المعاد إذا ألتقينا غداً عند المليك من الظلوم

فأخبر الرشيد بذلك فبكى بكاء شديداً ودعا أبا العتاهية فاستحله ووهب له ألف دينار وأطلقه .

(وأما القاعدة الثالثة) فهي عدل شامل يدعو إلى الألفة ويبعث على الطاعة وتعمّر به البلاد وتنمو به الأموال ويكثر معه النسل ويأمن به السلطان فقد قال المَرْزُبَانِ^(٢) لعمر حين رآه وقد نام متبذلاً : عدلت فأمنت فنمت . وليس شيء أسرع في خراب الأرض ولا أفسد لضمائر الخلق من الجور لأنه ليس يقف على حدّ ولا ينتهي إلى غاية ولكل جزء منه قسط من الفساد حتى

(١) نأس : تحزن وتندم .

(٢) المَرْزُبَان : بفتح الميم وسكون الراء وضم الزاي : هو رئيس المجوس ، وهو اسم مركب معناه الحافظ ، أي حافظ الحدود ، ورئيس الثغور ، فاستعمله العرب في مطلق رئيس المجوس .

يستكمل. وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: بش الزاد إلى المعاد العدوان على العباد. وقال ﷺ ثلاث منجيات وثلاث مهلكات: فأما المنجيات فالعدل في الغضب والرضا وخشية الله في السر والعلانية والقصد^(١) في الغنى والفقر. وأما المهلكات: فشح مطاع وهوى متبع وإعجاب المرء بنفسه. وحكي أن الإسكندر قال لحكماء الهند وقد رأى قلة الشرائع بها: لم صارت سنن بلادكم قليلة؟ قالوا: لإعطائنا الحق من أنفسنا ولعدل ملوكنا فينا فقال لهم: أيما أفضل العدل أم الشجاعة؟ قالوا: إذا استعمل العدل أغنى عن الشجاعة. وقال بعض الحكماء: بالعدل والإنصاف تكون مدة الإئتلاف. وقال بعض البلغاء: إن العدل ميزان الله الذي وضعه للخلق ونصبه للحق فلا تخالفه في ميزانه ولا تعارضه في سلطانه واستعن على العدل بختين: قلة الطمع^(٢) وكثرة الورع^(٣). فإذا كان العدل من إحدى قواعد الدنيا التي لا انتظام لها إلا به ولا صلاح فيها إلا معه وجب أن يبدأ بعدل الإنسان في نفسه ثم بعدله في غيره. فأما عدله في نفسه فيكون بحملها على المصالح وكفها عن القبائح ثم بالوقوف في أحوالها على أعدل الأمرين من تجاوز أو تقصير فإن التجاوز فيها جور والتقصير فيها ظلم ومن ظلم نفسه فهو لغيره أظلم ومن جار^(٤) عليها فهو على غيره أجور. وقد قال بعض الحكماء: من توانى في نفسه ضاع. وأما عدله مع غيره فقد ينقسم حال الإنسان مع غيره على ثلاثة أقسام: فالقسم الأول عدل الإنسان فيمن دونه كالسلطان في رعيته والرئيس مع صحابته فعدله فيهم يكون بأربعة أشياء؛ باتباع الميسور وحذف المعسور وترك التسلط بالقوة وابتغاء الحق في السيرة فإن اتباع

(١) والقصد: أي التوسط في الانفاق في حال الغنى وحال الفقر، فلا تعتبر جداً لفقره، ولا ييذر لغناه.

(٢) الطمع: يقال: طمع في الشيء إذا حرص عليه، والحرص يبعث على انكار ما عليه من الديون والحقوق، وعلى المثل والحديمة والغبن، بل على النصب والنهب وغير ذلك، وفي الطمع من المفاسد ما لا يخفى.

(٣) الورع: هو اجتناب الشبهات خوفاً من الوقوع في المحرمات.

(٤) جار عليها: الجور: هو التجاوز والإفراط.

الميسور أودم وحذف المعسور أسلم وترك التسلط أعطف على المحبة وابتغاء الحق أبعث على النصرة. وهذه أمور إن لم تسلم للزعيم المدبر كان الفساد بنظره أكثر والاختلاف بتدبيره أظهر. روي عن النبي ﷺ أنه قال: «أشد الناس عذاباً يوم القيامة من أشركه الله في سلطانه فجار في حكمه». وقال بعض الحكماء: الملك يبقى على الكفر ولا يبقى على الظلم. وقال بعض الأدباء: ليس للجائر جار ولا تعمّر له دار. وقال بعض البلغاء: أقرب الأشياء صرعة الظلوم وأنفذ السهام دعوة المظلوم. وقال بعض حكماء الملوك: العجب من ملك استفسد رعيته وهو يعلم أن عزه بطاعتهم. وقال أردشير بن بابك: إذا رغب الملك عن العدل رغبت الرعية عن طاعته. وعوتب أنوشروان على ترك عقاب المذنبين فقال: هم المرضى ونحن الأطباء فإذا لم نداوهم بالعفو فمن لهم. والقسم الثاني عدل الإنسان مع فوفه كالرعية مع سلطانها والصحابة مع رئيسها فقد يكون بثلاثة أشياء بإخلاص: الطاعة وبذل النصرة وصدق الولاء. فإن إخلاص الطاعة أجمع^(١) للشمل وبذل النصرة أدفع للوهن^(٢) وصدق الولاء أنفى لسوء الظن وهذه أمور إن لم تجتمع في المرء تسلط عليه من كان يدفع عنه واضطر إلى اتقاء من كان يقيه كما قال البحري:

متى احوجت ذا كرم تخطى إليك ببعض أخلاق اللثام
وفي استمرار هذا حل نظام جامع وفساد صلاح شامل. وقال أبرويز^(٣): أطلع من فوقك يطعمك من دونك. وقال بعض الحكماء: الظلم مسلبة النعم والبغي مجلبة النقم. وقال بعض الحكماء: إن الله تعالى لا يرضى عن خلقه إلا بتأدية حقه وحقه شكر النعمة ونصح^(٤) الأمة وحسن

(١) أجمع للشمل: أي الازدحام يقال: دخل في شمل الجماعة أي غمارها.

(٢) للوهن: أي للضعف في الرأي والعمل والأمل.

(٣) أبرويز: كان من حكماء الملوك، قيل له: ما شهوة ساعة؟ قال: الجماع، قيل: ما شهوة يوم؟ قال: دخول الحمام، قيل: فما شهوة جمعة؟ قال: غسل الثياب، قيل: فما شهوة شهر؟ قال: تجديد الثياب، قيل: فما شهوة سنة؟ قال: تزوج الأبنكار، قيل: فما شهوة الأبد؟ قال: أما في الدنيا فمشاهدة الاخوان، وأما في الآخرة فنعيم الجنة.

(٤) ونصح الأمة: أي بالإخلاص لهم باستواء السريرة والعلانية.

الصنعة ولزوم الشريعة. والقسم الثالث عدل الإنسان مع أكفائه ويكون بثلاثة أشياء: بترك الإستطالة ومجانبة الإدلال وكف الأذى لأن ترك الإستطالة ألف ومجانبة الادلال أعطف وكف الأذى أنصف وهذه أمور إن لم تخلص في الأكفاء أسرع فيهم تقاطع الأعداء ففسدوا وأفسدوا. وقد روي عن عمر بن عبد العزيز عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أنبئكم بشرار الناس؟ قالوا: بلى يا رسول الله قال: من نزل وحده ومنع رفته^(١) وجلد عبده. ثم قال: أفلا أنبئكم بشر من ذلك؟ قالوا: بلى يا رسول الله قال: من لا يرجي خيره ولا يؤمن شره ثم قال: ألا أنبئكم بشر من ذلك؟ قالوا: بلى يا رسول الله قال: من يبغض الناس ويبغضونه». وروي أن عيسى بن مريم عليهما السلام قام خطيباً في بني إسرائيل فقال: يا بني إسرائيل لا تتكلموا بالحكمة عند الجهال فتظلموها ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم ولا تكافئوا ظالماً فيظل فضلكم. يا بني إسرائيل الأمور ثلاثة أمر تبين رشده فاتبعوه وأمر تبين غيه فاجتنبوه وأمر اختلفتم فيه فردوه إلى الله تعالى وهذا الحديث جامع لأداب العدل في الأحوال كلها. وقال بعض الحكماء: كل عقل لا يدارى به الكل فليس بعقل تام. وقال بعض الشعراء:

ما دمت حيا فدار الناس كلهم فإنما أنت في دار المداراة
من يدر داري ومن لم يدر سوف يرى عما قليل نديماً للندامات
وقد يتعلق بهذه الطبقات أمور خاصة يكون عدلهم فيها بالتوسط في حالتها التقصير والسرف لأن العدل مأخوذ من الاعتدال فما جاوز الاعتدال فهو خروج عن العدل. وقد قالت الحكماء: الفضائل هيئات متوسطة بين حالتين ناقصتين وأفعال الخير تتوسط بين رذيلتين (فالحكمة) واسطة بين الشر والجهالة (والشجاعة) واسطة بين التقحم والجبن (والعفة) واسطة بين الشر^(٢) والشهوة (والسكينة) واسطة بين السخط وضعف الغضب

(١) رفته: عطاء وصلته، وهو بكسر الراء.

(٢) الشر: هو الحرص الشديد على الطعام، وهو بفتح الشين والراء.

(والغيرة) واسطة بين الحسد وسوء العادة (والظرف)^(١) واسطة بين الخلاعة والفدامة^(٢) (والتواضع) واسطة بين الكبر ودناءة النفس (والسخاء) واسطة بين التبذير والتقتير (والحلم) واسطة بين إفراط الغضب وعدمه (والمودة) واسطة بين الخلافة^(٣) وحسن الخلق (والحياء) واسطة بين الفحمة^(٤) والحصر^(٥) (والوقار) واسطة بين الهزء والسخافة. وإذا كان ما خرج عن الاعتدال إلى ما ليس باعتدال خروجاً عن العدل إلى ما ليس بعدل كان ما خرج عن الأولى إلى ما ليس بأولى خروجاً عن العدل إلى ما ليس بعدل. وقد قال بعض البلغاء: السلطان السوء يخيف البريء ويصطنع الدنيء والبلد السوء يجمع السفل^(٦) ويورث العلل والولد السوء يشين السلف ويهدم الشرف والجار السوء يفشي السر ويهتك السر فجعل هذه الأشياء بخروجها عن الأولى إلى ما ليس بأولى خروجاً عن العدل إلى ما ليس بعدل. ولست تجد فساداً إلا وسبب نتيجته الخروج فيه عن حال العدل إلى ما ليس بعدل من حالتي الزيادة والنقصان فإذا لا شيء أنفع من العدل كما أنه لا شيء أضر مما ليس بعدل.

(وأما القاعدة الرابعة) فهي أَمْنٌ عامٌّ تطمئن إليه النفوس وتتيسر فيه الهمم ويسكن فيه البريء ويأنس به الضعيف فليس لخائف راحة ولا لحاذر طمأنينة. وقد قال بعض الحكماء: الأمن أهنا عيش والعدل أقوى جيش لأن الخوف يقبض الناس عن مصالحهم ويحجزهم عن تصرفهم ويكفهم عن أسباب المواد التي بها قوام أودهم^(٧) وانتظام جملتهم ولئن كان الأمن من نتائج العدل والجور من نتائج ما ليس بعدل فقد يكون الجور تارة بمقاصد

(١) والظرف: الكياسة، وحسن التصرف.

(٢) الفدامة: الشراسة والأذى وفي طبعة السقا (الفدامة). والفدامة كما في المختار العي والثقل.

(٣) الخلافة: يقال: خلبه إذا خدعه.

(٤) الفحمة: قلة الحياء.

(٥) الحصر: العي.

(٦) السفل: جمع سِفلة بالكسر يقال: هو من سفلة الناس أي من أسافلهم وغوغائهم، أي أراذلهم.

(٧) أودهم: بفتحين، أي استقامة اعوجاجهم.

الآدميين الخارجة عن العدل وتارة يكون بأسباب حادثة عن غير مقاصد
الآدميين فلا تكون خارجة عن حال العدل فمن أجل ذلك لم يكن ما سبق
من حال العدل مقنعاً عن أن يكون الأمن في انتظام الدنيا قاعدة كالعدل فإذا
كان ذلك كذلك فلأمن المطلق ما عم والخوف قد يتنوع تارة ويعم فتنوعه
بأن يكون تارة على النفس وتارة على الأهل وتارة على المال وعمومه أن
يستوعب جميع الأحوال ولك واحد من أنواعه حظ من الوهن^(١) ونصيب من
الحزن وقد يختلف باختلاف أسبابه ويتفاضل بتباين جهاته ويكون بحسب
اختلاف الرغبة فيما خيف عليه فمن أجل ذلك لم يجز أن يتصف حال كل
واحد من أنواعه بمقدار من الوهن ونصيب من الحزن لا سيما والخائف
على الشيء مختص بهم به منصرف الفكر عن غيره فهو يظن أن لا خوف
له إلا إياه فيغفل عن قدر النعمة بالأمن فيما سواه فصار كالمرضى الذي هو
بمرضه متشاغل وعما سواه غافل ولعل ما صرف عنه أعظم مما ابتلي به:

على أنها تغفو الكلوم^(٢) وإنما يوكل بالأدنى وإن جل ما يمضي

(وحكى) أن رجلاً قال - وأعرابي حاضر - ما أشد وجع الضرس! فقال
الأعرابي: كل داء أشد داء كذلك من عمه الأمن كمن استولت عليه العافية
فهو لا يعرف قدر النعمة بأمنه حتى يخاف كما لا يعرف المعافى قدر النعمة
بعافيته حتى يصاب. وقال بعض الحكماء: إنما يعرف قدر النعمة بمقاساة
ضدّها فأخذ ذلك أبو تمام الطائي فقال:

والحادثات وإن أصابك بؤسها فهو الذي أنباك كيف نعيمكا
فالأولى بالعاقل أن يتذكر عند مرضه وخوفه قدر النعمة فيما سوى ذلك
من عافيته وأمنه وما انصرف عنه مما هو أشد من مرضه وخوفه فيستبدل
بالشكوى شكراً وبالجزع صبراً فيكون فرحاً مسروراً. حكى أن يعقوب قال
ليوسف عليهما السلام حين لقيه. أي شيء كان خبرك بعدي؟ قال: لا

(١) الوهن: بفتحتين، الضعف في العمل.

(٢) تغفو الكلوم: والكلوم جمع كلم، وهو الجرح، والمراد: يذهب أثرها بالبرء. أي أن العادة
نسيان المصائب البعيدة العهد، وإن كانت عظيمة.

تسأل عما فعله بي إخبوتي سلني عما صنعه بي ربي . وقال الشاعر :

لا تنس في الصحة أيام السقم فإن عقبى تارك الحزم ندم
(وأما القاعدة الخامسة) فهي خصب دار تتسع النفوس به في الأحوال
ويشترك فيه ذو الإكثار والإقلال فيقل في الناس الحسد وينتفي عنهم تباغض
العدم وتتسع النفوس في التوسع وتكثر المواساة والتواصل وذلك من أقوى
الدواعي لصالح الدنيا وانتظام أحوالها ولأن الخصب يؤول إلى الغنى والغنى
يورث الأمانة والسخاء . وكتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى أبي
موسى الأشعري : لا تستقضين إلا ذا حسب أو مال فإن ذا الحسب يخاف
الهواقب وذا المال لا يرغب في مال غيره . وقال بعض السلف : إني وجدت
خير الدنيا والآخرة في التقى والغنى وشر الدنيا والآخرة في الفجور والفقر .
وقال بعض الشعراء :

ولم أر بعد الدين خيراً من الغنى ولم أر بعد الكفر شراً من الفقر
وبحسب الغنى يكون إقلال البخيل وإعطاؤه وإكثار الجواد وسخاؤه
كما قال دعبل^(١) :

لئن كنت لا تولي ندى دون إمرة فلست بمول نائلاً آخر الدهر
وأي إناء لم يفيض عند ملئه وأي بخيل لم ينل ساعة الوفر
وإذا كان الخصب يحدث من أسباب الصلاح ما وصفت كان الجذب
يحدث من أسباب الفساد ما ضاها وكما أن صلاح الخصب عام فكذلك
فساد الجذب عام وما عم به الصلاح إن وجد عم به الفساد إن فقد فأحرى
أن يكون من قواعد الصلاح ودواعي الاستقامة . والخصب يكون من
وجهين : خصب في المكاسب وخصب في المواد . فأما خصب المكاسب
فقد يتفرع من خصب المواد وهو من نتائج الأمن المقترن بها . وأما خصب

(١) دعبل : علي وزن زبرج بن علي وزير ابن سليمان الخزازي ، كان كوفياً أقام ببغداد ، وشاعراً
مجيداً إلا أنه كان خبيث اللسان مائلاً إلى الهجو ، وشيعياً متعصباً ، ومهيجاً للفتن
والشرور ، توفي ٢٤٦ وقد ناهز المائة .

المواد فقد يتفرع عن أسباب إلهية وهو من نتائج العدل المقترن بها.

(وأما القاعدة السادسة) فهي أمل فسيح يبعث على إقتناء ما يقصر العمر عن استيعابه ويبعث على اقتناء ما ليس يؤمل في دركه بحياة أربابه ولولا أن الثاني يرتفع^(١) بما أنشأه الأول حتى يصير به مستغنياً لافتقر أهل كل عصر إلى إنشاء ما يحتاجون إليه من منازل السكنى وأراضي الحرث وفي ذلك من الإعواز^(٢) وتعذر الإمكان ما لا خفاء به فلذلك ما أرفق الله تعالى خلقه من اتساع الآمال حتى عمر به الدنيا فتم صلاحها وصارت تنتقل بعمرانها إلى قرن بعد قرن فيتم الثاني ما أبقاه الأول من عمارتها ويرم الثالث ما أحدثه الثاني من شعثها^(٣) لتكون أحوالها على الأعصار ملتئمة وأمورها على ممر الدهور منتظمة ولو قصرت الآمال ما تجاوز الواحد حاجة يومه ولا تعدى ضرورة وقته ولكانت تنتقل إلى من بعده خراباً لا يجد فيها بلغة^(٤) ولا يدرك منها حاجة ثم تنتقل إلى من بعد بأسوأ من ذلك حالاً حتى لا ينمى بها نبت ولا يمكن فيها لبث. وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «الأمل رحمة من الله لامتني ولولاه ما غرس غارس شجراً ولا أرضعت أم ولدًا». وقال الشاعر:

وللنفوس وإن كانت على وجل من المنية آمال تقوئها

فالصبر يبسطها والدهر يقبضها والنفس تنشرها والموت يطويها

وأما حال الأمل في أمر الآخرة فهو من أقوى الأسباب في الغفلة عنها وقلة الإستعداد لها وقد أفصح لبيد^(٥) بن ربيعة مع أعرابيته بما تبين به حال الأمل في الأمرين فقال:

(١) يرتفع: يتنفع.

(٢) الإعواز: الإشكال.

(٣) شعثها: ما تفرق وانتشر.

(٤) بلغة: على وزن غرفة، هو ما يتبلغ به ويتكف به من العيش.

(٥) لبيد: بن ربيعة، الصحابي، وكان شريفاً في الجاهلية والاسلام قيل: لم يقل شعراً بعد الإسلام إلا قوله:

الحمد لله الذي لم يأتني أجلى حتى اكتسيت من الاسلام سربالا =

وأكذب النفس إذا حدثتها إنَّ صدق النفس يزري بالأمل
غير أن لا تكذبها في التقى وأخزها بالبرِّ لله الأجل
وفرق ما بين الآمال والأمانى أن الآمال ما تقيدت بأسباب والأمانى ما
تجردت عنها.

فهذه القواعد الست التي تصلح بها أحوال الدنيا وتتنظم أمور جملتها
فإن كملت فيها كمل صلاحها. وبعيد أن يكون أمر الدنيا تاماً كاملاً وأن
يكون صلاحها عاماً شاملاً لأنها موضوعة على التغير والفناء منشأة على
التصرّم والانقضاء. وسمع بعض الحكماء رجلاً يقول: قلب الله الدنيا قال:
فإذن تستوي لأنها مقلوبة. وقال بعض الشعراء:

ومن عادة الأيام أن خطوبها إذا سرّ منها جانب ساء جانب
وما أعرف الأيام إلا دميمة ولا الدهر إلا وهو للثار طالب
وبحسب ما أختل من قواعدها يكون اختلالها وفسادها.

(فصل) وأما ما يصلح به حال الإنسان فيها فثلاثة أشياء وهي قواعد
أمره ونظام حاله وهي: نفس مطيعة إلى رشدتها منتهية عن غيها. وألفة
جامعة تنعطف القلوب عليها ويندفع المكروه بها. ومادة كافية تسكن نفس
الإنسان إليها ويستقيم أوده بها.

(فأما القاعدة الأولى) التي هي نفس مطيعة فلأنها إذا أطاعته ملكها
وإذا عصته ملكته ولم يملكها ومن لم يملك نفسه فهو بأن لا يملك غيرها
أخرى ومن عصته نفسه كان بمعصية غيرها أولى. وقال بعض الحكماء: لا
ينبغي للعاقل أن يطلب طاعة غيره ونفسه ممتنعة عليه وقد قال الشاعر:

أنتطمع أن يطيعك قلب سعدى وتزعم أن قلبك قد عصاك؟
وطاعة نفسه تكون من وجهين: أحدهما نصح والثاني انقياد. فأما

= ولما طلب المغيرة إليه أن يقول الشعر قال: أبدلني الله بذلك سورة البقرة وآل عمران، فكتب
المغيرة بذلك إلى عمر، فزاد في عطائه خمسمائة دينار.

النصح فهو أن ينظر إلى الأمور بحقائقها فيرى الرشد رشداً ويستحسنه ويرى الغي غياً ويستقبحه وهذا يكون من صدق النفس إذا سلمت من دواعي الهوى ولذلك قيل: من تفكر أبصر. فأما الإنقياد فهو أن تسرع إلى الرشد إذا أمرها وتنتهي عن الغي إذا زجرها وهذا يكون من قبول النفس إذا كفيت منازعة الشهوات. قال الله تعالى: ﴿وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مِيلًا عَظِيمًا﴾. وللنفس آداب هي تمام طاعتها وكمال مصلحتها وقد أفردنا لها من هذا الكتاب باباً واقتصرنا في هذا الموضع على ما قد اقتضاه الترتيب واستدعاه التقريب.

(وأما القاعدة الثانية) التي هي الألفة الجامعة فلأن الإنسان مقصود بالأذية محسود بالنعمة فإذا لم يكن آلفاً مألوفاً تخطفته أيدي حاسديه وتحكمت فيه أهواء أعاديه فلم تسلم له نعمة ولم تصف له مدة فإذا كان آلفاً مألوفاً انتصر بالألفة على أعاديه وامتنع من حاسديه فسلمت نعمته منهم وصفت مدته عنهم وإن كان صفو الزمان غرة وسلمه خطراً. وقد روى ابن جريج عن عطاء رحمهما الله عن جابر رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «المؤمن آلف مألوف ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف وخير الناس أنفعهم للناس». وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله تعالى يرضى^(١) لكم ثلاثاً ويكره لكم ثلاثاً يرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً وأن تعتصموا بحبله جميعاً ولا تفرقوا وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم ويكره لكم قيل وقال وكثرة السؤال وإضاعة المال» وكل ذلك حث منه ﷺ على الألفة. والعرب تقول: من قل ذل. وقال قيس بن عاصم:

إن القداح^(٢) إذا اجتمعن فرامها بالكسر ذو حنق وبطش أيد ،
عزت فلم تكسر وإن هي بددت فالوهن والتكسير للمبتد

وإذا كانت الألفة بما أثبت تجمع الشمل وتمنع الذل اقتضت الحال ذكر أسبابها. وأسباب الألفة خمسة: وهي الدين والنسب والمصاهرة والمودة

(١) إن الله يرضى لكم: رواه مسلم عن أبي هريرة.

(٢) القداح: جمع قَدَح، وهي السهام.

والبر. فأما الذين وهو الأول من أسباب الألفة فلأنه يبعث على التناصر ويمنع من التقاطع والتدابير. ويمثل ذلك وصي رسول الله ﷺ أصحابه فروى سفيان عن الزهري عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ولا تقاطعوا ولا تدابروا ولا تحاسدوا وكونوا عباد الله إخواناً لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث» هذا وإن كان اجتماعهم في الدين يقتضيه فهو على وجه التحذير من تذكر تراث الجاهلية وإحزن الضلالة فقد بعث رسول الله ﷺ والعرب أشد تقاطعاً وتعادياً وأكثر اختلافاً وتمادياً حتى أن بني الأب الواحد كانوا يتفرقون أحزاباً فتثور بينهم بالحزب والافتراق أحقاد الأعداء وإحزن البعداء وكانت الأنصار أشدّهم تقاطعاً وتعادياً وكان بين الأوس والخزرج من الاختلاف والتباين أكثر من غيرهم إلى أن أسلموا فذهبت إحنهم وانقطعت عداوتهم وصاروا بالإسلام إخواناً متواصلين وبالفقه الدين أعواناً متناصرين. وقال الله تعالى: ﴿واذكروا إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمة إخواناً﴾ يعني أعداء في الجاهلية فألف بين قلوبكم بالإسلام. وقال تعالى: ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن وداً﴾ يعني حباً. وعلى حسب التآلف على الدين تكون العداوة فيه إذا اختلف أهله فإن الإنسان قد يقطع في الدين من كان به باراً وعليه مشفقاً هذا أبو عبيدة^(١) ابن الجراح وقد كانت له المنزلة العالية في الفضل والأثر المشهور في الإسلام قتل أباه يوم بدر وأتى برأسه إلى رسول الله ﷺ طاعة لله عز وجل ولرسوله صلى الله عليه وسلم حين بقي على ضلاله وانهمك في طغيانه فلم تعطفه عليه رحمة ولا كفه عنه شفقة وهو من أبر الأنبياء تغليبا للدين على النسب ولطاعة الله تعالى على طاعة الأب. وفيه أنزل الله ﴿لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم﴾. وقد يختلف أهل الدين على مذاهب

(١) أبو عبيدة بن الجراح: واسمه عامر بن عبد الله، وهو أمين هذه الأمة، قتل أبوه يوم بدر كافراً، ويقال: إنه هو الذي قتله، ومات أبو عبيدة وهو أمير على الشام من قبل عمر بن الخطاب رضي الله عنه سنة ١٨ في طاعون عمواس، وصلى عليه معاذ بن جبل، وكان عمره ٥٨ سنة.

شتى واءاء مختلفة فيحدث بين المختلفين فيه من العداوة والتباين مثل ما يحدث بين المختلفين في الأديان وعلة ذلك أن الدين والاجتماع على العقد الواحد فيه لما كان أقوى أسباب الألفة كان الاختلاف فيه من أقوى أسباب الفرقة وإذا تكافأ أهل الأديان المختلفة والمذاهب المتباينة ولم يكن أحد الفريقين أعلى يداً وأكثر عدداً كانت العداوة بينهم أقوى والإحن فيهم أعظم لأنه ينضم إلى عداوة الاختلاف تحاسد الأكفاء وتنافس النظراء. وأما النسب وهو الثاني من أسباب الألفة فلأن تعاطف الأرحام وحمة القرابة يبعثان على التناصر والألفة ويمنعان من التخاذل والفرقة أنفة^(١) من استعلاء الأبعد على الأقارب وتوقياً من تسلط الغرباء الأجانب وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الرحم إذا تماسست تعاطفت» ولذلك حفظت العرب أنسابها لما امتنعت عن سلطان يقهرها ويكف الأذى عنها لتكون به متظافرة على من ناوأها متناصرة على من شاقها وعادها حتى بلغت بألفة الأنساب تناصرها على القوي الأيد وتحكمت فيه تحكم المتسلط المشطط. وقد أعذر نبي الله لوط عليه السلام نفسه حين عدم عشيرة تنصره فقال لمن بعث إليهم: «لو أن لي بكم قوة أو آوي إلى ركن شديد» يعني عشيرة مانعة وروى أبو سلمة عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «رحم الله لوطاً لقد كان يأوي إلى ركن شديد» يعني الله عز وجل. وقال رسول الله ﷺ: «ما بعث الله تعالى من نبي بعده إلا في ثروة»^(٢) من قومه». فقال وهب لقد ردت الرسل على لوط وقالوا: إن ركنك لشديد. وروي عن رسول الله ﷺ أنه كان لا يترك المرء مفرجاً حتى يضمه إلى قبيلة يكون إليها. قال الرياشي: المفرج الذي لا ينتمي إلى قبيلة يكون منها وكل ذلك حث منه ﷺ على الألفة وكف عن الفرقة ولذلك قال ﷺ: «من كثر سواد قوم فهو منهم». وإذا كان النسب بهذه المنزلة من الألفة فقد تعرض له عوارض تمنع منها وتبعث على الفرقة المنافية لها فإذا لم يكن أن نصف حال الأنساب وما يعرض لها من الأسباب. فجملة الأنساب أنها تنقسم ثلاثة أقسام: قسم والدون وقسم

(١) أنفة: بفتحان استكباراً واستنكافاً مما يوجب امتناعاً من لحوق العيرة.

(٢) ثروة: أي كثرة ومنعة.

مولودون وقسم مناسبون ولكل قسم منهم منزلة من البر والصلة وعارض يطرأ فيبعث على العقوق والقطيعة. فأما الوالدون فهم الآباء والأمهات والأجداد والجدّات وهم موسومون مع سلامة أحوالهم بخلقين: أحدهما لازم بالطبع والثاني حادث باكتساب. فأما ما كان لازماً بالطبع فهو الحذر والإشفاق وذلك لا ينتقل عن الوالد بحال. وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «لكل شيء ثمرة وثمره القلب الولد» وروي عنه أنه قال: «الولد مبخلة^(١) مجهلة^(٢) مجبنة^(٣) محزنة^(٤)» فأخبر أن الحذر عليه يكسب هذه الأوصاف ويحدث هذه الأخلاق. وقد كره قوم طلب الولد كراهة لهذه الحالة التي لا يقدر على دفعها عن نفسه للزومها طبعاً وحدوثها حتماً. وقيل ليحي بن زكرياء عليهما السلام: ما بالك تكره الولد؟ فقال: مالي وللولد إن عاش كدني^(٥) وإن مات هدني^(٦). وقيل لعيسى بن مريم عليهما السلام: ألا تتزوج؟ فقال: إنما يحب التكاثر في دار البقاء. وأما ما كان حادثاً بالاكتساب فهي المحبة التي تنمى مع الأوقات وتتغير مع تغير الحالات. وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «الولد أنوط^(٧)» يعني أنه حبه ملصق بنياط^(٨) القلب فإن انصرف الوالد عن حب الولد فليس ذلك لبغض منه ولكن لسlope^(٩) حدثت من عقوق أو تقصير مع بقاء الحذر والإشفاق الذي لا يزول عنه ولا ينتقل منه. فقد قال محمد بن علي رضي الله عنه: إن الله تعالى رضى الآباء للأبناء فحذرهم فتنّتهم ولم يوصهم بهم ولم يرض الأبناء

(١) مبخلة: على وزن مرحلة: أي يحمل على البخل، ويدعو إليه، أي يتمتع أبوه من الإنفاق في الطاعة خوف فقره.

(٢) مجهلة: لأن أباه يتقيد بمصالحه، فلا يتفرغ لتحصيل العلوم.

(٣) مجبنة: أي يخبئ أبوه عن الجهاد خوف ضيقه.

(٤) محزنة: أي يحزن أبوه لمرضه خوف موته.

(٥) كدني: أتعني.

(٦) هدني: يقال هد البناء إذا هدمه شديداً.

(٧) أنوط: أي أعلق، يقال: اناط به إذا علقه عليه.

(٨) نياط القلب: هو عرق غليظ ينط به القلب إلى الوتين.

(٩) لسlope: لذهول وفراغ عن ذكره.

للآباء فأوصاهم بهم وإن شر الأبناء من دعاه التقصير إلى العقوق وشرّ الآباء من دعاة البرّ إلى الإفراط^(١). والأمهات أكثر إشفاقاً وأوفر حباً لما باشرن من الولادة وعانين من التربية فإنهنّ أرق قلوباً وألين نفوساً وبحسب ذلك وجب أن يكون التعطف عليهن أوفر جزاء لفعلهن وكفاء لحقهن وإن كان الله تعالى قد أشرك بينهما في البر وجمع بينهما في الوصية فقال تعالى: ﴿ووصينا الإنسان بوالديه حسناً﴾. وقد روي أن رجلاً أتى إلى النبي ﷺ فقال: إن لي أماً أنا مطيتها أقعدها على ظهري ولا أصرف عنها وجهي وأردّ إليها كسي فهل جزيتها؟ فقال: لا ولا بزفرة واحدة قال: ولم؟ قال: لأنها كانت تخدمك وهي تحب حياتك وأنت تخدمها وتحب موتها. وقال الحسن البصري: حق الوالد أعظم وبر الوالدة ألزم. وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «أنهاكم عن عقوق الأمهات ووأد^(٢) البنات ومنع وهات» وروى خالد بن معدان عن المقداد قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله يوصيكم بأمهاتكم ثم يوصيكم بأمهاتكم ثم يوصيكم بآبائكم ثم يوصيكم بالأقرب فالأقرب».

وأما المولودون فهم الأولاد وأولاد الأولاد والعرب تسمي ولد الولد الصفوة وهم مختصون مع سلامة أحوالهم بخلقين: أحدهما لازم والآخر منتقل. فأما اللازم فهو الأنفة للآباء من تهضم أو خمول والأنفة في الأبناء في مقابلة الإشفاق في الآباء وقد لاحظ أبو تمام الطائي هذا المعنى في شعره فقال:

فأصبحت يلقاني الزمان لأجله بأعظام مولود وإشفاق والد

وأما المنتقل فهو الإدلال وهو أول حال الولد والإدلال في الأبناء في مقابلة المحبة في الآباء لأن المحبة بالآباء أخص والإدلال بالأبناء أمس وقد روي عن عمر رضي الله عنه أنه قال: قلت يا رسول الله ما بالناس نرق على أولادنا ولا يرقون علينا؟ قال: لأننا ولدناهم ولم يلدونا. ثم الإدلال في الأبناء قد ينتقل مع الكبر إلى أحد أمرين إما إلى البر والاعظام وإما إلى الجفاء

(١) إلى الإفراط: أي في الأمر والنهي.

(٢) ووأد البنات: هو دفنهن أحياء.

والعقوق فإن كان الولد رشيداً أو كان الأب برأ عطوفاً صار الإدلال برأ وإعظماً وقد روى الزهري عن عامر بن (١) شراحيل أن النبي ﷺ قال لجبرير ابن عبد الله: إن حق الوالد على الولد أن يخشع له عند الغضب ويؤثره على نفسه عند النصب (٢) والسغب (٣) فإن المكافئ ليس بالواصل ولكن الواصل من إذا قطعت رحمه وصلها وإن كان الولد غاوياً (٤) أو كان الوالد جافياً (٥) صار الإدلال قطيعة وعقوقاً. ولذلك قال النبي ﷺ: «رحم الله امرأ أعان ولده على برّه» وبشر عمر بن الخطاب رضي الله عنه بمولود فقال: ريحانة أشمها ثم هو عن قريب ولد بارّ أو عدوّ ضارّ. وقد قيل في منشور الحكم: العقوق ثكل (٦) من لم يثكل. وقال بعض الحكماء: ابنك ريحانك سبعاً وخادمك سبعاً ووزيرك سبعاً سبعاً ثم هو صديق أو عدوّ.

وأما المناسبون فهم من عدا الآباء والأبناء ممن يرجع بعصيب أو رحم والذي يختصون به الحمية الباعثة على النصرة وهي أدنى رتبة الأنفة لأن الأنفة تمنع من التهضم (٧) والخمول (٨) معاً والحمية تمنع من التهضم وليس لها في كراهة الخمول نصيب إلا أن يقترن بها ما يبعث على الأنفة. وحمية المناسبين إنما تدعو إلى النصرة على البعداء والأجانب وهي معرضة لحسد الأذاني والأقارب موكولة إلى منافسة الصاحب بالصاحب فإن حرست بالتواصل والتلاطف تأكدت أسبابها واقترن بحمية النسب مصافاة المودة وذلك أوكد أسباب الألفة. وقد قيل لبعض قریش: أيما أحب إليك أخوك أو صديقك قال: أخي إذا كان صديقاً. وقال مسلمة (٩) بن عبد الملك العيش

(١) ابن شراحيل: قال ابن هرم: ضعيف.

(٢) عند النصب: أي عجز الولد عن مؤونة نفسه، ووالده محتاج إليه ليتم الايثار.

(٣) والسَّغْب: الجوع.

(٤) غاوياً: ضالاً.

(٥) جافياً: أي غليظ الطبع.

(٦) ثكل من لم يثكل: أي فقدان ولد لمن لم يفقده.

(٧) من التهضم: من الظلم والنصب.

(٨) والخمول: هو نقيض الشهرة.

(٩) مسلمة بن عبد الملك: بن مروان، كان من المجاهدين، ورئيس عسكر المسلمين، وله =

في ثلاث: سعة المنزل وكثرة الخدم وموافقة الأهل: وقال بعض الحكماء: البعيد قريب بمودته والقريب بعيد بعداياته. وإن أهملت الحال بين المتناسبين ثقة بلحمة^(١) النسب واعتماداً على حمية القرابة غلب عليها مقت الحسد أو منازعة التنافس فصارت المناسبة عداوة والقرابة بعداً. وقال الكندي^(٢) في بعض رسائله: الأب رب والولد كمد والأخ فخ^(٣) والعم غم والخال وبال والأقارب عقارب. وقال عبد الله بن المعتز:

لحومهم لحمي وهم يأكلونه وما داهيات^(٤) المرء إلا أقاربه

ومن أجل ذلك أمر الله تعالى بصلة الأرحام وأثنى على واصلها فقال تعالى: ﴿والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب﴾ قال المفسرون: هي الرحم التي أمر الله بوصلها ويخشون ربهم في قطعها ويخافون سوء الحساب في المعاقبة عليها. وروى عبد الرحمن بن عوف أن رسول الله ﷺ قال: يقول الله عز وجل أنا^(٥) الرحمن وهي الرحم اشتقت اسمها من أسمى فمن وصلها وصلته ومن قطعها قطعته. وروي عنه ﷺ أنه قال: «صلة الرحم منماة للعدد مثراة للمال محبة في الأهل منسأة في الأجل^(٦)» وقال بعض الحكماء: بلوا أرحامكم

فتوحات في ممالك أرضروم، وطربزون سنة ٨٦، وحاصر القسطنطينية في ٩٩ وبني الجامع الشريف الشهير بعرب جامعي، وهو فاتح شروان، وتوفي سنة ١٢٢ رحمه الله.

(١) بلحمة النسب: أي بقرابته.

(٢) الكندي: أبو يوسف يعقوب بن اسحاق بن الصباح، فيلسوف الإسلام، من ولد الأشعث ابن قيس رضي الله عنه كان أبوه ابن الصباح من ولاية الأعمال بالكوفة، وغيرها في أيام المهدي والرشيد، وانتقل يعقوب إلى بغداد، واشتغل بعلم الأدب، ثم بعلوم الفلسفة جميعها، فأتقنها وحل مشكلات كتب الأوائل، وحذا حذو أرسطاطاليس، وصنف الكتب الجليلية، الحجة، وكثرت فوائده، وتلامذته، وكانت دولة المعتصم وبمصنفاته، وهي كثيرة جداً.

(٣) فخ: شرك يصاد به الطيور ونحوه، وهذا على التشبيه.

(٤) داهيات المرء: حادثاته العظيمة، ونوائبه الجسيمة.

(٥) أنا الرحمن: الحديث في البخاري والترمذي.

(٦) منسأة في الأجل: مظنة لتأخيرها، إذ يبارك الله فيه فهو بهذه البركة يشبه أن يكون طويلاً.

بالحقوق ولا تحفوها بالعقوق. وقال بعض البلغاء: صلوا أرحامكم فإنها لا تبلى عليها أصولكم ولا تهضم عليها فروعكم. وقال بعض الأدباء: من لم يصلح لأهله لم يصلح لك ومن لم يذب عنهم لم يذب عنك. وقال بعض الفصحاء: من وصل رحمه وصله الله ورحمه ومن أجار جاره أعانه الله وأجاره. وقال محمد بن عبد الله الأزدي:

وحسبك من ذل وسوء صنعة مناواة ذي القربى وإن قيل قاطع ولكن أواسيه وأنسى ذنوبه لترجعه يوماً إلي الرواجع ولا يستوي في الحكم عبدان: واصل وعبد لأرحام القرابة قاطع (وأما المصاهرة) وهي الثالث من أسباب الألفة فلأنها استحداث مواصلة وتمازج مناسبة صدرأ عن رغبة واختيار وانعقاداً عن خبرة وإيثار فاجتمع فيها أسباب الألفة ومواد المصاهرة قال الله تعالى: ﴿ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودةً ورحمة﴾ يعني بالمودة المحبة وبالرحمة الحنو والشفقة وهما من أوكد أسباب الألفة. وفيها تأويل آخر قاله الحسن البصري رحمه الله أن المودة النكاح والرحمة الولد. وقال تعالى: ﴿والله جعل لكم من أنفسكم أزواجاً وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة﴾ اختلف المفسرون في الحفدة فقال عبد الله بن مسعود هم أختان الرجل على بناته وقال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما. هم ولد الرجل وولد ولده وروي عنه: أنهم بنو امرأة الرجل من غيره وسموا حفدة لحفدهم في الخدمة وسرعتهم في العمل ومنه قولهم في القنوت وإليك نسعى ونحفد أي نسرع إلى العمل بطاعتك. ولم تزل العرب تجتذب البعداء وتتألف الأعداء بالمصاهرة حتى يرجع النافر مؤانساً ويصير العدو موالياً وقد يصير للصهر بين الاثنين ألفة بين القبيلتين وموالة بين العشيرتين. حكى عن خالد^(١) بن يزيد بن معاوية أنه قال: كان أبغض خلق الله عز

(١) خالد بن يزيد: كان خطيباً شاعراً، وفصيحاً، وجيد الرأي كثير الأدب، وكان أول من ترجم كتب النجوم والطب والكيمياء توفي سنة ٨٥.

وجل إليّ آل الزبير حتى تزوجت منهم رملة فصاروا أحب خلق الله عز وجل إليّ وفيها يقول:

أحب بني العوام طراً لأجلها ومن أجلها أحببت أخوالها كلها
فإن تسلمي نسلم وإن تنصري يخطّ رجال بين أعينهم صلباً
ولذلك قيل: المرء على دين زوجته لما يستنزه الميل إليها من المتابعة
ويجتذبه الحب لها من الموافقة فلا يجد إلى المخالفة سبيلاً ولا إلى المباينة
والمشاقة طريقاً. وإذا كانت المصاهرة للنكاح بهذه المنزلة من الألفة فقد
ينبغي لعقدها أحد خمسة أوجه وهي: المال والجمال والدين والألفة
والتعفف. وقد روى سعيد بن أبي سعيد عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه
قال: «تنكح^(١) المرأة لأربع لمالها ولجمالها ولحسبها ولدينها فعليك بذاب
الدين تربت^(٢) يدك» فإن كان عقد النكاح لأجل المال وكان أقوى الدواعي
إليه فالمال إذن هو المنكوح فإن اقترن ذلك أحد الأسباب الباعثة على
الإئتلاف جاز أن يلبث العقد وتدوم الألفة فإن تجرّد عن غيره من الأسباب
وعرى عما سواه من المواد فأخلق بالعقد أن ينحل وبالألفة أن تزول ولا
سيما إذا غلب الطمع وقل الوفاء لأن المال إن وصل إليه فقد ينقضي سبب
الألفة به فقد قيل: من ودّك لشيء ولى من انقضائه وإن أعوز الوصول إليه
وتعذرت القدرة عليه أعقب ذلك استهانة الآيس بعد شدّة الأمل فحدثت منه
عداوة الخائب بعد استحكام الطمع فصارت الوصلة فرقة والألفة عداوة وقد
قيل: من ودّك طمعاً فيك أبغضك إذا آيس منك. وقال عبد الحميد: من
عظمك لإكثارك استقلك عند إقلالك فإن كان العقد رغبة في الجمال فذلك
ادوم للألفة من المال لأن الجمال صفة لازمة والمال صفة زائلة. ولذلك
قيل: حسن الصورة أول السعادة. وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «أعظم
النساء بركة أحسنهن وجهاً وأقلهن مهراً» فإن سلمت الحال من الإدلال
المفضي إلى الملل استدامت الألفة واستحكمت الوصلة وقد كانوا يكرهون
الجمال البارع إما لما يحدث عنه من شدّة الإدلال. قد قيل: من بسطه

(١) تنكح المرأة: الحديث في البخاري.

(٢) تربت يدك: أي افتقرنا إن خالفت ما أمرتك به.

الإدلال قبضه الإذلال وإما لما يخاف من محنة الرغبة وبلوى المنازعة وقد حكى أن رجلاً شاور حكيماً في التزوّج فقال له: افعل وإياك والجمال البارع فإنه مرعى أنيق^(١) فقال الرجل: وكيف ذلك؟ قال: كما قال الأوّل:

ولن تصادف مرعى ممرعاً^(٢) أبداً إلّا وجدت به آثار متجع
وإما لما يخافه اللبيب من شدّة الصبوة^(٣) ويتوقاه الحازم من سوء عواقب الفتنة وقد قال بعض الحكماء: إياك ومخالطة النساء فإن لحظ المرأة سهم ولفظها سم. ورأى بعض الحكماء صياداً يكلم امرأة فقال: يا صياد إحذر أن تصاد. وقال سليمان بن داود عليهما السلام لابنه: امش وراء الأسد ولا تمش وراء المرأة. وسمع عمر بن الخطاب رضي الله عنه امرأة تقول هذا البيت:

إن النساء رياحين خلقن لكم وكلكم يشتهي شم الرياحين
فقال رضي الله عنه:

إن النساء شياطين خلقن لنا نعوذ بالله من شرّ الشياطين
وإن كان العقد رغبة في الدين فهو أوثق العقود حالاً وأدومها ألفة وأمدّها بدأ وعاقبة لأن طالب الدين متبع له ومن اتبع الدين إنقاد له فاستقامت له حاله وأمن زلله ولذلك قال النبي ﷺ فاطفر بذات الدين تربت يداك وفيه تأويلان: أحدهما تربت يداك إن لم تظفر بذات الدين. والثاني أنها كلمة تذكر للمبالغة ولا يراد بها سوء كقولهم: ما أشجع قاتله الله. وإن كان العقد رغبة في الألفة فهذا يكون على أحد وجهين إما أن يقصد به المكاثرة باجتماع الفريقين والمظافرة بتناصر الفئتين وإما أن يقصد به تألف أعداء متسلطين إستكفاء لعاديتهم وتسكيناً لصولتهم وهذان الوجهان قد يكونان في الأمائل وأهل المنازل وداعي الوجه الأوّل هو الرغبة وداعي الوجه

(١) أنيق: حسن معجب.

(٢) ممرع: مكلىء، أي كثير الكلا أو العشب.

(٣) الصبوة: العشق.

الثاني هو الرهبة وهما سببان في غير المتناكحين فإن استددام السبب دامت الألفة وإن زال السبب بزوال الرغبة والرهبة خيف زوال الألفة إلا أن ينضم إليها أحد الأسباب الباعثة عليها والمقرّبة لها. وإن كان العقد رغبة في التعفف فهو الوجه الحقيقي المبتغى بعقد النكاح وما سوى ذلك فأسباب معلقة عليه ومضافة إليه. وروى عطية بن بشر عن عكاف بن رفاعة الهلالي أن النبي ﷺ قال له يا عكاف: ألك زوجة؟ قال: لا قال: فأنت إذن من إخوان الشياطين: إن كنت من رهبان النصارى فالحق بهم وإن كنت منا فمن سنتنا النكاح فكان هذا القول منه حثاً على التعفف عن الفساد وباعثاً على التكاثر بالأولاد. ولهذا المعنى كان النبي ﷺ يقول للفقّال^(١) من غزوهم: «إذا أفضيتم إلى نسائكم فالكيس الكيس» يعنى في طلب الولد: فلزم حينئذ في عقد التعفف تحكيم الاختيار فيه والتماس الأدوم من دواعيه وهي نوعان نوع يمكن حصر شروطه ونوع لا يمكن لاختلاف أسبابه وتغاير شروطه. فأما الشروط المحصورة فيه فثلاثة شروط: أحدها الدين المفضي إلى الستر والعفاف والمؤدي إلى القناعة والكفاف. قال أبو هريرة رضي الله عنه لا يفرك^(٢) مؤمن مؤمنة إن كره منها خلقاً رضي منها خلقاً. وخطب رجل من عبد الله بن عباس رضي الله عنهما يتيمة كانت عنده فقال: لا أرضاها لك قال: ولم وفي دارك نشأت؟ قال: إنها تتشرف قال: لا أبالي فقال: الآن أرضاك لها. وفي معنى هذا قول بعض العلماء: من رضي بصحبة من لا خير فيه لم يرض بصحبته من فيه خير. والشرط الثاني العقل الباعث على حسن التقدير والأمر بصواب التدبير. فقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «العقل حيث كان ألوف ومألوف» وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «عليكم بالودود الولود ولا تنكحوا الحمقاء فإن صحبتها بلاء وولدها ضياع» والشرط الثالث الأكفاء الذين يتنفي بهم العار ويحصل بهم الإستكثار. فقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «تخيروا لنطفكم ولا تضعوها إلا في الأكفاء» وروي أن أكثم ابن صيفي قال لولده: يا بني لا يحملكم جمال النساء عن صراحة النسب فإن المناكح الكريمة مدرجة للشرف. وقال أبو الأسود الدؤلي لبنيه: قد

(١) للفقّال: للراجعين من الغزو.

(٢) لا يفرك: لا ييغض.

أحسنتم إليكم صغاراً وكباراً وقبل أن تولدوا قالوا: وكيف أحسنتم إلينا قبل أن نولد؟ قال: اخترت لكم من الأمهات من لا تسبون بها. وأنشد الرياشي:

فأول إحساني إليكم تخيري لماجدة الأعراق باد عفافها
ثم إن السبب الباعث على التزوج لا يخلو من ثلاثة أحوال: (أحدها)
أن يكون لطلب الولد فقد روي عن النبي ﷺ أنه قال «عليكم بالأبكار فإنهن
أعذب» (١) أفواهاً وأنتق أرحاماً وأرضى باليسير» ومعنى قوله أنتق أرحاماً أي
أكثر أولاداً. وقال معاذ بن جبل رضي الله عنه: عليكم بالأبكار فإنهن أكثر
حباً وأقل خناً وهذه الحال هي أولى الأحوال الثلاث لأن النكاح موضوع لها
والشرع وارد بها. وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «سوداء ولود خير من
حسنة عاقرة» (٢) والعرب تقول في أمثالها: من لا يلد لا ولد (٣). وقد كانوا
يختارون لمثل هذه الحال نكاح البعداء الأجانب ويرون أن ذلك أنجب للولد
وأبهي للخلقة ويجتنبون نكاح الأهل والأقارب ويرونه مضرّاً بخلق الولد بعيداً
من نجاته. روي عن النبي ﷺ أنه قال: اغتربوا ولا تَضُؤوا (٤) وروي عن
عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: يا بني السائب قد ضريتكم فأنكحوا
في الغرائب. وقال الشاعر:

تجاوزت بنت العم وهي حبيبة مخافة أن يضوي عليّ سليلي (٥)
وكانت حكماء المتقدمين يرون أن أنجب الأولاد خلقاً وخلقاً من كان
سن أمه بين العشرين والثلاثين وسن أبيه ما بين الثلاثين والخمسين.
والعرب تقول: إن ولد الغيري (٦) لا ينجب وإن أنجب النساء

(١) اعذب أفواهاً: أي أحلى كلاماً لعدم تعودهن فحش الكلام.

(٢) عاقرة: لا تلد.

(٣) لا ولد: أي كأنه لم يكن مولوداً.

(٤) لا تَضُؤوا: من أضوت المرأة جاءت بولد ضاو أي مهزول.

(٥) سليلي: أي ولدي المسلول عنها.

(٦) الغيري: مؤنث غيران كسكران وسكرى يقال: غار الرجل على امرأته، وغارت المرأة على زوجها إذا خافت عليه من الحمية. والمراد الشرهة الرغبة إلى الفحولة أشد الرغبة، ولا تشبه منها أبداً، لغلبتها على زوجها.

الفروك (١)، وقالوا: إن الرجل إذا أكره المرأة وهي مذعورة (٢) ثم أذكرت (٣) أنجبت (٤) (والحالة الثانية) أن يكون المقصود به القيام بما يتولاه النساء من تدبير المنازل فهذا وإن كان مختصاً بمعاناة النساء فليس بالزوم حالتي الزوجات لأنه قد يجوز أن يعانية غيرهن من النساء ولذلك قيل: المرأة ريجانة وليست بقهرمانة (٥) وليس في هذا القصد تأثير في دين ولا قدح في مروءة والأحمد في مثل هذا التماس ذوات الأسنان والحنكة (٦) ممن قد خبرن تدبير المنازل وعرفن عادات الرجال فإنهن أقوم بهذه الحال (والحالة الثالثة) أن يكون المقصود به الإستماع وهي أذم الأحوال الثلاث وأوهنها للمروءة لأنه ينقاد فيه لأخلاقه البهيمية ويتابع شوته الذميمة. وقد قال الحرث بن النضر الأزدي: سرّ النكاح نكاح الغلبة (٧) إلا أن يفعل ذلك لكسر الشهوة وقهرها بالاضعاف لها عند الغلبة أو تسكين النفس عند المنازعة حتى لا تطمح بذات عين لريبة ولا تنازعه نفس إلى فجور ولا يلحقه في ذلك ذم ولا يناله وصم (٨) وهو بالحمد أجدر وبالثناء أحق ولو تنزه في مثل هذه الحال عن استبدال الحرائر إلى الأماء كان أكمل لمروءته وأبلغ في صيافته. وهذه الحال تقف على شهوات النفوس لا يمكن أن يرجح فيها أولى الأمور وهي أخطر الأحوال بالمنكوحه لأن الشهوات غايات متناهية يزول بزوالها ما كان متعلقاً بها فتصير الشهوة في الابتداء كراهية في الانتهاء ولذلك كرهت

(١) الفروك: هي البغيضة لزوجها، أي لكراحتها للفحولة وهذه هي مادة العفة وسببها الطبيعي، كما أن الشره مادة الفجور.

(٢) مذعورة: أي نافرة، ومتهورة من لب الغيظ والإكراه، ولم تسكن غيظها بعد.

(٣) أذكرت: أي على تلك الحال، وهو البناء للمفعول، أي جومعت.

(٤) أنجبت: لأن شهوتها لا تزيد على شهوته حينئذٍ وأيضاً يسكن غضبها بميل الزوج إليها،

وتطيب قلبها فتتعلق به وهي كاظمة لغيظها. وحالة الكظم تحرك القوى العقلية، وتوقظ

القوى الفكرية، وتزيد الجميلة جمالاً، فيتعلق بها الرجل أكثر، وذلك مادة النجاسة.

(٥) القهرمانة: المرأة المختصة بإدارة شؤون المنزل.

(٦) والحنكة: على وزن غرفة: من استحكم فكره وعقله بالتجارب.

(٧) الغلبة: بضم فسكون: هو غلبة الشهوة الجماعية، والاستلذاذ بها.

(٨) وصم: أي مرض، والمراد بلحقه ذم في الآخرة.

العرب البنات ووأدتهن إشفاقاً عليهن وحمية لهن من أن يتنزلهن اللثام بهذه الحال وكان من تحوُّب^(١) من قتل البنات لركة ومحبة كان موتهن أحب إليه وأثر عنده. ولما خطب إلى عقيل بن علفة ابنته الجرباء قال:

إني وإن سيق إليّ المهر * الف وعبدان وذود عشر * أحب أصهار إليّ القبر
وقال عبد الله بن طاهر:

لكل أبي بنت يراعي شؤونها ثلاثة أصهار إذا حمد الصهر
فبعل يراعيها وخدر يكتنها وقبر يواربها وأفضلها القبر
(فصل) وأما المواخاة بالموّدة وهي الرابع من أسباب الألفة فلأنها تكسب بصادق الميل إخلاصاً ومصافاة وتحديث بخلوص المصافاة وفاء ومحاماه وهذا أعلى مراتب الألفة ولذلك آخى رسول الله ﷺ بين أصحابه لتزيد ألفتهم ويقوى تضافرهم وتناصرهم. وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «عليكم بإخوان الصدق فإنهم زينة في الرخاء وعصمة في البلاء» وروى أبو الزبير عن سهل بن سعد أن النبي ﷺ قال «المرء كثير بأخيه ولا خير في صحبة من لا يرى لك من الحق مثل ما ترى له» وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لقاء الإخوان جلاء الأحزان. وقال خالد بن صفوان: إن أعجز الناس من قصر في طلب الاخوان وأعجز منه من ضيع من ظفر به منهم. وقال عليّ كرم الله وجهه لابنه الحسن يا بنيّ الغريب من ليس له حبيب. وقال ابن المعتز: من اتخذ إخواناً كانوا له أعواناً. وقال بعض الأدباء: أفضل الذخائر أخ وفيّ. وقال بعض البلغاء: صديق مساعد عضد وساعد. وقال بعض الشعراء:

هموم رجال في أمور كثيرة وهمي من الدنيا صديق مساعد
نكون كروح بين جسمين قسمت فجسماهما جسمان والروح واحد
وقيل: إنما سمي الصديق صديقاً لصدقه والعدوّ عدوّاً لعدوه عليك.
وقال ثعلب: إنما سمي الخليلاً خليلاً لأن محبته تتخلل القلب فلا تدع فيه

(١) تحوُّب: اجتنب الحوب والإثم، فبناء تفعل للسلب كما تأثم.

خللاً إلا ملأته . وأنشد الرياشي قول بشار:

وقد تخللت مسلك الروح مني وبه سمي الخليل خليلاً
والمواخاة في الناس قد تكون على وجهين: أحدهما أخوة مكتسبة
بالإتفاق الجاري مجرى الاضطرار. والثانية مكتسبة بالقصد والاختيار. فأما
المكتسبة بالإتفاق فهي أوكد حالاً لأنها تنعقد عن أسباب تعود إليها
والمكتسبة بالقصد تعقد لها أسباب تنقاد إليها وما كان جارياً بالطبع فهو ألزم
مما هو حادث بالقصد ونحن نبدأ بالوجه الأول المكتسب بالإتفاق ثم نعقبه
بالوجه الثاني المكتسب بالقصد. أما المكتسب بالإتفاق فله أسباب نبتدىء
بها ثم ننقل في غاية أحواله المحدودة إلى سبع مراتب ربما استكملتهن
وربما وقفت على بعضهن ولكل مرتبة من ذلك حكم خاص وسبب موجب.
وقال الشاعر:

ما هوى إلا له سبب يتدي منه وينشعب

فأول أسباب الإخاء التجانس في حال يجتمعان فيها ويأتلفان بها فإن
قوي التجانس قوي الإئتلاف به وإن ضعف كان ضعيفاً ما لم تحدث علة
أخرى يقوي بها الإئتلاف وإنما كان كذلك لأن الإئتلاف بالتشاكل والتشاكل
بالتجانس فإذا عدم التجانس من وجه انتفى التشاكل من كل وجه ومع انتفاء
التشاكل يعدم الإئتلاف فثبت أن التجانس وأن تنوع أصل الإخاء وقاعدة
الإئتلاف. وقد روى يحيى بن سعيد عن عمر عن عائشة رضي الله عنها عن
النبي ﷺ أنه قال: «الأرواح^(١) جنود مجندة^(٢) فما تعارف^(٣) منها ائتلف وما
تناكر منها اختلف» وهذا واضح وهي بالتجانس متعارفة ويفقده متناكرة. وقيل
في منشور الحكم: الأضداد لا تتفق والأشكال لا تفرق. وقال بعض
الحكماء: بحسن تشاكل الإخوان يلبث^(٤) التواصل. ول بعضهم:

(١) الأرواح جنود... : رواه البخاري بهذا السند، ومسلم عن أبي هريرة، رضي الله عنه.

(٢) جنود مجندة: جموع مجمعة، وأنواع مختلفة.

(٣) فما تعارف منها: أي توافق في الصفات، وتناسب في الأخلاق.

(٤) يلبث: يبقى.

فلا تحقر نفسي وأنت خليلها فكل امرئ يصبو إلى من يشاكل
وقال آخر:

فقلت: أخي قالوا: أخ من قرابة فقلت لهم: إن الشكول أقارب
نسيبي في رأيي وعزمي وهمتي وإن فرقتنا في الأصول المناسب
ثم يحدث بالجناس الموصلة بين المتجانسين وهي المرتبة الثانية من
مراتب الإخاء وسبب الموصلة بينهما ووجود الإتفاق منهما فصارت الموصلة
نتيجة التجانس والسبب فيه وجود الإتفاق لأن عدم الإتفاق منفر. وقد قال
الشاعر:

الناس إن وافقتهم عذبوا^(١) أولا فإن جناهم مر
كم من رياض لا أنيس بها تركت لأن طريقها وعر
ثم يحدث عن الموصلة رتبة ثالثة وسببها الإنسباط ثم يحدث عن
المؤانسة رتبة رابعة وهي المصافاة وسببها خلوص النية ورتبة خامسة وهي
المودة وسببها الثقة وهذه الرتبة هي أدنى الكمال في أحوال الإخاء وما قبلها
أسباب تعود إليها فإن اقترن بها المعاضدة فهي الصداقة ثم يحدث عن
المودة رتبة سادسة وهي المحبة وسببها الإستحسان فإن كان الإستحسان
لفضائل النفس حدثت رتبة سابعة وهي الاعظام وإن كان الإستحسان للصورة
والحركات حدثت رتبة ثامنة وهي العشق وسببه الطمع. وقد قال المأمون
رحمه الله تعالى:

أول العشق مزاح وولع ثم يزداد إذا زاد الطمع
كل من يهوى وإن عالت^(٢) به رتبة الملك لمن يهوى تبع
وهذه الرتبة آخر الرتب المحدودة وليس لما جاوزها رتبة مقدرة ولا
حالة محدودة لأنها قد تؤدي إلى مازجة النفوس وإن تميزت ذاتها وتفضي
إلى مخالطة الأرواح وإن تفرقت أجسادها وهذه حالة لا يمكن حصر غايتها

(١) عذبوا: أي صاروا عذبا طيباً مستساغاً من العذوبة.

(٢) عالت به: افتخرت وتزينت به لفضائله في نفسه.

ولا الوقوف عند نهايتها. وقد قال الكندي: الصديق إنسان هو أنت إلا أنه غيرك. ومثل هذا القول المروى عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه حين أقطع طلحة بن عبد الله أرضاً وكتب له بها كتاباً وأشهد فيه ناساً منهم عمر ابن الخطاب رضي الله عنه فأتى طلحة بكتابه إلى عمر ليختمه فامتنع عليه فرجع طلحة مغضباً إلى أبي بكر رضي الله عنه وقال: والله ما أدري أنت الخليفة أم عمر؟ فقال: بل عمر لكنه أنا. وأما المكتسبة بالقصد فلا بد لها من داع يدعو إليها وباعث يبعث عليها وقد يكون الداعي إليها من وجهين رغبة وفاقة فأما الرغبة فهي أن يظهر من الإنسان فضائل تبعث على إخائه ويتوسم بجميل يدعو إلى اصطفائه وهذه الحالة أقوى من التي بعدها لظهور الصفات المطلوبة من غير تكلف لطلبها وإنما يخاف عليها من الإغترار بالتصنع لها فليس كل من أظهر الخير كان من أهله ولا كل من تخلق بالحسنى كانت من طبعه والمتكلف للشيء مناف له إلا أن يدوم عليه مستحسناً له في العقل أو متديناً به في الشرع فيصير متطبعاً به لا مطبوعاً عليه لأنه قد تقدّم من كلام الحكماء: ليس في الطبع أن يكون ما ليس في التطبع. ثم نقول من المتعذر أن تكون أخلاق الفاضل كاملة بالطبع وإنما الأغلب أن يكون بعض فضائله بالطبع وبعضها بالتطبع الجاري بالعادة مجرى الطبع حتى يصير ما تطبع به في العادة أغلب عليه مما كان مطبوعاً عليه إذا خالف العادة ولذلك قيل: العادة طبع ثان. وقال ابن الرومي رحمه الله:

وأعلم بأن الناس من طينة يصدق في الثلب لها الثالب^(١)
لولا علاج الناس أخلاقهم إذن لفاح الحمأ^(٢) اللازب

وأما الفاقة فهي أن يفتقر الإنسان لوحشة انفراده ومهانة وحدته إلى اصطفاء من يأنس بمواخاته ويثق بنصرتة ومولاته. وقد قالت الحكماء: من لم يرغب في ثلاث بلي بست: من لم يرغب في الإخوان بلي بالعداوة

(١) الثالب: الذي يذكر المثالب أي المعاييب، ويعير بها.
(٢) الحمأ: اللازب: الطين الأسود المتزن، والمراد الأخلاق الفاسدة.

والخذلان. ومن لم يرغب في السلامة بلى بالشدائد والإمتهان. ومن لم يرغب في المعروف بلى بالندامة والخسران. ولعمري ان إخوان الصدق من أنفس الذخائر وأفضل العدد لأنهم سهماء النفوس وأولياء النوائب. وقد قالت الحكماء: رب صديق أودّ من شقيق. وقيل لمعاوية: أيما أحب إليك؟ قال: صديق يحبيني إلى الناس. وقال ابن المعتز: القريب بعداوته بعيد والبعيد بمودّته قريب. وقال الشاعر:

لمودّة ممن يحبك مخلصاً خير من الرحم القريب الكاشح
وقال آخر:

يخونك ذو القربى مراراً وربما وفي لك عند العهد من لا تناسبه
فإذا عزم على اصطفاء الإخوان سبر^(١) أحوالهم قبل إخائهم وكشف
عن أخلاقهم قبل اصطفتائهم لما تقدّم من قول الحكماء: اسبر تخبر ولا
تبعثه الوحدة على الإقدام قبل الخبرة ولا حسن الظن على الإغترار بالتصنع
فإن الملق مصائد العقول والنفاق تدليس الفطن وهما سجيّتا المتصنع وليس
فيمن يكون النفاق والملق بعض سجاياه خير يرجى ولا صلاح يؤمل ولأجل
ذلك قالت الحكماء: أعرف الرجل من فعله لا من كلامه وأعرف محبته من
عينه لا من لسانه. وقال خالد بن صفوان: إنما نفقت عند إخواني لأنني لم
استعمل معهم النفاق ولا قصرت بهم عن الإستحقاق. وقال حماد^(٢):

كم من أخ لك ليس تنكره ما دمت في دنياك في سر
متصنع لك في مودّته يلقاك بالترحيب والبشر
فإذا عدا والدهر ذو غير دهرٌ عليك عدا مع الدهر
فارفض بإجمال مودّة من يقلّي المقل ويعشق المثرى
وعليك من حالاه واحدة في العسر إما كنت واليسر
على أن الإنسان موسوم بسيماء من قارب ومنسوب إليه أفاعيل من

(١) سبر: والسبر الاختبار، يقال: سبر الجرح والبرء وغيره. إذا امتحن عذره.

(٢) حماد : على وزن جعفر، كان ماجناً خليعاً طريفاً متهماً في دينه بالزندقة.

صاحب. قال رسول الله ﷺ: «المرء مع من أحب» وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: الصاحب مناسب. وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: ما من شيء أدل على شيء ولا الدخان على النار من الصاحب على الصاحب. وقال بعض الحكماء؛ أعرف أخاك بأخيه قبلك. وقال بعض الأدباء: يظن بالمرء ما يظن بقرينه. وقال عدي بن (١) زيد:

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه فكل قرين بالمقارن يقتدي
إذا كنت في قوم فصاحب خيارهم ولا تصحب الأردى فتردى مع الردي
فلزم من هذا الوجه أيضاً أن يتحرز من دخلاء أهل السوء ويجانب
أهل الريب ليكون موفور العرض سليم الغيب فلا يلام بملامة غيره ولهذا
قيل: التثبت والإرتياء ومداومة الإختبار والإبتلاء متعذر بل مفقود. وقد ضرب
ذو الرمة مثلاً بالماء فيمن حسن ظاهره وخبت باطنه فقال:

ألم تران الماء يخبت طعمه وإن كان لون الماء أبيض صافيا
ونظر بعض الحكماء إلى رجل سوء حسن الوجه فقال: أما البيت
فحسن وأما الساكن فرديء فأخذ جحظة هذا المعنى فقال:

رب ما أبين التباين فيه منزل عامر وعقل خراب
وأنشدني بعض أهل العلم:

لا تركنن إلى ذي منظر حسن فرب رائعة قد ساء مخبرها
ما كل أصفر دينار لصفرتة صفر العقارب أرداها وأنكرها
ثم تقدّم من قول الحكماء: من لم يقدّم الإمتحان قبل الثقة والثقة
قبل الأنس أثمرت مودّته ندماً. وقال بعض البلغاء: مصارمة قبل اختبار
أفضل من مؤاخاة على اغترار. وقال بعض الأدباء: لا تثق بالصديق قبل
الخبرة ولا تقع بالعدوّ قبل القدرة. وقال بعض الشعراء:

لا تحمدنّ امرأ حتى تجربّه ولا تذرّنه من غير تجريب
فحمدك المرء ما لم تبّله خطأ وذمّك المرء بعد الحمد تكذيب

(١) عدي بن زيد: كان من خواص الوليد بن عبد الملك.

فإذن قد لزم من هذين الوجهين سير الإخوان قبل إختائهم وخبرة أخلاقهم قبل اصطفتائهم فالخصال المعتبرة في إختائهم بعد المجاتسة التي هي أصل الإتفاق أربع خصال.

(فالخصلة الأولى) عقل موفور يهدي إلى مرشد الأمور فإن الحق لا تثبت معه مودة ولا تدوم لصاحبه استقامة. وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «البذاء لؤم وصحبة الأحقق شؤم» وقال بعض الحكماء: عداوة العاقل أقل ضرراً من مودة لأن الأحقق ربما ضر وهو يقدر أن ينفع والعاقل لا يتجاوز الحد في مضرتة فمضرتة لها حد يقف عليه العقل ومضرتة الجاهل ليست بذات حد والمحدود أقل ضرراً مما هو غير محدود. وقال المنصور للمسيب ابن زهير: ما مادة العقل فقال: مجالسة العقلاء. وقال بعض البلغاء: من الجهل صحبة ذوي الجهل ومن المحال^(١) مجادلة ذوي المحال. وقال بعض الأدباء: من أشار عليك باصطناع جاهل أو عاجز لم يخل أن يكون صديقاً جاهلاً أو عدواً عاقلاً لأنه يشير بما يضرك ويحتال فيما يضع منك. وقال بعض الشعراء:

إذا ما كنت متخذاً خليلاً فلا تثقن بكل أخى إخاء
فإن خُرت بين الناس فالصق بأهل العقل منهم والحياء
فإن العقل ليس له إذا ما تفاضلت الفضائل من كفاء

(والخصلة الثانية) الدين الواقف بصاحبه على الخيرات فإن تارك الدين عدو لنفسه فكيف يرجى منه مودة غيره. وقال بعض الحكماء: إصطف من الإخوان ذا الدين والحسب والرأي والأدب فإنه رده^(٢) لك عند حاجتك ويد عند نائبتك وأنس عند وحشتك وزين عند عافيتك. وقال حسان ابن ثابت رضي الله عنه:

أخلاء الرخاء هم كثير ولكن في البلاء هم قليل

(١) المحال: بكسر الميم هو الهلاك والعذاب.

(٢) رده: أي عون وناصر.

فلا يغرك خُلة مَنْ تُوَاحِي فما لك عند نائبة خليل
وكل أخ يقول أنا وفي ولكن ليس يفعل ما يقول
سوى خل له حسب ودين فذاك لما يقول هو الفعول
وقال آخر

من لم تكن في الله خُلتَه فخليله منه على خطر
(والخصلة الثالثة) أن يكون محمود الأخلاق مرضيَّ الفعَال مؤثراً
للخير أمراً به كارهاً للشر ناهياً عنه فإن مودةَ الشرير تكسب العداة وتفسد
الأخلاق ولا خير في مودةَ تجلب عداوة وتورث مذمة وملامة فإن المتبوع
تابع صاحبه. وقال عبد الله بن المعتز: إخوان الشر كشجر الناريح يحرق
بعضه بعضاً. وقال بعض الحكماء: مخالطة الأشرار على خطر والصبر على
صحبتهم كركوب البحر الذي من سلم منه ببذنه من التلف فيه لم يسلم بقلبه
من الحذر منه. وقال بعض البلغاء: صحبة الأشرار تورث سوء الظن
وبالأخيار. وقال بعض البلغاء: من خير الإختيار صحبة الأخيار ومن شر
الإختيار صحبة الأشرار. وقال بعض الشعراء:

مجالسة السفه سَفَاهُ رأيٍ ومن عقلٍ مجالسة الحكيم
فإنك والقرين معاً سواء كما قدَّ الأديم من الأديم^(١)

(الخصلة الرابعة) أن يكون من كل واحد منهما ميل إلى صاحبه ورغبة
في مؤاخاته فإن ذلك أوكد لحال المؤاخاة وأمد لأسباب المصافاة إذ ليس
كل مطلوب إليه طالب ولا كل مرغوب إليه راغب ومن طلب مودة ممتنع
عليه ورغب إلى زاهد فيه كان معني^(٢) خائباً كما قال البحراني:

وطلبت منك مودة لم أعطيها إن المُعني طالب لا يظفر
وقال العباس بن^(٣) الأحنف:

(١) قد الأديم من الأديم: أي كما قطع أحد النعلين على مثال الآخر.

(٢) مُعني: أي متعباً.

(٣) العباس بن الأحنف: أبو الفضل الحنفي، كان لطيف الطبع، وخفيف الروح، رقيق =

فإن كان لا يدنيك إلا شفاعة فلا خير في ودّ يكون بشافع
واقسم ما تركي عتابك عن قلبي ولكن لعلمي أنه غير نافع
ولاني إذا لم ألزم الصبر طائعاً فلا بدّ منه مكرهاً غير طائع

فإذا استكملت هذه الخصال في إنسان وجب إخاؤه وتعين اصطفاؤه وبحسب وفورها فيه يجب أن يكون الميل إليه والثقة به وبحسب ما يرى من غلبة إحداها عليه يجعل مستعملاً في الخلق الغالب عليه فإن الإخوان على طبقات مختلفة وأنحاء متشعبة ولكل واحدة منهم حال يختص بها في المشاركة وثلمة^(١) يسدها في الموازنة والمظاهرة وليس تتفق أحوال جميعهم على حدّ واحد لأن التباين في الناس غالب واختلافهم في الشيم ظاهر. وقال بعض الحكماء: الرجال كالشجر شرا به واحد وثمره مختلف فأخذ هذا المعنى منصور بن إسماعيل فقال:

بنو آدم كالنبت ونبت الأرض ألوان
فمنهم شجر الصند ل والكافور والبان
ومنهم شجر أفض ل ما يحمل قطران

ومن رام إخواناً تتفق أحوال جميعهم رام متعذراً بل لو اتفقوا لكان ربما وقع به خلل في نظامه إذ ليس الواحد من الإخوان يمكن الإستعانة به في كل حال ولا المجبولون على الخلق الواحد يمكن أن يتصرفوا في جميع الأعمال وإنما بالاختلاف يكون الائتلاف. وقد قال بعض الحكماء: ليس بلبيب من لم يعاشر بالمعروف من لم يجد من معاشرته بدأ. وقال المأمون: الإخوان ثلاث طبقات: طبقة كالغذاء لا ستغنى عنه وطبقة كالدواء يحتاج إليه أحياناً وطبقة كالداء لا يحتاج إليه أبداً. ولعمري إن الناس على ما وصفهم ولكن ليس من كان منهم كالداء من الإخوان المعدودين بل هم من الأعداء المحذورين وإنما يداجون المودة استكفافاً لشُرهم وتحرزاً من

= الحاشية، من الشمائل، جميل المنظر، عذب الألفاظ كثير النوادر. وكان إذا سمع الشعر الجيد ترغ له واستخفه الطرب، وجميع أشعاره في الغزل، وكانت وفاته سنة ١٩٣.

(١) ثلمة: خُرْجة. يقال: موت فلان ثلمة في الإسلام لا تسد.

مكاشفتهم فدخلوا في عداد الإخوان بالمظاهرة والمساترة وفي الأعداء عند المكاشفة والمجاهرة. قال بعض الحكماء: مثل العدو الضاحك إليك كالخنظلة الخضراء أوراقها القاتل مذاقها. وقد قيل في منشور الحكم: لا تغتر بمقاربة العدو فإنه كالماء الذي إن أطيل إسخانه بالنار لم يمنع من إطفائها وقال زيد بن الحكم الثقفي:

تكاشرنني ضحكاً كأنك ناصح وعينك تبدي أن صدرك لي دوي^(١)
لسانك معسول ونفسك علقم وشرك مبسوط وخيرك ملتوي
فليت كفافاً كان خيرك كله وشرك عني ما ارتوى الماء مرتوي

فإذا خرج من كان كالداء من عداد الإخوان فالإخوان هم الصنفان الآخران من كان منهم كالغذاء أو كالدواء لأن الغذاء قوام للنفس وحياتها والدواء علاجها وصلاحتها وأفضلها من كان كالغذاء لأن الحاجة إليه أعم. وإذا تميز الإخوان وجب أن ينزل كل منهم حيث نزلت به أحواله إليه وأستقرت خصاله وخلاله عليه فمن قويت أسبابه قويت الثقة به وبحسب الثقة به يكون الركون إليه والتعويل عليه. وقال الشاعر:

ما أنت بالسبب الضعيف وإنما نجح الأمور بقوة الأسباب
فاليوم حاجتنا إليك وإنما يدعى الطبيب لشدة الأوصاب

وقد اختلفت مذاهب الناس في اتخاذ الإخوان. فمنهم من يرى أن الإستكثار منهم أولى ليكونوا أقوى منعة ويدا وأوفر تحبباً وتودداً وأكثر تعاوناً وتفقداً. وقيل لبعض الحكماء: ما العيش قال: إقبال الزمان وعز السلطان وكثرة الإخوان. وقيل: حلية المرء كثرة إخوانه. ومنهم من يرى أن الإقلال منهم أولى لأنه أخف أثقلاً وكلفاً وأقل تنازعاً وخلفاً. وقال الإسكندر: المستكثر من الإخوان من غير اختيار كالمستوفر من الحجارة والمقل من الإخوان المتخير لهم كالذي يتخير الجواهر. وقال عمر بن العاص: من كثر إخوانه كثر غمائه. وقال إبراهيم بن^(٢) العباس: مثل الإخوان كالنار قليلها

(١) دوي: أي مريع وعدو.

(٢) إبراهيم بن العباس: الصوفي الأديب الكاتب الشاعر.

متاع وكثيرها بوار. ولقد أحسن ابن الرومي في هذا المعنى ونبه على العلة حيث يقول:

عدوك من صديقك مستفاد فلا تستكثر من الصحاب
فإن الداء أكثر ما تراه يكون من الطعام أو الشراب
ودع عنك الكثير فكم كثير يعاف وكم قليل مستطاب
فما للجاج الملاح بمرويات وتلقى الري في النطف العذاب

وقال بعض البلغاء: ليكن غرضك في اتخاذ الإخوان واصطناع النصحاء تكثير العدة^(١) لا تكثير العدة^(٢) وتحصيل النفع لا تحصيل الجمع فواخذ يحصل به المراد خير من ألف تُكثّر الأعداد.

وإذا كان التجانس والتشاكل من قواعد الأخوة وأسباب المودة كان وفور العقل وظهور الفضل يقتضي من حال صاحبه قلة إخوانه لأنه يروم مثله ويطلب شكله وأمثاله من ذوي العقل والفضل أقل من أضداده من ذوي الحمق والنقص لأن الخيار في كل جنس هو الأقل فلذلك قل وفور العقل والفضل. وقد قال الله تعالى: ﴿إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون﴾ فقل بهذا التحليل إخوان أهل الفضل لقلتهم وكثر إخوان ذوي النقص والجهل لكثرتهم. وقد قال في ذلك الشاعر:

لكل امرئ شكل من الناس مثله فأكثرهم شكلاً أقلهم عقلاً
وكل أناس ألفون لشكلهم فأكثرهم عقلاً أقلهم شكلاً
لأن: كثير العقل لست بواجد له في طريق حين يسلكه مثلاً
وكل سفيه طائش إن فقدته وجدت له في كل ناحية عدلاً^(٣)

وإذا كان الأمر على ما وصفنا فقد تنقسم أحوال من دخل في عدد الإخوان أربعة أقسام: منهم من يغيث ويستعين ومنهم من لا يعين ولا

(١) العدة: بضم العين: الأبهة.

(٢) العدة: المعداد.

(٣) العدل: بكسر فسكون: المثل والنظير.

يستعين ومنهم من يستعين ولا يعين ومنهم من يعين ولا يستعين * فأما المعين والمستعين فهت معاوض منصف يؤدي ما عليه ويستوفي ما له فهو كالمقرض يسعف عند الحاجة ويستردّ عند الإستغناء وهو مشكور في معونته ومعدور في استعانتة فهذا أعدل الإخوان * وأما من لا يعين ولا يستعين فهو متروك قد منع خيره وقمع شره فهو لا صديق يرجى ولا عدو يخشى . وقد قال المغيرة بن شعبة رضي الله عنه : التارك للإخوان متروك وإذا كان كذلك فهو كالصورة الممثلة يروك حسنهما ويخونك نفعهما فلا هو مذموم لقمع شره ولا هو مشكور لمنع خيره وإن كان باللوم أجدر . وقد قال الشاعر :

وأسوأ أيام الفتى يوم لا يرى له أحد يزري عليه وينكر
غير أن فساد الوقت وتغير أهله يوجب شكر من كان شره مقطوعاً وإن
كان خيره ممنوعاً كما قال المتنبي :

إننا لفي زمن ترك القبيح به من أكثر الناس إحسان وإجمال
وإما أن يستعين ولا يعين فهو لثيمٌ كلٌّ ومهين مستدلّ قد قطع عنه
الرغبة وينسط فيه الرهبة فلا خيره يرجى ولا شره يؤمن وحسبك مهانة من
رجل مستقل عند إقلاله ويُسْتَقَلّ عند استقلاله فليس لمثله في الإخاء حظ
ولا في الوداد نصيب وهو من جعله المأمون من داء الإخوان لا من دوائهم
ومن ستمهم لا من غذائهم . وقال بعض الحكماء : شرّ ما في الكريم أن
يمنعك خيره وخير ما في اللثيم أن يكف عنك شره وقال ابن الرومي :

عذرنا النخل في إبداء شوك يردّ به الأنامل عن جناه
فمال للعوسج^(١) الملعون أبدي لنا شوكاً بلا ثمر نراه؟
وأما من يعين ولا يستعين فهو كريم الطبع مشكور الصنع وقد حاز
فضيلتي الإبتداء والإكتفاء فلا يرى ثقيلاً في نائبه ولا يقعد عن نهضة في
معونة فهذا أشرف الإخوان نفساً وأكرمهم طبعاً فينبغي لمن أوجد له الزمان
مثله (وقل أن يكون له مثل لأنه البر الكريم والدر اليتيم) أن يشني عليه

(١) العوسج : على وزن جوهر : شجر ذو شوك يعبر بشجرة موسى .

خنصره ويعض عليه بناجذه ويكون به أشدّ ضناً منه بنفائس أمواله وسنيّ
ذخائره لأن نفع الإخوان عام ونفع المال خاص ومن كان أعم نفعاً فهو
بالإدخار أحق. وقال الفرزدق:

يمضي أخوك فلا تلقى له خلفاً والمال بعد ذهاب المال مكتسب
وقال آخر

لكل شيء عدمته عوض وما لفقد الصديق من عوض
ثم لا ينبغي أن يزهد فيه لخلق أو خلقين ينكرهما منه إذا رضي سائر
أخلاقه وحمد أكثر شيمه لأن اليسير مغفور والكمال معوز. وقد قال الكندي:
كيف تريد من صديقك خلقاً واحداً وهو ذو طبائع أربع؟ مع أن نفس
الإنسان التي هي أخص النفوس به ومديرة باختياره وإرادته لا تعطيه آيادها
في كل ما يريد ولا تجيبه إلى طاعته في كل ما يحب فكيف بنفس غيره
وحسبك أن يكون لك من أخيك أكثره. وقد قال أبو الدرداء رضي الله عنه:
معاينة الأخ خير من فقدته ومن لك بأخيك كله؟ فأخذ الشعراء هذا المعنى
فقال أبو العتاهية:

أخيّ من لك من بني الد نيا بكل أخيك من لك؟
فاستبق بعضك لا يملد ك كل من لم تُعطِ كلُّك
وقال أبو تمام الطائي:

ما غبن المغبون مثل عقله من لك يوماً بأخيك كله؟
وقال بعض الحكماء: طلب الإنصاف من قلة الإنصاف. وقال بعض
البلغاء: لا يزهدنك في رجل حمدت سيرته وارتضيت وتيرته وعرفت فضله
وبطنت عقله عيب خفيّ تحيط به كثرة فضائله أو ذنب صغير تستغفر له قوة
وسائله فإنك لن تجد ما بقيت مهذباً لا يكون فيه عيب ولا يقع منه ذنب
فاعتبر بنفسك بعد أن لا تراها بعين الرضا ولا تجري فيها على حكم الهوى
فإن في اعتبارك بها واختيارك لها ما يؤسك مما تطلب ويعطفك على من
يذنب وقد قال الشاعر:

رمن ذا الذي ترضى سجاياه كلها كفى المرء نبلاً^(١) أن تعدّ معاياه؟
وقال النابغة الذبياني :

ولست بمستبق أخاً لا تلمه على شعث أي الرجال المهذب؟
وليس ينقض هذا القول ما وصفناه من اختباره واختبار الخصال الأربع
فيه لأن ما أعوز فيه معفو عنه وهذا لا ينبغي أن توحشك فترة تجدها منه ولا
أن تسيء الظن في كبوة تكون منه ما لم تتحقق تغييره وتتيقن تنكره.
وليصرف ذلك إلى فترات النفوس واستراحات الخواطر فإن الإنسان قد يتغير
عن مراعاة نفسه التي هي أخص النفوس به ولا يكون ذلك من عداوة لها
ولا ملل منها. وقد قيل في مثور الحكم: لا يفسدك الظن على صديق قد
أصلحك اليقين له. وقال جعفر بن محمد لابنه: يا بني من غضب من
إخوانك ثلاث مرات فلم يقل فيك سوءاً فاتخذته لنفسك خلاً. وقال الحسن
ابن وهب: من حقوق المودة أخذ عفو الإخوان والإغضاء عن تقصير إن
كان. وقد روي عن علي رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿فاصفح الصفح
الجميل﴾ قال: الرضا بغير عتاب. وقال ابن الرومي :

هم الناس والدنيا ولا بدّ من قذى يلم بعين أو يكدر مشرباً
ومن قلة الإنصاف أنك تبتغي الـ مهذب في الدنيا ولست المهذباً
وقال بعض الشعراء :

تواصلنا على الأيام باق ولكن هجرنا مطر الربيع
يروعك صوبه لكن تراه على علاته داني النزوع
معاذ الله نلّفى غضاباً سوى دل المطاع على المطيع
وأنشدني الأزدي :

لا يؤيسنك من صديق نبوة ينبو الفتى وهو الجواد الخضرم
فإذا نبا فاستبقه وتأنه حتى تفيء به وطبعك أكرم

(١) نبلاً: أي شرفاً.

وأما الملول وهو السريع التغير الوشيك التنكر فوداده خطر وإخاؤه
غرر لأنه لا يبقى على حاله ولا يخلو عن استحاله . وقد قال ابن الرومي :

إذا أنت عاتبت الملول فإنما تخط على صحف من الماء أحرفاً
وهبه أرعوى بعد العتاب ألم تكن مودته طبعاً فصارت تكلفاً

وهم نوعان منهم من يكون ملله استراحة ثم يعود إلى المعهود من
إخائه فهذا أسلم المملين وأقرب الرجلين يسامح في وقت استراحته وحين
فترته ليرجع إلى الحسنى ويؤوب إلى الإخاء وأن تقدم المثل بما نظمه الشاعر
حيث قال :

وقالوا: يعود الماء في النهر بعدما عفت منه آثار وجفت مشاعره
فقلت: إلى أن أين يرجع الماء عائداً ويعشب شطاه تموت ضفادعه
لكن لا يطرح حقه بالتوهم ولا يسقط حرمة بالظنون . وقال الشاعر :

إذا ما حال عهد أخيك يوماً وحاد عن الطريق المستقيم
فلا تعجل بلومك واستدنه فإن أخا الحفاظ المستديم
فإن تك زلة منه وإلا فلا تبعد عن الخلق الكريم
ومنه من يكون ملله تركاً وإطراحاً ولا يراجع إخاء ولا ودّاً ولا يتذكر
حفاظاً ولا عهداً كما قال أشجع بن^(١) عمرو السلمي :

إني رأيت لها مواصلة كالسم تفرعه على الشهد^(٢)
فلذا أخذت بعهد ذمتها لعب الصدود بذلك العهد

وهذا أذم الرجلين حالاً لأن مودته من وساوس الخطرات وعوارض
الشهوات وليس إلّا استدراك الحال معه بالإقلاع قبل المخالطة وحسن
المتاركة بعد الورطة^(٣) كما قال العباس بن الأحنف :

تداركت نفسي فعزيتها وبغضتها فيك آمالها

(١) أشجع بن عمرو: له نوادر منقولة ، وكان من مداح جعفر البرمكي .

(٢) الشهد: العسل ، أو السكر .

(٣) الورطة: المهلكة .

وما طابت النفس عن سلوة ولكن حملت عليها لها
وما مثل هذه حالة إلا كما قال إبراهيم بن هرمة:

فإنك واطراحك وصل سلمى لأخرى في مودتها نكوب^(١)
كشاقبة حلبي مستعار لأذنيها فشأنهما الثقوب
فأدت حلبي جارتها إليها وقد بقيت بأذنيها ندوب

وإذا صفت له أخلاق من سيره وتمهدت لديه أحوال من خبره وأقدم
على اصطفائه أخاً وعلى اتخاذ خدناً^(٢) لزمته حينئذ حقوقه ووجبت عليه
حرماته. وقال عمرو بن مسعدة: العبودية عبودية الإخاء لا عبودية الرق.
وقال بعض الحكماء: من جاذلك بمودته فقد جعلك عديل نفسه فأول حقوقه
اعتقاد مودته ثم إيناسه بالإنبساط إليه في غير محرم ثم نصحه في السر والعلانية
ثم تخفيف الأثقال عنه ثم معاونته فيما ينوبه من حادثة أو يناله من نكبة فإن
مراقبته في الظاهر نفاق وتركه في الشدة لؤم. وقد قيل: يا رسول الله أي
الأصحاب خير؟ قال: «الذي إذا ذكرت أعانك وواساك وخير منه من إذا
نسيت ذكرك». وقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: خير إخوانك من
واساك وخير منه من كافاك. وكان أبو هريرة رضي الله عنه يقول: اللهم إني
أعوذ بك ممن لا يلتمس خالص مودتي إلا بموافقة شهوتي وممن ساعدني على
سرور ساعتي ولا يفكر في حوادث غدي. وقال بعض البلغاء: عقود الغادر
محلولة وعهوده مدخولة. وقال بعض البلغاء: ما ودك من أهمل ودك ولا أحبك
من أبغض حبك. وقال بعض الشعراء:

وكل أخ عند الهوينا ملاطف ولكنما الإخوان عند الشدائد
وقال صالح بن عبد القدوس: شر الإخوان من كانت مودته مع الزمان
إذا أقبل فإذا أدبر الزمان أدبر عنك فأخذ هذا المعنى الشاعر فقال:

شر الأخلاء من كانت مودته مع الزمان إذا ما خاف أو رغبا

(١) نكوب: يقال: نكب عن الطريق إذا عدل عنه، ونكب به إذا طرحه.

(٢) خدناً: بكسر فسكون صاحباً.

إذا وترت أمراً فاحذر عداوته من يزرع الشوك لا يحصد به عنباً
 إن العدو وإن أبدى مسالمة إذا رأى منك يوماً فرصة وثباً
 وينبغي أن يتوقى الإفراط في محبته فإن الإفراط داع إلى التقصير ولأن
 تكون الحال بينهما نامية أولى من أن تكون متناهية. وقد روى ابن سيرين
 عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «أحب حبيبك هوناً ما عسى أن
 يكون حبيبك يوماً ما». وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لا يكن حبك
 كلفاً^(١) ولا بغضك تلفاً^(٢). وقال أبو الأسود الدؤلي:

وكن معدناً للخير وأصفح عن الأذى فإنك راء ما عملت وسامع
 واحب إذا أحببت حباً مقارباً فإنك لا تدري متى أنت نازع
 وابغض إذا أبغضت غير مباين فإنك لا تدري متى أنت راجع

وقال عدي بن زيد:

لا تأمن من مبغض قرب داره ولا من محب أن يملّ فيبعدا
 وإنما يلزم من حق الإخاء بذل المجهود في النصح والتناهي في رعاية
 ما بينهما من الحق فليس في ذلك إفراط وإن تناهى ولا مجاوزة حدّ وإن أكثر
 أوفى فتستوى حالتهما في المغيب والمشهد ولا يكون مغيبهما أفضل من
 مشهدهما وأولى فإن فضل المشهد على المغيب لؤم وفضل المغيب على
 المشهد كرم واستواؤهما حفاظ. وقال بعض الشعراء:

عليّ لإخواني رقيب من الصفا تبعد الليالي وهو ليس يبيد
 يذكّرنيهم في مغيب ومشهد فيسيان منهم غائب وشهيد
 وإنني لأستحي أخي أن أبرّه قريباً وأن أجفوه وهو بعيد
 وهكذا يقصد التوسط في زيارته وغشيانه غير مقلل ولا مكثّر فإن تقليل
 الزيارة داعية الهجران وكثرتها سبب الملل. وقد قال النبي ﷺ لأبي هريرة
 رضي الله عنه: يا أبا هريرة «زرغباً تزدحجاً» وقال لبید:

(١) كلفاً: عشقاً.

(٢) تلفاً: إهلاكاً.

توقف عن زيارة كل يوم إذا أكثر ملك من تزور
وقال آخر

أقلل زيارتك الصديق ولا تطل هجرانه فيلج في هجرانه
إن الصديق يلج في غشيانه لصديقه فيمل من غشيانه
حتى يراه بعد طول سروره بمكانه مشاقلاً بمكانه
وإذا توانى عن صيانة نفسه رجل تنقص واستخف بشانه
ويحسب ذلك فليكن في عتابه فإن كثرة العتاب سبب للقطيعة وإطراح
جميعه دليل على قلة الإكثارات بأمر الصديق وقد قيل: علة المعادة قلة
المبالاة بل تتوسط حالتا تركه وعتابه فيسامح بالمتاركة ويستصلح بالمعاتبه
فإن المسامحة والاستصلاح إذا اجتمعا لم يلبث معهما نفور ولم يبق معهما
وجد. وقد قال بعض الحكماء: لا تكثرن معاتبه إخوانك فيهنون عليهم
سخطك. وقال منصور النمري:

أقلل عتاب من استربت بوذه ليست تنال مودة بعتاب
وقال بشار بن برد:

إذا كنت في كل الأمور معاتباً صديقك لم تلق الذي لا تعاتبه
وإن أنت لم تشرب مراراً على القذى ظمئت وأبى الناس تصفو مشاربه؟
فعض واحداً أوصل أخاك فإنه مقارف ذنب مرة ومجانبه
ثم من حق الإخوان أن تغفر هفوتهم وتستتر زلتهم لأن من رام بريئاً
من الهفوات سليماً من الزلات رام أمراً معوزاً واقترح وصفاً معجزاً. وقد
قالت الحكماء: أبى عالم لا يهفو وأبى صارم لا ينبو وأبى جواد لا يكبو؟ وقالوا:
من حاول صديقاً يأمن زلته ويدوم اغتباطه به كان كضال الطريق الذي لا
يزداد لنفسه إتعاباً إلاّ ازداد من غايته بعداً. وقيل لخالد بن صفوان أي
إخوانك أحب إليك؟ قال: من غفر زللي وقطع عللي وبلغني أمني. وقال
بعض الشعراء:

ما كدت أفحص عن أخي ثقة إلاّ ندمت عواقب الفحص

وأنشدت عن الربيع للشافعي رضي الله عنه :

أحب من الإخوان كل مواتي وكل غضيف الطرف عن عثراتي
يوافقي في كل أمر أريده ويحفظني حياً وبعد وفاتي
فمن لي بهذا ليت أني أصبته فقامته مالي من الحسنات؟
تصفحت إخواني وكان أقلهم على كثرة الإخوان أهل ثقاتي
وأنشد ثعلب

إذا أنت لم تستقل الأمر لم تجد بكفيك في إدباره متعلقاً
إذا أنت لم تترك أخاك وزلة إذا زلها أوشكتما أن تفرقاً
وحكى الأصمعي عن بعض الأعراب أنه قال: تناس مساوي الإخوان
يدم لك ودّهم. ووصى بعض الأدباء أخاً له فقال: كن للودّ حافظاً وإن لم
تجد محافظاً وللخل واصلًا وإن لم تجد مواصلاً. وقال رجل من إباد ليزيد
ابن المهلب:

إذا لم تجاوز عن أخ عند زلة فلست غداً عن عثرتي متجاوزاً
وكيف يرجيك البعيد لنفعه إذا كان عن مولاك خيرك عاجزاً؟
ظلمت أخاً كلفته فوق وسعه وهل كانت الأخلاق إلّا غرائزاً؟
وقال أبو مسعود كاتب الرضى: كنا في مجلس الرضى فشكا رجل من
أخيه فأنشد الرضى:

أعذر أخاك على ذنوبه واستر وغض على عيوبه
واصبر على بهت السفه به^(١) وللزمان على خطوبه
ودع الجواب تفضلاً وكل الظلوم إلى حسيه
واعلم بأن الحلم عند الغيظ أحسن من ركوبه
وحكى عن بنت عبد الله بن مطيع أنها قالت لزوجها طلحة بن عبد
الرحمن بن عوف الزهري وكان أجود قريش في زمانه: مارأيت قوماً ألام من

(١) يهت السفه: افكه واقتراءاته.

إخوانك قال: مه ولم ذلك؟ قالت: أراهم إذا أيسرت لزموك وإذا أعسرت تركوك قال: هذا والله من كرمهم يأتوننا في حال القوّة بنا عليهم ويتركوننا في حال الضعف منا عنهم. فانظر كيف تأوّل بكرمه هذا التأويل حتى جعل قبيح فعلهم حسناً وظاهر غدرهم وفاء وهذا محض الكرم ولباب الفضل ويمثل هذا يلزم ذوي الفضل أن يتأوّلوا الهفوات من إخوانهم. وقد قال بعض الشعراء:

أحب ما بدت من صاحب لك زلة فكن أنت محتالاً لزلته عذرا
أحب الفتى ينفي الفواحش سمعه كان به عن كل فاحشة وقرا
سليم دواعي^(١) الصدر لا باسط أذى ولا مانع خيرا ولا قائل هجرا^(٢)
والداعي إلى هذا التأويل شيثان: التغافل الحادث عن الفطنة والتألف الصادر عن الوفاء. وقال بعض الحكماء: وجدت أكثر أمور الدنيا لا تجوز إلّا بالتغافل. وقال أكثم بن^(٣) صيفي: من شدد نقر ومن تراخى تألف والشرف في التغافل. وقال شبيب بن شيبه: الأريب العاقل هو الفطن المتغافل وقال الطائي:

ليس الغنيّ بسيد في قومه لكنّ سيد قومه المتغابي
وقال أبو العتاهية

إن في صحة الإخاء من الناس س وفي خلة الوفاء لقله
فالبس الناس ما استطعت على النق ص وإلّا لم تستقم لك خله

(١) دواعي الصدر: جمع داعية، وهي اللبنة الذي يترك في الضرع ليدعو اللبن ويجذبه.

(٢) هجرا: المنجر بضم فسكون: الكلام القبيح.

(٣) أكثم بن صيفي: بن رباح التميمي: أشهر حكام العرب في الجاهلية. أدرك مبعث النبي ﷺ وقال لقومه: «احملوني إليه، فقالوا: لا والله، وأنت سن من أسنان العرب، قال فليأته أحدكم فليساله عن ربه، وعما أمره به، فأق حبيش بن أكثم فقال: يا محمد، بم بعثك ربك؟ قال بعثني بأن أكسر الأصنام، قال: بم أمرك؟ قال: إن الله يأمر بالعدل والإحسان... الآية فانصرف حبيش إلى أبيه، فأخبره بكلام النبي ﷺ وتلا عليه الآية فجعل يرددّها ويقول: إن هذا الرب كريم، يأمر بمحاسن الأخلاق، وينهي عن مساوئها.

عش وحيداً إن كنت لا تقبل العذ ر وان كنت لا تجاوز زله
من أب واحد وأم خلقنا غير أنا في المال أولاد عله

ومما يتبع هذا الفصل تألف الأعداء بما يشيهم عن البغضاء ويعطفهم
على المحبة وذلك قد يكون بصنوف من البر ويختلف بسبب اختلاف
الأحوال فإن ذلك من سمات الفضل وشروط السؤدد فإنه ما أحد يعدم عدواً
ولا يفقد حاسداً وبحسب قدر النعمة تكثر الأعداء والحسدة كما قال
البحثري:

ولن تستبين الدهر موضع نعمه إذا أنت لم تدلل عليها بحاسد
فإن أغفل تألف الأعداء مع وفور النعمة وظهور الحسدة توالى عليه من
مكر حلیمهم وبادرة سفيهم ما تصير به النعمة غراماً والزعامة ملاماً.

وروى ابن المسيب عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله
ﷺ: «رأس العقل بعد الإيمان بالله تعالى التودد إلى الناس». وقال سليمان
ابن داود عليهما السلام لابنه: لا تستكثر أن يكون لك ألف صديق فالألف
قليل ولا تستقل أن يكون لك عدو واحد فالواحد كثير فنظم ابن الرومي هذا
المعنى فقال:

تكثر من الإخوان ما استطعت فإنهم بطون إذا استجدتهم وظهور
وليس كثيراً ألف خل وصاحب وإن عدواً واحداً لكثير

وقيل لعبد الملك بن مروان: ما أفدت في ملكك هذا؟ قال: مودة
الرجال. وقال بعض الحكماء: من علامة الإقبال اصطناع الرجال. وقال
بعض البلغاء: من استصلح عدوه زاد في عدده ومن استفسد صديقه نقص
من عدده. وقال بعض الأدباء: العجب ممن يطرح عاقلاً كافياً لما يضمره
من عداوته ويصطنع عاجزاً جاهلاً لما يظهره من محبته وهو قادر على
استصلاح من يعاديه بحسن صنائعه وأياديه. وأنشد عبد الله بن الزبير ثلاثة
أبيات جامعة لكل ما قالت العرب وهي للأفوه واسمه صلاة بن عمرو حيث
يقول:

بلوت الناس قرناً بعد قرن فلم أر غير ختال وقالي
وذقت مرارة الأشياء جمعاً فما طعم أمر من السؤال
ولم أر في الخطوب إشدّ هولاً وأصعب من معاداة الرجال

وقال القاضي التنوخي

التى العدو بوجه لا قطوب به يكاد يقطر من ماء البشاشات
فاحزم الناس من يلقي أعاديه في جسم حقد وثوب من مودات
الرفق يمن وخير القول أصدقه وكثرة المزح مفتاح العداوات
وأنشدت عن الربيع للشافعي رضي الله تعالى عنه:

لما عفوت ولم أحقد على أحد أرحت نفسي من هم العداوات
إني أحبي عدوي عند رؤيته لأدفع الشر عني بالتحيات
وأظهر البشر للإنسان أبغضه كأنما قد حشا قلبي محبات
الناس داء دواء الناس قريهم وفي اعتزالهم قطع المودات

وليس وإن كان يتألف الأعداء مأموراً وإلى مقاربتهم مندوباً ينبغي أن
يكون لهم راكناً وبهم واثقاً بل يكون منهم على حذر ومن مكرهم على
تحرز فإن العداوة إذا استحكمت في الطباع صارت طبعاً لا يستحيل وجبة
لا تزول وإنما يستكفي بالتألف إظهارها ويستدفع به أضرارها كالنار يستدفع
بالماء إحراقها ويستفاد به إنضاجها وإن كانت محرقة بطبع لا يزول وجوهر لا
يتغير. وقال الشاعر:

وإذا عجزت عن العدو فداره وامزح له إن المزاح وفاق
فالنار بالماء الذي هو ضدها تعطي النضاج وطبعها الإحراق

(فصل) وأما البر وهو الخامس من أسباب الألفة فلأنه يوصل إلى
القلوب لطافاً يثنيها محبة وانعطافاً ولذلك ندب الله تعالى إلى التعاون به
وقرنه بالتقوى له فقال: ﴿وتعاونوا على البر والتقوى﴾ لأن في التقوى رضا
الله تعالى وفي البر رضا الناس ومن جمع بين رضا الله تعالى ورضا الناس

فقد تمت سعادته وعمت نعمته. وروى الأعمش^(١) عن خيثمة عن ابن مسعود قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «جبلت القلوب على حب من أحسن إليها وبغض من أساء إليها» وحكي أن الله تعالى أوحى إلى داود على نبينا وعليه السلام: ذكر عبادي إحساني إليهم ليحبوني فإنهم لا يحبون إلا من أحسن إليهم. وأنشدني أبو الحسن الهاشمي:

الناس كلهم عيال ل الله تحت ظلاله
فأحبهم طراً إلي به أبرهم لعياله

والبر نوعان: صلة ومعروف. فأما الصلة فهي التبرع ببذل المال في الجهات المحمودة لغير عوض مطلوب وهذا يبعث عليه سماحة النفس وسخاؤها ويمنع منه شحها وإباؤها قال الله تعالى: ﴿ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون﴾. وروى محمد بن^(٢) إبراهيم التيمي عن عروة بن الزبير عن النبي ﷺ أنه قال: «السخي قريب من الله عز وجل قريب من الجنة قريب من الناس بعيد من النار والبخل بعيد من الله عزو وجل بعيد من الجنة بعيد من الناس قريب من النار» وقال ﷺ لعدي بن حاتم^(٣): «رفع الله عن أبيك العذاب الشديد لسخائه» وبلغه ﷺ عن الزبير إمساك فجذب عمامته إليه وقال: يا زبير أنا رسول الله إليك وإلى غيرك يقول أنفق أنفق عليك ولا توك^(٤) فأوك عليك. وروى أبو الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من يوم غربت فيه شمسهُ إلا وملكان يناديان اللهم أعط منفقاً خلفاً وممسكاً تلفاً» وأنزل في ذلك القرآن ﴿فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى

(١) الأعمش: هو سليمان بن مهران: أبو محمد الأسدي، وظهر للأعمش أربعة آلاف حديث، ولم يكن له كتاب، وكان فصيحاً لم يلحن قط. مات سنة ١٤٨.

(٢) محمد بن إبراهيم: بن الحارث بن خالد. كان كثير الحديث توفي سنة ١٢٠ وروى له الجماعة.

(٣) عدي بن حاتم: الطائي السخي المشهور الذي يضرب به المثل، وعدى: هو الجواد بن الجواد، قدم على النبي ﷺ في سنة سبع وروى له عن رسول ﷺ ٦٦ حديثاً، نزل الكوفة ومات بها وهو ابن ١٢٠ سنة، وكان أعور.

(٤) ولا توك: يقال أوكى السقاء إذا شده بالوكاء وهو الخيط الذي يشد به رأس القربة.

فسيئسره لليسرى وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسيئسره للعرى. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: يعني من أعطى فيما أمر واتقى فيما حظر وصدق بالحسنى يعني بالخلف من عطائه فعند هذا قال ابن عباس رضي الله عنهما لسادات الناس: في الدنيا الأسخياء وفي الآخرة الأنقياء. وقيل في مثور الحكم: الجود عن موجود. وقيل في المثل: سؤدد بلا جود كملك بلا جنود. وقال بعض الحكماء: الجود حارس الأعراض. وقال بعض الأدباء: من جاد ساد ومن أضعف ازداد. وقال بعض الفصحاء: جود الرجل يحبه إلى أضداده وبخله يبغضه إلى أولاده. وقال بعض الفصحاء: خير الأموال ما استرق حراً وخير الأعمال ما استحق شكراً. وقال صالح بن عبد القدوس:

ويظهر عيب المرء في الناس ببخله ويستره عنهم جميعاً سخاؤه
تغط بأثواب السخاء فإنني أرى كل عيب والسخاء غطاؤه

وحذّ السخاء بذل ما يحتاج إليه عند الحاجة وأن يوصل إلى مستحقه بقدر الطاقة وتدير ذلك مستصعب ولعل بعض من يجب أن ينسب إلى الكرم ينكر حذّ السخاء ويجعل تقدير العطية فيه نوعاً من البخل وأن الجود بذل الموجود وهذا تكلف يفضي إلى الجهل بحدود الفضائل ولو كان الجود بذل الموجود لما كان للسرف موضع ولا للتبذير موقع وقد ورد الكتاب بدمهما وجاءت السنة بالنهي عنهما. وإذا كان السخاء محدوداً فمن وقف على حذّه سمي كريماً وكان للحمد مستحقاً ومن قصر عنه كان بخيلاً وكان للذم مستوجباً. وقد قال الله تعالى: ﴿ولا تحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم بل هو شرّ لهم سيطّوقون ما بخلوا به يوم القيامة﴾. وروى عن النبي ﷺ أنه قال: «أقسم الله تعالى بعزته لا يجاوره بخيل». وروى عنه ﷺ أنه قال: «طعام الجواد دواء وطعام البخيل داء» وسمع رسول الله ﷺ رجلاً يقول: الشحيح أعذر من الظالم فقال: لعن الله الشحيح ولعن الظالم.

وقال بعض الحكماء: البخل جلاب المسكنة. وقال بعض الأدباء: البخيل

ليس له خليل . وقال بعض البلغاء : البخيل حارس نعمته وخازن ورثته . وقال بعض الشعراء :

إذا كنت جماعاً لمالك ممسكاً فأنت عليه خازن وأمين
تؤدّيه مذموماً إلى غير حامد فيأكله عفتواً وأنت دفين
وتظاهر بعض ذوي النباهة بحب الثناء مع إمساك فيه فقال بعض الشعراء :

أراك تؤمل حسن الثناء ولم يرزق الله ذاك البخيل
وكيف يسود أخو بطنة يمن كثيراً ويعطي قليلاً؟
وقد بينا حب الثناء وحب المال لأن الثناء يبعث على البذل وحب
المال يمنع منه فإن ظهرا كان حب الثناء كاذباً . وقد قال بعض الشعراء :

جمعت أمرين ضاع الحزم بينهما تيه الملوك وأخلاق المماليك
أردت شكراً بلا بر ولا صلة لقد سلكت طريقاً غير مسلك
ظننت عرضك لم يقرع بقارعة وما أراك على حال بمتروك
لئن سبقت إلى مال حظيت به فما سبقت إلى شيء سوى النوك^(١)

وقد يحدث عن البخل من الأخلاق المذمومة وإن كان ذريعة إلى كل مذمة أربعة أخلاق ناهيك بها ذمماً وهي : الحرص والشره وسوء الظن ومنع الحقوق . فأما الحرص فهو شدة الكدح والإسراف في الطلب . وأما الشره فهو استقلال الكافية والاستكثار لغيره حاجة وهذا فرق ما بين الحرص والشره . وقد روى العلاء بن جرير عن أبيه عن سالم بن مسروق قال : قال رسول الله ﷺ : «من لا يجزيه من العيش ما يكفيه لم يجد ما عاش ما يغنيه» . وقال بعض الحكماء : الشره من غرائز اللؤم . وأما سوء الظن فهو عدم الثقة بمن هو لها أهل فإن كان بالخالق كان شكاً يؤول إلى ضلال وإن كان بالمخلوق كان استخانة يصير بها مختاناً وخواناً لأن ظن الإنسان بغيره بحسب ما يراه من نفسه فإن وجد فيها خيراً ظنه في غيره وإن رأى فيها سوءاً

(١) سوى النوك : من حماقة والبلاهة .

اعتقده في الناس. وقد قيل في المثل: كل إناء ينضح^(١) بما فيه. فإن قيل قد تقدم من قول الحكماء إن الحزم سوء الظن قيل تأويله وقلة الإسترسال إليهم لا اعتقاد السوء فيهم.

وأما منع الحقوق فإن نفس البخيل لا تسمح بفراق محبوبها ولا تنقاد إلى ترك مطلوبها فلا تدعن لحق ولا تجيب إلى إنصاف. وإذا آل البخيل إلى ما وصفنا من هذه الأخلاق المذمومة والشيم اللثيمة لم يبق معه خير مرجو ولا صلاح مأمول. وأما السرف والتبذير فإن من زاد على حدّ السخاء فهو مسرف ومبذر وهو بالذم جدير. وقد قال الله تعالى: ﴿ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين﴾. وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «ما عال من^(٢) اقتصد». وقد قال المأمون رحمه الله: لا خير في السرف ولا سرف في الخير. وقال بعض الحكماء: صديق الرجل قصده وسرفه عدوه. وقال بعض البلغاء: لا كثير مع إسراف ولا قليل مع احتراف^(٣) * واعلم أن السرف والتبذير قد يفترق معناهما فالسرف هو الجهل بمقادير الحقوق والتبذير هو الجهل بمواقع الحقوق وكلاهما مذموم وذم التبذير أعظم لأن المسرف يخطيء في الزيادة والمبذر يخطيء في الجهل ومن جهل مواقع الحقوق ومقاديرها بماله وأخطأها فهو كمن جهلها بفعاله فتعدّاه وكما أنه بتبذيره قد يضع الشيء في غير موضعه فهكذا قد يعدل به عن موضعه لأن المال أقل من أن يوضع في كل موضع من حق وغير حق. وقد قال معاوية رضي الله عنه: كل سرف فبازائه حق مضيع. وقال بعض الحكماء: الخطأ في إعطاء ما لا ينبغي ومنع ما ينبغي واحد. وقال سفيان الثوري رضي الله عنه: الحلال لا يحتمل السرف وليس يتم السخاء ببذل ما في يده حتى تسخو نفسه عما بيد غيره فلا يميل إلى طلب ولا يكف عن بذل. وقد حكى أن الله تعالى أوحى إلى إبراهيم الخليل على نبينا وعليه السلام: أتدري لِم اتخذتك خليلاً؟ قال: لا

(١) ينضح بما فيه: يرشحه.

(٢) ما عال من اقتصد: رواه أحمد بن حنبل عن ابن مسعود.

(٣) مع احتراف: الحرفة: الصنعة، والمحترف الصانع.

يارب قال: لأنني رأيتك تحب أن تعطي ولا تحب أن تأخذ. وروى سهل ابن^(١) سعد الساعدي رضي الله عنه قال: أتى رجل إلى النبي ﷺ فقال يا رسول الله: مرني بعمل يحبني الله عليه ويحبني الناس فقال: أزهّد في الدنيا يحبك الله وأزهّد فيما في أيدي الناس يحبك الناس. وقال أيوب^(٢) السخيتاني: لا ينبل الرجل حتى يكون فيه خصلتان العفة عن أموال الناس والتجاوز عنهم. وقيل لسفيان: ما الزهد في الدنيا؟ قال: الزهد في الناس وكتب كسرى إلى ابنه هرمز يا بني استقل الكثير مما تعطي واستكثر القليل مما تأخذ فإن قرة عيون الكرام في الإعطاء وسرور اللثام في الأخذ ولا تعدّ الشحيح أميناً ولا الكذاب حراً فإنه لا عفة مع الشح ولا مروءة مع الكذب. وقال بعض الحكماء: السخاء سخاء أن أشرفهما سخاؤك عما بيد غيرك. وقال بعض البلغاء: السخاء أن تكون بمالك متبرعاً وعن مال غيرك متورعاً. وقال بعض الصلحاء: الجود غاية الزهد والزهد غاية الجود. وقال بعض الشعراء:

إذا لم تكن نفس الشريف شريفة وإن كان ذا قدر فليس له شرف
والبذل على وجهين: أحدهما ما ابتدأ به الإنسان من غير سؤال.
والثاني ما كان عن طلب وسؤال. فأما المبتدأ به فهو أطبعهما سخاء
وأشرفهما عطاء. وسئل علي كرم الله وجهه عن السخاء فقال: ما كان منه
ابتداء فأما ما كان عن مسألة فحياء وتكرم. وقال بعض الحكماء: أجل
النوال ما وصل قبل السؤال. وقال بعض الشعراء:

وفتي خلا من ماله ومن المروءة غير خال
أعطاك قبل سؤاله فكفأك مكروه السؤال
وهذا النوع من البذل قد يكون لتسعة أسباب:

-
- (١) سهل بن سعد: الأنصاري رضي الله عنه، كان اسمه حزناً فسماه النبي ﷺ سهلاً، وهو آخر صحابي مات بالمدينة سنة إحدى وتسعين وهو ابن ١٠٠ سنة.
- (٢) أيوب السخيتاني: البصري، مولى عزة، روى عنه الامام أبو حنيفة، مات بالبصرة سنة ١٣١، وسمي بذلك لأنه كان يبيع الجلود.

فالسبب الأول - أن يرى خلة يقدر على سدّها وفاقة يتمكن من إزالتها فلا يدعه الكرم والتدين إلّا أن يكون زعيم صلاحها وكفيل نجاحها رغبة في الأجر إن تدين وفي الشكر إن تكرم. وقال أبو العتاهية:

ما الناس إلّا آلة معتملة^(١) للخير والشر جميعاً فعله
والسبب الثاني - أن يرى في حاله فضلاً عن حاجته في يده زيادة عن كفايته فيرى انتهاز الفرصة بها فيضعها حيث تكون له ذخراً معدّاً وغنماً مستجداً. وقد قال الحسن البصري رحمه الله: ما أنصفك من كلفك إجلاله ومنعك ماله. وقيل لهند بنت^(٢) الحسن: من أعظم الناس في عينك؟ قالت من كان لي إليه حاجة. وقال الشاعر:

وما ضاع مال ورث الحمد أهله ولكنّ أموال البخيل تضيع
والسبب الثالث - أن يكون لتعريض يتنبه عليه لفطنته وإشارة يستدل عليها بكرمه فلا يدعه الكرم أن يغفل ولا الحياء أن يكف. وقد حكى أن رجلاً سائر بعض الولاة فقال: ما أهزل برذونك^(٣)؟ فقال: يده ما أيدينا فوصله اكتفاء بهذا التعريض الذي بلغ ما لا يبلغه صريح السؤال. ولذلك قال أكثم بن صيفي: السخاء حسن الفطنة واللؤم سوء التغافل. وحكى أن عبيد الله بن سليمان لما تقلد وزارة المعتضد كتب إليه عبد الله بن عبد الله ابن طاهر:

أبى دهرنا إسعافنا في نفوسنا وأسعفنا فيمن نحب ونكرم
فقلت له: نعماك فيه أتمها ودع أمرنا إن المهم مقدّم
فقال عبيد الله: ما أحسن ما شكّا أمره بين أضعاف مدحه ثم قضى حاجته. وقال بعض الشعراء:

(١) معتملة: يقال: اعتمل الرجل إذا عمل لنفسه.

(٢) هند بنت الحسن: بن حابس الأيادي، قال الجاحظ: ومن أهل الدهاء والنكراء، ومن أهل اللسن واللقن، والجواب العجيب، والكلام الفصيح والأمثال السائرة والمخارج العجيبة هند بنت الحسن، وهي الزرقاء.

(٣) برذونك: البرذون شامل لكل أنواع الدابة.

ومن لا يرى من نفسه مذكراً لها رأى طلب المستنجدين ثقيلًا
والسبب الرابع - أن يكون ذلك رعاية ليد أو جزاء على صنعة فيرى
تأدية الحق طوعاً إما أنفة وإما شكراً ليكون من أسر الإمتنان طليقاً ومن رق
الإحسان وعبوديته عتيقاً. وقال بعض الحكماء: الإحسان رق والمكافأة
عتق. وقال أبو العتاهية رحمه الله تعالى:

وليست أيادي الناس عندي غنيمة ورب يد عندي أشد من الأسر
والسبب الخامس - أن يؤثر الإذعان بتقديمه والإقرار بتعظيمه توطيداً
لرئاسة هو لها محب وعلى طلبها مكب. وقد قال الشاعر:

حب الرئاسة داء لا دواء له وقلما تجد الراضين بالقسم
فتستصعب عليه إجابة النفوس له طوعاً إلا بالإستعطف وإذعانها إلا
بالرغبة والإسعاف. وقد قال بعض الأدباء: بالإحسان يرتبط الإنسان وقال
بعض البلغاء: من بذل ماله أدرك آماله. وقال بعض الشعراء:

أترجو أن تسود بلا عناء وكيف يسود ذو الدعة البخيل
والسبب السادس - أن يدفع به سطوة أعدائه ويستكف به نفار خصمائه
ليصيروا له بعد الخصومة أعواناً وبعد العداوة إخواناً إما لصيانة عرض وإما
لحراسة مجد. وقد قال أبو تمام الطائي:

ولم يجتمع شرق وغرب لقاصد ولا المجد في كف امرئ والدراهم
ولم أر كالمعروف تدعي حقوقه مغارم في الأقوام وهي مغانم
وقال بعض الأدباء: من عظمت مرافقه أعظمه مرافقه:

والسبب السابع - أن يرب به سالف صنعة أولاه ويراعى به قديم
نعمة أسداها كيلا ينسى ما أولاه أو يضاع ما أسداه فإن مقطوع البر ضائع
ومهمل الإحسان ضال. وقد قال الشاعر:

وسمت امرأ بالبر ثم أطرحته ومن أفضل الأشياء رب الصنائع
وقال محمد بن داود الأصبهاني:

بدأت بنعمى أوجبت لي حرمة عليك فعد بالفضل فالعود أحمد

والسبب الثامن - المحبة يؤثر بها المحبوب على ماله فلا يضمن عليه
بمرغوب ولا ينفس عليه بمطلوب للذة التي هي عنده أحظى وإلى نفسه
أشهى لأن النفس إلى محبوبها أشوق وإلى ممايلته أسبق . وقد قال الشاعر :

فما زرتكم عمداً ولكن ذا الهوى إلى حيث يهوى القلب تهوى به الرجل
وهذا وإن دخل في أقسام العطاء فخرج عن حدّ السخاء وهكذا
الخامس والسادس من هذه الأسباب وإنما ذكرناها لدخولها تحت أقسام
العطاء .

والسبب التاسع - ليس بسبب أن يفعل ذلك لغير سبب وإنما هي منه
سجية قد فطر عليها وشيمة قد طبع بها فلا يميز بين مستحق ومحروم ولا
يفرق بين محمود ومذموم كما قال الشاعر :

ليس يعطيك للرجاء ولا للخوف لكن يلذ طعم العطاء
وقد اختلف الناس في مثل هذا هل يكون منسوباً إلى السخاء فيحمد
أو خارجاً عنه فيذم؟ وقال قوم : هذا هو السخيّ طبعاً والجواد كرمأ وهو أحق
من كان به ممدوحاً وإليه منسوباً . وقال أبو تمام :

من غير ما سبب يدني كفى سبباً للحرّ أن يجتدي حرّاً بلا سبب
وقال الحسن بن سهل : إذا لم أعط إلا مستحقاً فكأنني أعطيت غريماً وقال :
الشرف في السرف فقيل له : لا خير في السرف فقال : ولا سرف في الخير . وقال الفضل
ابن سهل : العجب لمن يرجو من فوقه كيف يحرم من دونه . وقال بشار :

وما الناس إلا أصحابك فمنهم سخيّ ومغلول اليدين من البخل
فسامح يداً ما أمكنتك فإنها تقل وتثري والعواذل^(١) في شغل
وقال آخرون : هذا خارج من السخاء المحمود إلى السرف والتبذير
المذموم لأن العطاء إذا كان لغير سبب كان المنع لغير سبب لأن المال يقل
عن الحقوق ويقصر عن الواجبات فإذا أعطى غير المستحق فقد يمنع
مستحقاً ما يناله من الذم بمنع المستحق أكثر مما يناله من الحمد لإعطاء

(١) والعواذل : أي اللوام .

غير المستحق وحسبك ذماً بمن كانت أفعاله تصدر عن غير تمييز وتوجد لغير علة وقد قال الله تعالى: ﴿ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد مالوماً محسوراً﴾^(١) فنهى عن بسطها سرفاً كما نهى عن قبضها بخلاً فدل على استواء الأمرين ذماً وعلى اتفاقهما لوماً. وقال الشاعر:

وكان المال يأتينا فكننا نبذره وليس لنا عقول
فلما أن تولى المال عنا عقلنا حين ليس لنا فضول
وقالوا: ولأن العطاء والمنع إذا كانا لغير علة أفضيا إلى ذم الممنوع وقلة شكر المعطي أما الممنوع فلأنه قد فضل عليه من سواه وأما المعطي فإنه وجد ذلك اتفاقاً وربما أمل بالاتفاق أضعافاً فصار ذلك مفضياً إلى اجتلاب الذم وإحباط الشكر وليس فيما أفضى إلى واحد منهما خير يرجى وهو جدير أن يكون شراً يبقى ولمثل هذا كان منع الجميع إرضاء للجميع وعطاء يكون المنع أرضى منه خسران مبین. فأما إذا كان البذل والعطاء عن سؤال وطلب فشروطه معتبرة من وجهين أحدهما في السائل والثاني في المسؤول. فأما ما كان معتبراً في السائل فثلاثة شروط: الشرط الأول أن يكون السؤال لسبب والطلب لموجب فإن كان لضرورة ارتفع عنه الحرج وسقط عنه اللوم. وقد قال بعض الحكماء: الضرورة توقع^(٢) الصورة. وقال بعض الشعراء:

ألا قبح الله الضرورة إنها تكلف أعلى الخلق أدنى الخلائق
ولله ذرّ الإِتساع فإنه يبين فضل السبق من غير سابق
وقال الكمي:

إذا لم يكن إلّا الأسنة مركب فلا رأى للمضطر إلّا ركوبها
فإن ارتفعت الضرورة ودعت الحاجة فيما هو أولى الأمرين أن يكون وإن جاز أن لا يكون فالنفس المسامحة تغلب الحاجة وتسمح في الطلب

(١) محسوراً: منقطعاً بك لا شيء عندك.

(٢) توقع الصورة: أي تذهب حيائها.

وتراعي ما استقام به الحال وإن ناله ذل ولحقه وهن فيتأول صاحبها قول
البحثري:

وربما كان مكروه الأمور إلى محبوبها سبباً ما مثله سبب
والنفس الشريفة تطلب الصيانة وتراعي النزاهة وتحتمل من الضر ما
احتملت ومن الشدة ما أطاقت فيبقى تحملها ويدوم تصونها فتكون كما قال
الشاعر:

وقد يكتسي المرء خز الثياب ومن دونها حالة مضنيه^(١)
كما يكتسي خذه حمرة وعلته ورم في الريه
فلا يرى أن يتدنس بمطالب الشؤم ومطالع اللؤم فإن البهائم الوحشية
تأبى ذلك وتأنف منه قال الشاعر:

وليس الليث من جوع بغاد على جيف تطيف بها الكلاب
فكيف بالإنسان الفاعل الذي هو أكرم الحيوان جنساً وأشرفه نفساً هل
يحسن به أن يرى لوحوش البهائم عليه فضلاً. وقد قال الشاعر:

على كل حال يأكل المرء زاده على البؤس والضراء والحدثان
وقد قيل لبعض الزهاد: لو سألت جارك أعطاك؟ فقال: والله ما أسأل
الدنيا ممن يملكها فكيف ممن لا يملكها. ووصف بعض الشعراء قوماً فقال:

إذا افتقروا أغضوا على الضر حسبة وإن أيسروا عادوا سراعاً إلى الفقر
فأما من يسأل من غير ضرورة مست ولا حاجة دعت فذلك صرح
اللؤم ومحض الدناء وقلما تجد مثله ملحوظاً أو ممولاً محفوظاً لأن الحرمان
قاده إلى أضييق الأرزاق واللؤم ساقه إلى أخبث المطاعم فلم يبق لوجهه ماء
إلا أراقه ولا ذل إلا ذاقه كما قال عبد الصمد بن المعذل لأبي تمام الطائي:

أنت بين اثنتين تبرز للناس وكلتاها بوجه مذل

(١) مضنية: يقال أضناه المرض إذا أثقله. وضنى الرجل إذا مرض مرضاً غامراً كلما لن برؤه
نكس.

لست تنفك طالباً لوصول من حبيب أو طالباً لنوال
أي ماء لحرّ وجهك يبقى بين ذل الهوى وذل السؤال؟
ولو استقبح العار وأنف من الذل لوجد غير السؤال مكسباً يمونه ولقدّر
على ما يصونه وقد قال الشاعر:

لا تطلبن معيشة بتذل فليأتينك رزقك المقدور
واعلم بأنك آخذ كل الذي لك في الكتاب مقدّر مسطور
والشرط الثاني - من شروط السؤال أن يضيق الزمان عن أرجائه ويقتصر
الوقت عن إبطائه فلا يجد لنفسه في التأخير فسحة ولا في التماذي مهلة
فيصير من المعذورين وداخلاً في عداد المضطرين. فأما إذا كان الوقت
متسعاً والزمان ممتدّاً فتعجيل السؤال لؤم وقنوط. وقال الشاعر:

أبى لي إغضاء الجفون على القذى يقيني أن لا عسر إلا مفرج
ألا ربما ضاق الفضاء بأهله وأمكن من بين الأسنة مخرج
والشرط الثالث - إختيار المسؤول أن يكون مرجو الإجابة مأمول النجح
إما لحرمة السائل أو كرم المسؤول فإن سأل لثيماً لا يرعى حرمة ولا يولى
مكرمة فهو في اختياره ملوم وفي سؤاله محروم. وقد قال بعض البلغاء:
المذلول من كانت له إلى اللثام حاجة. وقد قال بعض البلغاء: أذل من
اللثيم سائله وأقل من البخيل نائله. وقال بعض الشعراء:

من كان يأمل أن يرى من ساقط نيلاً سنيا
فلقد رجا أن يجتني من عوسج رطباً جنيا
وأما الشروط المعبرة في المسؤول فثلاثة:

الشرط الأول - أن يكتفي بالتعريض ولا يلجأ إلى السؤال الصريح
ليصون السائل عن ذل الطلب فإن الحال ناطقة والتعريض كاف. وقد قال
الشاعر:

أقول وستر الدجى مسبل كما قال حين شكا الضفدع

كلامي إن قلته ضائع وفي الصمت حتمي^(١) فما أصنع
وربما فهم المسؤول الإشارة فالجأ إلى التصريح بالعبارة تهجيناً
للسائل ليخجل فيمسك ويستحي فيكف فيكون كما قال أبو تمام:

من كان مفقود الحياء فوجهه من غير بواب له بواب
والشرط الثاني - أن يلقي بالبشر بالترحيب ويقابل بالطلاقة والتقريب ليكون
مشكوراً إن أعطى ومعدوراً إن منع. وقد قال بعض الحكماء: الق صاحب
الحاجة بالبشر فإن عدمت شكره لم تعدم عذره. وقال ابن لنكك: إن أبا
بكر بن دريد قصد الوزراء في حاجة فلم يقضها له وظهر له منه ضجر
فقال:

لا تدخلك ضجرة من سائل	فلخير دهرك أن ترى مسؤولاً
لا تجبهن بالرد وجه مؤمل	فبقاء عذك أن ترى مأمولاً
تلقي الكريم فتستدل ببشره	وترى العبوس على اللثيم دليلاً
واعلم بأنك عن قليل صائر	خبراً فكن خبراً يروق جميلاً

والشرط الثالث - تصديق الأمل فيه وتحقيق الظن به ثم اعتبار حاله
وحال سائله فإنهما لا يخلوان من أربعة أحوال: (فالحال الأولى) أن يكون
السائل مستوجباً والمسؤول متمكناً فالإجابة ههنا تستحق كرمًا وتسلتزم مروءة
وليس للرد سبيل إلاّ لمن استولى عليه البخل وهان عليه الذم فيكون كما
قال فيه عبد الرحمن بن حسان:

إنني رأيت من المكارم حسبكم أن تلبسوا خز الثياب وتشبعوا
فلإذا تذوكرت المكارم مرة في مجلس أنتم به فتقنعوا
فنعوذ بالله ممن حرم ثروة ماله ومنع حسن حاله أن يكون مستودعاً في
صنيع مشكور وبرّ مذخور. وقد قيل لبخيل: لم حبست مالك؟ قال:
للنوائب فليل له: قد نزلت بك. وقال بعض الشعراء:

مالك من مالك إلا الذي قدّمت فابذل طائعاً مالكا

(١) حفي: الحنف الهلاك.

تقول أعمالي ولو فتشوا رأيت أعمالك أعمى لك
وقد أسقط حق نفسه ورفع أسباب شكره فصار بأن لاحق له مذموماً
كمشكور ومأثوماً كمأجور. وقال أبو العتاهية:

خزن البخيل عليّ صالحه إذ لم يثقل برّه ظهري
ما فاتني خير امرئ وضعت عني يده مؤونه الشكر
فلذا لم يكن للردّ في مثل هذه الحال سبيل نظر فإن كان التأخير مضرّاً
عجل بذله وقطع مطله وكانت إجابته فعلاً وقوله عملاً. وقد قالت الحكماء:
من مروءة المطلوب منه أن لا يلجأ إلى إلحاح^(١) عليه. وقال محمد بن
حازم:

ومنتظر سؤالك بالعطايا وأشرف من عطاياها السؤال
إذا لم يأتك المعروف طوعاً فدعه فالتنزه عنه مال
وإن كان في الوقت مهلة وفي التأخير فسحة فقد اختلفت مذاهب
الفضلاء فيه فذهب بعضهم إلى أن الأولى تعجيل الوعد قولاً ثم يعقبه
الإنجاز فعلاً ليكون السائل مسروراً بتعجيل الوعد ثم بأجل الإنجاز ويكون
المسؤول موصوفاً بالكرم ملحوظاً بالوفاء. وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال:
«العدة عطية». وقال الفضل بن سهل لرجل سأله حاجة: أعدك اليوم
وأحبوك بالإنجاز لتذوق حلاوة الأمل وأترزين بثوب الوفاء. ووعد يحيى بن
خالد رجلاً بحاجة سأله إياها فقبل له: تعد وأنت قادر؟ فقال: إن الحاجة
إذا لم يتقدّمها وعد ينتظر صاحبه نجحه لم يجد سرورها لأن الوعد طعم
والإنجاز طعام وليس من فاجأه الطعام كمن يجد ريحه ويطعمه فدع الحاجة
تختمر بالوعد ليكون لها طعم عند المصطنع إليه. وقال بعض البلغاء: إذا
أحسن القول فأحسن الفعل ليجتمع لك ثمرة اللسان وثمرة الإحسان ولا
تقل ما لا تفعل فإنك لا تخلو في ذلك من ذنب تكتسبه أو عجز تلتزمه.
وممنهم من ذهب إلى أن تعجيل البذل فعلاً من غير وعد أولى وتقديمه من غير
ترقب ولا انتظار أخرى وإنما يقدم الوعد أحد رجلين إما معوز ينتظر جدة وإما

(١) إلحاح عليه: يقال: الح السائل في السؤال إذا ألحف وأبرم.

شحيح يروض نفسه توطئة وليس للوعد في غير هاتين الحالتين وجه يصح ولا رأي يتضح مع ما يغيره الليل والنهار وتتقلب به الحال من يسار وإعسار. وقال بعض الشعراء:

بأيها الملك المقدم أمره شرقاً وغرباً
أمنن بختم صحيفتي مادام هذا الطين رطباً
واعلم بأن جفافه مما يعيد السهل صعباً

قالوا: ولأن في الرجوع عنه من الإنكسار وفي توقع الوعد من مرارة الانتظار وفي العودة إليه من بذلة الإقتضاء وذلة الإجتداء ما يكدر برّه ويوهن شكره. وقال الشاعر:

إن الحوائج ربما أزرى بها عند الذي تقضي له تطويلها
فإذا ضمنت لصاحب لك حاجة فاعلم بأن تمامها تعجيلها

(والحال الثانية) أن يكون السائل غير مستوجب والمسؤول غير متمكن ففي الردّ فسحة وفي المنع عذر غير أنه يلين عند الردّ ليناً يقيه الدم ويظهر عذراً يدفع عنه اللوم فليس كل مقلّ يعرف ولا معذور ينصف. وقد قال أبو العتاهية يصف الناس:

يارب إن الناس لا ينصفوني فكيف وإن أنصفتهم ظلموني
فإن كان لي شيء تصدّوا لأخذه وإن جئت أبغي شيئهم منعوني
وإن نالهم بذلي فلا شكر عندهم وإن أنا لم أبذل لهم شتموني
وإن طرقتني نكبة فكهوا بها وإن صحبتني نعمة حسدوني
سأمنع قلبي أن يحنّ إليهم وأغمض عنهم ناظري وجفوني
واقطع أيامي بيوم سهولة أقضي بها عمري ويوم حزون
ألا إن أصفى العيش ما طاب غبه وما نلت في لذة وسكون

(والحال الثالثة) أن يكون السائل مستوجباً والمسؤول غير متمكن فيأتي بالحمل على النفس ما أمكن من يسير يسدّ به خلة أو يدفع به مذمة أو يوضح من أعذار المعوزين وتوقع المتألمين ما يجعله في المنع معذوراً

وبالتوجه مشكوراً. وقد قال أبو نصر العتبي رحمه الله تعالى :

الله يعلم أنني لست ذا بخل ولست ملتمساً في البخل لي عللاً
لكن طاقة مثلي غير خافية والنمل يعذرني القدر الذي حملاً
وربما تحسر بحدوث العجز بعد تقدّم القدرة على فوت الصنيعة
وزوال العادة حتى صار أضنى جسداً وأزيد كمداً كما قال الشاعر:

وكننت كباز السوء قص جناحه يرى حشرات كلما طار طائر
يرى طائرات الجوّ تخفق حوله فيذكر إذ ريش الجناحين وافر
(والحال الرابعة) أن يكون السائل غير مستوجب والمسؤول متمكناً
وعلى البذل قادراً فينظر فإن خاف بالردّ قدح عرض أو قبح هجاء ممض كان
البذل إليه مندوباً صيانة لا جوداً فقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «ما وقى
به المرء عرضه فهو له صدقة» وإن أمن من ذلك وسلم منه فمن الناس من
غلب المسألة وأمر بالبذل لثلا يقابل الرجاء بالخيبة والأمل بالأياس ولما فيه من
اعتیاد الرد واستسهال المنع المفضي إلى الشح. وأنشد الأصمعي عن
الكسائي:

كانك في الكتاب وجدت لاء محرمة عليك فلا تحلّ
فما تدري إذا أعطيت مالاً أيكثر من سماحك أم يقلّ؟
إذا حضر الشتاء فأنت شمس وإن حضر المصيف فأنت ظلّ
ومن الناس من اعتبر الأسباب وغلب حال السائل وندب إلى المنع إذا
كان العطاء في غير حق ليقوى على الحقوق إذا عرضت ولا يعجز عنها إذا
لزمت وتعينت. وقد قال بعض الشعراء:

لا تجد بالعطاء في غير حق ليس في منع غير ذي الحق بخل
إنما الجود أن تجود على من هو للجود والندی منك أهل
فأما من أجاب السؤال ووعد بالبذل والنوال فقد صار بوعده مرهوناً
وصار وفاؤه بالوعد مقروناً فلا اعتبار بحق السائل بعد الوعد ولا سبيل إلى
مراجعة نفسه في الردّ فيستوجب مع ذم المنع لؤم البخل ومقت القادر وهجنة

الكذوب ثم لا سبيل لمطلّة بعد الوعد لما في المطل من تكدير الصنيع وتمحيق الشكر. والعرب تقول في أمثالها: المطل أحد لمنعين واليأس أحد النجحين. وقال بشار بن برد:

أظلت علينا منك يوماً غمامة أضاءت لنا برقاً وأبطأ رشاشها
فلا غيمها يجلي فيأس طامع ولا غيثها يأتي فيروي عطاشها
ثم إذا أنجز وعده وأوفى عهده لم يتبع نفسه ما أعطي ويسر أن كانت
يده العليا^(١) فقد قال رسول الله ﷺ: «اليد العليا خير من اليد السفلى»^(٢).
وقال الشاعر:

فإنك لا تدري إذا جاء سائل أنت بما تعطيه أم هو أسعد؟
عسى سائل ذو حاجة إن منعته من اليوم سؤلاً أن يكون له غد
وليكن من سروره إذا كانت الأرزاق مقدّرة أن تكون على يده جارية
ومن جهته واصله لا تنتقل عنه بمنع ولا تتحوّل عنه بأيأس. وحكي أن رجلاً
شكا كثرة عياله إلى بعض الزهاد فقال: أنظر من كان منهم ليس رزقه على
الله عز وجل فحوّله إلى منزلي. وقال ابن سيرين لرجل كاد يأتيه على دابة
ففقد الدابة: ما فعل برذونك؟ قال: اشتدّت عليّ مؤنته فبعته قال: أفتراه
خلف رزقه عندك. وقال ابن الرومي رحمه الله:

إن لله غير مرعاك مرعى نرتعيه وغير مائك ماء
إن لله بالبرية لطفاً سبق الأمهات والآباء
ثم ليكن عطائه لله تعالى وأكثر قصده ابتغاء ما عند الله عز وجل
كالذي حكاه أبو بكر^(٣) عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن أعرابياً أتاه
فقال:

(١) العليا: المنفقة.

(٢) السفلى: السائلة الآخذة.

(٣) أبو بكر: بن الحارث بن كَلْدَة بفتحين، طيب رسول الله ﷺ، كان من فضلاء الصحابة، ولم يزل مجتهداً في العبادة حتى توفي بالبصرة سنة ٥٢.

يا عمر الخير جزيت الجنة أكس بنياتي وامهنة
وكن لنا من الزمان جنة أقسم بالله لتفعلنه
فقال عمر رضي الله عنه: فإن لم أفعل يكون ماذا؟ فقال:

* إذن أبا حفص لأذهبنه *

فقال: فإذا ذهبت يكون ماذا؟ فقال:

يكون عن حالي لتسألنه يوم تكون الأعطيات هُـة^(١)

وموقف المسؤول بينهما إما إلى نار وإما جنة

فبكى عمر رضي الله عنه حتى اخضلت لحيته ثم قال: يا غلام أعط
قميصي هذا لذلك اليوم لا لشعره أما والله لا أملك غيره. وإذا كان العطاء
على هذا الوجه خلا من طلب جزاء وشكر وعري عن امتنان ونشر فكان
ذلك أشرف للباذل وأهنأ للقابل. وأما المعطي إذا التمس بعطائه الجزاء
وطلب به الشكر والثناء فهو خارج بعطائه عن حكم السخاء لأنه إن طلب به
الشكر والثناء كان صاحب سمعة ورياء وفي هذين من الذم والسمعة ما ينافي
السخاء وإن طلب به الجزاء كان تاجراً متربهاً لا يستحق حمداً ولا مدحاً.
وقد قال ابن عباس رضي الله عنهما في تأويل قوله تعالى: ﴿ولا تمنن
تستكثر﴾ انه الذي يعطي عطيه يلتمس بها أفضل منها. وكان الحسن
البصري رضي الله عنه يقول في تأويل ذلك لا تمنن بعملك تستكثر على
ربك وقال أبو العتاهية:

وليست يد أوليتها بغنيمة إذا كنت ترجو أن تعد لها شكرا
غنى المرء ما يكفيه من سد حاجة فإن زاد شيئاً عاد ذاك الغني فقرا
واعلم أن الكريم يجتدي^(٢) بالكرامة واللفظ واللثيم يجتدي بالمهانة
والعنف فلا يجود إلا خوفاً ولا يجيب إلا عنفاً كما قد قال الشاعر:

(١) هُـة: والهن: البكاء والاشتياق إلى شيء بالركة يقال: هن إليه إذا حن إليه، والمراد أن
الأعطيات تكون شيئاً يحن إليه، أو يبكي على فواته.

(٢) يُجْتَدَى: بالمجهول، يقال: اجتداه إذا سألته حاجة، واجداه إذا أعطاه.

رأيتك مثل الجوز يمنع لبه صحيحاً ويعطي خيره حين يكسر
فاحذر أن تكون المهانة طريقاً إلى اجتدائك والخوف سبيلاً إلى
إعطائك فيجري عليه سفه الطعام وامتهان اللثام وليكن جودك كرمًا ورغبة لا
لؤماً ورهبة كيلا يكون مع الوصمة كما قال العباس بن الأحنف:

صرت كأني ذبالة نصبت تضيء للناس وهي تحترق
وأما النوع الثاني من البرّ فهو المعروف ويتنوع أيضاً نوعين قولاً
وعملاً: فأما القول فهو طيب الكلام وحسن البشر والتودّد بجميل القول وهذا
يبيح عليه حسن الخلق ورقة الطبع ويجب أن يكون محدوداً كالسخاء فإنه
إن أسرف فيه كان ملقاً مذموماً وإن توسط واقتصد فيه كان معروفاً وبراً
محموداً. وقد قال ابن عباس رضي الله عنهما في تأويل قوله تعالى:
﴿والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير أملاً﴾ أنها الكلام الطيب.
وكان سعيد بن جبير يتأول أنها الصلوات الخمس. وروى سعيد عن أبي هريرة
عن النبي ﷺ أنه قال: «إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم فليسمعهم منكم بسط
الوجوه وحسن الخلق» وروي أن النبي ﷺ أنشد عنده قول الأعرابي هذا:

وحي ذوي الأضغان تسب قلوبهم تحيتك الحسنى فقد ترقع النعل

فإن دحسوا^(١) بالمكر فاعف تكرماً وإن حبسوا عنك الحديث فلا تسل
فإن الذي يؤذيك منه سماعه وإن الذي قالوا وراءك لم يقل

فقال النبي ﷺ: «إن من الشعر لحكمة وأن من البيان لسحرا» وقيل
للعنابي: إنك تلقى العامة ببشر وتقريب قال: دفع صنيعه بأيسر مؤنة
واكتساب إخوان بأيسر مبدول. وقيل في منشور الحكم: من قل حياؤه قل
أحباؤه. وقال بعض الشعراء:

أبني إن البشر شيء هين وجه طليق وكلام لين

(١) دحسوا: يقال: دحس بالشر إذا دسه وأخفاه بحيث لا يعلمه أحد.

وقال بعضهم :

المرء لا يعرف مقداره ما لم تبين للناس أفعاله
وكل من يمنعي بشره فقلما ينفعني ماله
وأما العمل فهو بذل الجاه والمساعدة بالنفس والمعونة في النائبة وهذا
يبحث عليه حب الخير للناس وإيثار الصلاح لهم وليس في هذه الأمور سرف
ولا لغايتها حدّ بخلاف النوع الأوّل لأنها وإن كثرت فهي أفعال خير تعود
بنفعين نفع على فاعلها في اكتساب الأجر وجميل الذكر ونفع على المعان
بها في التخفيف عنه والمساعدة له . وقد روى محمد بن المنكدر عن جابر
أن النبي ﷺ قال : «كل معروف صدقة» . وقال النبي ﷺ : «صنائع المعروف
تقي مصارع السوء» وعنه عليه الصلاة والسلام أنه قال : «المعروف كاسمه
وأوّل من يدخل الجنة يوم القيامة المعروف وأهله» وقال علي بن أبي طالب
كرم الله وجهه : لا يزهّدنك في المعروف كفر من كفره فقد يشكر الشاكر
بأضعاف جحود الكافر . وقال الحطيئة :

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه لا يذهب العرف بين الله والناس
وأنشد الرياشي :

يد المعروف غنم حيث كانت تحملها كفور أم شكور
ففي شكر الشكور لها جزاء وعند الله ما كفر الكفور
فينبغي لمن يقدر على ابتداء المعروف أن يعجله حذر فواته ويبادر
به خيفة عجزه وليعلم أنه من فرص زمانه وغنائم إمكانه ولا يهمله ثقة بقدرته
عليه فكم واثق بقدره فأتت فأعقبت ندماً ومعوّل على مكنة زالت فأورثت
خجلاً . وقد قال الشاعر :

ما زلت أسمع : كم من واثق خجل حتى ابتليت فكنت والواثق الخجلاً
ولو فطن لنوائب دهره وتحفظ من عواقب مكروه لكانت مغانمه مذخورة
ومغارمه مجبورة فقد روي عن النبي ﷺ أنه قال : «من فتح عليه باب من
الخير فليتنهزه فإنه لا يدري متى يغلق عليه» وروي عنه ﷺ أنه قال : «لك

شيء ثمرة وثمره المعروف تعجيل السراح». وقيل لأنوشروان: ما أعظم المصائب عندكم؟ فقال: أن تقدر على المعروف ولا تصطنعه حتى يفوت وقال عبد الحميد. من آخر الفرصة عن وقتها فليكن على ثقة من فوتها. وقال بعض الشعراء:

إذا هبت رياحك فاغتنمها فإن لكل خافقة سكون
ولا تغفل عن الإحسان فيها فما تدري السكون متى يكون
وإن درت نياقك فاحتلبها فما تدري الفصيل لمن يكون
وروي أن بعض وزراء بني العباس مطل راغباً إليه في عمل يستكفيه إياه فكتب إليه بعد طول المطل به:

أما يدعوك طول الصبر مني على استئاف منفعتي وشغلي
وعملك أن ذا السلطان غاد على خطرين من موت وعزل
وأنت إن تركت قضاء حقي إلى وقت التفرغ والتخلي
ستصبح نادماً أسفاً^(١) معزى^(٢) على فوت الصنيعة عند مثلي
وكتب بعض ذوي الحرمات إلى وال قد قصر في رعاية حرمة يقول:

أعلى الصراط تريد رعية حرمتي أم في الحساب تمن بالإنعام؟
للنفع في الدنيا أردت فانتبه لحوائجي من رقدة النوم
وكتب أبو علي البصير إلى بعض الوزراء وقد اعتذر إليه بكثرة الأشغال يقول:

لنا كل يوم نوبة قد تنوبها وليس لنا رزق ولا عندنا فضل
فإن تعتذر بالشغل عنا فإنما تناط^(٣) بك الآمال ما اتصل الشغل
واعلم أن للمعروف شروطاً لا يتم إلا بها ولا يكمل إلا معها فمن

(١) أسفاً: يقال: أسف عليه إذا حزن أشد الحزن.

(٢) معزى: يقال: عزاه إذا صبره.

(٣) تناط: يقال: ناط به ينوط نوطاً إذا علقه عليه.

ذلك ستره عن إذاعة يستطيل لها وإخفاؤه عن إشاعة يستدل بها. قال بعض الحكماء: إذا اصطنعت المعروف فاستره وإذا صنع إليك فأنشره ولقد قال دعل الخزاعي:

إذا انتقموا أعلنوا أمرهم وإن أنعموا أنعموا باكتام
يقوم القعود إذا أقبلوا وتقعده هيتهم بالقيام
على أن ستر المعروف من أقوى أسباب ظهوره وأبلغ دواعي نشره لما
جبلت عليه النفوس من إظهار ما خفي وإعلان ما كتم. وقال سهل بن
هارون:

خلّ إذا جئته يوماً لتسأله أعطاك ما ملكت كفاه واعتذرا
يخفي صنائعه والله يظهرها إن الجمال إذا أخفيته ظهرا
ومن شروط المعروف تصغيره عن أن يراه مستكبراً وتقليله عن أن
يكون مستكثراً لئلا يصير به مدلاً بطراً ومستطيلاً أشراً. وقال العباس بن عبد
المطلب رضي الله عنه: لا يتم المعروف إلا بثلاث خصال تعجيله وتصغيره
وستره فإذا عجلته هنأته^(١) وإذا صغرت عظمته وإذا سترته أتمته. وقال بعض
الشعراء:

زاد معروفك عندي عظما أنه عندك مستور حقير
وتناسيت كأن لم تأته وهو عند الناس مشهور خطير
ومن شروط المعروف مجانبية الإمتنان به وترك الإعجاب بفعله لما
فيهما من إسقاط الشكر وإحباط الأجر. فقد زوي عن النبي ﷺ أنه قال:
«إياكم والإمتنان بالمعروف فإنه يبطل الشكر ويمحق الأجر» ثم تلا: «لا
تبطلوا صدقاتكم باليمن والأذى». وسمع ابن سيرين رجلاً يقول لرجل:
فعلت إليك وفعلت. فقال ابن سيرين اسكت فلا خير في المعروف إذا
أحصى. وقال بعض الحكماء: المن مفسدة الصنيعة. وقال بعض الأدباء: كدر
معروفا إمتنان وضيع حسبا إمتهان. وقد قال بعض البلغاء: من من يعرفه
(١) هنأته: أي صيرته هنئاً، وهو كل أمر أتى بلا تعب.

سقط شكره ومن أعجب بعمله حبط أجره. وقال بعض الفصحاء: قُوَّةُ الْمُتَنِّ
من ضعف الْمُتَنِّ. وقال بعض الشعراء:

افسدت بالمتن ما أسديت من حسن ليس الكريم إذا أسدى بمنان
وقال أبو^(١) نواس:

فامض لا تمن عليّ يدا مَنك المعروف من كدره
وأنشدت عن الربيع للشافعي رضي الله عنه:

لا تحملن لمن يمـ من الأنام عليك مَنه
واختر لنفسك حظها واصبر فإن الصبر جُنّه
من الرجال على القلو ب أشدّ من وقع الأسنه

ومن شروط المعروف أن لا يحتقر منه شيئاً وإن كان قليلاً نزرأ إذا
كان الكثير معوزاً وكنت عنه عاجزاً فإن من حقر يسيره فمنع منه أعجزه كثيره
فامتنع عنه وفعل قليل الخير أفضل من تركه. فقد روي عن النبي ﷺ أنه
قال: «لا يمنعكم من المعروف صغيره». وقال عبد الله بن جعفر: لا
تستحي من القليل فإن البخل أقل منه ولا تجبن عن الكثير فإنك أكثر منه.
وقد قال الشاعر:

إعمل الخير ما استطعت وإن كا ن قليلاً فلن تحيط ب كله
ومتى تفعل الكثير من الخيـ ر إذا كنت تاركاً لأقله؟
على أن من المعروف ما لا كلفة على موليه ولا مشقة على مسديه

(١) أبو نواس: هو الحسن بن هانئ بن الجراح الحكمي البصري، وكفى نفسه بأبي نواس لأنه
ينتسب إلى قحطان، وكانت تعجبه كفى ملوكها مثل ذى رعين وذى نواس فاكتفى بأبي نواس.
كان مولده بالأهواز سنة ١٤٥، ثم نشأ بالبصرة وتآدب بها على أبي زيد وخلف الأحمر، ونظر
في كتاب سيبويه وقال الشعر البارع، ومدح الخلفاء والأمراء، وكان يقال: هو في المحدثين،
مثل امرئ القيس في المتقدمين. وكان أبو نواس قد انفرد في زمانه بافراط المجون والهتك،
ولم يزل على حاله إلى أن توفي ببغداد سنة ٢٠٠ هو ومعروف الكرخي العابد الزاهد في يوم
واحد.

ولإنما هو جاه يستظل به الأدنى ويرتفق به التابع . وقد قال الشاعر :

ظُلُّ الفتى ينفع من دونه وماله في ظله حظ

واعلم أنك لن تستطيع أن توسع جميع الناس معروفك ولا أن توليهم إحسانك فاعتمد بذلك أهل الفضل منهم والحفاظ واقصد به ذوي الرعاية والوداد ليكون معروفك فيهم نامياً وصنيعك عندهم زاكياً . وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال : « لا تنفع الصنعة إلا عند ذي حسب ودين » وقال النبي ﷺ : « إذا أراد الله بعبده خيراً جعل صنائعه في أهل »^(١) الحفاظ وقال حسان ابن ثابت رضي الله عنه :

إن الصنعة لا تكون صنعة حتى يصاب بها طريق^(٢) المصنع

فإذا صنعت صنعة فاعمل بها لله أو لذوي القرابة أو
وقيل في منشور الحكم : لا خير في معروف إلى غير عروف وقد
ضرب الشاعر به مثلاً فقال :

كحمار السوء إن أشبعته ربح^(٣) الناس وإن جاع نهق

وقد قال بعض الحكماء : على قدر المغارس يكون اجتناء الغارس
فأخذه بعض الشعراء فقال :

لعمرك ما المعروف في غير أهله وفي أهله إلا كبعض الودائع

فمستودع ضاع الذي كان عنده ومستودع ما عنده غير ضائع

وما الناس في شكر الصنعة عندهم وفي كفرها إلا كبعض المزارع

فمزرعة طابت وأضعف نبتها ومزرعة أكدت^(٤) على كل زارع

وأما من أسدى إليه المعروف واصطنع إليه الإحسان فقد صار بأسر

(١) في أهل الحفاظ : في أهل الدين والامامة .

(٢) طريق المصنع : أي حتى تقع موقعها .

(٣) ربح الناس : يقال : ربحه الفرس إذا رفسه .

(٤) أكدت : يقال : أكدى الرجل إذا قل خيره ، ومنه قوله تعالى « وأعطى قليلاً وأكدى » أي قطع القليل أيضاً .

المعروف موثقاً وفي ملك الإحسان مرقوقاً ولزمه إن كان من أهل المكافأة أن يكافأ عليه، وإن لم يكن من أهلها أن يقابل المعروف بنشره ويقابل الفاعل بشكره. فقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «من أودع معروفاً فليشره فإن نشره فقد شكره وإن كتبه فقد كفره» وروى الزهري عن عروة وعن عائشة رضي الله عنها قالت: دخل على رسول الله ﷺ وأنا أتمثل بهذين البيتين:

أرفع ضعيفك لا تحربك ضعفه يوماً فتدركه العواقب قد نما
يجزيك أويثني عليك وأن من أثنى عليك بما فعلت فقد جزي

فقال النبي ﷺ: ردي عليّ قول اليهودي قاتله الله لقد أتاني جبرائيل برسالة من ربي تعالى ﴿أيما رجل صنع إلى أخيه صنعة فلم يجد لها جزاء إلا الدعاء والثناء فقد كافأه﴾. وقيل في منشور الحكم: الشكر قيد النعم. وقال عبد الحميد: من لم يشكر الإنعام فاعده من الأنعام. وقيل في منشور الحكم: قيمة كل نعمة شكرها. وقال بعض الحكماء: كفر النعم من أمارات البطر وأسباب الغير. وقال بعض الفصحاء: الكريم شكور أو مشكور والليليم كفور أو مكفور وقال بعض البلغاء: لا زوال للنعمة مع الشكر ولا بقاء لها مع الكفر. وقال بعض الأدباء:

شكر الإله بطول الثناء وشكر الولاة بصدق^(١) الولاء
وشكر النظير بحسن الجزاء وشكر الدنيّ بحسن العطاء
وقال بعض الشعراء

فلو كان يستغني عن الشكر ماجد لعزة ملك أو علو مكان
لما أمر الله العباد بشكره فقال: اشكروا لي أيها الثقلان
فإن من شكر معروف من أحسن إليه ونشر إفضال من أنعم عليه فقد أدى حق النعمة وقضى موجب الصنعة ولم يبق عليه إلا استدامة ذلك، إتماماً لشكره ليكون للمزيد مستحقاً وللمتابعة الإحسان مستوجباً. حكى أن

(١) بصدق الولاء: بإخلاص المحبة والنصرة لهم.

الحجاج^(١) أتى إليه بقوم من الخوارج وكان فيهم صديق له فأمر بقتلهم إلا ذلك الصديق فإنه عفا عنه وأطلقه ووصله فرجع الرجل إلى قطري بن الفجاءة وكان من أصحابه فقال له: عد إلى قتال الحجاج عدوّ الله فقال: هيئات غل يداً مطلقها واسترق رقبة معتقها وأنشأ يقول:

أقاتل الحجاج عن سلطانه بيد تقرّ بأنها مولاته؟
إني إذا لأخو الدناءة والذي شهدت بأقبح فعله غدارته
ماذا أقول إذا وقفت إزاءه في الصف واحتجت له فعلاته
أقول: جار عليّ لا إني إذا لأحق من جارت عليه ولاته
وتحدث الأقسام أن صنائعاً غرست لديّ فحنظلت^(٢) نخلاته
وقيل في منشور الحكم: المعروف رق والمكافأة عتق. ومن أشكر
الناس الذي يقول:

لأشكرنّ لكّ معروفاً هممتّ به إن أهتأمتك بالمعروف معروف
ولا ألومك إن لم يُمضِ قَدْر فالشيء بالقدر المحتوم مصروف
وهذا النوع من الشكر الذي يتعجل المعروف ويتقدّم البر قد يكون
على وجوه فيكون تارة من حسن الثقة بالشكور في وصول بره وإسداء عرفه
ولا رأي لمن يحسن به ظن شاكر أن يخلف حسن ظنه فيه فيكون كما قال
العتابي:

قد أورقت فيك آمالي بوعدك لي وليس في ورق الآمال لي ثمر
وقد يكون تارة من فرط شكر الراجي وحسن مكافأة الأمل فلا يرضى
لنفسه إلاّ بتعجيل الحق وإسلاف الشكر وليس لمن صادف لمعرفه معدناً
زاكياً ومغرساً نامياً أن يفوّت نفسه غنماً ولا يحرمها ربحاً فهذا وجه ثان. وقد

(١) الحجاج: بن يوسف بن أبي عقيل الثقفي، السفاك، المشهور، ولد سنة ٤١ ونشأ بالطائف، ثم اتصل بروح بن زنباع، ثم بعبد الملك بن مروان، ولم يزل يترقى إلى أن ولى العراق والشرق، وطار ذكره وعظم سلطانه، وله مثالب مشهورة ومناقب معدودة.
(٢) فحنظلت: أي أتت بحنظلة لحبث تراه.

يكون تارة إرتهاناً للمأمول وحثاً للمسؤول وبحسب ما أسلف من الشكر
يكون الذم عند الأياس. وقال بعض الأدباء من حكماء المتقدمين: من
شكرك على معروف لم تسده إليه فعاجله بالبر وإلا انعكس فصار ذماً. وقال
ابن الرومي:

وما الحقد إلا توأم الشكر في الفتى وبعض السجايا ينتسبن إلى بعض
فحيث ترى حقداً على ذي إساءة فثم ترى شكراً على حسن القرض
إذا الأرض أدت ريع^(١) ما أنت زارع من البذر فيها فهي ناهيك من أرض
وأما من ستر معروف المنعم ولم يشكره على ما أولاه من نعمه فقد
كفر النعمة وجحد الصنيعة وإن من أدم الخلائق وأسوأ الطرائق ما يستوجب
به قبح الرد وسوء المنع. فقد روى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ
أنه قال: «لا يشكر الله من لا يشكر الناس». وقال بعض الأدباء: من لم
يشكر لمنعمه استحق قطع النعمة. وقال بعض الفصحاء: من كفر نعمة
المفيد استوجب حرمان المزيد. وقال بعض البلغاء: من أنكر الصنيعة
استوجب قبح القطيعة. وأنشدني بعض الأدباء ما ذكر أنه لعلي بن أبي
طالب كرم الله وجهه:

من جاور النعمة بالشكر لم يخش على النعمة مغتالها
لو شكروا النعمة زادتهم مقالة الله التي قالها
لئن شكرتم لأزيدنكم لكنما كفرهم غالها
والكفر بالنعمة يدعو إلى زوالها والشكر أبقى لها
وهذا آخر ما يتعلق بالقاعدة الثانية من أسباب الألفة الجامعة.

(فأما القاعدة الثالثة) فهي المادة الكافية لأن حاجة الإنسان لازمة لا
يعرى منها بشر. وقال الله تعالى: ﴿وما جعلناهم جنساً لا يأكلون الطعام
وما كانوا خالدين﴾ فإذا عدم المادة التي هي قوام نفسه لم تدم له حياة ولم

(١) ريع: الربيع النماء والفضل.

يستقيم له دين وإذا تعذر شيء منها عليه لحقه من الوهن في نفسه والإختلال في دنياه بقدر ما تعذر من المادة عليه لأن الشيء القائم بغيره يكمل بكماله ويختل باختلاله. ثم لما كانت المواد مطلوبة لحاجة الكافة إليها اعوزت بغير طلب وعدمت لغير سبب وأسباب المودة مختلفة وجهات المكاسب متشعبة ليكون اختلاف أسبابها علة الائتلاف بها وتشعب جهاتها توسعه لطلابها كيلا يجتمعوا على سبب واحد فلا يلتزمون أو يشتركوا في لا يتكلفوا ائتلافهم في المعاش المختلفة فيعجزوا ولا يعانون بتقدير موادهم بالمكاسب المتشعبة فيختلوا حكمة منه سبحانه وتعالى أطلع بها على عواقب الأمور وقد أنبأ الله تعالى في كتابه العزيز إخباراً وإذكاًراً فقال سبحانه وتعالى: ﴿قال ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى﴾ اختلاف المفسرون في تأويل ذلك فقال قتادة: أعطى كل شيء ما يصلحه ثم هداه وقال مجاهد: أعطى كل شيء صورته ثم هداه لمعيشته. وقال تعالى: ﴿يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون﴾ يعني معاشهم متى يزرعون ومتى يفرسون. وقال تعالى: ﴿وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين﴾ قال عكرمة: قدر في كل بلدة منها ما لم يجعله في الأخرى ليعيش بعضهم من بعض بالتجارة من بلد إلى بلد. وقال الحسن البصري وعبد الرحمن بن زيد: قدر أرزاق أهلها سواء للسائلين الزيادة في أرزاقهم. ثم إن الله تعالى جعل لهم مع ما هداهم إليه من مكاسبهم وأرشدهم إليه من معاشهم ديناً يكون عليهم حكماً وشرعاً يكون لهم قيماً ليصلوا إلى موادهم بتقديره ويطلبوا أسباب مكاسبهم بتدبيره حتى لا ينفردوا بإرادتهم فيتغالبوا وتستولي عليهم أهواؤهم فيتقاطعوا قال الله تعالى: ﴿ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض﴾. قال المفسرون في هذا الموضع: هو الله جل جلاله فلاجل ذلك لم يجعل المواد مطلوبة بالإلهام حتى جعل العقل هادياً إليها والدين قاضياً عليها لتتم السعادة وتعم المصلحة. ثم إنه جلت قدرته جعل سد حاجتهم وتوصلهم إلى منافعهم من وجهين بمادة وكسب: فأما المادة فهي حادثة عن اقتناء أصول نامية بذواتها وهي شيثان نبت نام وحيوان متناسل. وقال الله تعالى: ﴿وأنه

هو أغنى وأقنى» قال أبو صالح: أغنى خلقه بالمال وأقنى جعل لهم قنية^(١) وهي أصول الأموال. وأما الكسب فيكون بالأفعال الموصلة إلى المادة والتصرف المؤدي إلى الحاجة وذلك من وجهين: أحدهما تقلب في تجارة والثاني تصرف في صناعة وهذان هما فرع لوجهي المادة فصارت أسباب المواد إذا نمت وتشهد إذا غبت وتكون عقباً إذا مت. وروى هشام بن عروة عن عائشة حيوان وبيع تجارة وكسب صناعة. وحكى الحسن بن رجاء مثل ذلك عن المأمون قال: سمعته يقول: معاش الناس على أربعة أقسام زراعة وصناعة وتجارة وإمارة فمن خرج عنها كان كلا عليها. وإذا قد تقرر أسباب المواد لما ذكرناه فننصف حال كل واحد منها بقول موجز.

أما الأول من أسبابها وهي الزراعة فهي مادة أهل الحضر وسكان الأمصار والمدن والإستمداد بها أعم نفعاً وأوفى فرعاً ولذلك ضرب الله تعالى بها المثل فقال: ﴿مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء﴾ وروى عن النبي ﷺ أنه قال: «خير المال عين ساهرة لعين نائمة» وقال صلى الله عليه وسلم: «نعمت لكم النخلة تشرب من عين خراة وتغرس في أرض خؤارة»^(٢). وقال ﷺ في النخل: «هي الراسخات في الوحل المطعمات في المحل» وقال بعض السلف: خير المال عين خراة في أرض خؤارة تسهر إذا نمت وتشهد إذا غبت وتكون عقباً إذا مت. وروى هشام بن عروة عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «التمسوا الرزق في خبايا الأرض» يعني الزرع. وحكى عن المعتضد أنه قال: رأيت علي بن أبي طالب رضي الله عنه في المنام يناولني المسحاة وقال: خذها فإنها مفاتيح خزائن الأرض. وقال كسرى للموبذ^(٣): ما قيمة تاجي هذا فأطرق ساعة ثم قال ما أعرف له قيمة إلا أن تكون مطرة في نيسان فإنها تصلح من معاش الرعية ما تكون قيمته مثل تاج الملك. ولقي عبد الله بن عبد الملك بن

(١) قنية : هو المال الذي تأثله وعزمت أن لا تخرجه من يدك.

(٢) خؤارة: ضعيفة ، لا تثبت ، ولا تستقر فيها غيرها.

(٣) للموبذ : بضم الميم وفتح الباء ، فقيه الفرس ، وحاكم المجوس.

شهاب الزهري فقال له أدلني على مال أعالجه فأنشأ ابن شهاب يقول:

تتبع خبايا الأرض وادع مليكها لعلك يوماً أن تجاب فترزقا
فيؤتيك مالاً واسعاً ذا متانة إذا ما مياه الأرض غارت تدفقا

وقد اختلف الناس في تفضيل الزرع والشجر بما ليس يتسع كتابنا هذا
لبسط القول فيه غير أن من فضل الزرع فللقرب مداه^(١) ووفور جداه^(٢) ومن
فضل الشجر فلبثت أصله وتوالي ثمره.

وأما الثاني من أسبابها وهو نتاج الحيوان فهو مادة أهل الفلوات
وسكان الخيام لأنهم لما لم تستقر بهم دار ولم تضمهم أمصار افتقروا إلى
الأموال المتنقلة معهم وما لا ينقطع نماؤه بالظعن والرحلة فاقتنوا الحيوان
لأنه يستقل في النقلة بنفسه ويستغني عن العلوفة برعيه ثم هو مركوب
ومحلوب فكان اقتناؤه على أهل الخيام أيسر لقلّة مؤنته وتسهيل الكلفة به
وكانت جدواه عليهم أكثر لوفور نسله واقتيات رسله إلهاماً من الله لحلقه في
تعديل المصالح فيهم وإرشاداً لعباده في قسم المنافع بينهم. وقد روي عن
النبي ﷺ أنه قال: «خير المال مهرة مأمورة^(٣) وسكة^(٤) مأبورة^(٥) ومعنى قوله
ﷺ: مهرة مأمورة أي كثيرة النسل ومنه ما تأول الحسن وقتادة قوله تعالى:
﴿أمرنا مترفيها﴾ أي كثرت عددهم وأما السكة المأبورة فهي النخلة المؤبرة
الحمل. وروي عن النبي ﷺ أنه قال: في الغنم «سمنها معاش^(٥) وصوفها
رياش^(٦)» وروي عن أبي ظبيان أنه قال: قال لي عمر بن الخطاب رضي الله
عنه: ما مالك يا أبا ظبيان قال: قلت عطائي ألفان قال: اتخذ من هذا
الحرث والسائبات قبل أن تليك غلمة من قریش لا تعد العطاء معهم مالاً

(١) مداه: بالفتح أي فتناه.

(٢) جداه: عطيته.

(٣) مأمورة: كثرة النتاج.

(٤) وسكة مأبورة: أي طريقة مصطفة من النمل.

(٥) معاش: يعاش بأكله وبيعه.

(٦) رياش: لباس فاخر.

والسائبات النتاج. وحكي أن امرأة أتت النبي ﷺ فقالت يا رسول الله: إني اتخذت غنماً أبتغي نسلها ورسولها وإنها لا تنمي فقال لها النبي ﷺ ما ألوانها قالت: سود فقال لها: عفرى^(١) وهذا مثل قوله ﷺ في مناحك الأدميين: اغتربوا لا تضوا.

وأما الثالث من أسبابها وهي التجارة فهي فرع لما دقي الزرع والتاج فقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: تسعة أعشار الرزق في التجارة والحرث والباقي في السائبات وهي نوعان تقلب في الحضر من غير نقلة ولا سفر وهذا تربص واحتكار وقد رغب عنه ذوو الأقدار وزهد فيه ذوو الأخطار والثاني تقلب بالمال بالأسفار ونقلة إلى الأمصار فهذا أليق بأهل المروءة وأعم جدوى ومنفعة غير أنه أكثر خطراً وأعظم غرراً فقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «إن المسافر وماله لعلی قَلْبٍ إِلَّا ما وقى الله» يعني على خطر. وفي التوراة يابن آدم أحدث سفرأ أحدث لك رزقاً.

أما الرابع من أسبابها وهو الصناعة فقد يتعلق بما مضى من الأسباب الثلاثة وتنقسم أقسامها ثلاثة: صناعة فكر وصناعة عمل وصناعة مشتركة بين فكر وعمل لأن الناس آلات للصناعة فأشرفهم نفساً متهىء لأشرفها جنساً كما أن أردلهم نفساً متهىء لأردلها جنساً لأن الطبع يبعث على ما يلائمه ويدعو إلى ما يجانسه. وحكي أن الإسكندر لما أراد الخروج إلى أقاصي الأرض قال لأرسطاطاليس^(٢): أخرج معي قال: قد نحل جسمي وضعفت عن الحركة فلا تزعجني قال: فما أصنع في عمالي خاصة قال: أنظر إلى من كان له عبيد فأحسن سياستهم فوله الجنود ومن كانت له ضيعة فأحسن تديرها فوله الخراج فنبه باعتبار الطباع على ما أغناه عن كلفة التجربة.

(١) عَفْرَى: اخلطها بلون آخر كلون التراب.

(٢) ارسطا طاليس: المعروف بالمعلم الأول، وإنما سمي بذلك لأنه أول من وضع التعاليم المنطقية واخرجها من القوة إلى الفعل وكان قد تسلم الإسكندر من أبيه فعلمه وهذبه، وولى اسكندر المملكة، فكان لا يبرم أمراً ولا ينقضه إلا بإشارته وكان بمنزلة الوزير والمشير إلى أن توفي الاسكندر، وعاش بعده قليلاً.

وأشرف الصناعات صناعة الفكر وأرذلها صناعة العمل لأن العمل نتيجة الفكر وتديره. فأما صناعة الفكر فقد تنقسم قسمين: أحدهما ما وقف على التدبيرات الصادرة عن نتائج الآراء الصحيحة كسياسة الناس وتدير البلاد وقد أفردنا للسياسة كتاباً لخصنا فيه من جملها ما ليس يحتمل هذا الكتاب زيادة عليها. والثاني ما أدت إلى المعلومات الحادثة عن الأفكار النظرية وقد مضى في فضل العلم من كتابنا هذا باب أغنى ما فيه عن زيادة قول فيه.

وأما صناعة العمل فقد تنقسم قسمين: عمل صناعي وعمل بهيمي. فالعمل الصناعي أعلاهما رتبة لأنه يحتاج إلى معاطاة في تعلمه ومعاناة في تصوّره فصار بهذه النسبة من المعلومات الفكرية والآخر إنما هو صناعة كدّ وآلة مهنة وهي الصناعة التي تقتصر عليها النفوس الرذلة وتقف عليها الطباع الخاسئة كما قال أكثم بن صيفي: لكل ساقطة لاقطة وكما قال المتلمس:

ولا يقيم على ضميم يسام به إلا الأذلان غير^(١) الحي والوتد^(٢)
هذا على الخسف مربوط برمته^(٣) وذا يشج^(٤) فلا يرثي له أحد

وأما الصناعة المشتركة بين الفكر والعمل فقد تنقسم قسمين: أحدهما أن تكون صناعة الفكر أغلب والعمل تبعاً كالكتابة. والثاني أن تكون صناعة العمل أغلب والفكر تبعاً كالبناء وأعلاهما رتبة ما كانت صناعة الفكر أغلب عليها والعمل تبعاً لها فهذه أحوال الخلق التي ركبهم الله عز وجل عليها في ارتياد موادهم ووكّلهم إلى نظرهم في طلب مكاسبهم وفرق بين همهم في التماسها ليكون ذلك سبباً لألفتهم. فسبحان من تفرد فينا بلطف حكيمته وأظهر لفطنتنا عزائم قدرته. وإذ قد وضع القول في أسباب المواد وجهات الكسب فليس يخلو حال الإنسان فيها من ثلاثة أمور:

أحدها أن يطلب منها قدر كفايته ويلتمس وفق حاجته من غير أن

(١) العير: الحمار.

(٢) والوتد: الخشب الذي يشد به طناب الخيمة.

(٣) برمته: بحبله البالي. وعلى الخسف: أي على النقيصة والذل.

(٤) يشج: كسر الرأس وشقه.

يتعدى إلى زيادة عليها أو يقتصر على نقصان منها فهذه أحمد أحوال الطالبين وأعدل مراتب المقتصدين. وقد روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أوحى الله تعالى إليّ كلمات فدخلن في أذني ووقرن في قلبي من أعطى فضل ماله فهو خير له ومن أمسك فهو شرّ له ولا يلم الله على كفاف» وروى حميد عن معاوية بن حيدة قال: قلت يا رسول الله: ما يكفيني من الدنيا قال: ما يسدّ جوعتك ويستر عورتك فإن كان دارُ فذاك وإن كان خمار فَبَخِ بَخٍ^(١) فَلَقَّ مِنْ خُبْزٍ وَجَرٍ^(٢) من ماء وأنت مسؤول عما فوق الأزار^(٣). وقد روي عن ابن عباس ومجاهد في قوله تعالى: ﴿إِذْ جَعَلْ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا﴾ أن كل من ملك بيتاً وزوجة وخادماً فهو ملك. وروى زيد ابن أسلم قال: قال رسول الله ﷺ: من كان له بيت وخادم فهو ملك وهو في المعنى صحيح لأنه بالزوجة والخادم مطاع في أمره وفي الدار محجوب إلا عن إذنه وليس على من طلب قدر الكفاية ولم يجاوز تبعات الزيادة إلا توخى الحلال منه وإجمال الطلب فيه ومجانبة الشبهة الممازجة له. وقد روى نافع عن ابن عمر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الحلال بين المرام بين وبينهما أمور مشتبهات فدع ما يريبك إلى ما لا يريبك فلن تجد فقد شيء تركته الله» وسئل رسول الله ﷺ عن الزهد فقال: أما إنه ليس بإضاعة المال ولا تحريم الحلال ولكن أن تكون بما بيد الله أوثق منك بما في يديك وأن يكون ثواب المصيبة أرجح عندك من بقائها. وحكى عبد الله ابن المبارك قال: كتب عمر بن عبد العزيز إلى الجراح بن عبد الله الحكمي: إن استطعت أن تدع مما أحل الله لك ما يكون حاجزاً بينك وبين الحرام فافعل فإنه من استوعب الحلال تاقّت نفسه إلى الحرام. وقد اختلف أهل التأويل في قوله تعالى: ﴿فَإِنْ لَهُ مَعِيشَةٌ ضَنْكًا﴾ فقال عكرمة يعني كسباً حراماً وقال ابن عباس: هو إنفاق من لا يوقن بالخلف. وقال يحيى بن

(١) بَخٍ: كلمة تقال عند المدح والرضا بالشيء، وتكرر للمبالغة.

(٢) جر: مفردة جرة كتمر وقمرة.

(٣) فوق الأزار: أي أنت مسؤول عما زاد على الأزار الواحد، أما لواحد فلست مسؤولاً عنه لأنه لا بد منه لستر العورة.

معاذ: الدرهم عقرب فإذا أحسنت رقيتها وإلاً تأخذها وقيل: من قل توقيه كثرت مساويه. وقال بعض البلغاء: خير الأموال ما أخذته من الحلال وصرفته في النوال وشر الأموال ما أخذته من الحرام وصرفته في الآثام وكان الأوزاعي الفقيه كثيراً ما يتمثل بهذه الأبيات:

المال ينفد حله وحرامه يوماً ويبقى بعده آثامه
ليس التقى بمتقى لإلهه حتى يطيب شرابه وطعامه
ويطيب ما يجني ويكسب أهله ويطيب من لفظ الحديث كلامه
نطق النبي لنا به عن ربه فعلى النبي صلاته وسلامه

وحكي عن ابن^(١) المعتمر والسلمي قال: النياس ثلاثة أصناف أغنياء وفقراء وأوساط. فالفقراء موتى إلا من أغناه الله بعز القناعة. والأغنياء سكارى إلا من عصمه الله تعالى بتوقع الغير وأكثر الخير مع أكثر الأوساط وأكثر الشر مع أكثر الفقراء والأغنياء لسخف الفقر وبطر الغني.

والأمر الثاني أن يقصر عن طلب كفايته ويزهد في التماس مادته وهذا التقصير قد يكون على ثلاثة أوجه فيكون تارة كسلاً وتارة توكلًا وتارة زهداً وتقتنعاً فإن كان تقصيره لكسل فقد حرم ثروة النشاط ومرح الإغتياب فلن يعدم أن يكون كلاً^(٢) قصياً أو ضائعاً شقياً. وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «كاد الحسد يغلب القدر وكاد الفقر أن يكون كفراً» وقال بزرجمهر: إن كان شيء فوق الحياة فالصحة وإن كان شيء مثلها فالغنى وإن كان شيء فوق الموت فالمرض وإن كان شيء مثله فالفقر. وقيل في منشور الحكم: القبر خير من الفقر ووجد في نيل مصر مكتوب على حجر:

عقب الصبر نجاح وغنى ورداء الفقر من نسج الكسل
وقال بعض الشعراء

أعوذ بك اللهم من بطر الغنى ومن نهكة البلوى ومن ذلة الفقر

(١) ابن المعتمر: هو بشر، من البلغاء والمتكلمين، ينسب إليه من المعترلة.

(٢) كلاً قصياً: أي متناهياً في الكلالة والثقله.

ومن أمل يمتدّ في كل شارق يرجعني منه بخط يد^(١) صفر
إذا لم تدنسني الذنوب بعارها فليست أبالي ما تشعث من أمري

وإذا كان تقصيره لتوكل فذلك عجز قد أعذر به نفسه وترك حزم قد
غير اسمه لأن الله تعالى إنما أمر بالتوكل عند انقطاع الحيل والتسليم إلى
القضاء بعد الإعواز. وقد روى معمر عن أيوب عن أبي قلابة قال: ذكر عند
النبي ﷺ رجل فذكر فيه خير فقالوا يا رسول الله: خرج معنا حاجاً فإذا نزلنا
مترلاً لم يزل يصلي حتى نرحل فإذا ارتحلنا لم يزل يذكر الله عز وجل حتى
ننزل فقال ﷺ: فمن كان يكفيه علف ناقته وصنع طعامه قالوا: كلنا يا
رسول الله قال: كلكم خير منه. وقال بعض الحكماء: ليس من توكل المرء
اضاعته للحزم ولا من الحزم إضاعة نصيبه من التوكل. وإن كان تقصيره
لزهد وتقنع فهذه حال من علم بمحاسبة نفسه بتبعات الغنى والثروة وخاف
عليها بوائق الهوى والقدرة فأثر الفقر على الغنى وزجر النفس عن ركوب
الهوى فقد روى أبو الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ «ما من يوم طلعت فيه
شمسه إلّا وعلى جنبتيها ملكان يناديان يسمعهما خلق الله كلهم إلّا الثقلين
يأبها الناس هلموا إلى ربكم إن ما قلّ وكفى خير مما كثر وألهى» وروى زيد
ابن علي بن الحسين عن أبيه عن جده رضي الله عنهم أجمعين أنه قال:
قال رسول الله ﷺ: «لانتظار الفرج من الله بالصبر عبادة ومن رضي من الله
عز وجل بالقليل من الرزق رضي عز وجل منه بالقليل من العمل» وروى
عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: من نيل^(٢) الفقر أنك لا تجد
أحداً يعصي الله ليفتقر فأخذه محمود الوراق فقال:

يا عائب الفقر ألا تزدجر عيب الغنى أكثر لو تعتبر
من شرف الفقر ومن فضله على الغنى إن صح منك النظر
أنك تعصى لتنال الغنى ولست تعصي الله كي تفتقر

(١) بخط يد صفر : أي خالي اليد.

(٢) من نيل الفقر: من فضله.

وقال ابن المقفع

دليلك أن الفقر خير من الغنى وأن قليل المال خير من المثرى
لقاؤك مخلوقاً عصى الله بالغنى ولم تر مخلوقاً عصى الله بالفقر

وهذه الحال إنما تصح لمن نصح نفسه فأطاعته وصدقها فأجابته حتى
لأن قيادها وهان عنادها وعلمت أن من لم يقنع بالقليل لم يقنع بالكثير كما
كتب الحسن البصري إلى عمر بن عبد العزيز رضي الله عنهما: يا أخي من
استغنى بالله اكتفى ومن انقطع إلى غيره تعنى ومن كان من قليل الدنيا لا
يشبع لم يغنه منها كثرة ما يجمع فعليك منها بالكفاف وألزم نفسك العفاف
وإياك وجمع الفضول فإن حسابه يطول. وقال بعض الحكماء: هيهات منك
الغنى إن لم يقنعك ما حوت فأما من أعرضت نفسه عن قبول نصحه
وجمحت به عن قناعة زهده فليس إلى إكراهها سبيل ولا للحمل عليها وجه
إلا بالرياضة والمروءة وأن يستنزلها إلى اليسير الذي لا تنفر منه فإذا استقرت
عليه أنزلها إلى ما هو أقل منه لتنتهي بالتدرج إلى الغاية المطلوبة وتستقر
 بالرياضة والتمرين على الحال المحبوبة. وقد تقدم قول الحكماء: إن
المكروه سهل بالتمرين فهذا حكم ما في الأمر الثاني من التقصير عن طلب
الكفاية (وأما الأمر الثالث) فهو أن لا يقنع بالكفاية ويطلب الزيادة والكثرة
فقد يدعو إلى ذلك أربعة أسباب: أحدها منازعة الشهوات التي لا تنال إلا
بزيادة المال وكثرة المادة فإذا نازعته الشهوة طلب من المال ما يوصله إليها
وليس للشهوات حدّ متناه فيصير ذلك ذريعة إلى أن ما يطلبه من الزيادة غير
متناه ومن لم يتناه طلبه استدّام كدّه وتعبه فلم يف التذاذه بنيل شهواته بما
يعانيه من استدّامة كده وأتعبه مع ما قد لزمه من ذم الإنقياد لمغالبة
الشهوات والتعرض لاكتساب التبعات حتى يصير كالبهيمة التي قد انصرف
طلبها إلى ما تدعو إليه شهوتها فلا تنزجر عنه بعقل ولا تنكف عنه بقناعة.
وقد روي عن علي عن النبي ﷺ أنه قال: «من أراد به خيراً حال بينه وبين
شهوته وحال بينه وبين قلبه وإذا أراد به شراً وكله إلى نفسه» وقد قال
الشاعر:

وإنك إن أعطيت بطنك همه وفرجك نالا منتهى الذم اجمعا
(والسبب الثاني) أن يطلب الزيادة ويلتمس الكثرة ليصرفها في وجوه
الخير ويتقرب بها في جهات البر ويصطنع بها المعروف ويغيث بها الملهوف
فهذا أعذر وبالحمد أخرى وأجدر إذا انصرفت عنه تبعات المطالب وتوفي
شبهات المكاسب وأحسن التقدير في حالتها فائدته وإفادته على قدر الزيادة
وبقدر الإمكان لأن المال آلة للمكارم وعون على الدين ومتألف للإخوان
ومن فقده من أهل الدنيا قلت الرغبة فيه والرهبة منه ومن لم يكن منهم
بموضع رهبة ولا رغبة استهانوا به. وقد روى عبد الله بن بريدة عن أبيه
قال: قال رسول الله ﷺ: «إن حساب أهل الدنيا هذا المال» وقال مجاهد:
الخير في القرآن كله المال «وإنه لحب الخير لشديد» يعني المال «وأحببت
حب الخير عن ذكر ربي» يعني المال «فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيراً» يعني
مالاً وقال شعيب النبي عليه السلام: «إني أراكم بخير» يعني المال وإنما
سمى الله تعالى المال خيراً إذا كان في الخير مصروفاً لأن ما أدى إلى الخير
فهو في نفسه خير وقد اختلف أهل التأويل في قوله تعالى: ﴿ومنهم من﴾
يقول ربنا آتانا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار﴾ فقال
السدي وعبد الرحمن بن زيد: الحسنة في الدنيا المال وفي الآخرة الجنة
وقال الحسن البصري وسفيان الثوري: الحسنة في الدنيا العلم والعبادة وفي
الآخرة الجنة وقال ابن عباس: الدراهم والدنانير خواتم الله في الأرض لا
تؤكل ولا تشرب حيث قصدت بها قضيت حاجتك. وقال قيس بن (١) سعد:
اللهم ارزقني حمداً ومجداً فإنه لا حمد إلا بفعال ولا مجد إلا بمال. وقد
قيل لأبي (٢) الزناد: لم تحب الدراهم وهي تدنيك من الدنيا فقال: هي وإن

(١) قيس بن سعد: بن عبادة، أبو عبد الله الخزرجي، وهو صاحب الشرطة للنبي ﷺ، وكان
ضخم مفروط الطول، نبيلاً جواداً جميلاً سيّداً، من ذوي الرأي والدهاء والتقدم، وهو سيد
الخزرج، وكان شريف قومه، ليس في وجهه شعر ولا لحية، وكانت الأنصار تقول: ودنا لو
نشتري لقيس لحية بأموالنا، وكان مع ذلك بعيلاً، وكان أسود اللون، توفي بالمدينة في آخر
خلافة معاوية.

(٢) لأبي الزناد: عبد الله بن ذكوان المدني القرشي، وقد اتفق على جلالته وإمامته، وولاه عمر بن =

أدنتني منها فقد صاننتني عنها. وقال بعض الحكماء: من أصلح ماله فقد صان الأكرمين الدين والعرض. وقيل في منشور الحكم: من استغنى كرم على أهله. ومرّ رجل من أرباب الأموال ببعض العلماء فتحرك له وأكرمه فقليل له بعد ذلك: أكانت لك إلى هذا حاجة قال: لا ولكنني رأيت ذا المال مهيباً. وسأل رجل محمد بن عمير بن عطار وعتاب بن ورقاء في عشر ديات فتال محمد: عليّ دية وقال عتاب: الباقي عليّ فقال محمد: نعم العون على المجد اليسار. وقال الأحنف بن قيس:

فلو كنت مُثْرًى بمال كثير لجدت وكنت له باذلاً
فلئن المروءة لا تستطاع إذا لم يكن مالها فاضلاً
وكان يقال: الدراهم مراهم لأنها تداوي كل جرح ويطيب بها كل صلح. وقال ابن الجلال:

رزقت مالاً ولم ترزق مروءته وما المروءة إلا كثرة المال
إذا أردت رقي العلياء يقعدني عما ينوّه باسمى رقة الحال
وقيل في منشور الحكم: الفقر مخذلة والغنى مجذلة والبؤس مرذلة والسؤال مبذلة. وقال أوس بن حجر:

أقيم بدار الحزم ما دام حزمها وأحر إذا حالت بأن أتحوّلا
فلإني وجدت الناس إلا أقلهم خفاف عهد يكثرون التنقلا
بني أم ذي المال الكثير يرونه وإن كان عبداً سيد القوم جحفلا
وهم لمقلّ المال أولاد علة وإن كان محضاً في العشيرة مخولا

وقال بشر الضرير

كفى حزناً أني أروح وأغتدي وماليّ من مالٍ أصون به عرضي
وأكثر ما ألقى الصديق بمرحباً وذلك لا يكفي الصديق ولا يرضي

= عبد العزيز خراج العراق، وقال البخاري: أصح أسانيد أبي هريرة أبو الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة.

وقال آخر

أجلك قوم حين صرت إلى الغنى وكل غني في العيون جليل
وليس الغنى إلا غنى زين الفتى عشية يقرى^(١) أو غداة ينيل
وقد اختلف الناس في تفضيل الغنى والفقر مع اتفاقهم على أن
ما أحوج من الفقر مكروه وما أبطر من الغنى مذموم فذهب قوم إلى
تفضيل الغنى على الفقر لأن الغني مقتدر والفقير عاجز والقدرة أفضل من
العجز وهذا مذهب من غلب عليه حب النباهة وذهب آخرون إلى تفضيل
الفقر على الغنى لأن الفقير تارك والغني ملايس وترك الدنيا أفضل من
ملايسها وهذا مذهب من غلب عليه حب السلامة. وذهب آخرون إلى
تفضيل التوسط بين الأمرين بأن يخرج عن حد الفقر إلى أدنى مراتب الغنى
ليصل إلى فضيلة الأمرين ويسلم من مذمة الحالين وهذا مذهب من يرى
تفضيل الاعتدال وأن خيار الأمور أوساطها وقد مضى شواهد كل فريق في
موضعه بما أغنى عن إعادته (والسبب الثالث) أن يطلب الزيادة ويقتني
الأموال ليذخرها لولده ويخلفها لورثته مع شدة ضنه على نفسه وكفه عن
صرف ذلك في حقه إشفاقاً عليهم من كدح^(٢) الطلب وسوء المنقلب وهذا
شقيّ بجمعها مأخوذ بوزرها قد استحق اللوم من وجوه لا تخفى على ذي
لب: منها سوء ظنه بخالقه أنه لا يرزقهم إلا من جهته. وقد قيل: قتل
القنوط صاحبه وفي حسن الظن بالله راحة القلوب. وقال عبد الحميد: كيف
تبقى على حالتك والدهر في إحالتك. ومنها الثقة ببقاء ذلك على ولده مع
نوائب الزمان ومصائبه وقد قيل: الدهر حسود لا يأتي على شيء إلا غيره.
وقيل في منشور الحكم: المال ملول. وقال بعض الحكماء: الدنيا إن بقيت
لك لا تبقى لها. ومنها ما حرم من منافع ماله وسلب من وفور حاله وقد
قيل: إنما مالك لك أو للوارث أو للجائحة^(٣) فلا تكن أشقى الثلاثة. وقال
عبد الحميد إطرح كواذب آمالك وكن وارث مالك. ومنها ما لحقه من شقاء

(١) يقرى: من أقرى الضيف إذا أضافه وأناله إذا أعطاه.

(٢) من كدح الطلب: من تعب وكده.

(٣) للجائحة: يقال: جاحتهم السنة تجوح إذا أهلكهم واستأصلهم.

جمعه وناله من عناء كده حتى صار ساعياً محروماً وجاهداً مذموماً وقد قيل:
رب مغبوط بمسرة هي داؤه ومرحوم من سقم هو شفاؤه وقال الشاعر:

ومن كلفته النفس فوق كفافها فما ينقضي حتى الممات عناؤه

ومنها ما يؤخذ به من وزره وآثامه ويحاسب عليه من تبعاته وإجرامه.
وقد حكى أن هشام بن عبد الملك لما ثقل بكى ولده عليه فقال لهم: جاد
لكم هشام بالدنيا وجدتم عليه بالبكاء وترك لكم ما كسب وتركتم عليه ما
اكتسب ما أسوأ حال هشام إن لم يغفر الله له فأخذ هذا المعنى محمود
الوراق فقال:

تمتع بمالك قبل الممات وإلا فلا مال إن أنت متا
شقيت به ثم خلفته لغيرك بعداً وسحقاً ومقتا
فحدادوا عليك بزور البكاء وجدت عليهم بما قد جمعنا
وأرهنهم كل ما في يديك وخلوك رهنأ بما قد كسبتا

وروي أن العباس بن عبد المطلب جاء إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول
الله ولني فقال ﷺ: يا عباس يا عم النبي ﷺ قليل يكفيك خير من كثير
يرديك يا عباس يا عم النبي نفس تنجيها خير من إمارة لا تحصيها يا عباس
يا عم النبي ﷺ إن الإمارة أولها ندامة وأوسطها ملامة وآخرها جزاء يوم
القيامة فقال: يا رسول الله إلا من عدل فقال رسول الله ﷺ: كيف تعدلون
مع الأقارب. وقال رجل للحسن البصري رحمه الله: إني أخاف الموت وأكرهه
فقال: إنك خلفت مالك ولو قدمته لسرك اللاحق به. وقيل في منشور الحكم:
كثرة مال الميت تعزي ورثته عنه فأخذ هذا المعنى ابن الرومي فقال وزاد:

أبقيت مالك ميراثاً لوارثه فليت شعري ما أبقي لك المال
القوم بعدك في حال تسرهم فكيف بعدهم حالت بك الحال
ملوا البكاء فما يبكيك من أحد واستحكم القول في الميراث والقال
ولتهم عنك دنيا أقبلت لهم وأدبرت عنك والأيام أحوال

(والسبب الرابع) أن يجمع المال ويطلب المكاثرة استحلاء لجمعه

وشغفاً باحتجانه فهذا أسوأ الناس حالاً فيه واشدّهم حرماناً له قد توجهت إليه سائر الملاوم حتى صار وبالاً عليه ومذاماً له وفي مثله قال الله تعالى: ﴿والذين يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم﴾ فقال النبي ﷺ: تبا للذهب تبا للفضة فشق ذلك على أصحاب النبي ﷺ فقالوا: أي مال نتخذ فقال عمر رضي الله عنه: أنا أعلم لكم ذلك فقال يا رسول الله إن أصحابك قد شق عليهم فقالوا: أي مال نتخذ فقال: لساناً ذاكراً وقلباً شاكراً وزوجة مؤمنة تعين أحدكم على دينه وروى شهر بن حوشب عن إمامه قال: مات رجل من أهل الصفة^(١) فوجد في منزله دينار فقال النبي ﷺ: كية ثم مات آخر فوجد في منزله ديناران فقال النبي ﷺ: كيتان وإنما ذكر ذلك فيهما وإن كان قد مات على عهده من ترك أموالاً جمة وأحوالاً ضخمة فلم يكن فيه ما كان في هذين لأنها تظاهرا بالقناعة واحتجنا ما ليس بهما إليه حاجة فصار ما احتجناه وزراً عليهما وعقاباً لهما وقد قال الشاعر:

إذا كنت ذا مال ولم تك ذا ندى فأنت إذا والمقترون سواء
على أن في الأموال يوماً تباعة على أهلها والمقترون براء^(٢)
وأنشدت عن الربيع للشافعي رضي الله عنه:

إن الذي رزق اليسار فلم يصب حمداً ولا أجراً لغير. موفق
والجدّ يذني كل شيء شاسع والجدّ يفتح كل باب مغلق
وأحق خلق الله بالهم أمرؤ ذو همة عليا وعيش ضيق
ومن الدليل على القضاء وكونه بؤس الليب وطيب عيش الأحق
فإذا سمعت بأن مجدوداً^(٣) حوى عوداً فأورق^(٤) في يديه فحقق

(١) أهل الصفة: هم زهاد من الصحابة فقراء غرباء، كانوا يأوون إلى مسجد النبي ﷺ، وكانت لهم في آخره صفة، وهو مكان منقطع من المسجد مظلل عليه يبيتون فيه، وكانوا يقلون ويكثر، وفي وقت كانوا سبعين وفي وقت أكثر.

(٢) براء: جمع برىء ككريم وكرام.

(٣) مجدوداً: محظوظاً.

(٤) فأورق: صار ذا ورق.

وإذا سمعت بأن محدوداً^(١) أتى ماء ليشربه فجفّ فصَدَقَ
 وافة من بلي بالجمع والإستكثار ومني بالإمساك والأدخار حتى انصرف
 عن رشده فغوى وانحرف عن سنن قصده فهوى أن يستولي عليه حب المال
 وبعد الأمل فيبعثه حب المال على الحرص في طلبه ويدعوه بعد الأمل على
 الشح به والحرص والشح أصل لكل ذم وسبب لكل لؤم لأن الشح يمنع من
 أداء الحقوق ويبعث على القطعية والعقوق ولذلك قال النبي ﷺ: شر ما
 أعطى العبد شح هالع^(٢) وجبن خالع^(٣). وقال بعض الحكماء: الغنيّ
 البخيل كالقويّ الجبان. وأما الحرص فيسلب فضائل النفس لاستيلائه عليها
 ويمنع من التوفر على العبادة لتشاغله عنها ويبعث على التورط في الشبهات
 لقلة تحرزه منها وهذه ثلاث حالات هن جامعات الرذائل سالبات الفضائل
 مع أن الحريص لا يستزيد بحرصه زيادة على رزقه سوى إذلال نفسه
 وإسقاط خالقه وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «الحريص الجاهد والقنوع
 الزاهد يستوفيان أكلهما»^(٤) غير منتقص منه فعلام التهافت^(٥) وقال بعض
 الحكماء: الحرص مفسدة للدين والمروءة والله ما عرفت من وجه رجل رصا
 فرأيت أن فيه مصطنعا. وقال آخر: الحريص أسير مهانة لا يفك أسره. وقال
 بعض البلغاء: المقادير الغالبة لا تنال بالمغالبة. والأرزاق المكتوبة لا تنال
 بالشدة والمكالبة^(٦) فذلّل للمقادير نفسك واعلم بأنك غير نائل بالحرص إلّا
 حظك. وقال بعض الأدباء: رب حظ أدركه غير طالبه ودّر أحرزه غير حالبه.
 وأنشدني بعض أهل الأدب لمحمد بن حازم:

يا أسير الطمع الكا ذب في غل الهوان

(١) المحدود: الممنوع من البخت وغيره.

(٢) هالع: جازع.

(٣) خالع: شديد، كأنه يخلع فزاده من شدته.

(٤) أكلها: بضمين، هو ما يؤكل من الفواكه وغيره، ومنه قوله تعالى: ﴿أَكَلَهَا دَائِمَ وَظَلَّهَا﴾

(٥) التهافت: التساقط والتتابع.

(٦) المكالبة: المشادة.

إن عز اليأس خير لك من ذل الأمانى
سامح الدهر إذا عـ ز وخذ صفو الزمان
ربما أعدم ذو الحر ص وأثرى ذو التواني

وليس للحريص غاية مقصودة يقف عندها ولا نهاية محدودة يقنع بها لأنه أن وصل بالحرص إلى ما أمل أغراه ذلك بزيادة الحرص والأمل وإذا لم يصل رأى إضاعة العناء لوماً^(١) والصبر عليه حزمًا وصار بما سلف من عنائه أقوى رجاء وأبسط أملاً. وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «يشيب ابن آدم ويبقى معه خصلتان الحرص والأمل» وقيل للمسيح عليه السلام: ما بال المشايخ أحرص على الدنيا من الشباب قال لأنهم ذاقوا من طعم الدنيا ما لم يذقه الشباب. ولو صدق الحريص نفسه واستصح عقله لعلم أن من تمام السعادة وحسن التوفيق الرضا بالقضاء والقناعة بالقسم. وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «اقتصادوا في الطلب فإن ما رزقتموه أشد طلباً لكم منكم له وما حرمتموه فلن تنالوه ولو حرصتم» وروي أن جبريل على نبينا وعليه السلام هبط على النبي ﷺ فقال: إن الله تبارك وتعالى يقرأ عليك السلام ويقول لك: اقرأ بسم الله الرحمن الرحيم ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً^(٢) منهم زهرة الحياة الدنيا لفتنتهم^(٣) فيه ورزق ربك خير وأبقى فأمر النبي ﷺ منادياً ينادي من لم يتأدب بأدب الله تعالى تقطعت نفسه على الدنيا حسرات. وقيل مكتوب في بعض الكتب: ردوا ابصاركم عليكم فإن لكم فيها شغلاً. وقال مجاهد في تأويل قوله تعالى: ﴿فلنحيينه حياة طيبة﴾ قال بالقناعة. وقال أكثم بن صيفي: من باع الحرص بالقناعة ظفر بالغنى والمروءة. وقال بعض السلف: قد يخيب الجاهد الساعي ويظفر الوادع الهادي فأخذه البحرني فقال:

لم ألق مقدوراً على استحقاقه في الحظ إما ناقصاً أو زائداً

(١) لوماً: أي دناءة ممة.

(٢) أزواجاً: أصنافاً.

(٣) لفتنتهم: لختبرهم.

وعجبت للمحدود يحرم ناصباً كلفاً وللمجدود يغنم قاعدا
ما خطب من حرم الإرادة قاعداً خطب الذي حرم الإرادة جاهدا

وقال بعض الحكماء : إن من قنع كان غنياً وإن كان مقتراً ومن لم يقنع كان فقيراً وإن كان مكثراً. وقال بعض البلغاء : إذا طلبت العز فاطلبه بالطاعة وإذا طلبت الغنى فاطلبه بالقناعة فمن أطاع الله عز وجل عز نصره ومن لزم القناعة زال فقره. وقال بعض الأدباء : القناعة عز المعسر والصدقة حرز الموسر. وقال بعض الأدباء :

إني أرى من له فنوع يدرك ما نال من تمنى
والرزق يأتي بلا عناء وربما فات من تعنى^(١)

والقناعة قد تكون على ثلاثة أوجه : فالوجه الأول أن يقنع بالبلغة من دنياه ويصرف نفسه عن التعرض لما سواه وهذا أعلى منازل أهل القناعة وقال الشاعر :

إذا شئت أن تحيا غنياً فلا تكن على حالة إلا رضيت بدونها
وقال مالك بن دينار : أزهّد الناس من لا تتجاوز رغبته من الدنيا بلغته
وقال بعض الحكماء : الرضا بالكفاف يؤدّي إلى العفاف. وقال بعض
الأدباء : رب ضيق أفضل من سعة وعناء خير من دعة. وأنشدني بعض أهل
الأدب وذكر أنه لعلي بن أبي طالب كرم الله وجهه :

أفادتني القناعة كل عز وأيّ غنى أعز من القناعة
فصيرها لنفسك رأس مال وصير بعدها التقوى بضاعة

والوجه الثاني أن تنتهي به القناعة إلى الكفاية ويحذف الفضول والزيادة وهذا أوسط حال المقتنع. وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال : « ما من عبد إلا بينه وبين رزقه حجاب فإن قنع واقتصد أتاه رزقه وإن هتك الحجاب لم يزد في رزقه » وقال بعض الحكماء : طلب ما فوق الكفاف إسراف. وقال

(١) تعنى : تعب.

بعض البلغاء: من رضي بالمقدور قنع بالميسور. وقال البحتري:

تطلب الأكثر في الدنيا وقد تبلغ الحاجة منها بالأقل
وأشدت لإبراهيم بن المدبر:

إن القناعة والعفا ف ليغنيان عن الغنى
فإذا صبرت عن المنى فاشكر فقد نلت المنى

والوجه الثالث أن تنتهي به القناعة إلى الوقوف على ما سنع فلا يكره ما أتاه وإن كان كثيراً ولا يطلب ما تعذر وإن كان يسيراً وهذه الحال أدنى منازل أهل القناعة لأنها مشتركة بين رغبة ورهبة: أما الرغبة فلأنه لا يكره الزيادة على الكفاية إذا سحت وأما الرهبة فلأنه لا يطلب المتعذر عن نقصان المادة إذا تعذرت. وفي مثله قال ذو النون^(١) رحمه الله عليه: من كانت قناعته سمينة طابت له كل مرقعة. وقد روى الحسن بن^(٢) علي عن أبيه عن جدّه قال: قال رسول الله ﷺ: «الدنيا دول^(٣)» فما كان منها لك أتاك على ضعفك وما كان منها عليك لم تدفعه بقوتك ومن انقطع رجاؤه مما فات استراح بدنه ومن رضي بما رزقه الله تعالى قرّت عينه وقال أبو حازم الأعرج: وجدت الدنيا شيئين: شيئاً هو لي لن أعجله قبل أجله ولو طلبته بقوة السموات والأرض وشيئاً هو لغيري وذلك مما لم أنله فيما مضى ولا أناله فيما بقي يمنع الذي لي من غيري كما يمنع الذي لغيري مني ففي أيّ هذين أفني عمري وأهلك نفسي . وقال أبو تمام الطائي:

لا تأخذني بالزمان فليس لي تبعاً ولست على الزمان كفيلاً
من كان مرعى عزمه وهمومه روض الأمانى لم يزل مهزولاً
لو جار سلطان القنوع وحكمه في الخلق ما كان القليل قليلاً

(١) ذو النون: المصري من الرجال المذكورة في الرسالة القشيرية، واسمه ثوبان بن إبراهيم، توفي سنة ٢٤٥، واحد علماً وورعاً وحالاً وأدباً.

(٢) الحسن بن الحسن: بن علي بن أبي طالب، وهو من وافق اسمه اسم أبيه، كان من ثقات التابعين، وله ولد يسمى الحسن أيضاً، فهم ثلاثة في نسق واحد.

(٣) دول: أي ذات انقلابات كثيرة، جمع دولة.

الرزق لا تكمد عليه فإنه يأتي ولم تبعث إليه رسولا
وأنشدني بعض أهل الأدب لابن الرومي:

جرى قلم القضاء بما يكون فسيان التحرك والسكون
جنون منك أن تسعى لرزق ويرزق في غشاوته الجنين
ونحن نسأل الله تعالى أكرم مسؤول وأفضل مأمول أن يحسن إلينا
التوفيق فيما منح ويصرف عنا الرغبة فيما منع استكفافاً لتبعات الثروة
وموبقات الشهوة. روى شريك بن أبي نمر عن أبي الجذع عن أعمامه
وأجداده عن النبي ﷺ أنه قال: «خير أمتي الذين لم يُعْطُوا حتى يَنْظُرُوا ولم
يُقْتَرُوا»^(١) حتى يسألوا وقال أبو تمام الطائي:

عندي من الأيام ما لو أنه أضحي بشارب مرقد^(٢) ما غمضا
لا تطلبين الرزق بعد^(٣) شماسه فترومه شعباً إذا ما غيضا^(٤)
ما عوّض الصبر امرؤ إلا رأى ما فاته دون الذي قد عوّضا

باب أدب النفس وهو الخامس من الكتاب

إعلم أن النفس مجبولة على شيم مهملة وأخلاق مرسلّة لا يستغني
محمودها عن التأديب ولا يكتفي بالمرضيّ منها عن التهذيب لأن لمحمودها
أضداداً مقابلة يسعدها هوى مطاع وشهوة غالبية فإن أغفل تأديبها تفويضاً إلى
العقل أو توكلّاً على أن تنقاد إلى الأحسن بالطبع أعدمه التفويض درك
المجتهدين وأعقبه التوكل ندم الخائبين فصار من الأدب عاطلاً وفي صورة
الجهل داخلاً لأن الأدب مكتسب بالتجربة أو مستحسن بالعادة ولكل قوم
مواضع وكل ذلك لا ينال بتوقيف العقل ولا بالإنقياد للطبع حتى يكتسب
بالتجربة والمعاناة ويستفاد بالدربة والمعاينة ثم يكون العقل عليه قيماً وزكي

(١) ولم يقتروا: لم يفتقروا.

(٢) المرقد: الدواء المنوم.

(٣) بعد شماسه: بعد وفوره وكثرته، من شمس الفرس إذا منع ظهره، أو لا يكاد يستقر لقوته

(٤) غيضاً: قل ونقص.

الطبع إليه مسلماً ولو كان العقل مغنياً عن الأدب لكان أنبياء الله تعالى عن أدبه مستغنين وبعقولهم مكتفين. وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «بعثت لأتمم مكارم الأخلاق». وقيل لعيسى بن مريم على نبينا وعليه السلام: من أدبك قال: ما أدبني أحد ولكني رأيت جهل الجاهل فجانبته^(١). وقال علي ابن أبي طالب رضي الله عنه: إن الله تعالى جعل مكارم الأخلاق ومحاسنها وصلاً بينه وبينكم فحسب الرجل أن يتصل من الله تعالى بخلق منها. وقال أردشير بن بابك: من فضيلة الأدب أنه ممدوح بكل لسام ومتزين به في كل مكان وباق ذكره على أيام الزمان. وقال مهجود شبه العالم الشريف العديم الأدب بالبنيان الخراب الذي كلما علا سمكه كان أشدّ لوحشته وبالنهر اليابس الذي كلما كان أعرض وأعمق كان أشدّ لوعورته وبالأرض الجيدة المعطلة التي كلما طال خرابها ازداد نباتها غير المنتفع به ألثافاً وصار للهوام مسكناً. وقال ابن المقفع ما نحن إلى ما نتقوى به على حواسنا من المطعم والمشرب بأحوج منا إلى الأدب الذي هو لقاح عقولنا فإن الحبة المدفونة في الثرى لا تقدر أن تطلع زهرتها ونضارتها إلا بالماء الذي يعود إليها من مستودعها. وحكى الأصمعي رحمه الله تعالى أن أعرابياً قال لابنه: يا بني الأدب دعامة أيد الله بها الألباب وحلية زين الله بها عواطل الأحساب فالعاقل لا يستغني وإن صحت غريزته عن الأدب المخرج زهرته كما لا تستغني الأرض وإن عذبت تربتها عن الماء المخرج ثمرتها. وقال بعض الحكماء الأدب صورة العقل فصوّر عقلك كيف شئت. وقال آخر: العقل بلا أدب كالشجرة العاقر ومع الأدب كالشجر المثمر. وقيل: الأدب أحد المنصبين. وقال بعض البلغاء: الفضل بالعقل والأدب لا بالأصل والحسب لأن من ساء أدبه ضاع نسبه ومن قلّ عقله ضل أصله. وقال بعض الأدباء: ذك^(٢) قلبك بالأدب كما تذكي النار بالحطب واتخذ الأدب غنماً والحرص عليه حظاً يرتجيك راغب ويخاف صولتك راهب ويؤمل نفعتك ويرجى عدلك. وقال بعض العلماء: الأدب وسيلة إلى كل فضيلة وذريعة إلى كل

(١) فجانبته: تباعدت عنه.

(٢) ذك قلبك: أمرض التذكية، يقال: ذكت النار إذا اشتد لهبها، والمراد: نور قلبك بالأدب.

شريعة وقال بعض الفصحاء: الأدب يستر قبيح النسب. وقال بعض الشعراء فيه:

فما خلق الله مثل العقول ولا اكتسب الناس مثل الأدب
وما كرم المرء إلا التقى ولا حسب المرء إلا النسب
وفي العلم زين لأهل الحجا وآفة ذي الحلم طيش الغضب
وأشد الأصمعي رحمه الله:

وإن يك العقل مولوداً فلست أرى ذا العقل مستغنياً عن حادث الأدب
إني رأيتهما كالماء مختلطاً بالترب تظهر منه زهرة العشب
وكل ما أخطأته في موالده غريزة العقل حاكي البهيم في الحسب
والتأديب يلزم من وجهين: أحدهما ما لزم الوالد لولده في صغره.
والثاني ما لزم الإنسان في نفسه عند نشأته وكبره. فأما التأديب اللازم للأب
فهو أن يأخذ ولده بمبادئ الآداب ليأنس بها وينشأ عليها فيسهل عليه قبولها
عند الكبر لاستثناسه بمبادئها في الصغر لأن نشأة الصغير على الشيء تجعله
متطبعاً به ومن أغفل في الصغر كان تأديبه في الكبر عسيراً. وقد روي عن النبي
ﷺ أنه قال: «ما نحل والد ولده نحلة أفضل من أدب حسن يفيده إياه أو
جهل قبيح يكفه عنه ويمنعه منه» وقال بعض الحكماء: بادروا بتأديب
الأطفال قبل تراكم الأشغال وتفرق البال. وقال بعض الشعراء:

إن الغصون إذا قومتها اعتدلت ولا يلين إذا قومتها الخشب
قد ينفع الأدب الأحداث في صغر وليس ينفع عند الشيبة الأدب
وقال آخر

ينشو الصغير على ما كان والده إن الأصول عليها يتبت الشجر
وأما الأدب اللازم للإنسان عند نشأته وكبره فأدبان: أدب مواضعة
وإصطلاح. وأدب رياضة وإستصلاح. فأما أدب المواضعة والإصطلاح
فيؤخذ تقليداً على ما استقر عليه إصطلاح العقلاء واتفق عليه استحسان
الأدباء وليس لإصطلاحهم على وضعه تعليل مستنبط ولا لاتفاقهم على

استحسانه دليل موجب كاصطلاحهم على مواضع الخطاب واتفاقهم على هيئات اللباس حتى أن الإنسان الآن إذا تجاوز ما اتفقوا عليه منها صار مجاناً للأدب مستوجباً للذم لأن فراق المؤلف في العادة ومجانبة ما صار متفقاً عليه بالمواضعة مفض إلى استحقاق الذم بالعقل ما لم يكن لمخالفته علة ظاهرة ومعنى حادث وقد كان جائزاً في العقل أن يوضع ذلك على غير ما اتفقوا عليه فيرونه حسناً ويرون ما سواه قبيحاً فصار هذا مشاركاً لما وجب بالعقل من حيث توجه الذم على تاركه ومخالفاً له من حيث أنه كان جائزاً في العقل أن يوضع على خلافه. وأما أدب الرياضة والاستصلاح فهو ما كان محمولاً على حال لا يجوز في العقل أن يكون بخلافها ولا أن تختلف العقلاء في صلاحها وفسادها وما كان كذلك فتعليله بالعقل مستنبط ووضوح صحته بالدليل مرتبط وللنفس على ما يأتي من ذلك شاهد ألهمها الله تعالى إرشاداً لها قال الله تعالى: ﴿فألهمها فجورها وتقواها﴾. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: بين لها ما تأتي من الخير وتذر من الشر وسنذكر تعليل كل شيء في موضعه فإنه أولى به وأحق.

فأول مقدمات أدب الرياضة والاستصلاح أن لا يسبق إلى حسن الظن بنفسه فيخفى عنه مذموم شيمه ومساوىء أخلاقه لأن النفس بالشهوات آمرة وعن الرشد زاجرة. وقد قال الله تعالى: ﴿إن النفس لأمارة بالسوء﴾ وقال ﷺ: «أعدى أعدائك نفسك التي بين جنبيك ثم أهلك ثم عيالك» ودعت اعرابية لرجل فقالت: كبت الله كل عدو لك إلا نفسك فأخذه بعض الشعراء فقال:

قلبي إلى ما ضرني داعي يكثر أسقامي وأوجاعي
كيف احتراسي من عدوي إذا كان عدوي بين أضلاعي

فإذا كانت النفس كذلك فحسن الظن بها ذريعة إلى تحكيمها وتحكيمها داع إلى سلاطتها وفساد الأخلاق بها فإذا صرف حسن الظن عنها وتوسمها بما هي عليه من التسويف والمكر فاز بطاعتها وانحاز عن معصيتها. وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: العاجز من عجز عن

سياسة نفسه. وقال بعض الحكماء: من ساس نفسه ساد ناسه. فأما سوء الظن بها فقد اختلف الناس فيه فمنهم من كرهه لما فيه من اتهام طاعتها وردّ مناصحتها فإن النفس وإن كان لها مكر يردي فلها نصح يهدي فلما كان حسن الظن بها يعمي عن مساوئها كان سوء الظن بها يعمي عن محاسنها ومن عمى عن محاسن نفسه كان كمن عمى عن مساوئها فلم ينف عنها قبيحاً ولم يهد إليها حسناً. وقد قال الجاحظ في كتاب البيان يجب أن يكون في التهمة لنفسه معتدلاً وفي حسن الظن بها مقتصداً فإنه إن تجاوز مقدار الحق في التهمة ظلمها فأودعها ذلة المظلومين وإن تجاوز بها الحق في مقدار حسن الظن أودعها تهاون الأمنين ولكل ذلك مقدار من الشغل ولكل شغل مقدار من الوهن ولكل وهن مقدار من الجهل. وقال الأحنف بن قيس: من ظلم نفسه كان لغيره أظلم ومن هدم دينه كان لمجده أهدم. وذهب قوم إلى أن سوء الظن بها أبلغ في صلاحها وأوفر في اجتهداها لأن للنفس جوراً لا ينفك إلا بالسخط عليها وغروراً لا ينكشف إلا بالتهمة لها لأنها محبوبة تجور إدلالاً وتغر مكرراً فإن لم يسيء الظن بها غلب عليه جورها وتموّه^(١) عليه غرورها فصار بميسورها قانعاً وبالشبهة من أفعالها راضياً وقد قالت الحكماء: من رضي عن نفسه أسخط عليه الناس وقال كشاجم:

لم أرض عن نفسي مخافة سخطها ورضا الفتى عن نفسه إغضاها
ولو انني عنها رضيت لقصرت عما تزيد بمثله آدابها
وتبينت آثار ذاك فأكثررت عذلي عليه فطال فيه عتابها
وقد استحسّن قول أبي تمام الطائي:

ويسيء بالإحسان ظناً لا كمن هو بابنه ويشعره مفتون

فلم يروا إساءة ظنه بالإحسان ذماً ولا استقلال عمله لؤماً بل رأوا ذلك أبلغ في الفصل وأبعث على الازدياد. فإذا عرف من نفسه ما تجنّ^(٢) وتصور

(١) وتموّه: من موّه النحاس أو الحديد إذا طلاه بفضة أو ذهب.

(٢) ما تجنّ: من أجنه الليل إذا أظلم عليه وشده.

منا ما تكن^(١) ولم يطاوعها فيما تحب إذا كان غياً ولا صرف عنها ما تكره إذا كان رشداً فقد ملكها بعد أن كان في ملكها وغلبها بعد أن كان في غلبها. وقد روى أبو حازم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: الشديد من غلب نفسه. وقال عون بن عبد الله: إذا عصتكَ نفسك فيما كرهت فلا تطعها فيما أحبت ولا يغرنك ثناء من جهل أمرك. وقال بعض البلغاء: من قوي على نفسه تنهى في القوة ومن صبر عن شهوته بالغ في المروءة فحينئذ يأخذ نفسه عند معرفة ما أكنت وخبرة ما أجت بتقويم عوجها وإصلاح فسادها. وقد روي عن عائشة رضي الله عنها قالت يا رسول الله: متى يعرف الإنسان ربه قال: إذا عرف نفسه ثم يراعي منها ما صلح واستقام من زيغ يحدث عن إغفال أو ميل يكون عن إهمال ليتم له الإصلاح وتستديم له السعادة فإن المغفل بعد المعاناة ضائع والمهمل بعد المراعاة ذائع^(٢) وسنذكر من أحوال أدب الرياضة والاستصلاح فصولاً تحتوي على ما يلزم مراعاته من الأخلاق ويجب معاناته من الأدب وهي ستة فصول متفرعة:

(الفصل الأول) في مجانية الكبر والإعجاب لأنهما يسلبان الفضائل ويكسبان الرذائل وليس لمن استوليا عليه إصغاء لنصح ولا قبول لتأديب لأن الكبر يكون بالمتزلة والعجب يكون بالفضيلة فالمتكبر يجلب نفسه عن رتبة المتعلمين والمعجب يستكثر فضله عن استزادة المتأدبين فلذلك وجب تقديم القول فيهما بابانة ما يكسبانه من ذم ويوجبانه من لوم فنقول:

أما الكبر فيكسب المقت^(٣) ويلهي عن التألف ويوغر صدور الإخوان وحسبك بذلك سوءاً عن استقصاء ذمه. ولذلك قال النبي ﷺ لعنه العباس: أنهاك عن الشرك بالله والكبر فإن الله يحتجب منهما وقال أردشير بن بابك: ما الكبر إلا فضل حمق لم يدر صاحبه أين يذهب به فيصرفه إلى الكبر وما أشبه ما قال بالحق. وحكي أن مطرف بن عبد الله بن الشخير نظر إلى

(١) ما تكن: من أكنه إذا ستره وأضمه.

(٢) ذائع: شائع.

(٣) المقت: البغض.

المهلب بن أبي صفرة وعليه حلة يسحبها ويمشي الخيلاء فقال: يا أبا عبد الله ما هذه المشية التي يبغضها الله ورسوله فقال المهلب: أما تعرفني فقال: بل أعرفك أولك نطفة مذرة وآخرك جيفة قذرة وحشوك فيما بين ذلك بول وعذرة فأخذ ابن عوف هذا الكلام فنظمه شعراً فقال:

عجبت من معجب بصورته وكان بالأمس نطفة مذرته
وفي غد بعد حسن صورته يصير في اللحد جيفة قذرته
وهو على تيهه ونخوته ما بين ثوبيه يحمل العذرة

وقد كان المهلب^(١) أفضل من أن تخدع نفسه بهذا الجواب ولكنها زلة من زلات الإسترسال وخطيئة من خطايا الإدلال. فأما الحمق الصريح والجهل القبيح فهو ما حكى عن نافع بن جبير بن مطعم أنه جلس في حلقة العلاء بن عبد الرحمن الخرقى وهو يقرئ الناس فلما فرغ قال: أتدرون لم جلست إليكم قالوا: جلست لتسمع قال: لا ولكني أردت أن أتواضع لله بالجلوس إليكم فهل يرجى من مثل هذا فضل أو ينفع فيه عدل وقد قال ابن المعتز: لما عرف أهل النقص حالهم عند ذوي الكمال استعانوا بالكبير ليعظم صغيراً ويرفع حقيراً وليس بفاعل.

وأما الإعجاب فيخفي المحاسن ويظهر المساوىء ويكسب المذام ويصدّ عن الفضائل. وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «إن العجب ليأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب». وقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: الإعجاب ضدّ الصواب وآفة الألباب وقال بزرجمهر: النعمة التي لا يحسد صاحبها عليها التواضع والبلاء الذي لا يرحم صاحبه منه العجب. وقال بعض الحكماء: عجب المرء بنفسه أحد حساد عقله. وليس إلى ما يكسبه الكبير من المقت حدّ ولا إلى ما ينتهي إليه العجب من الجهل غاية حتى أنه ليطفئ من المحاسن ما انتشر ويسلب من الفضائل ما اشتهر وناهيك بسيئة

(١) المهلب: واسمه أبي صفرة: ظالم بن سراق بن صبح الأزدي العتكي البصري، أمير كبير مشهور الذكر شجاع جواد، نشأ في دولة آل أبي سفيان، وقتل وحفظ البصرة من تجاوزاتهم، واستمر على ذلك إلى أن مات في خراسان في زمن الحجاج سنة ٨٣.

تحبط كل حسنة وبمذمة تهدم كل فضيلة مع ما يثيرة من حنق ويكسبه من حقد. حكى عمر بن حفص قال: قيل للحجاج: كيف وجدت منزلك بالعراق قال: خير منزل لو كان الله بلغني قتل أربعة فتقرّبت إليه بدمائهم قيل: ومن هم قال: مقاتل بن مسمع ولي سجستان فأتاه الناس فأعطاهم الأموال فلما عزل دخل مسجد البصرة فبسط الناس له أرديتهم فمشى عليها وقال لرجل يماشي: لمثل هذا فليعمل العاملون * وعبد الله بن زياد بن ظبيان التيمي خوف أهل البصرة أمراً فخطب خطبة أوجز فيها فنادى الناس من أعراض المسجد أكثر الله فينا مثلك فقال: لقد كلفتم الله شططاً * ومعبد ابن زرارة كان ذات يوم جالساً في طريق فمرت به امرأة فقالت له: يا عبد الله كيف الطريق إلى موضع كذا فقال: يا هناء مثلي يكون من عبید الله. وأبو شمال الأسدي أضل راحلته فالتمسها الناس فلم يجدوها فقال: إن قد ردّ الله راحلتك فصل فقال إن يميني يمين مصر. فانظر إلى هؤلاء كيف أفضى بهم العجب إلى حمق صاروا به نكالاً في الأولين ومثلاً في الآخرين. ولو تصوّر المعجب المتكبر ما فطر عليه من جبلة وبلى به من مهنة لخفض جناح نفسه واستبدل لنا من عتوة وسكوناً من نفوره. وقال الأحنف بن قيس: عجبت لمن جرى في مجرى البول مرتين كيف يتكبر وقد وصف بعض الشعراء الإنسان فقال:

يا مظهر الكبر إعجاباً بصورته	أنظر خلاك فإن التّن تثریب ^(١)
لو فكر الناس فيما في بطونهم	ما استشعر الكبر شبان ولا شيب
هل في ابن آدم مثل الرأس مكرمة	وهو بخمس من الأقدار مضروب
أنف يسيل وأذن ريحها سهك ^(٢)	والعين مرفضة ^(٣) والثغر ملعوب ^(٤)
يا آبن التراب ومأكول التراب غداً	أقصر فإنك مأكول ومشروب

(١) تثریب: ثربه إذا لامه وعيره بذنبه.

(٢) سهك: متعفن وخبث.

(٣) مرفضة: يقال ارفضّ الدمع إذا ترشش.

(٤) ملعوب: ذو لعاب.

وأحق ما كان للكبر وجانباً وللإعجاب مبيناً من جل في الدنيا قدره وعظم فيها خطره لأنه قد يستقل بعالي همته كل كثير ويستصغر معها كل كبير. وقال محمد بن علي: لا ينبغي للشريف أن يرى شيئاً من الدنيا لنفسه خطيراً فيكون مهاناً بها. وقال ابن السماك لعيسى^(١) بن موسى: تواضعك في شرفك أشرف لك من شرفك وكان يقال اسمان متضادان بمعنى واحد: التواضع والشرف.

وللكبر اسباب فمن أقوى أسبابه علو اليد ونفوذ الأمر وقلة مخالطة الأكفاء. وحكي أن قوماً مشوا خلف علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقال: أبعادوا عني خفق نعالكم فإنها مفسدة لقلوب نوكي الرجال ومشوا خلف ابن مسعود فقال: ارجعوا فإنها زلة للتابع وقتنة للمتبوع. وروى قيس ابن حازم أن رجلاً أتى به للنبي ﷺ فأصابته رعدة فقال له ﷺ: هَوْن عليك فإنما أنا ابن امرأة كانت تأكل القديد^(٢) وإنما قال ذلك ﷺ حسماً لمواد الكبر وقطعاً لذرائع الإعجاب وكسراً لإسراف النفس^(٣) وتذليلاً لسطوة الإستعلاء. ومثل ذلك ما روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه نادى الصلاة جامعة فلما اجتمع الناس صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه ﷺ ثم قال: أيها الناس لقد رأيتمني أرعى على خالات لي من بني مخزوم فيقبضن لي القبضة من التمر والزبيب فأظل اليوم وأيّ يوم^(٤) فقال له عبد الرحمن بن عوف: والله يا أمير المؤمنين ما زدت على أن قصرت بنفسك فقال عمر رضي الله عنه: ويحك يا أبن عوف اني خلوت فحدثني نفسي فقالت: أنت أمير المؤمنين فمن ذا أفضل منك فأردت أن أعرفها نفسها. وللإعجاب أسباب: فمن أقوى أسبابه كثرة مديح المتقربين وإطراء المتملقين الذين جعلوا النفاق عادة ومكسباً والتملق خديعة وملعباً فإذا وجدوه مقبولاً في العقول الضعيفة أغروا أربابها باعتقاد كذبهم وجعلوا ذلك ذريعة

(١) لعيسى بن موسى: بن أبي العباس السفاح، كان والي الكوفة بغد انشاء بغداد.

(٢) القديد: اللحم المشوي بالشمس.

(٣) لإسراف النفس: أي لبطرها وكبريائها.

(٤) وأي يوم؟: كأنه يتحسر على ما فات.

إلى الاستهزاء بهم. وقد روي عن النبي ﷺ أنه سمع رجلاً يزكي رجلاً فقال له: قطعت مطاه^(١) لو سمعها ما أفلح بعدها وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: المدح ذبيح. وقال ابن المقفع: قابل المدح كمدح نفسه. وقال بعض الحكماء: من رضي أن يمدح بما ليس فيه فقد أمكن الساهر منه. وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «إياكم والتمادح فإنه الذبيح إن كان أحدكم مادحاً أخاه لا محالة فليقل أحسب ولا أزكي على الله أحداً» وقيل فيما أنزل الله عز وجل من الكتب السالفة: عجب لمن قيل فيه الخير وليس فيه كيف يفرح وعجب لمن قيل فيه الشر وهو فيه كيف يغضب. وقال بعض الشعراء:

يا جاهلاً غره إفراط مادحه لا يغلبن جهل من أطراك علمك بك
أثنى وقال بلا علم أحاط به وأنت أعلم بالمحصول من ريبك
وهذا أمر ينبغي للعاقل أن يضبط نفسه عن أن يستفزها ويمنعها من
تصديق المدح لها فإن للنفس ميلاً لحب الثناء وسماع المدح. وقال الشاعر:

يهوى الثناء مبرز ومقصر حب الثناء طبيعة الإنسان

فإذا سامح نفسه في مدح الصبوة وتابعها على هذه الشهوة تشاغل بها عن الفضائل الممدوحة ولها بها عن المحاسن الممنوحة فصار الظاهر من مدحه كذباً والباطن من ذمه صدقاً وعند تقابلهما يكون الصدق الزم الأمرين وهذه خدعة لا يرتضيها عاقل ولا ينخدع بها مميز. وليعلم أن المتقرب بالمدح يسرف مع القبول ويكف مع الأباء فلا يغلبه حسن الظن على تصديق مدح هو أعرف بحقيقته ولتكن تهمة المادح أغلب عليه فقل مدح كان جميعه صدقاً وقل ثناء كان كله حقاً ولذلك كره أهل الفضل أن يطلقوا المستهم بالثناء والمدح تحرراً من التجاوز فيه وتزيها عن التملق به. وقد روى مكحول قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تكونوا عيايين ولا تكونوا لعانيين

(١) مطاه: ظهره.

ولا متمادحين ولا متماوتين». وحكى الأصمعي: أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه كان إذا مدح قال: اللهم أنت أعلم بي من نفسي وأنا أعلم بنفسي منهم اللهم اجعلني خيراً مما يحسبون واغفر لي ما لا يعلمون ولا تؤاخذني بما يقولون. وقال بعض الشعراء:

إذا المرء لم يمدحه حسن فعاله فمادحه يهذي وإن كان مفصحا
وربما آل حب المدح بصاحبه إلى أن يصير ماذح نفسه: إمّا لتوهمه
أن الناس قد غفلوا عن فضله وأخلوا بحقه. وإمّا ليخدعهم بتدليس نفسه
بالمدح والإطراء فيعتقدون أن قوله حق متبع وصدق مستمع. وإمّا لتلذذ
بسماع الثناء وسرور نفسه بالمدح والإطراء كما يتغنى بنفسه طرباً إذا لم
يسمع صوتاً مطرباً ولا غناء ممتعاً ولأَيّ ذلك كان فهو الجهل الصريح والنقص
الفاضح. وقال بعض الشعراء:

وما شرف أن يمدح المرء نفسه ولكن أعمالاً تدم وتمدح
وما كل حين يصدق المرء ظنه ولا كل أصحاب التجارة يربح
ولا كل من ترجو لغيبك حافظاً ولا كل من ضم الوديعه يصلح

وينبغي للعاقل أن يسترشد إخوان الصدق الذين هم أصفياء القلوب
ومرايا المحاسن والعيوب علي ما ينبهونه عليه من مساويه التي صرفه حسن
الظن عنها فإنهم أمكن نظراً وأسلم فكراً ويجعلون ما ينبهونه عليه من
مساويه عوضاً عن تصديق المدح فيه. وقد روى أنس بن مالك عن النبي
ﷺ أنه قال: «المؤمن مرآة المؤمن إذا رأى فيه عيباً أصلحه». وكان عمر بن
الخطاب رضي الله عنه يقول: رحم الله أمراً أهدي إلينا مساوينا. وقيل
لبعض الحكماء: أتحب أن تهدي إليك عيوبك قال: نعم من ناصح. ومما
يقارب معنى هذا القول ما روي عن عمر رضي الله عنه قال لابن عباس
رضي الله عنهما: من ترى أن توليه حمص فقال رجلاً: صحيحاً منك صحيحاً
لك قال: تكون أنت ذلك الرجل قال: لا تنتفع بي مع سوء ظني بك وسوء
ظنك بي. وقيل في مشور الحكم: من أظهر عيب نفسه فقد زكاه. فإذا قطع
أسباب الكبر وحسم موادّ العجب اعتاض بالكبر تواضعاً وبالعجب تودّداً

وذلك من أوكد أسباب الكرامة وأقوى مواد النعم وأبلغ شافع إلى القلوب يعطفها إلى المحبة ويشيها عن البغض. وقال بعض الحكماء: من برىء من ثلاث نال ثلاثاً: من برىء من السرف نال العز ومن برىء من البخل نال الشرف ومن برىء من الكبر نال الكرامة. وقال مصعب بن الزبير: التواضع مصايد الشرف. وقيل في منشور الحكم: من دام تواضعه كثر صديقه وقد تحدث المنازل والولايات لقوم أخلاقاً مذمومة يظهرها سوء طباعهم ولآخرين فضائل محمودة يبعث عليها زكاء شيمهم لأن لتقلب الأحوال سكرة تظهر من الأخلاق مكنونها ومن السرائر مخزونها لا سيما إذا هجمت من غير تدريج وطرقت من غير تأهب. وقد قال بعض الحكماء: في تقلب الأحوال تعرف جواهر الرجال. وقال الفضل بن سهل: من كانت ولايته فوق قدره تكبر لها ومن كانت ولايته دون قدره تواضع لها. وقال بعض البلغاء: الناس في الولاية رجلان رجل يعمل بفضلهم ومروءته ورجل يعمل لنقصه ودناءته فمن جل عن عمه ازداد به تواضعاً ويشراً ومن جل بعمله لبس به تجبراً وتكبراً.

(الفصل الثاني في حسن الخلق) روي عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله تعالى اختار لكم الإسلام ديناً فأكرموا بحسن الخلق والسخاء فإنه لا يكمل إلا بهما». وقال الأحنف بن قيس: ألا أخبركم بأدواء الداء قالوا بلى قال: الخلق الدني واللسان البذي. وقال بعض الحكماء: من ساء خلقه ضاق رزقه وعلة هذا القول ظاهرة. وقال بعض البلغاء: الحسن الخلق من نفسه في راحة والناس منه في سلامة والسيء الخلق الناس منه في بلاء وهو من نفسه في عناء. وقال بعض الحكماء: عاشر أهلك بأحسن أخلاقك فإن الثواء^(١) فيهم قليل. وقال بعض الشعراء:

إذا لم تتسع أخلاق قوم تضيق بهم فسيحات البلاد
إذا ما المرء لم يخلق ليبياً فليس اللب عن قدم الولاد
فإذا حسنت أخلاق الانسان كثر مصافوه وقل معادوه فتسهلت عليه الأمور

(١) الثواء: بالفتح: الإقامة.

الصعاب ولانت له القلوب الغضاب. وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «حسن الخلق وحسن الجوار يعمران الديار ويزيدان في الأعمار». وقال بعض الحكماء: من سعة الأخلاق كنوز الأرزاق. وسبب ذلك ما ذكرنا من كثرة الأصفياء المسعدين وقلة الأعداء المجحفين ولذلك قال النبي ﷺ: «أحبكم إليّ أحسنكم أخلاقاً الموطأون»^(١) أكنافاً^(٢) الذين يألفون ويؤلفون» وحسن الخلق أن يكون سهل العريكة لين الجانب طلق الوجه قليل النفور طيب الكلمة. وقد بين رسول الله ﷺ هذه الأوصاف فقال: «أهل الجنة كل حين لين سهل ظلق». ولما ذكرنا من هذه الأوصاف حدود مقدرة ومواضع مستحقة كما قال الشاعر:

أصفو وأكدر أحياناً لمختبري وليس مستحسناً صفوا بلا كدر
وليس يريد بالكدر البذاء وشراسة الخلق فإن ذلك ذم لا يستحسن وعيب لا يرتضى وإنما يريد الكف والانقباض في موضع يلام فيه المساعد ويذم فيه الموافق فإذا كانت لمحاسن الأخلاق حدود مقدرة ومواضع مستحقة فإن تجاوز بها الحد صارت ملقاً وإن عدل بها عن مواضعها صارت نفاقاً والملتق ذل والنفاق لؤم وليس لمن وسم بهما ودّ مبرور ولا أثر مشكور. وقد روى حكيم^(٣) عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «شر الناس ذو الوجهين الذي يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه». وروى مكحول عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا ينبغي لذي الوجهين أن يكون وجيهاً»^(٤) عند الله تعالى». وقال سعيد بن عروة: لأن يكون لي نصف وجه ونصف لسان على ما فيهما من قبح المنظر وعجز المخبر أحب إليّ من أن أكون ذا وجهين وذا لسانين وذا قولين مختلفين. وقال الشاعر:

خَلَّ النِّفَاقُ لِأَهْلِهِ وَعَلَيْكَ فَالْتَمَسِ الطَّرِيقَا
وَارْغَبْ بِنَفْسِكَ أَنْ تَرَى إِلَّا عَدُوًّا أَوْ صَدِيقَا

(١) الموطأون: المذللون.

(٢) أكنافاً: جمع كَنَف وهو الجانب.

(٣) حكيم: بن معاوية بن حيدة، التابعي الثقة.

(٤) وجيهاً: ذا قدر.

وقال إبراهيم بن محمد

وكم من صديق ودّه بلسانه خَوّون بظهر الغيب لا يتذمم
يضاحكني عجباً إذا ما لقيته وَيَقْدَعْنِي منه إذا غبت أسهم
كذلك ذو الوجهين يرضيك شاهداً وفي غيبه إن غاب صاب^(١) وعلقم

وربما تغير حسن الخلق والوطاء إلى الشراسة والبذاء لأسباب عارضة
وأمر طارئة تجعل اللين خشونة والوطاء غلظة والطلاقة عبوساً. فمن أسباب
ذلك الولاية التي تحدث في الأخلاق تغيراً وعلى الخلطاء تنكراً إما من لؤم
طبع وإما من ضيق صدر. وقد قيل: من تاه في ولايته ذل في عزله وقيل:
ذل العزل يضحك من تيه الولاية. ومنها العزل فقد يسوء منه الخلق ويضيق
به الصدر إما لشدة أسف أو لقلّة صبره حكى حميد الطويل: أن عمار^(٢) بن
ياسر عزل عن ولاية فاشتد ذلك عليه وقال: إني وجدتها حلوة الرضاع مرة
القطام. ومنها الغنى فقد تتغير به أخلاق اللثيم بطراً وتسوء طرائقه أشراً.
وقد قيل: من نال استطال وأنشد الرياشي:

غضبان يعلم أن المال ساق له ما لم يسقه له دين ولا خلق
فمن يكن عن كرام الناس يسألني فأكرم الناس من كانت له ورق
وقال بعض الشعراء

لئن تكن الدنيا أنالتك ثروة فأصبحت ذا يسر وقد كنت ذا عسر
لقد كشف الاثراء منك خلائقاً من اللؤم كانت تحت ثوب من الفقر
وبحسب ما افسده الغنى كذلك يصلحه الفقر. وكتب قتيبة^(٣) بن

(١) صاب: حنظل: وكذا العلقم.

(٢) عمار بن ياسر: وقد شهد بدرًا، والمشاهد كلها، قتل بصفين سنة ٣٧ هجرية.

(٣) قتيبة بن مسلم: بن عمرو الباهلي، نشأ في الدولة مروانية وترقى وولى الإمارة، وفتح
الفتوحات العظيمة، وعبر إلى ما وراء النهر، ثم غزا الصين، والشام، فصالحهم وقد
أذعن له بمالك ما وراء النهر، وفتح سبعة حصون، لا يرتقى إليها، فصنع معبد المغنى
سبعة أصوات وسماها مدن معبد، معارضة لقتيبة.

مسلم إلى الحجاج أن أهل الشام قد التاثوا^(١) عليه فكتب إليه أن أقطع عنهم الأرزاق ففعل فساءت حالهم فاجتمعوا إليه فقالوا: أقلنا فكتب إلى الحجاج فيهم فكتب إليه إن كنت آنت منهم رشداً فأجر عليهم ما كنت تجري. واعلم أن الفقر جند الله الأكبر يذل به كل جبار عنيد يتكبر. وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «لولا أن الله تعالى أذل ابن آدم بثلاث ما طأطأ رأسه لشيء الفقر والمريض والموت» ومنها الفقر فقد يتغير به الخلق إما انفاً من ذل الإستكانة أو أسفاً على فائت الغنى. ولذلك قال النبي ﷺ: «كاد الفقر أن يكون كفراً وكاد الحسد أن يغلب القدر». وقال أبو تمام الطائي:

وأعجب حالات ابن آدم خلقه يضل إذا فكرت في كنهه الفكر
 فيفرح بالشيء القليل بقاؤه ويجزع مما صار وهو له ذخر
 وربما تسلى من هذه الحالة بالأمانى وإن قل صدقها فقد قيل: قلما
 تصدق الأمانة ولكن قد يعتاض بها سلوة من هم أو مسرة برجاء. وقال أبو
 العتاهية:

حرّك منك إذا اغتممت فلإنهن مرواح
 وقال آخر

إذا تمنيت بت الليل مغتبطاً إن المنى رأس أموال المفاليس
 ومنها الهموم التي تذهل اللب وتشغل القلب فلا تتبع الإحتمال ولا
 تقوى على صبر. وقد قيل: الهم كالسم. وقال بعض الأدباء: الحزن كالداء
 المخزون في فؤاد المخزون. وقال بعض الشعراء:

همومك بالعيش مقرونة فما تقطع العيش إلا بهم
 إذا تم أمر بدا نقصه ترقب زوالاً إذا قيل تم
 إذا كنت في نعمة فارعها فإن المعاصي تزيل النعم
 وحام عليها بشكر الإله فإن الإله سريع النقم

(١) التاثوا: أي التزجوا على قتيبة وفسدوا حين كان كاتب عبد الملك مأخوذ من لبثت يده إذا لزجت من وسم اللين.

حلاوة دنياك مسمومة فما تأكل الشهد إلا بسم
فكم قدر دبّ في مهلة فلم يعلم الناس حتى هجم
ومنها الأمراض التي يتغير بها الطبع كما يتغير بها الجسم فلا تبقى
الأخلاق على اعتدال ولا يقدر معها على احتمال . وقد قال المتنبي :

آلة العيش صحة وشباب فإذا وليا عن المرء ولي
أبدا تستردّ ما تهب الدن يا فيا ليت جودها كان بخلا
ومنها علو السن وحدوث الهرم لتأثيره في الجسد كذلك يكون تأثيره
في أخلاق النفس فكما يضعف الجسد عن احتمال ما كان يطيقه . من أثقال
فكذلك تعجز النفس عن أثقال ما كنت تصبر عليه من مخالفة الوفاق ومضيق
الشقاق وكذلك ما ضاهاه^(١) وقال منصور النمري :

ما كنت أوفى شبابي كنه عزته حتى مضى فإذا الدنيا له تبع
أصبحت لم تطعمي ثكل الشباب ولم تشجى لغصته فالعذر لا يقع
ما كان أقصر أيام الشباب وما أبقى حلاوة ذكره التي تدع
ما واجه الشيب من عين وإن رمقت إلا لها نبوة عنه ومرتدع
قدكدت تقضي على فوت الشباب أسي لولا يعزيك أن العمر منقطع

فهذه سبعة أسباب أحدثت سوء خلق كان عاماً . وههنا سبب خاص
يحدث سوء خلق خاص وهو البغض الذي تنفر منه النفس فتحدث نفوراً
عن المبغض فيؤول إلى سوء خلق يخصه دون غيره فإذا كان سوء الخلق
حادثاً بسبب كان زواله مقروناً بزوال ذلك السبب ثم بالضدّ .

(الفصل الثالث في الحياء) أعلم ان الخير والشر معانٍ كامنة تعرف
بسمات^(٢) دالة كما قالت العرب في أمثالها: تخبر عن مجهولة مرآته وكما
قال سلم بن عمرو الشاعر:

(١) ضاهاه: شابهه .

(٢) بسمات: بعلامات .

لا تسأل المرء عن خلائقه في وجهه شاهد من الخبر
فسمة الخير الدعة والحياء وسمة الشر القحة^(١) والبذاء^(٢) وكفى
بالحياء خيراً أن يكون على الخير دليلاً وكفى بالقحة وبالبداء شراً أن يكونا
إلى الشر سبيلاً وقد روى حسان بن عطية عن أبي أمامة قال: قال رسول
الله ﷺ: «الحياء والعِي^(٣) شعبتان من الإيمان والبذاء والبيان شعبتان من
النفاق» ويشبه أن يكون العِي في معنى الصمت والبيان في معنى التشدق
كما جاء في الحديث الآخر «إن أبغضكم إليَّ الثرثارون^(٤) المتفيهقون^(٥)
المتشدقون^(٦)». وروى أبو سلمة عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله
صلى الله عليه وسلم قال: «الحياء من الإيمان والإيمان في الجنة والبذاء
من الجفاء والجفاء في النار». وقال بعض الحكماء: من كساه الحياء ثوبه
لم ير الناس عيبه. وقال بعض البلغاء: حياة الوجه بحيائه كما أن حياة
الغرس بمائه. وقال بعض البلغاء العلماء: يا عجباً كيف لا تستحي من كثرة
ما لا تستحي وتتقي من طول ما لا تتقي. وقال صالح بن عبد القدوس:

إذا قل ماء الوأه قل حياؤه ولا خير في وجه إذا قل ماؤه
حياؤه فاحفظه عليك وإنما يدل على فعل الكريم حياؤه
وليس لمن سلب الحياء صاّد عن قبيح ولا زاجر عن محذور فهو يقدم
على ما يشاء ويأتي ما يهوى وبذلك جاء الخبر. ورى شعبة^(٧) عن منصور
ابن ربيعة^(٨) عن أبي منصور البصري قال: قال رسول الله ﷺ: «إن مما أدرك

(١) القحة: قلة الحياء.

(٢) البذاء: التكلم بالكلام الفاحش.

(٣) والعِي: بكسر العين هو السكوت تحزراً عن الوقوع في البهتان مع القدرة على النطق.

(٤) الثرثارون: المهذارون.

(٥) المتفيهقون: يقال: تفهق في كلامه إذا تطع وتوسع، كأنه ملأ به فمه.

(٦) المتشدقون: من تشدق الرجل إذا لوى شدقه للتفصح.

(٧) شعبة: بن الحجاج، أبو بسطام الأزدي مولاهم الواسطي، ثم انتقل إلى البصرة، واجمعوا
على امامته، وجلالة قدره، قال: سفيان: شعبة أمير المؤمنين في الحديث، وقال أحمد: كان
أمة وحده في هذا الشأن مات بالبصرة أول سنة ١٦٠، وكان اللخ.

(٨) ربيعة: بكسر فسكون ابن حراش الغطفاني، وكان من العباد يقال: إنه تكلم بعد موته. =

الناس من كلام النبوة الأولى يا بن آدم إذا لم تستحي فاصنع ما شئت» وليس هذا القول إغراء بفعل المعاصي عند قلة الحياء كما توهمه بعض من جهل معاني الكلام ومواضع الخطاب. وفي مثل هذا الخبر قول الشاعر:

إذا لم تخش عاقبة الليالي ولم تستحي فاصنع ما تشاء
فلا والله ما في العيش خير ولا الدنيا إذا ذهب الحياء
يعيش المرء ما أستحيا بخير ويبقى العود ما بقي اللحاء^(١)

وآختلف أهل العلم في معنى هذا الخبر. فقال أبو بكر^(٢) بن محمد الساسي في أصول الفقه معنى هذا الحديث: إن من لم يستحي دعاه ترك الحياء إلى أن يعمل ما يشاء لا يردعه عنه رادع فليستح المرء فإن الحياء يردعه وسمعت من يحكي عن أبي بكر الرازي من اصحاب أبي حنيفة: أن المعنى فيه إذا عرضت عليك أفعالك التي هممت بفعلها فلم تستحي منها لحسنها وجمالها فاصنع ما شئت منها فجعل الحياء حكماً على أفعاله وكلا القولين حسن والاول أشبه لأن الكلام خرج من النبي ﷺ مخرج الذم لا مخرج الأمر. لكن قد جاء الحديث بما يضاهي القول الثاني وهو قوله ﷺ: «ما أحببت أن تسمعه أذنك فآته وما كرهت أن تسمعه أذنك فاجتنبه» ويجوز أن يحمل هذا الحديث على المعنى الصريح فيه ويكون التأويل الأول في الحديث المتقدم أصح إذ ليس يلزم أن تكون أحاديث رسول الله ﷺ كلها متفقة المعاني بل اختلاف معانيها أدخل في الحكمة وأبلغ في الفصاحة إذا لم يضاد بعضها بعضاً* واعلم أن الحياء في الإنسان قد يكون من ثلاثة أوجه: أحدها حياة من الله تعالى والثاني حياة من الناس والثالث حياة من نفسه. فأما حياة من الله تعالى فيكون بامثال أوامره والكف عن

= والله أعلم.

(١) اللحاء: قشر الشجر.

(٢) أبو بكر بن محمد: بن علي القفال من الفقهاء والمحدثين، ولد في شاش وهي قسبة فيما وراء النهر، وارتحل إلى العراق والشام، لتحصيل العلوم، ثم عاد إلى شاش ونشر مذهب الشافعي فيها مع أن أكثر بلاد ما وراء النهر على المذهب الحنفي، توفي سنة ٣٦٦.

زواجه. وروى ابن مسعود أن النبي ﷺ قال: «استحيوا من الله عز وجل حق الحياء فقيل يا رسول الله فكيف نستحي من الله عز وجل حق الحياء قال: من حفظ الرأس وما حوى والبطن وما عوى وترك زينة الحياة الدنيا وذكر الموت والبلى فقد استحيا من الله عز وجل حق الحياء». وهذا الحديث من أبلغ الوصايا وقال أبو الحسن الماوردي مصنف الكتاب: رأيت رسول الله ﷺ في المنام ذات ليلة فقلت يا رسول الله أوصني فقال: استحي من الله عز وجل حق الحياء ثم قال: تغير الناس قلت: وكيف ذلك يا رسول الله قال: كنت أنظر إلى الصبي فأرى من وجهه البشر والحياء وأنا أنظر إليه اليوم فلا أرى ذلك في وجهه ثم تكلم بعد ذلك بوصايا وعظات تصوّرتها وأذهلني السرور عن حفظها ووددت لو أني حفظتها. فلم يبدأ بشيء ﷺ قبل الوصية بالحياء من الله عز وجل وجعل ما سلبه الصبي من البشر والحياء سبباً لتغير الناس وخص الصبي لأن ما يأتيه بالطبع من غير تكلف فصلى الله وسلم على من هدى أمته وتابع انذارها وقطع أذارها وواصل تأديبها وحفظ تهذيبها وجعل لكل عصر حظاً من زواجه ونصيهاً من أوامره أعاننا الله على قبولها بالعمل وعلى استدامتها بالتوفيق. وقد روي أن علقمة بن علاثة قال يا رسول الله عطني: فقال رسول الله ﷺ: «استح من الله تعالى استحياءك من ذوي الهيبة من قومك». وهذا الحياء يكون من قوة الدين وصحة اليقين ولذلك قال النبي ﷺ: «قلة الحياء كفر» يعني من الله لما فيه من مخالفة أوامره. وقال ﷺ: «الحياء نظام الإيمان فإذا انحل نظام الشيء تبدد ما فيه وتفرّق».

وأما حياؤه من الناس فيكون بكف الأذى وترك المجاهرة بالقبيح وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «من تقوى الله اتقاء الناس» وروي أن حذيفة ابن اليمان أتى الجمعة فوجد الناس قد انصرفوا فتنكب^(١) الطريق عن الناس وقال: لا خير فيمن لا يستحي من الناس. وقال بشار بن برد:

ولقد أصرف الفؤاد عن الشيء ع حياء وجهه في البسواد
أمسك النفس بالعفاف وأمسى ذاكراً في غد حديث الأعادي

(١) تنكب: عن الطريق: عدل عنه.

وهذا النوع من الحياء قد يكون من كمال المروءة وحب الثناء ولذلك قال ﷺ: «من ألقى جلباب الحياء فلا غيبة له» يعني والله أعلم لقلّة مروءته وظهور شهوته. وروى الحسن عن أبي هريرة قال: قال ﷺ «إن مروءة الرجل ممشاه ومدخله ومخرجه ومجلسه وإلفه وجليسه». وقال بعض الشعراء:

ورب قبيحة ما حال بيني وبين ركوبها إلا الحياء
إذا رزق الفتى وجهاً وقاحاً تقلب في الأمور كما يشاء
وقال آخر

إذا لم تصن عرضاً ولم تخش خالقاً وتستحي مخلوقاً فما شئت فاصنع
وأما حياؤه من نفسه فيكون بالعفة وصيانة الخلوات. وقال بعض
الحكماء: ليكن استحيائك من نفسك أكثر من استحيائك من غيرك. وقال
بعض الأدباء: من عمل في السرّ عملاً يستحي منه في العلانية فليس لنفسه
عنده قدر. ودعا قوم رجلاً كان يألف عشرتهم فلم يجيبهم وقال: إني دخلت
البارحة في الأربعين وأنا أستحي من سني. وقال بعض الشعراء:

فسرّي كاعلاني وتلك خيلفتي وظلمة ليلى مثل ضوء نهاري
وهذا النوع من الحياء قد يكون من فضيلة النفس وحسن السريرة
فمتى كمل حياء الإنسان من وجوهه الثلاثة فقد كملت فيه أسباب الخير
وانتفت عنه أسباب الشر وصار بالفضل مشهوراً وبالجميل مذكوراً وقال بعض
الشعراء:

وإني ليشنني عن الجهل والخنا وعن شتم ذي القربى خلائق أربع
حياء وإسلام وتقوى وإني كريم ومثلي من يضرّ وينفع
وإن أخل بأحد وجوه الحياء لحقه من النقص بإخلاله بقدر ما كان
يلحقه من الفضل بكماله. وقد قال الرياشي: يقال إن أبا بكر الصديق رضي
الله عنه كان يتمثل بهذا الشعر.

وحاجة دون أخرى قد سنّحت لها جعلتها للتي أخفيت عنوانا

وإنني لأرى من لا حياء له ولا أمانة وسط القوم عربانا
 (الفصل الرابع في الحلم والغضب) روى محمد بن حارث الهلالي
 أن جبريل نزل على النبي ﷺ فقال: يا محمد إني أتيتك بمكارم الأخلاق
 في الدنيا والآخرة خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين. وروى
 سفيان بن عيينة أن النبي ﷺ حين نزلت هذه الآية قال: «يا جبريل ما هذا
 قال: لا أدري حتى أسأل العالم ثم عاد جبريل وقال: يا محمد إن ربك
 يأمرك أن تصل من قطعك وتعطي من حرمك وتعفو عمن ظلمك». وروى
 هشام عن الحسن أن النبي ﷺ قال: «أيعجز أحدكم أن يكون كأبي
 ضمضم^(١) كان إذا خرج من منزله قال: اللهم إني تصدقت بعرضي على
 عبادك» وروى عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله يحب الحليم الحي ويبغض
 الفاحش البذي» وقال عليه الصلاة والسلام: «من حلم ساد ومن تفهم
 ازداد». وقال بعض الأدباء: من غرس شجرة الحلم اجتنى ثمرة السلم.
 وقال بعض البلغاء: ما ذب^(٢) عن الأعراض كالصفح والإعراض وقال بعض
 الشعراء:

أحبّ مكارم الأخلاق جهدي وأكره أن أعيب وأن أعابا
 واصفح عن سباب الناس حلما وشرّ الناس من يهوي السبابا
 ومن هاب الرجال تهيبوه ومن حقر الرجال فلن يهابا

فالحلم من أشرف الأخلاق وأحقها بذوي الألباب لما فيه من سلامة
 العرض وراحة الجسد واجتلاب الحمد. وقد قال علي بن أبي طالب كرم
 الله وجهه: أول عوض الحليم عن حلمه أن الناس أنصاره. وحدّ الحلم
 ضبط النفس عند هيجان الغضب وهذا يكون عن باعث وسبب. وأسباب
 الحلم الباعثة على ضبط النفس عشرة: أحدها الرحمة للجهال وذلك من
 خير يوافق رقة. وقد قيل في منشور الحكم: من أوكد أسباب الحلم رحمة
 الجاهل. وقال أبو الدرداء رضي الله عنه لرجل اسمعه كلاماً: يا هذا لا

(١) كأي ضمضم: ضمضم: اسمه برثن بن الحارث.

(٢) ما ذب: ما دفع وطرد.

تفرقن في سبنا ودع للصالح موضعاً فانا لا نكافيء من عصي الله فينا بأكثر من أن نطيع الله عز وجل فيه. وشتم رجل الشعبي فقال: إن كنت كما قلت فغفر الله لي وإن لم أكن كما قلت فغفر الله لك. واغتازت عائشة رضي الله عنها على خادم لها ثم رجعت إلى نفسها فقالت: لله درّ التقوى ما أهل دمشق قطيفة فلم تعجبه فخلف أن يضرب بها رأس معاوية فأتاه فأخبره فقال له معاوية: أوف بنذرک وليرفق الشيخ بالشيخ. والثاني من أسباب القدرة على الانتصار وذلك من سعة الصدر وحسن الثقة. وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا قدرت على عدوك فاجعل العفو شكرياً للقدرة عليه». وقال بعض الحكماء: ليس من الكرم عقوبة من لا يجد امتناعاً من السطوة. وقال بعض البلغاء: أحسن المكارم عفو المقتدر وجود المفتقر. والثالث من أسباب الترفع عن السباب وذلك من شرف النفس وعلو الهمة كما قالت الحكماء: شرف النفس أن تحمل المكاره كما تحمل المكارم. وقد قيل: إن الله تعالى سمى يحيى عليه السلام سيداً لحلمه. وقد قال الشاعر:

لا يبلغ المجد أقوام وإن كرموا حتى يذلوا وإن عزوا الأقوام
ويشتموا فترى الألوان مسفرة لا صفح ذل ولكن صفح أحلام
والرابع من أسبابه الإستهانة بالمسيء وذلك عن ضرب من الكبر والإعجاب كما حكى عن مصعب بن الزبير أنه لما ولي العراق جلس يوماً لعطاء الجند وأمر مناديه فنادى أين عمرو بن جرموز وهو الذي قتل أباه الزبير فقيل له: أيها الأمير إنه قد تباعد في الأرض فقال أويظن الجاهل أنني أقيده بأبي عبد الله فليظهر آمناً ليأخذ عطاءه موفراً فعذّ الناس ذلك من مستحسن الكبر. ومثل ذلك قول بعض الزعماء في شعره:

أو كلما طَنَّ الذباب طردته ان الذباب إذنٌ عليّ كريم
وأكثر رجل من سب الأحنف وهو لا يجيبه فقال: والله ما منعه من جوابي إلا هواني عليه وفي مثله يقول الشاعر:

نجا بك لؤمك منجى الذباب حمته مقاذيره أن ينالا
وأسمع رجل ابن هبيرة فأعرض عنه له الرجل: إياك أعني فقال له:

وعنك اعرض وفي مثله يقول الشاعر:

فأذهب فأنْتَ طليق عِرضك إنه عرض عززت به وأنْتَ ذليل

وقال عمرو بن علي

إذا نطق السفية فلا تجبه فخير من إجابته السكوت
سكتُ عن السفية فظنَّ أني عييت عن الجواب وما عييت

والخامس من أسبابه الإستحياء من جزاء الجواب وهذا يكون من
صيانة النفس وكمال المروءة. وقد قال بعض الحكماء: إحتمال السفية خير
من التحلي بصورته والاغضاء عن الجاهل خير من مشاكلته. وقال بعض
الأدباء ما أفحش حلیم ولا أوحش كريم. وقال لقيط بن زرارَة:

وقل لبني سعد فمالي ومالكم ترقون مني ما استطعت وأعتق
أغرِّكمو أني بأحسن شيمة بصير وأنّي بالفواحش أخرج
وان تك قد سابيتني فقهرتني هنيئاً مريئاً أنت بالفحش أحذق

والسادس من أسبابه التفضل على السَّبَّاب فهذا يكون من الكرم وحب
التألف كما قيل للإسكندر: إن فلاناً وفلاناً ينقصانك ويثلبانك فلو عاقبتهما
فقال: هما بعد العقوبة أعذر في تنقصي وثلبي فكان هذا تفضلاً منه وتألفاً.
وقد حكى عن الأحنف بن قيس أنه قال: ما عاداني أحد قط إلا أخذت في
أمره بإحدى ثلاث خصال: إن كان أعلى مني عرفت له قدره وإن كان دوني
رفعت قدره عنه وإن كان نظيري تفضلت عليه فأخذه الخليل فنظمه شعراً
فقال:

سألزم نفسي الصفع عن كل مذنب وإن كثرت منه إليّ الجرائم
فما الناس إلا واحد من ثلاثة: شريف ومشروف ومثل مقام
فأما الذي فوقه فأعرف قدره وأتبع فيه الحق والحق لازم
وأما الذي دوني فأحلم دائماً أصون به عرضي وإن لام لائم
وأما الذي مثلي فإن زل أو هفا تفضلت إن الفضل بالفخر حاكم

والسابع من أسبابه استنكاف السَّبَاب وقطع السباب وهذا يكون من الحزم كما حكى أن رجلاً قال لضرار بن القعقاع: والله لو قلت واحدة لسمعت عشرة فقال له ضرار: والله لو قلت عشرة لم تسمع واحدة وحكى أن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه قال لعامر بن مرة الزهري من أحق الناس قال: من ظن أنه أعقل الناس قال صدقت فمن أعقل الناس قال: من لم يتجاوز الصمت في عقوبة الجاهل. وقال الشعبي: ما أدركت أمة فأبرها ولكن لا أسب أحداً فيسبها. وقال بعض الحكماء: في إعراضك صون أعراضك. وقال بعض الشعراء:

وفي الحلم ردع للسفيه عن الأذى وفي الخرق إغراء فلا تك أخرقا
فتندم إذ لا ينفعك ندامة كما ندم المغبون لما تفرقا
وقال آخر

قل ما بدا لك من زور ومن كذب حلمي أصم وأذني غير صماء
والثامن من أسبابه الخوف من العقوبة على الجواب وهذا يكون من ضعف النفس وربما أوجه الرأي واقتضاه الحزم. وقد قيل في منشور الحكم: الحلم حجاب الآفات. وقال الشاعر:

أرفق إذا خفت من ذي هفوة خرقا ليس الحليم كمن في أمره خرق
والتاسع من أسبابه الرعاية ليد سالفه وحرمة لازمة وهذا يكون من الوفاء وحسن العهد. وقد قيل في منشور الحكم: أكرم الشيم أرهاها للذمم. وقال الشاعر:

إن الوفاء على الكريم فريضه واللؤم مقرون بذى الإخلاف^(١)
وترى الكريم لمن يعاشر منصفاً وترى اللئيم بجانب الإنصاف
والعاشر من أسبابه المكر وتوقع الفرص الخفية وهذا يكون من الذهاء. وقد قيل في منشور الحكم: من ظهر غضبه قل كيده. وقال بعض

(١) بذى الاخلاف: جمع خلف بسكون اللام: العقب السوء.

الأدباء: غضب الجاهل في قوله وغضب العاقل في فعله. وقال بعض الحكماء: إذا سكت عن الجاهل فقد أوسعته جواباً وأوجعته عقاباً. وقال إياس بن قتادة:

تعاقب أيدينا ويحلم رأينا ونشتم بالأفعال لا بالتكلم
وقال بعض الشعراء

وللكف عن شتم اللئيم تكرماً أضمر له من شتمه حين يشتم
فهذه عشرة أسباب تدعو إلى الحلم وبعض الأسباب أفضل من بعض
وليس إذا كان بعض أسبابه مفضولاً ما يقتضي أن تكون نتيجته من الحلم
مذمومة وإنما الأولى بالإنسان أن يدعوه للحلم أفضل أسبابه وأن كان الحلم كله
فضلاً. وإن عرا عن أحد هذه الأسباب كان ذلاً ولم يكن حليماً لأننا قد
ذكرنا في حدّ الحلم أنه ضبط النفس عند هيجان الغضب فإذا فقد الغضب
لسماع ما يغضب كان ذلك من ذل النفس وقلة الحمية. وقد قالت
الحكماء: ثلاثة لا يعرفون إلّا في ثلاثة مواطن لا يعرف الجواد إلّا في
العسرة والشجاع إلّا في الحرب والحليم إلّا في الغضب. وقال الشاعر:

ليست الأحلام في حال الرضا إنما الأحلام في حال الغضب
وقال آخر

من يدعي الحلم أغضبه لتعرفه لا يعرف الحلم إلّا ساعة الغضب
وأنشد النابغة الجعدي^(١) بحضرة رسول الله ﷺ:

ولا خير في حلم إذا لم يكن له بواذر تحمي صفوه أن يكذرا
ولا خير في جهل إذا لم يكن له حليم إذا ما أورد الأمر أصدره
فلم ينكر ﷺ قوله عليه. ومن فقد الغضب في الأشياء المغضبة حتى

(١) النابغة الجعدي: أبو ليلى حسان بن قيس بن عبد الله رضي الله عنه أدرك الجاهلية والإسلام، وإنما سمي النابغة لأنه أقام مدة لا يقول الشعر، ثم نبغ، أي قال الشعر وأجاده عمر ١٢٠ سنة ومات بأصبهان.

استوى حالته قبل الإغصاب ويَعده فقد عدم من فضائل النفس الشجاعة والأنفة والحمية والغيرة والدفاع والأخذ بالثأر لأنها خصال مركبة من الغضب فإذا عدها الإنسان هان بها ولم يكن لباقي فضائله في النفوس موضع ولا لوفور حلمه في القلوب موقع. وقد قال المنصور: إذا كان الحلم مفسدة كان العفو معجزة. وقال بعض الحكماء: العفو يفسد من اللثيم بقدر إصلاحه من الكريم. وقال عمرو بن العاص: أكرموا سفهاءكم فإنهم يقونكم العار والشنار^(١). وقال مصعب بن الزبير: ما قل سفهاء قوم إلا ذلوا. وقال أبو تمام الطائي:

والحرب تركب رأسها في مشهد عدل السفية به بألف حلیم
وليس هذا القول إغراء بتحكم الغضب والإنقياد إليه عند حدوث ما يغضب فيكسب بالإنقياد للغضب من الرذائل أكثر مما يكسبه عدم الغضب من الفضائل ولكن إذا ثار به الغضب عند هجوم ما يغضبه كف سوره بحزمه وأطفأ ثأثرته بحلمه ووكل من استحق المقابلة إلى غير ولا يعدم مسيء متكافئاً كما لن يعدم محسن مجازياً. والعرب تقول: دخل بيتاً ما خرج منه أي ان خرج منه خير دخله خير وإن خرج منه شر دخله شر. وأنشد ابن دريد عن أبي^(٢) حاتم:

إذا أمن الجهال جهلك مرة	فعرضك للجهال غنم ^(٣) من الغنم
فعمّ عليه الحلم والجهل وألقه	بمنزلة بين العداوة والسلام
إذا أنت جارت السفية كما جرى	فأنت سفية مثله غير ذي حلم
ولا تعصبن عرض السفية وداره	بحلم فإن أعيا عليك فبالصرم
فيرجوك تارات ويخشاك تارة	ويأخذ فيما بين ذلك بالحزم

(١) الشنار: أقبح العيب.

(٢) عن أبي حاتم: سهل بن سعد السجستاني، من أعظم الأدياء، وأخذ منه ابن دريد والمبرد وغيرهما، وكان من أهل التقوى، يتصدق كل يوم بدينار، ويحتم القرآن في كل اسبوع، توفي في البصرة سنة ٢٤٨.

(٣) غنم: ذهب وغاب.

فإن لم تجد بداً من الجهل فاستعن عليه بجهال فذاك من العزم
وهذه من أحكم أبيات وجدتها في تدبير الحلم والغضب وهذا التدبير
إنما يستعمل فيما لا يجد الإنسان بداً من مقارنته لا سبيل إلى أطراحه
ومتاركته إما لخوف شره أو للزوم أمره فأما من أمكن أطراحه ولم يضر إبعاده
فالهوان به أولى والإعراض عنه أصوب فإذا كان على ما وصفت استفاد
بتحريك الغضب فضائله وأمن بكف نفسه عن الإنقياد له وذائله وصار الحلم
مدبراً للأمر المغضبة بقدر لا يعتريه نقص بعدم الغضب ولا يلحقه زيادة
بفقد الحلم ولوعزب عنه الحلم حتى انقاد لغضبه ضل عنه وجه الصواب
فيه وضعف رأيه عن خبرة أسبابه ودواعيه حتى يصير بليد الرأي مغمو
الروية مقطوع الحجة مسلوب العزاء قليل الحيلة مع ما يناله من أثر ذلك في
نفسه وجسده حتى يصير أضر عليه مما غضب له . وقد قال بعض الحكماء :
من كثر شططه كثر غلطه . وروي أن سلمان قال لعلي رضي الله عنه : ما
الذي يباعدني عن غضب الله عز وجل قال : أن لا تغضب . وقال بعض
السلف : أقرب ما يكون العبد من غضب الله عز وجل إذا غضب . وقال
بعض البلغاء : من رد غضبه هدّ من أغضبه . وقال بعض الأدباء : ما هيح
جأشك كغيط أجاشك^(١) . وقال رجل لبعض الحكماء عظمي قال : لا تغضب
فينبغي للذي اللب السويّ والحزم القويّ أن يتلقى قوّة الغضب بحلمه
فيصدّها ويقابل عوادي شرته بحزمه فيردّها ليحظى بانجلاء الحيرة ويسعد
بحميد العاقبة . وقال بعض الأدباء : في إغضائك راحة أعضائك . وسبب
الغضب هجوم ما تكرهه النفس ممن دونها وسبب الحزن هجوم ما تكرهه
النفس ممن فوقها والغضب يتحرك من داخل الجسد إلى خارجه والحزن
يتحرك من خارج الجسد إلى داخله فبذلك قتل الحزن ولم يقتل الغضب
ليروّز الغضب وكمون الحزن وصار الحادث عن الغضب السطوة والانتقام
ليروّزه والحادث عن الحزن المرض والأسقام لكمونه ولذلك أفضى الحزن
إلى الموت ولم يفض إليه الغضب فهذا فرق ما بين الحزن والغضب .

(١) أجاشك : أفرعك .

واعلم أن لتسكين الغضب إذا هجم أسباباً يتسعان بها على الحلم .
منها أن يذكر الله عز وجل ويدعوه ذلك إلى الخوف منه ويبعثه الخوف منه
على الطاعة له فيرجع إلى أدبه ويأخذ بنديه فعند ذلك يزول الغضب . قال
الله تعالى : ﴿ وأذكر ربك إذا نسيت ﴾ قال عكرمة : يعني إذا غضبت . وقال الله
تعالى : ﴿ وإما ينزغنك ﴾ (١) من الشيطان نزغ فاستعذ بالله ﴿ ومعنى قوله
ينزغنك أي يغضببك فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم يعني أنه سميع
بجهل من جهل عليم بما يذهب عنك الغضب . وذكر أن في التوراة مكتوباً :
يا ابن آدم أذكرني حين تغضب أذكرك حين أغضب فلا أمحقك (٢) فيمن
أمحق . وحكي أن بعض ملوك الفرس كتب كتاباً ودفعه إلى وزير له وقال :
إذا غضبت فناولنيه وكان فيه مالك والغضب إنما أنت بشر ارحم من في
الأرض يرحمك من في السماء . وقال بعض الحكماء : من ذكر قدرة الله لم
يستعمل قدرته في ظلم عباد الله . وقال عبد الله بن مسلم بن محارب
لهارون الرشيد : يا أمير المؤمنين أسألك بالذي أنت بين يديه أذل مني بين
يديك وبالذي هو أقدر على عقابك منك على عقابي لما عفوت عني فعفا
عنه لما ذكره قدرة الله تعالى . وروي أن رجلاً شكاً إلى رسول الله ﷺ
القسوة فقال : اطلع في القبور واعتبر بالنشور (٣) وكان بعض ملوك الطوائف إذا
غضب ألقى عنده مفاتيح ترب الملوك فيزول غضبه . ولذلك قال عمر رضي
الله عنه : من أكثر من ذكر الموت رضي من الدنيا باليسير . ومنها أن ينتقل
عن الحالة التي هو فيها إلى حالة غيرها فيزول عنه الغضب بتغير الأحوال
والتنقل من حال إلى حال وكان هذا مذهب المأمون إذا غضب أو شتم
وكانت الفرس تقول : إذا غضب القائم فليجلس وإذا غضب الجالس
فليقم . ومنها أن يتذكر ما يؤول إليه الغضب من الندم ومذمة الإنتقام .
وكتب أبرويز إلى ابنه شيرويه : إن كلمة منك تسفك دماً وأخرى منك تحقن
دماً وإن نفاذ أمرك مع كلامك فاحترس في غضبك من قولك أن تخطيء

(١) ينزغنك ... أي يغضببك .

(٢) أمحقك : يقال : محق الشيء إذا أبطله وعماه .

(٣) اطلم في ... رواه البيهقي عن أنس .

ومن لونك أن يتغير ومن جسدك أن يجف فإن الملوك تعاقب قدرة وتعفو حلماء. وقال بعض الحكماء: الغضب على من لا تملك عجز وعلى من تملك لؤم. وقال بعض الأدباء: إياك وعزة الغضب فإنها تفضي إلى ذل العذر. وقال بعض الشعراء:

وإذا ما أعترتك في الغضب العـزة فاذكر تذلل الإعتذار

ومنها أن يذكر ثواب العفو وحسن الصفح فيقهر نفسه على الغضب رغبة في الجزاء والثواب وحذراً من استحقاق الذم والعقاب. روي عن النبي ﷺ أنه قال: ينادي مناد يوم القيامة من له أجر على الله عز وجل فليقم فيقوم العاقون عن الناس ثم تلا ﴿فمن عفا وأصلح فأجره على الله﴾ وقال رجاء بن حيوة لعبد الملك بن مروان في أسارى ابن الأشعث: «إن الله قد أعطاك ما تحب من الظفر فاعط الله ما يجب من العفو». وقد روي عن أبي ﷺ أنه قال: «الخير ثلاث خصال فمن كنَّ فيه فقد استكمل الإيمان من إذا رضي لم يدخله رضاه في باطل وإذا غضب لم يخرج غضبه من حق وإذا قدر عفا». وأسمع رجل عمر بن عبد العزيز كلاماً فقال: عمر أردت أن يستفزني^(١) الشيطان لعزة السلطان فأناك منك اليوم ما تناله مني غداً إنصرف رحمك الله. ومنها أن يذكر انعطاف القلوب عليه وميل النفوس إليه فلا يرى إضاعة ذلك بتغيير الناس عنه ويعددهم منه فيكف عن متابعة الغضب فيرغب في التآلف وجميل الثناء. وروي ابن أبي ليلى عن عطية عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: ما ازداد أحد بعفو الأعزاً فاعفوا يعزكم الله. وقال بعض البلغاء: ليس من عادة الكرام سرعة الانتقام ولا من شروط الكرم إزالة النعم. وقال المأمون لأبراهيم بن المهدي: إن شاورت في أمرك فأشاروا عليّ بقتلك إلا أنني وجدت قدرك فوق ذنبك فكرهت القتل للآزم حرمتك فقال: يا أمير المؤمنين إن المشير أشار بما جرت به العادة في السياسة إلا أنك أبيت أن تطلب النصر إلا من حيث ما عودته من العفو فإن عاقبت فلك نظير وإن عفوت فلا نظير لك وأنشأ يقول:

(١) أن يستفزني: أي يستخفني ويزعجني.

البر بي منك وطأ العذر عندك لي فيما فعلت فلم تعذر ولم تلم
مقام علمك بي فاحتجّ عندك لي مقام شاهد عدل غير متهم
لئن جحدتك معروفا مننت به إني لفي اللؤم اخطى منك بالكرم
تعفو بعدل وتسطو إن سطوت به فلا عذمتك من عاف ومنتقم

(الفصل الخامس في الصدق والكذب) قال الله تعالى وهو أصدق
القائلين: ﴿ثم نبتهل^(١)﴾ فنجعل لعنة الله على الكاذبين ﴿وقال تعالى: ﴿إنما
يفتري الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله﴾. وروي عن النبي ﷺ أنه قال
للحسن بن علي رضي الله عنهما: «دع ما يريك^(٢)» إلى ما لا يريك فإن
الكذب ريبة والصدق طمأنينة». وروي عنه ﷺ أنه قال: «رحم الله أمرا
أصلح من لسانه واقصر من عنانه^(٣)» والزم طريق الحق مقوله ولم يعود
الخطل^(٤) مفصّله^(٥)». وروى صفوان بن سليم قال: قيل للنبي ﷺ أيكون
المؤمن جباناً قال نعم قيل: أيكون بخيلاً قال نعم قيل: أيكون كذاباً قال
لا. وقال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿ولا تلبسوا الحق
بالباطل﴾ أي لا تخلطوا الصدق بالكذب. وقيل في مثور الحكم: الكذاب
لص لأن اللص يسرق مالك والكذاب يسرق عقلك. وقال بعض الحكماء:
الخرس خير من الكذب وصدق اللسان أول السعادة. وقال بعض البلغاء:
الصادق مصون جليل والكاذب مهان ذليل. وقال بعض الأدباء: لا سيف
كالحق ولا عون كالصدق. وقال بعض الشعراء:

(١) نبتهل: البهلة بالفتح والضم: اللعنة. وبهله الله، لعنه وأبعده عن رحمته، هذا هو أصل
الإبتهال ثم استعمل في كل دعاء يجتهد فيه، وإن لم يكن التعاناً.

(٢) ما يريك: بفتح الياء وضمها، والفتح أشهر وأفصح، أي اترك ما تشك به من الأقوال
والأفعال، انه منهى عنه أولاً، أو سنة أو بدعة.

(٣) من عنانه: المراد من لسانه، وفيه تشبيه اللسان بالفرس الجموح.

(٤) الخطل: بفتحتين الكثير الفاسد.

(٥) مفصّله: لسانه، وتسمية اللسان بالمفصل، لفصله الحق من الباطل.

وما شيء إذا فكرت فيه بأذهب للمروءة والجمال
من الكذب الذي لا خير فيه وأبعد بالبهاء من الرجال

والكذب جماع كل شرّ وأصل كل ذمّ لسوء عواقبه وخبث نتائجه لأنه ينتج النميمة والنميمة تنتج البغضاء والبغضاء تؤول إلى العداوة وليس مع العداوة أمن ولا راحة ولذلك قيل: من قل صدقه قل صديقه والصدق والكذب يدخلان الأخبار الماضية كما أن الوفاء والخلف يدخلان المواعيد المستقبلية فالصدق هو الإخبار عن الشيء على ما هو عليه والكذب هو الإخبار عن الشيء بخلاف ما هو عليه ولكل واحد منهما دواع فدواعي الصدق لازمة ودواعي الكذب عارضة لأن الصدق يدعو إليه عقل موجب وشرع مؤكد فالكذب يمنع منه العقل ويصدّ عنه الشرع ولذلك جاز أن تستفيض الأخبار الصادقة حتى نصير متواترة ولم يجز أن تستفيض الأخبار الكاذبة لأن اتفاق الناس في الصدق والكذب إنما هو لاتفاق الدواعي فدواعي الصدق يجوز أن يتفق الجمع الكثير عليها حتى إذا نقلوا خبراً وكانوا عدداً يتتفي عن مثلهم المواطأة وقع في النفس صدقة لأن الدواعي إليه نافعة واتفاق الناس في الدواعي النافعة ممكن ولا يجوز أن يتفق العدد الكثير الذي لا يمكن مواطأة مثلهم على نقل خبر يكون كذباً لأن الدواعي إليه غير نافعة وربما كانت ضارة وليس في جاري العادة أن يتفق الجمع الكثير على دواع غير نافعة ولذلك جاز اتفاق الناس على الصدق لجواز اتفاق دواعيهم ولم يجز أن يتفقوا على الكذب لامتناع اتفاق دواعيهم وإذا كان للصدق والكذب دواع فلا بدّ من ذكر ماسنح به الخاطر من دواعيها.

أما دواعي الصدق فمنها العقل لأنه موجب لقبح الكذب لا سيما إذا لم يجلب نفعاً ولم يدفع ضرراً. والعقل يدعو إلى فعل ما كان مستحسنًا ويمنع من إتيان ما كان مستقبِحاً وليس ما استحسّن من مبالغات الشعراء حتى صار كذباً صراحاً استحساناً للكذب في العقل كالذي أنشدنيه الأزدي لبعض الشعراء:

توهمه فكري فأصبح خدّه وفيه مكان الوهم في فكري أثر

وصافحه كفي فآلم كفه فمن لمس كفي في أنامله عقر
ومر بقلبي خاطراً فجرحته ولم أر شيئاً قط يجرحه الفكر
وكقول العباس بن الأحف وإن كان بدون هذه المبالغة:

تقول وقد كتبت دقيق خطي إليها لِمَ تجنَّبَ الجليلا
فقلت لها نُحَلِّكُ فصار خطي مساعداً لكتابه نجيلا
لأنه خرج مخرج المبالغة في التشبيه ولاقتدار على صنعة الشعر وأن
شواهد الحال تخرجه عن تلبيس الكذب فلذلك استحسن في الصنعة ولم
يستقبح في العقل وإن كان الكذب مستقبحاً فيه. ومنها الذين الوارد باتباع
الصدق وحظر الكذب لأن الشرع لا يجوز أن يرد بارخاص ما حظره العقل
بل جاء الشرع زائداً على ما اقتضاه العقل من حظر الكذب لأن الشرع ورد
بحظر الكذب وإن جرَّ نفعاً أو دفع ضرراً والعقل إنما حظر مالاً يجلب نفعاً
ولا يدفع ضرراً. ومنها المروءة فإنها مانعة من الكذب باعثة على الصدق
لأنها قد تمنع من فعل ما كان مستكراً فأولى من فعل ما كان مستقبحاً .
ومنها حب الإشتهار بالصدق حتى لا يردّ عليه قول ولا يلحقه ندم. وقد قال
بعض البلغاء: ليكن مرجعك إلى الحق ومنزعك إلى الصدق فالحق أقوى
معين والصدق أفضل قرين. وقال بعض الشعراء:

عوّد لسانك قول الصدق تحظ به إن اللسان لما عوّدت معتاد
موكل بتقاضي ما سنتت له في الخير والشرّ فانظر كيف ترتاد

وأما دواعي الكذب فمنها اجتلاب النفع واستدفاع الضرّ فيرى أن
الكذب أسلم وأغنى فيرخص لنفسه فيه اغتراراً بالخدع واستشفافاً^(١) للطمع
وربما كان الكذب أبعد لما يؤمل وأقرب لما يخاف لأن القبيح لا يكون
حسناً والشرّ لا يصير خيراً وليس يجنى من الشوك العنب ولا من الكرم
الحنظل. وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «تحرّوا الصدق وإن رأيتم أن فيه
الهلكة فإن فيه النجاة وتجنبوا الكذب وإن رأيتم أن فيه النجاة فإن فيه

(١) واستشفافاً: أي تعلقاً.

الهلَكة» وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لأن يضعني الصدق وقلما يضع أحب إليّ من أن يرفعني الكذب وقلما يفعل. وقال بعض الحكماء: الصدق منجيك وإن خفته والكذب مرديك وإن أمنت. وقال الجاحظ: الصدق والوفاء توأمان والصبر والحلم توأمان فبهنّ تمام كل دين وصلاح كل دنيا وأضدادهن سبب كل فرقة وأصل كل فساد. ومنها أن يؤثر أن يكون حديثه مستعذباً وكلامه مستظرفاً فلا يجد صدقاً يعذب ولا حديثاً يستظرف فيستحلي الكذب الذي ليست غرائبه معوزة ولا ظرائفه معجزة. وهذا النوع أسوأ حالاً مما قبل لأنه يصدر عن مهانة النفس ودناءة الهمة. وقد قال الجاحظ: لم يكذب أحد قط إلا لصغر قدر نفسه عنده. وقال ابن المقفع لا تتهاون: بإرسال الكذبة من الهزل فإنها تسرع إلى إبطال الحق. ومنها أن يقصد بالكذب التشفي من عدوة فيسمه بقبائح يخترعها عليه ويفه بفضائح ينسبها إليه ويرى أن معرة الكذب غنم وأن إرسالها في العدو سهم وسم وهذا أسوأ حالاً من النوعين الأولين لأنه قد جمع بين الكذب المعرّ والشر المضرّ ولذلك ورد الشرع برّد شهادة العدو على عدوه. ومنها أن تكون دواعي الكذب قد ترادفت عليه حتى ألفها فصار الكذب له عادة ونفسه إليه منقاداً حتى لو رام مجانبه الكذب عسر عليه لأن العادة طبع ثان. وقد قالت الحكماء: من استحلى رضاع الكذب عسر فطامه. وقيل في منشور الحكم: لا يلزم الكذاب شيء إلاّ غلب عليه.

واعلم أن للكذاب قبل خبرته أمارات دالة عليه فمنها أنك إذا لقتك الحديث تلقته ولم يكن بين ما لقتك وبين ما أورده فرق عنده. ومنها أنك إذا شككته فيه تشكك حتى يكاد يرجع فيه ولولاك ما تخالجه الشك فيه. ومنها أنك إذا رددت عليه قوله حصر وإرتبك ولم يكن عنده نصرة المحتجين ولا برهان الصادقين. ولذلك قال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: الكذاب كالسرّاب. ومنها ما يظهر عليه من ريبة الكذابين وينم عليه من ذلة المتوهمين لأن هذه أمور لا يمكن الإنسان دفعها عن نفسه لما في الطبع من إثارتها. ولذلك قالت الحكماء: العينان أنم من اللسان. وقال بعض البلغاء: الوجه مرآة تريك أسرار البرايا. وقال بعض الشعراء:

تريك أعينهم ما في صدورهم إن العيون يؤدّي سرّها النظر
وإذا اتسم بالكذب نسبت إليه شوارد الكذب المجهولة وأضيفت إلى
أكاذيبه زيادات مفتعلة حتى يصير الكاذب مكذوباً عليه فيجمع بين معرفة
الكذب منه ومضرة الكذب عليه. وقد قال الشاعر:

حسب الكذوب من البليّة بعض ما يحكى عليه
فلإذا سمعت بكذبة من غيره نسبت إليه

ثم إنه إن تحرّى الصدق اتهم وإن جانب الكذب كذب حتى لا يعتقد
له حديث مصدّق ولا كذب مستنكر. وقد قال الشاعر:

إذا عرف الكذاب بالكذب لم يكذب يصدّق في شيء وإن كان صادقاً
ومن آفة الكذاب نسيان كذبه وتلقاه ذا حفظ إذا كان حاذقاً
وقد وردت السنة بأرخاص الكذب في الحرب وإصلاح ذات البين
على وجه التورية والتأويل دون التصريح به فإن السنة لا ترد بإباحة الكذب
لما فيه من التنفير وإنما ذلك على طريق التورية والتعريض كما سئل رسول
الله ﷺ وقد تطرّف برداء وانفرد عن أصحابه فقال له رجل ممن أنت قال:
من ماء فوزي عن الأخبار بنسبه بأمر محتمل فظن السائل أنه عن القبيلة
المنسوبة إلى ذلك وإنما أراد رسول الله ﷺ أنه من الماء الذي يخلق منه
الإنسان فبلغ ما أحب من إخفاء نفسه وصدق في خبره. وكالذي حكى عن
أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه كان يسير خلف رسول الله ﷺ حين
هاجر معه فلتقاه العرب وهم يعرفون أبا بكر ولا يعرفون رسول الله ﷺ فقالوا
يا أبا بكر من هذا فقال: هاد يهديني السبيل فظنوا أنه يعني هداية الطريق
وهو إنما يريد هداية سبيل الخير فصدق في قوله وورى عن مراده. وقد
روي عن النبي ﷺ أنه قال: «إن في المعارض لمندوحة عن الكذب». وقال
عمر بن الخطاب رضي الله عنه: إن في المعارض ما يكفي أن يعف
الرجل عن الكذب. وقال بعض أهل التأويل في قوله تعالى: ﴿لَا تَوَاحِدُنِي
بِمَا نَسِيتُ﴾ أنه لم ينس ولكنه مغايرض الكلام. وقال ابن سيرين: الكلام
أوسع من أن يصرح فيه بالكذب.

واعلم أن من الصدق ما يقوم مقام الكذب في القبح والمعرة^(١) ويزيد عليه في الأذى والمضرة وهي الغيبة والنميمة والسعاية^(٢) فأما الغيبة فإنها خيانة وهتك ستر يحدثان عن حسد وغدر. وقال الله تعالى: ﴿ولا يغتب بعضكم بعضاً أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً﴾ يعني أنه كما لا يحل لحمة ميتاً لا تحل غيبته حياً. وروي أن امرأتين صامتا على عهد رسول الله ﷺ وجعلتا تغتابان الناس فأخبر بذلك النبي ﷺ فقال: صامتا عما أحل لهما وأفطرتا على ما حرم عليهما. وروت أسماء بنت يزيد قالت: قال رسول الله ﷺ: «من ذب عن لحم أخيه بظهر الغيب كان حقاً على الله عز وجل أن يحرم لحمه على النار». وقال عدي بن حاتم الغيبة رعي اللثام. وكان الحسن البصري رحمه الله تعالى يقول الغيبة فاكهة النساء. وقال رجل لابن سيرين رحمه الله إني اغتبتك فاجعلني في حل فقال: ما أحب أن أحل لك ما حرم الله عليك. وقال ابن السماك: لا تعن الناس على عيبك بسوء غيبك. وقال الشاعر:

لا تلتمس من مساوي الناس ما ستروا فيهلك الله سترأ عن مساويكما
واذكر محاسن ما فيهم إذا ذكروا ولا تعب أحداً منهم بما فيكما

وربما عذر المغتاب نفسه بأنه يقول حقاً ويعلن فسقاً ويستشهد بما روي عن النبي ﷺ أنه قال: «ثلاثة ليست غيبتهم بغيبة الإمام الجائر وشارب الخمر والمعلن بفسقه» فيبعد من الصواب ويجانب الأدب لأنه وإن كان بالغيبة صادقاً فقد هتك سترأ كان يصونه أولى وجاهر من أسر وأخفى وربما دعا المغتاب ذلك إلى إظهار ما كان يستره والمجاهرة بما كان يضمره فلم يفده ذلك إلا فساد أخلاقه من غير أن يكون فيه صلاح لغيره. وقد قيل لأنوشروان: ما الذي لا خير فيه قال: ما ضرني ولم ينفع غيري أو ضر غيري ولم ينفعني فلا أعلم فيه خيراً. وقيل في مثور الحكم: لا تبد من العيوب ما ستره علام الغيوب. وقد روى العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة قال: سئل رسول الله ﷺ عن الغيبة فقال: «هي أن تقول

(١) المعرة: في المصباح: عره بالشر من باب قتل لطفه به.

(٢) السعاية: أي إلى السلطان، وإلى كل ذي قدرة.

لأخيك ما فيه فإن كنت صادقاً فقد اغتبتك وإن كنت كاذباً فقد بهته». وقال عبد الرحمن بن زيد في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرُ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ﴾ إنه استهزاء المسلم بمن أعلن بفسقه. ودخلت امرأة على النبي ﷺ مستفتية فلما خرجت قالت عائشة رضي الله عنها يارسول الله: ما أقصرها فقال: مهلاً إياك والغيبة فقالت يارسول الله: إنما قلت ما فيها قال: أجل ولولا ذلك لكان بهتاناً. وسئل بعض الأدباء عن صفه اللئيم فقال: اللئيم إذا غاب عاب وإذا حضر اغتاب. فأما الخبر فمحمول على الإنكار لأفعال هؤلاء ولا يكون الإنكار غيبة لأنه نهى عن منكر وفرق بين إنكار المجاهر وغيبة المساتر. وأما النميمة فهي أن تجمع إلى مذمة الغيبة رداة وشرأ وتضم إلى لؤمها دناة وغدراً ثم تؤول إلى تقاطع المتواصلين وتباعد المتقاربين وتباغض المتحابين. وروى شهر بن حوشب عن أسماء بنت يزيد عن النبي ﷺ أنه قال: «ألا أخبركم بشراركم قالوا بلى يارسول الله قال: من شراركم المشاؤون بالنيمة المفسدون بين الأحبة الباغون العيوب». وروى محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ملعون ذو الوجهين ملعون ذو اللسانين ملعون كل شغار ملعون كل قتات ملعون كل منان» الشغار المحرّش بين الناس يلقي بينهم العداوة والقتات النمام. وقيل: النمام الذي يكون مع القوم يتحدّثون فيهم حديثهم والقتات هو الذي يستمع عليهم وهم لا يعلمون فيهم حديثهم. والمنان هو الذي يصنع الخير ويمنّ به. وقيل في مشور الحكم: النميمة سيف قاتل. وقال بعض الأدباء: لم يمش ماش شرّ من واش. فأما السعاية فهي شرّ الثلاثة لأنها تجمع إلى مذمة الغيبة ولؤم النميمة التغرير بالنفوس والأموال والقدح في المنازل والأحوال. وروى ابن قتيبة^(١) أن النبي ﷺ قال: «الجنة لا يدخلها ديوث ولا قلاع» الديوث هو الذي يجمع بين الرجال والنساء سمي بذلك لأنه يديث^(٢) بينهم. والقلاع^(٣) هو

(١) ابن قتيبة: هو أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة المروزي النحوي اللغوي.

(٢) يديث: يقال: ديثه تديثاً: إذا ذلله ورجل ديوث أي لا غيرة له.

(٣) والقلاع: في القاموس: القلاع: الكذاب، والقواد والنباش والغماز، والشرطي.

الساعي الذي يقع في الناس عند الأمراء سمي بذلك لأنه يأتي الرجل المتمكن عند الأمير فلا يزال يقع فيه حتى يقلعه. وقال بعض الحكماء: الساعي بين منزلتين قبيحتين إما أن يكون صدق فقد خان الأمانة وإما أن يكون قد كذب فخالف المروءة. وقال بعض الحكماء: الصدق يزين كل أحد إلا السعاة فإن الساعي أذم وآثم ما يكون إذا صدق. وقال بعض البلغاء: النميمة دناءة والسعاية رداءة وهما رأس الغدر وأساس الشر فتجنب سبلهما واجتنب أهلهما. ووقع الفضل بن سهل على قصة ساع سعى إليه: نحن نرى قبول السعاية شراً منها لأن السعاية دلالة والقبول إجازة فاتقوا الساعي فإنه إن كان في سعائته صادقاً كان في صدقه آثماً إذ لم يحفظ الحرمة ويستر العورة. وقال الإسكندر لرجل سعى إليه برجل: أتحب أن نقبل منك ما تقول فيه على أن نقبل منه ما يقول فيك قال لا قال: فكف عن الشرّ يكف عنك الشر. وروى أن الله تعالى أوحى إلى موسى على نبينا وعليه السلام أن في بلدك ساعياً ولست أخبرك وهو في أرضك فقال: يارب دلني عليه حتى أخرجه فقال: يا موسى أكره النميمة وأنم.

(الفصل السادس في الحسد والمنافسة) اعلم أن الحسد خلق ذميم مع إضراره بالبدن وإفساد للدين حتى لقد أمر الله بالإستعاذة من شره فقال تعالى: ﴿ومن شر حاسد إذا حسد﴾ وناهيك بحال ذلك شراً. وروى عن النبي ﷺ أنه قال: «ذب إليكم»^(١) داء الأمم قبلكم البغضاء والحسد هي الملقاة حالقة الدين لا حالقة الشعر والذي نفس محمد بيده لا تؤمنوا حتى تحابوا ألا أنبئكم بأمر إذا فعلتموه تحاببتم أفشوا السلام بينكم» فأخبر ﷺ بحال الحسد وأن التحابب ينفيه وأن السلام يبعث على التحابب فصار السلام إذن نافياً للحسد. وقد جاء كتاب الله تعالى بما يوافق هذا القول وقال الله تعالى: ﴿ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم﴾ قال مجاهد: معناه أدفع بالسلام إساءة المسيء. وقال الشاعر:

قد يلبث الناس حيناً ليس بينهم ودّ فيزرعه التسليم واللفظ

(١) ذب إليكم داء... : رواه أحمد بن حنبل والترمذي عن الزبير بن العوام.

وقال بعض السلف: الحسد أول ذنب عصى الله به في السماء يعني حسد إبليس لآدم عليه السلام وأول ذنب عصى الله به في الأرض يعني حسد ابن آدم لأخيه حتى قتله. وقال بعض الحكماء: من رضي بقضاء الله تعالى لم يسخطه أحد ومن قنع بعطائه لم يدخله حسد. وقال بعض البلغاء: الناس حاسد ومحسود ولكل نعمة حسود. وقال بعض الأدباء: ما رأيت ظالماً أشبه بمظلوم من الحسود نفس دائم وهم لازم وقلب هائم. فأخذ بعض الشعراء فقال:

إن الحسود الظلوم في كرب يخاله من يراه مظلوما
ذا نفس دائم على نفس يظهر منها ما كان مكتوما

ولو لم يكن من ذم الحسد إلا خلق ذنيء يتوجه نحو الأكفاء والأقارب ويختص بالمخالط والمصاحب لكانت النزاهة عنه كرمًا والسلامة منه مغنمًا فكيف وهو بالنفس مضرّ وعلى الهم مضرّ حتى ربما أفضى بصاحبه إلى التلف من غير نكاية في عدوّ ولا إضرار بمحسود. وقد قال معاوية رضي الله عنه: ليس في خصال الشر أعدل من الحسد يقتل الحاسد قبل أن يصل إلى المحسود. وقال بعض الحكماء: يكفيك من الحاسد أنه يغتم في وقت سرورك. وقيل في مثور الحكم: عقوبة الحاسد من نفسه. وقال الأصمعي: قلت لأعرابي ما أطول عمرك قال: تركت الحسد فبقيت. وقال رجل لشريح القاضي: إني لأحسدك على ما أرى من صبرك على الخصوم ووقوفك على غامض الحكم فقال: ما نفعتك الله بذلك ولا ضرني. وقال عبد الله بن المعتز رحمه الله تعالى:

أصبر على كيد الحسو د فإن صبرك قاتله
فالنار تأكل بعضها إن لم تجد ما تأكله

وحقيقة الحسد شدة الأسى على الخيرات تكون للناس الأفاضل وهو غير المنافسة وربما غلط قوم فظنوا أن المنافسة في الخير هي الحسد وليس الأمر على ما ظنوا لأن المنافسة طلب التشبه بالأفاضل من غير إدخال ضرر عليهم والحسد

مصروف إلى الضرر لأن غايته أن يعدم الأفاضل فضلهم من غير أن يصير الفضل له فهذا الفرق بين المنافسة والحسد فالمنافسة إذن فضيلة لأنها داعية إلى اكتساب الفضائل والافتداء بأخبار الأفاضل وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: المؤمن يغط والمنافق يحسد وقال الشاعر:

نافس على الخيرات أهل العلا وإنما الدنيا أحاديث
كل أمرىء في شأنه كادح فوارث منهم وموروث

وأعلم أن دواعي الحسد ثلاثة: أحدها بغض المحسود فيأسي عليه بفضيلة تظهر أو منقبة تشكر فيثير حسداً قد خامر بغضاً وهذا النوع لا يكون عاماً وإن كان أضرها لأنه ليس يبغض كل الناس. والثاني أن يظهر من المحسود فضل يعجز عنه فيكره تقدّمه فيه واختصاصه به فيثير ذلك حسداً لولاه لكف عنه وهذا أوسطها لأنه لا يحسد الأكفاء من دنا وإنما يختص بحسد من علا وقد يمتزج بهذا النوع ضرب من المنافسة ولكنها مع عجز فلذلك صارت حسداً. والثالث أن يكون في الحاسد شح بالفضائل وبخل بالنعم وليست إليه فيمنع منها ولا بيده فيدفع عنها لأنها مواهب قد منحها الله من شاء فيسخط على الله عز وجل في قضائه ويحسد على ما منح من عطائه وإن كانت نعم الله عز وجل عنده أكثر ومنحه عليه أظهر وهذا النوع من الحسد أعمها وأخبثها إذ ليس لصاحبه راحة ولا لرضاه غاية فإن اقترن بشرّ وقدرة كان بوراً وانتقاماً وإن صادف عجزاً ومهانة كل جهداً وسقماً. وقد قال عبد الحميد الحسود من الهمّ كساقى السم فإن سرى سمه زال عنه همه. وأعلم أنه بحسب فضل الإنسان وظهور النعمة عليه يكون حسد الناس له فإن كثّر فضله كثّر حساده وإن قلّ قلّوا لأن ظهور الفضل يثير الحسد وحدث النعمة يضاعف الكمد ولذلك قال النبي ﷺ: «استعينوا على قضاء الحوائج بسترها فإن كل ذي نعمة محسود» وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: ما كانت نعمة الله على أحد إلّا وجه لها حاسداً فلو كان الرجل أقوم من القدرح لما عدم غامزاً. وقد قال الشاعر:

إن يحسدوني فليني غير لأثمهم قبلي من الناس أهل الفضل قد حسدوا

فدام لي ولهم ما بي وما بهم ومات أكثرنا غيظاً بما يجد
وربما كان الحسد منبهاً على فضل المحسود ونقص الحسود كما قال
أبو تمام الطائي:

وإذا أراد الله نشر فضيلة طويت أتاح لها لسان حسود
لولا اشتعال النار فيما جاورت ما كان يعرف طيب عرف^(١) العود
لولا التخوف للعواقب لم يزل للحاسد النعمى على المحسود
فأما ما يستعمله من كان غالباً عليه الحسد وكان طبعه إليه مائلاً لينتفي
عنه ويكفاه ويسلم من ضرره وعدواه فأمور هي له حسم إن صادفها عزم.
فمنها اتباع الذين في اجتنابه والرجوع إلى الله عز وجل في آدابه فيقهر نفسه
على مذموم خلقها وينقلها عن لثيم طبعها وإن كان نقل الطباع عسراً لكن
بالرياضة والتدرج يسهل منها ما استصعب ويحجب منها ما أتعب وإن تقدّم
قول القائل من ربه خلقه كيف يخلق خلقه غير أنه إذا عانى تهذيب نفسه
تظاهر بالتخلق دون الخلق ثم بالعادة يصير كالخلق. وقال أبو تمام الطائي:

فلم أجد الأخلاق إلا تخلقاً ولم أجد الإفضال إلا تفضلاً

ومنها العقل الذي يستقيح به من نتائج الحسد ما لا يرضيه ويستنكف
من هجنة مساويه فيذلل نفسه أنفة ويطهرها حمية فتدعن لرشدها وتجب إلى
صلاحها. وهذا إنما يصح لذي النفس الأبية والهمة العلية وإن كان ذو الهمة
يجل عن دناءة الحسد. وقد قال الشاعر:

أبي له نفسان: نفس زكية ونفس إذا ما خافت الظلم تشمس^(٢)
ومنها أن يستدفع ضرره ويتوقى أثره ويعلم أن مكانته في نفسه أبلغ
ومن الحسد أبعد فيستعمل الحزم في دفع ما كدّه وأكمدّه ليكون أطيّب نفساً
وأهنأ عيشاً. وقد قيل: العجب لغفلة الحساد عن سلامة الأجساد. وقد قال
الشاعر:

(١) عرف العود: العرف بالفتح: الرائحة الطيبة.

(٢) تشمس: بضم الميم أي تبدي عداوتها لمن يخاف ظلمه.

بصير بأعقاب الأمور كأنما يرى بصواب الرأي ما هو واقع
ومنها ما يرى من نفور الناس عنه وبعدهم منه فيخافهم إما على نفسه
من عداوة أو على عرضه من ملامة فيتألفهم بمعالجة نفسه ويراهم إن
صنحوا أجدى نفعاً وأخلص وداً. وقال ابن العميد رحمه الله تعالى :

داوي جوى بجوى وليس بحازم من يستكف النار بالحلفاء^(١)
وقال المؤمل بن أميل

لا تحسبوني غنياً عن مودتكم إني إليكم وإن أيسرت مفتقر
ومنها أن يساعد القضاء ويُستسلم للمقدور ولا يرى أن يغالب قضاء
الله فيرجع مغلوباً ولا أن يعارضه في أمره فيردّ محروماً مسلوباً. وقد قال
أردشير بن بابك: إذا لم يساعدنا القضاء ساعدناه. وقال محمود الوراق:

قدر الله كائن حين يقضي وروده
قد مضى فيك علمه وانتدب ما يريد
وأخو الحزم حزمه ليس مما يزيد
فأرد ما يكون إن لم يكن ما تريده

فإن اظفرته السعادة بأحد هذه الأسباب وهدته المرشد إلى استعمال
الصواب سلم من سقامه وخلص من غرامه واستبدل بالنقص فضلاً واعتاض
من الذم حمداً فإن من استنزل نفسه عن مذمة وصرفها عن لائمة فهو أظهر
حزماً وأقوى عزماً ممن كفته النفس جهادها وأعطته قيادها ولذلك قال علي
ابن أبي طالب رضي الله عنه: خياركم كل مُفْتَنٍ^(٢) تَوَّاب. وإن صدته الشهوة
عن مراشده وأضله الحرمان عن مقاصده فأنقاد للطبع اللئيم وغلب عليه
الخلق الذميم حتى ظهر حسده واشتد كمده فقد باء بأربع مدام: إحداهن
حسرات الحسد وسقام الجسد ثم لا يجد لحسرتة انتهاء ولا يؤمل لسقامه

(١) الحلفاء: نوع من الحشيش، يوقد به النار، «وداوي» من المداواة «والجوى» مرض مزمن في
القلب أو في الصدر، واحتراق القلب من شدة الوجد والعشق.

(٢) كل مفتن: كل ممتحن يمتحنه الله بالذنوب ثم يتوب عليه ثم يعود ثم يتوب عليه.

شفاء. وقال ابن المعتز: الحسد داء الجسد. والثانية انخفاض المنزلة وانحطاط المرتبة لانحراف الناس عنه ونفورهم منه. وقد قيل في منشور الحكم: الحسود لا يسود. والثالثة مقت الناس له حتى لا يجد فيهم محباً وعداوتهم له حتى لا يرى فيهم ولياً فيصير بالعداوة ماثوراً وبالمقت مزجوراً ولذلك قال النبي ﷺ: «شر الناس من يبغض الناس ويبغضونه». والرابعة إسقاط الله تعالى في معارضته واجتناء الأوزار في مخالفته إذ ليس يرى قضاء الله عدلاً ولا لنعمه من الناس أهلاً. ولذلك قال النبي ﷺ: «الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب» وقال عبد الله بن المعتز: الحاسد مغتاط على من لا ذنب له بخيل بما لا يملكه طالب ما لا يجده. وإذا بلي الإنسان بمن هذه حاله من حساد النعم وأعداء الفضل استعاذ بالله من شره وتوقى مصارع كيده وتحرز من غوائل حسده وابتعد عن ملاسته وإدناؤه لعضل دائه وإعواز دوائه فقد قيل: حاسد النعمة لا يرضيه إلا زوالها. وقال بعض الحكماء: من ضبر بطبعه فلا تأنس بقربه فإن قلب الأعيان صعب المرام. وقال عبد الحميد: أسد تقاربه خير من حسود تراقبه. وقال محمود الوراق:

أعطيت كل الناس من نفسي الرضا إلا الحسود فإنه أعياني
ما إن لي ذنباً إليه علمته إلا تظاهر نعمة الرحمن
وأبي فما يرضيه إلا ذلتي وذهاب أموالي وقطع لساني
وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «ثلاثة لا يسلم أحد منهم: الطيرة^(١) وسوء الظن والسحد فإذا تطيرت فلا ترجع وإذا ظننت فلا تحقق وإذا حسدت فلا تبغ».

(فصل) وأما آداب المواضعة والإصطلاح فضربان: أحدهما ما تكون المواضعة في فروعه والعقل موجب لأصوله. والثاني ما تكون المواضعة في فروعه وأصوله وذلك متضح في الفصول التي نذكرها إذا سبرت وهي ثمانية:

(١) الطيرة: بكسر الطاء، وفتح الباء، وقد تسكن: هي التشاؤم بالشر.

(الفصل الأول في الكلام والصمت) اعلم أن الكلام ترجمان يعبر عن مستودعات الضمائر ويخبر بمكنونات السرائر لا يمكن استرجاع بواده ولا يقدر على ردّ شوارده فحق على العاقل أن يحترز من زلله بالإمساك عنه أو بالاقفال منه. روي عن النبي ﷺ أنه قال: «رحم^(١) الله من قال خيراً فغنم أو سكت فسلم». وقال ﷺ لمعاذ: يا معاذ أنت سالم ما سكت فإذا تكلمت فعليك أو لك. وقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: اللسان معيار أطاشه الجهل وأرجحه العقل. وقال بعض الحكماء: الزم الصمت تعدّ حكيماً جاهلاً كنت أو عالماً. وقال بعض الأدباء: سعد من لسانه صموت وكلامه قوت. وقال بعض العلماء: من أعوز ما يتكلم به العاقل أن لا يتكلم إلاّ لحاجته أو لحجته ولا يفكر إلاّ في عاقبته أو في آخرته. وقال بعض البلغاء: الزم الصمت فإنه يكسبك صفو المحبة ويؤمنك سوء المغبة ويلبسك ثوب الوقار ويكفيك مؤونة الاعتذار. وقال بعض الفصحاء: إعقل لسانك إلاّ عن حق توضحه أو باطل تدحضه أو حكمة تنشرها أو نعمة تذكرها. وقال الشاعر:

رأيت العز في أدب وعقل وفي الجهل المذلة والهوان
وما حسن الرجال لهم بحسن إذا لم يسعد الحسن البيان
كفى بالمرء عيباً أن تراه له وجه وليس له لسان.

واعلم أن للكلام شروطاً لا يسلم المتكلم من الزلل إلاّ بها ولا يعرى من النقص إلاّ بعد أن يستوفيها وهي أربعة: فالشرط الأول أن يكون الكلام لداع يدعو إليه إما في اجتلاب نفع أو دفع ضرر. والشرط الثاني أن يأتي به في موضعه ويتوخى به إصابة فرصته. والشرط الثالث أن يقتصر منه على قدر حاجته. والشرط الرابع أن يتخير اللفظ الذي يتكلم به. فهذه أربعة شروط متى أخل المتكلم بشرط منها فقد أوهن فضيلة باقيها وسنذكر تعليل كل شرط منها بما ينبيء عن لزومه. فأما الشرط الأول وهو الداعي إلى الكلام فلأن ما لا داعي له هذيان وما لا سبب له هجر ومن سامح نفسه في

(١) رحم الله... رواه الديلمي عن أنس.

الكلام إذا عن^(١) ولم يراع سحّة دواعيه وإصابة معانيه كان قوله مردوفاً ورأيه معلولاً كالذي حكى ابن عائشة: أن شاباً كان يجالس الأحنف ويطيل الصمت فأعجب ذلك الأحنف فخلت الحلقة يوماً فقال له الأحنف: تكلم يا ابن أخي فقال: يا عم أرأيت لو أن رجلاً سقط من شرف هذا المسجد هل كان يضره شيء فقال: يا ابن أخي ليتنا تركناك مستوراً ثم تمثل الأحنف بقول الأعور الشنّي:

وكائن ترى من صامت لك معجب زيادته أو نقصه في التكلم
لسان الفتى نصف ونصف فؤاده فلم يبق إلا صورة اللحم والدم
وكالذي حكى عن أبي يوسف الفقيه أن رجلاً كان يجلس إليه فيطيل الصمت فقال له أبو يوسف: ألا تسأل قال: بلى متى يفطر الصائم قال: إذا غربت الشمس قال: فإن لم تغرب إلي نصف الليل قال: فتبسم أبو يوسف رحمه الله وتمثل بيّتي الخطفي جدّ جرير:

عجبت لإزراء العيّ بنفسه وصمت الذي قد كان بالقول أعلماً
وفي الصمت ستر للعيّ وإنما صحيفة لب المرء أن يتكلّم

ومما أطرفك به عتيّ أني كنت يوماً في مجلسي بالبصرة وأنا مقبل على تدريس أصحابي إذا دخل عليّ رجل مسنّ قد ناهز الثمانين أو جاوزها فقال لي: قد قصدتك بمسألة اخترتك لها فقلت: أسأل عافاك الله وظننته يسأل عن حادث نزل به فقال: أخبرني عن نجم إبليس ونجم آدم ما هو فإن هذين لعظم شأنهما لا يسأل عنهما إلا علماء الدين فعجبت وعجب من في مجلسي من سؤاله وبلد إليه أقوم منهم بالإنكار والاستخفاف فكففتهم وقلت هذا لا يقنع مع ما ظهر من حاله إلا بجواب مثله فأقبلت عليه وقلت يا هذا إن المنجمين يزعمون أن نجوم الناس لا تعرف إلا بمعرفة مواليدهم فإن ظفرت بمن يعرف ذلك فاسأله فحينئذ أقبل عليّ وقال: جزاك الله خيراً ثم انصرف مسروراً فلما كان بعد أيام عاد وقال: ما وجدت إلى وقتي هذا من

(١) عن: ظهر وسمح.

يعرف مولد هذين. فانظر إلى هؤلاء كيف أبانوا بالكلام عن جهلهم وأعربوا بالسؤال عن نقصهم إذ لم يكن لهم داع إليه ولا روية فيما تكلموا به ولو صدر عن روية ودعا إليه داع لسلموا من شينه وبرثوا من عيبه ولذلك قال النبي ﷺ: «لسان العاقل من وراء قلبه فإذا أراد الكلام رجع إلى قلبه فإن كان له تكلم وإن كان عليه أمسك وقلب الجاهل من وراء لسانه يتكلم بكل ما عرض له» وقال عمر بن عبد العزيز: من لم يعد كلامه من عمله كثرت خطاياه. وقال بعض الحكماء: عقل المرء مخبوء تحت لسانه. وقال بعض البلغاء: احبس لسانك قبل أن يطيل حبسك أو يتلف نفسك فلا شيء أولى بطول حبس من لسان يقصر عن الصواب ويسرع إلى الجواب. وقال أبو تمام الطائي:

ومما كانت الحكماء قالت لسان المرء من تبع الفؤاد
وكان بعض الحكماء يحسم الرخصة في الكلام ويقول: إذا جالست
الجهال فأنصت لهم وإذا جالست العلماء فأنصت لهم فإن في إنصاتك
للجهال زيادة في الحلم وفي إنصاتك للعلماء زيادة في العلم. وأما الشرط
الثاني فهو أن يأتي بالكلام في موضعه لأن الكلام في غير حينه لا يقع موقع
الانتفاع به وما لا ينفع من الكلام فقد تقدّم القول بأنه هذيان وهجر فإن قدّم
ما يقتضي التأخير كان عجلة وخرقاً وإن أخر ما يقتضي التقديم كان توانياً
وعجزاً لأن لكل مقام قولاً وفي كل زمان عملاً. وقد قال الشاعر:

تضع الحديث على مواضعه وكلامها من بعدها نزر^(١)
وأما الشرط الثالث وهو أن يقتصر منه على قدر حاجته فإن الكلام إن
لم ينحصر بالحاجة ولم يقدر بالكفاية لم يكن لحده غاية ولا لقدره نهاية وما
لم يكن من الكلام محصوراً كان إما حصراً^(٢) ان قصر أو هذراً ان كثر.
وروي أن أعرابياً تكلم عند رسول الله ﷺ وطول فقال النبي ﷺ: كم دون
لسانك من حجاب قال: شفتاي وأسناني قال: فإن الله عز وجل يكره.

(١) نزر: أي قليل.

(٢) حصراً: أي عياً.

الإنبيق^(١) في الكلام فنضّر الله وجه أمرىء أوجز في كلامه فاقصر على حاجته. وحكي أن بعض الحكماء رأى رجلاً يكثر الكلام ويقل السكوت قال: إن الله تعالى إنما خلق لك أذنين ولساناً واحداً ليكون ما تسمعه ضعف ما تتكلم به. وقال بعض الحكماء: من كثر كلامه كثر آثامه. وقال ابن مسعود: أنذرکم فضول المنطق. وقال بعض البلغاء: كلام المرء بيان فضله وترجمان عقله فاقصره على الجميل واقتصر منه على القليل وإياك وما يسخط سلطانك ويوحش إخوانك فمن أسخط سلطانه تعرّض للمنية ومن أوحش إخوانه تبرأ من الحرّية. وقال بعض الشعراء:

وزن الكلام إذا نطقت فإنما يبيدي عيوب ذوي العيوب المنطق
ولمخالفة قدر الحاجة من الكلام حالتان تقصير يكون حصراً وتكثير
يكون هذراً وكلاهما شين وشين الهذر أشنع وربما كان في الغالب أخوف
قال النبي ﷺ: «وהל يكب الناس على مناخرهم في نار جهنم إلا حصائد
الستهم». وقال بعض الحكماء: مقتل الرجل بين فكيه. وقال بعض
البلغاء: الحصر خير من الهذر لأن الحصر يضعف الحجة والهذر يتلف
المهجة. وقد قال الشاعر:

رأيت اللسان على أهله إذا ساسه الجهل ليثاً مغيراً
وقال بعض الأدباء: يا رب السنة كالسيوف تقطع أعناق أصحابها وما ينقص
من هيئات الرجال يزيد في بهائها وألبابها. وقد ذهب بعضهم إلى أن الكلام
إذا كثر عن قدر الحاجة وزاد على حدّ الكفاية وكان صواباً لا يشوبه خطل
وسليماً لا يتعوّده زلل فهو البيان والسحر الحلال. وقال سليمان بن عبد
الملك وقد ذم الكلام في مجلسه: كلا إن من تكلم فأحسن قدر على أن
يسكت فيحسن وليس من سكت فأحسن قدر على أن يتكلم فيحسن.
ووصف بعضهم الكاتب فقال الكاتب: من إذا أخذ شبراً كفاه وإذا وجد

(١) الإنبيق: الإندفاع، ويقال: انبثق وتنبثق المطر أي انفتح بشدة، ومنه انبثق فلان بالجوهر والكرم.

طوماراً^(١) أملاه. وأنشد بعضهم في خطباء إيراد:

يرمون بالخطب الطوال وتارة وحي الملاحظ خيفة الرقباء
وقال الهيثم بن صالح لابنه: يا بني إذا أقللت من الكلام أكثرت من
الصواب فقال: يا أبت فإن أنا أكثرت وأكثرت يعني كلاماً وصواباً فقال: يا بني رأيت
موعوظاً أحق بأن يكون واعظاً منك. وأنشدت لأبي الفتح البستي:

تكلم وسدد ما استطعت فإنما كلامك حي والسكوت جماد
فإن لم تجد قولاً سديداً تقوله فصمتك عن غير السداد^(٢) سداد

وقيل لأياس بن معاوية: ما فيك عيب إلا كثرة الكلام فقال:
أفستمعون صواباً أو خطأ قالوا: لا بل صواباً قال: فالزيادة من الخير خير.
وقال أبو عثمان الجاحظ: للكلام غاية ولنشاط السامعين نهاية وما فضل عن
الاحتمال ودعا إلى الاستثقال والملال فذلك الفاضل هو الهذر وصدق أبو
عثمان لأن الإكثار منه وإن كان صواباً يملّ السامع ويكل الخاطر وهو صادر
عن إعجاب به لولاه لأقصر عنه ومن أعجب بكلامه استرسل فيه والمسترسل
في الكلام كثير الزلل دائم العثار. وقال بعض الحكماء: من أعجب بقوله
أصيب بعقله وليس لكثرة الهذر رجاء يقابل خوفه ولا نفع يوازي ضرره لأنه
يخاف من نفسه الزلل ومن سامعيه السامة والملل وليس في مقابلة هذين
حاجة داعية ولا نفع مرجو. وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «أبغضكم إليّ
المتفيهق المكثار والملح المهدار». وسأل رجل حكيماً فقال متى أتكلم قال:
إذا اشتهيت الصمت فقال متى أصمت قال: إذا اشتهيت الكلام. وقال جعفر
ابن يحيى: إذا كان الإيجاز كافياً كان الإكثار عيباً وإن كان الإكثار واجباً كان
التقصير عجزاً. وقيل في منشور الحكم: إذا تم العقل نقص الكلام. وقال
بعض الأدباء: من أطال صمته اجتلب من الهيبة ما ينفعه ومن الوحشة ما لا
يضره. وقال بعض البلغاء: عي تسلم منه خير من منطق تندم عليه فاقصر من

(١) طوماراً: الصحيفة التي يكتب عليها.

(٢) السداد: بالفصح الصواب، والقصد من القول والعمل، وبالكسر ما سدّت شيئاً، كسدّد
القارورة.

الكلام على ما يقيم حجتك ويبلغ حاجتك وإياك وفضوله فإنه يزل القدم ويورث الندم. وقال بعض الفصحاء: فم العاقل ملجم^(١) إذا هم بالكلام أحجم^(٢) وفم الجاهل مطلق كلما شاء أطلق. وقال بعض الشعراء:

إن الكلام يغفر^(٣) القوم جلوته^(٤) حتى يلج به عني وإكثار

وأما الشرط الرابع وهو اختيار اللفظ الذي يتكلم به فلأن اللسان عنوان الإنسان يترجم عن مجهول ويبرهن عن محسوسه فليزِم أن يكون بهتذيب ألفاظه حرياً وبتقويم لسانه ملياً. روي عن النبي ﷺ أنه قال لعمه العباس: يعجبني جمالك قال: وما جمال الرجل يا رسول الله قال: لسانه. وقال خالد بن صفوان ما الإنسان لولا اللسان هل كان إلّا بهيمة مهملة أو صورة ممثلة. وقال بعض الحكماء: اللسان وزير الإنسان. وقال بعض البلغاء: يستدل على عقل الرجل بقوله وعلى أصله بفعله. وقال بعض الشعراء:

وإن لسان المرء ما لم تكن له حصاة^(٥) على عوراته لدليل

وليس يصح اختيار الكلام إلّا لمن أخذ نفسه بالبلاغة وكلفها لزوم الفصاحة حتى يصير متدرباً بها معتاداً لها فلا يأتي بكلام مستكره اللفظ ولا مختل المعنى لأن البلاغة ليست على معانٍ مفردة ولا لألفاظها غاية وإنما البلاغة أن تكون بالمعاني الصحيحة مستودعة في ألفاظ فصيحة فتكون فصاحة الألفاظ مع صحة المعاني هي البلاغة. وقد قيل لليوناني ما البلاغة قال: اختيار الكلام وتصحيح الأقسام وقيل ذلك للرومي فقال: حسن الاختصار عند البديهة والغزارة يوم الإطالة وقيل للهندي فقال:

(١) ملجم: أي بلجم التفكير.

(٢) أحجم: أي كف عنه.

(٣) يغفر القوم: يقال: غره إذا خدعه.

(٤) جلوته: الجلوة بالكسر: ما يعطى للعروس عند الزفاف.

(٥) حصاة: والحصاة بفتح الحاء: العقل والرأي.

معرفة الفصل من الوصل وقيل للعربي فقال: ما حسن إيجازه وقل مجازه وقيل للبدوي فقال: ما دون السحر وفوق الشعر يفت الخردل ويحط الجندل وقيل للحضري فقال: ما كثر إعجازه وتناسبت صدورده واعجازه. وقال ابن المقفع: البلاغة قلة الحصر والجراءة على البشر. وسأل الحجاج بن القرية عن الإيجاز قال: أن تقول فلا تبطىء وأن تصيب فلا تخطىء. وقال الشاعر:

خير الكلام قليل على كثير دليل
والعي معنى قصير يحويه لفظ طويل
وفي الكلام فضول وفيه قال وقيل

وأما صحة المعاني فتكون من ثلاثة أوجه: أحدها إيضاح تفسيرها حتى لا تكون مشكلة ولا مجملة. والثاني استيفاء تقسيمها حتى لا يدخل فيها ما ليس منها ولا يخرج منها ما هو فيها. والثالث صحة مقابلاتها والمقابلة تكون من وجهين: أحدهما مقابلة المعنى بما يوافقه وحقيقة هذه المقاربة لأن المعاني تصير متشاكلة. والثاني مقابله بما يضاده وهو حقيقة المقابلة وليس للمقابلة إلا أحد هذين الوجهين. الموافقة في الإلتلاف والمضادة مع الاختلاف. فأما فصاحة الألفاظ فتكون بثلاثة أوجه: أحدها مجانية الغريب الوحشي حتى لا يمجسه سمع ولا ينفر منه طبع. والثاني تنكب اللفظ المستبذل والعدول عن الكلام المسترذل حتى لا يستسقطه خاصي ولا ينبو عن فهمه عامي كما قال الجاحظ في كتاب البيان أما أنا فلم أر قوماً أمثل طريقة في البلاغة من الكتاب وذلك أنهم قد التمسوا من الألفاظ ما لم يكن متوعراً وحشياً ولا ساقطاً عامياً. والثالث أن يكون بين الألفاظ ومعانيها مناسبة ومطابقة. أما المطابقة فهي أن تكون الألفاظ كالقوالب لمعانيها فلا تزيد عليها ولا تنقص عنها. وقال بشر بن المعتمر في وصيته في البلاغة إذا لم تجد اللفظة واقعة موقعها ولا صائرة إلى مستقرها ولا حالة في مركزها بل وجدتها قلقة في مكانها نافرة عن موضعها فلا تكرهها على القرار في غير موضعها فإنك إن لم تتعاط قريض الشعر

الموزون ولم تتكلف اختيار الكلام المشور لم يعبك بترك ذلك أحد وإذا أنت تكلفتها ولم تكن حاذقاً فيهما عابك من أنت أقل عيباً منه وأزرى^(١) عليك من أنت فوقه. وأما المناسبة فهي أن يكون المعنى يليق ببعض الألفاظ إما لعرف مستعمل أو لاتفاق مستحسن حتى إذا ذكرت تلك المعاني بغير تلك الألفاظ كانت نافرة عنها وإن كانت أفصح وأوضح لاعتقاد ما سواها.

وقال بعض البلغاء: لا يكون البليغ بليغاً حتى يكون معنى كلامه اسبق إلى فهمك من لفظه إلى سمعك. وأما معاطاة الأعراب وتجنب اللحن فإنما هو من صفات الصواب والبلاغة أعلى منه رتبة وأشرف منزلة وليس لمن لحن في كلامه مدخل في الأدباء فضلاً عن أن يكون في عداد البلغاء.

واعلم أن للكلام آداباً إن أغفلها المتكلم أذهب رونق كلامه وطمس بهجة بيانه ولها الناس عن محاسن فضله بمساوىء أدبه فعدلوا عن مناقبه بذكر مثالبه. فمن آدابه أن لا يتجاوز في مدح ولا يسرف في ذم وإن كانت النزاهة عن الذم كرمًا والتجاوز في المدح ملقاً يصدر عن مهانة والسرف في الذم انتقام يصدر عن شرّ وكلاهما شين وإن سلم من الكذب. يروى أنه لما قدم على رسول الله ﷺ وفد تميم سأل رسول الله ﷺ عمرو بن الأهتم^(٢) عن قيس بن عاصم فمدحه فقال قيس: والله يا رسول الله لقد علم أي خير مما وصف ولكن حسدني فذمه عمرو وقال: يا رسول الله لقد صدقت في الأولى وما كذبت في الأخرى لأنني رضيت في الأولى فقلت أحسن ما علمت وسخطت في الأخرى فقلت أقبح ما علمت فقال رسول الله ﷺ: «إن من البيان لسحراً» على أن السلامة من الكذب في المدح والذم متعذرة لا سيما إذا مدح تقرباً وذم تحقيراً. وحكي عن الأحنف بن قيس أنه قال: سهرت ليلتي أفكر في كلمة أَرْضَى بها سلطاني ولا أسخط بها ربي فما

(١) وأزرى عليك: أي حرك متعاطماً عليك.

(٢) ابن الأهتم: من أكابر سادات بني غيم وشعرائهم وخطبائهم في الجاهلية والإسلام، وهو بليغ القول، طلق العبارة وقد دخل هو والزبرقان بن بدر على رسول الله ﷺ وكان يكرمهما.

وجدتها. وقال عبد الله بن مسعود: إن الرجل ليدخل على السلطان ومعه دينه فيخرج وما معه دينه قليل وكيف ذلك قال: يرضيه بما يسخط الله عز وجل. وسمع ابن الرومي رجلاً يصف رجلاً وبالغ في مدحه فأنشأ يقول:

إذا ما وصفت امرأ لأمريء فلا تغل في وصفه واقصد
فإنك أن تغل تغل الظنن ن فيه إلى الأمد الأبعد
فيضؤل من حيث عظمته لفضل المغيب على المشهد

ومن آدابه أن لا تبعثه الرغبة والرهبة على الاسترسال في وعد أو وعيد يعجز عنهما ولا يقدر على الوفاء بهما فإن من أطلق بهما لسانه وأرسل فيهما عنانه ولم يستقل من القول ما يستقله من العمل صار وعده نكثاً ووعيده عجزاً. وحكي أن سليمان بن داود عليهما السلام مر بعصفور يدور حول عصفورة فقال لأصحابه: هل تدرون ما يقول لها قالوا لا يا نبي الله قال: إنه يخطبها لنفسه ويقول لها زوجيني نفسك أسكنك أيّ غرف دمشق شئت قال سليمان: كذب العصفور فإن غرف دمشق مبنية بالصخور لا يقدر أن يسكنها هناك ولكن كل خاطب كاذب. ومن آدابه أنه قال قولاً حققه بفعله وإذا تكلم بكلام صدّقه بعمله فإن إرسال القول واختيار العمل به اضطرار ولأن يفعل ما لم يقل أجمل من أن يقول ما لم يفعل. وقال بعض الحكماء: أحسن الكلام ما لا يحتاج فيه إلى الكلام أي يكتفي بالفعل من القول. وقال محمود الوراق:

القول ما صدّقه الفعل والفعل ما وكده العقل
لا يثبت القول إذا لم يكن يقله من تحته الأصل

ومن آدابه أن يراعي مخارج كلامه بحسب مقاصده وأغراضه فإن كان ترغيباً قرنه باللين واللطف وإن كان ترهيباً خلطه بالخشونة والعنف فإنّ لين اللفظ في الترهيب وخشونته في الترغيب خروج عن موضعهما وتعطيل للمقصود بهما فيصير الكلام لغواً والغرض المقصود لهواً. وقد قال أبو الأسود الدؤلي لابنه: يا بني إن كنت في قوم فلا تتكلم بكلام من هو فوقك فيمقتوك ولا بكلام من هو دونك فيزدروك. ومن آدابه أن لا يرفع بكلامه

صوتاً مستكراً ولا ينزعج له انزعاجاً مستهجنًا وليكف عن حركة تكون طيشاً وعن حركة تكون عياً فإن نقص الطيش أكثر من فضل البلاغة. وقد حكى أن الحجاج قال لأعرابي: اخطيب أنا؟ قال نعم. لولا أنك تكثر الرد وتشير باليد وتقول أما بعد. ومن آدابه أن يتجافى هجر القول ومستقبح الكلام وليعدل إلى الكناية عما يستقبح صريحه ويستهن فصيحه ليلبغ الغرض ولسانه نزه وأدبه مصون. وقد قال محمد بن علي في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾^(١) قال: كانوا إذا ذكروا الفروج كنوا عنها وكما أنه يصون لسانه عن ذلك فهكذا يصون عنه سمعه فلا يسمع خناً ولا يصغي إلى فحش فإن سماع الفحش داع إلى إظهاره وذريعة إلى إنكاره وإذا وجد عن الفحش معرضاً كف قائله وكان إعراضه أحد النكيرين كما أن سماعه أحد الباعثين وأنشدني أبو الحسن بن الحارث الهاشمي:

تحرّ من الطرق أوساطها وعدّ عن الموضع المشتبه
وسمعتك صن عن قبيح الكلام كصون اللسان عن النطق به
فإنك عند استماع القبيح شريك لقائله فانتبه

ومما يجري مجرى فحش القول وهجره في وجوب اجتنابه ولزوم تنكبه ما كان شنيع البديهة مستنكر الظاهر وإن كان عقب التأمل سليماً وبعد الكشف والروية مستقيماً كالذي رواه الأزدي عن الصولي لبعض المتكلفين من الشعراء:

إنني شيخ كبير كافر بالله سيري
أنت ربي والهي رازق الطفل الصغير
يريد بقوله كافر أي لا بس لأن الكفر التغطية ولذلك سمي الكافر بالله كافراً لأنه قد غطى نعمة الله بمعصيته وقوله بالله سيري يقسم عليها أن تسير وقوله أنت ربي يعني ربي ولدك من التربية وإلهي رازق الطفل الصغير كما أنه رازق الولد الكبير. فانظر إلى هذا الكلف الشنيع والتعمق البشيع ما

(١) كراماً: معرضين عنه، مكرمين أنفسهم عن الوقوف عليه والخوض فيه.

اعتاض من حيث البديهة إذا سلم بعد الفكر والروية إلا لؤماً ان حسن فيه الظن أو ذماً إن قوي فيه الارتباب وقلما يكون ذلك إلا من خليع بطر^(١) ومرتاب اشتر^(٢). فأما الحديث المروي عن النبي ﷺ أنه قال: لا تصلوا على النبي فخارج من هذا النوع من التلبيس وفي تأويله وجهان: أحدهما أنه أراد النهي عن الصلاة في المكان المرتفع المحدود مأخوذ من النبوة. والثاني أنه أراد الطريق ومنه سمي رسل الله أنبياء لأنهم الطرق إليه وإنما زال عنه التلبيس إذا قاله رسول الله ﷺ وإن كان من قول غيره تلبساً شنيعاً لأن موضوع خطابه وشواهد أحواله يصرفان كلامه عن التجوز والاسترسال في أمر أو نهى إلى ما لا يجوز أن يرد به شرع وينهى عنه نبي وليس يمتنع ذلك في غيره ولذلك افترق وجوده منه ومن غيره. ومن آدابه أن يجتنب أمثال العامة الغوغاء ويتخصص بأمثال العلماء الأدباء فإن لكل صنف من الناس أمثالاً تشاكلهم. فلا تجد لساقط إلا مثلاً ساقطاً وتشبيهاً مستقبحاً وللسقاط أمثال فمنها تمثيلهم للشيء المريب كما قال الصنوبري:

إذا ما كنت ذا بول^(٣) صحيح ألا فاضرب به وجه الطبيب
ولذلك علتان: إحداهما أن الأمثال من هواجس الهمم وخطرات النفوس ولم يكن لذي الهممة الساقطة الأمثل مردول وتشبيه معلول. والثانية أن الأمثال مستخرجة من أحوال المتمثلين بها فبحسب ما هم عليه تكون أمثالهم فلهاتين علتين وقع الفرق بين أمثال الخاصة وأمثال العامة. وربما ألف المتخصص مثلاً عاماً أو تشبيهاً ركيكاً لكثرة ما يطرق سمعه من مخالطة الأراذل فيسترسل في ضربه مثلاً فيصير به مثلاً كالذي حكى عن الأصمعي أن الرشيد سأل يوماً عن أنساب بعض العرب فقال على الخير سقطت يا أمير المؤمنين فقال له الفضل بن الربيع: أسقط الله جنبيك أتخاطب أمير المؤمنين بمثل هذا الخطاب فكان الفضل بن الربيع مع قلة

(١) بطر: معرض عن الحق تكبراً وتجبراً.

(٢) اشتر: فرح ومرح.

(٣) ذا بول صحيح: يقال: له بول كثير أي ولد كثير، وبال الماء انفجر، وبال الشحم ذاب.

هو واحد عصره وقريع دهره. وللأمثال من الكلام موقع في الأسماع وتأثير في القلوب لا يكاد الكلام المرسل يبلغ مبلغها ولا يؤثر تأثيرها لأن المعاني بها لائحة والشواهد بها واضحة والنفوس بها وائمة^(١) والقلوب بها واثقة والعقول لها موافقة فلذلك ضرب الله الأمثال في كتابه العزيز وجعلها من دلائل رسله وأوضح بها الحجة على خلقه لأنها في العقول معقولة وفي القلوب مقبولة ولها أربعة شروط: أحدها صحة التشبيه. والثاني أن يكون العلم بها سابقاً والكل عليها موافقاً. والثالث أن يسرع وصولها للفهم ويعجل تصورها في الوهم من غير ارتياح في استخراجها ولا كد في استنباطها. والرابع أن تناسب حال السامع لتكون أبلغ تأثيراً وأحسن موقعاً. فإذا اجتمعت في الأمثال المضروبة هذه الشروط الأربعة كانت زينة للكلام وجلاء للمعاني وتدبراً للأفهام.

(الفصل الثاني في الصبر والجزع) اعلم أن من حسن التوفيق وأمارات السعادة الصبر على الملمات والرفق عند النوازل وبه نزل الكتاب وجاءت السنة قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا^(٢) وَرَابِطُوا^(٣) وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ يعني اصبروا على ما افترض الله عليكم وصابروا عدوكم. ورابطوا فيه تأويلان: أحدهما على الجهاد. والثاني على انتظار الصلوات. وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أدلكم على ما يحبط الله به الخطايا ويرفع به الدرجات قالوا بلى يا رسول الله قال: إسباغ الوضوء عن المكاره وكثرة الخطا إلى المساجد وانتظار الصلاة بعد الصلاة فذلكم الرباط» فنزل الكتاب بتأكيد الصبر فيما أمر به وندب إليه وجعله من عزائم التقوى فيما افترضه وحث عليه. وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «الصبر ستر من الكروب وعون على الخطوب» وقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: الصبر مطية لا تكبو والقناعة سيف لا ينبو. وقال عبد الحميد: لم أسمع أعجب من قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه لو أن الصبر

(١) وائمة: عاشقة.

(٢) وصابروا: غالبوا أعداء الله بالصبر في مواطن الحروب.

(٣) ورابطوا: أقاموا في الثغور رابطين خيولكم فيها، مترصدين للغزو ومستعدين له.

والشكر بعيران ما باليت أيهما ركبت. وقال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: أفضل العدة الصبر على الشدة. وقال بعض البلغاء: من خير خلالك الصبر على اختلالك. وقيل في مشور الحكم: من أحب البقاء فليعد للمصائب قلباً صبوراً. وقال بعض الحكماء: بالصبر على مواقع الكره تدرك الحظوظ. وقال عبيد بن الأبرص:

صبر النفس عند كل ملم إن في الصبر حيلة المحتال
لا تضيقن في الأمور فقد تك شف غماؤها بغير احتيال
رب ما تجزع النفوس من الأم ر له فرجة كحل العقال

وقال ابن المقفع في كتاب اليتيمة: الصبر صبران فاللثام أصبر أجساماً والكرام أصبر نفوساً وليس الصبر الممدوح صاحبه أن يكون الرجل قوي الجسد على الكد والعمل لأن هذا من صفات الحمير ولكن أن يكون للنفس غلباً وللأمر متحملاً ولجأشه^(١) عند الحفاظ مرتبطاً.

واعلم أن الصبر على ستة أقسام وهو في كل قسم منها محمود: فأول أقسامه وأولها الصبر على امتثال ما أمر الله تعالى به والانتفاء عما نهى الله عنه لأنه به تخلص الطاعة وبخلوص الطاعة يصح الذين وتؤدى الفروض ويستحق الثواب كما قال في محكم الكتاب: ﴿إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب﴾ ولذلك قال النبي ﷺ: «الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد» وليس لمن قلَّ صبره على طاعة حظ من بر ولا نصيب من صلاح ومن لم ير لنفسه صبراً يكسبها ثواباً ويدفع عنها عقاباً كان مع سوء الاختيار بعيداً من الرشاد حقيقاً بالضلال. وقد قال الحسن البصري رحمه الله تعالى: يا من يطلب من الدنيا ما لا يلحقه أترجو أن تلحق من الآخرة ما لا تطلبه وقال أبو العتاهية رحمة الله تعالى:

أراك أمراً ترجو من الله عفوهُ وأنت على ما لا يحب مقيم
تدل على التقوى وأنت مقصر فيا من يداوي الناس وهو سقيم

(١) لجأشه: لقلبه.

وهذا النوع من الصبر إنما يكون لفرط الجزع وشدة الخوف فإن من خاف الله عز وجل صبر على طاعته ومن جزع من عقابه وقف عند أوامره. والقسم الثاني الصبر على ما تقتضيه أوقاته من رزية قد أجهده الحزن عليها أو حادثة قد كدّه الهمّ بها فإن الصبر عليها يعقبه الراحة منها ويكسبه المثوبة عنها فإن صبر طائعاً وإلاً احتمل هماً لازماً وصبر كارهاً أثماً. وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «يقول الله تعالى من لم يرض بقضائي ويصبر على بلائي فليختر رباً سواي» وقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه للأشعث بن قيس: إنك إن صبرت جرى عليك القلم وأنت مأجور وإن جزعت جرى عليك القلم وأنت مأزور. وقد ذكر ذلك أبو تمام في شعره فقال:

وقال عليّ في التعازي لأشعث وخاف عليه بعض تلك المآثم
أصبر للبلوى عزاء وخشية فتؤجر أو تسلو سلو البهائم
وقال شبيب بن شبة للمهدي: إن أحق ما تصبر عليه ما لم تجد إلى دفعه سبيلاً وأنشد:

ولئن تصبكت مصيبة فاصبر لها عظمت مصيبة مبتلي لا يصبر
وقال آخر

تصبرت مغلوباً وإنّي لموجع كما صبر الظمآن في البلد القفر^(١)
وليس اصطباري عنك صبر استطاعة ولكنه صبر أمر من الصبر
والقسم الثالث الصبر على ما فات إدراكه من رغبة مرجوة وأعوز نيّله من مسرة مأمولة فإن الصبر عنها يعقب السلو منها والأسف بعد اليأس خرق. وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «من أعطى فشكر ومنع فصبر وظلم فغفر وظلم فاستغفر فأولئك له الأمن وهم مهتدون». وقال بعض الحكماء: اجعل ما طلبته من الدنيا فلم تنله مثل ما لا يخطر ببالك فلم تقله. وقال بعض الشعراء:

إذا ملك القضاء عليك أمراً فليس يحله غير القضاء

(١) القفر: الخالي من الماء والنبات.

فمالك والمقام بدار ذل ودار العز واسعة الفضاء
وقال بعض الحكماء: إن كنت تجزع على ما فات من يدك فاجزع
على ما لا يصل إليك فأخذه بعض الشعراء فقال:

لا تطل الحزن على فائت فقلما يجدي عليك الحزن
سيان محزون على فائت ومضمر حزناً لما لم يكن
والقسم الرابع الصبر فيما يخشى حدوثه من رهبة يخافها أو يحذر
حلوله من نكبة يخشاها فلا يتعجل هم ما لم يأت فإن أكثر الهموم كاذبة وإن
الأغلب من الخوف مدفوع. وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «بالصبر يتوقع
الفرج ومن يدمن قرع باب يلج^(١)». وقال الحسن البصري رحمه الله: لا
تحملن على يومك همّ غدك فحسب كل يوم همه. وأنشد الجاحظ لحارثة
ابن زيد:

إذا الهم أمسى وهو داء فأمضه ولست بمضيه وأنت تعادله
ولا يُنزلن أمر الشديدة بامرئ إذا همّ امرأ عوّقه^(٢) عواذله^(٣)
وقل لفؤاد أن تجد بك ثروة^(٤) من الروع فافرخ أكثر الهمّ باطله

والقسم الخامس الصبر فيما يتوقعه من رغبة يرجوها ويتنظر من نعمة
يأملها فإنه إن أدهشه التوقع لها وأذهله التطلع إليها أنسدت عليه سبل
المطالب واستفزه تسويل المطامع فكان أبعد لرجائه وأعظم لبلائه وإذا كان
مع الرغبة وقوراً وعند الطلب صبوراً انجلت عنه عماية الدهش وانجابت عنه
حيرة الوله فلبصر رشده وعرف قصده. وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال:
«الصبر ضياء» يعني والله أعلم أنه يكشف ظلم الحيرة ويوضح حقائق
الأمر. وقال أكثم بن صيفي: من صبر ظفر. وقال ابن المقفع: كان مكتوباً

(١) يلج: يدخل.

(٢) عوّقه: التعميق: التأخير.

(٣) عواذله: جمع عاذلة، وهي اللاتمة، والثانيث باعتبار غلبة اللوم في النساء، أو جمع عاذل
باعتبار غلبة الاسمية على الوصفية.

(٤) ثروة: الثروة: الكثرة.

في قصر أردشير الصبر مفتاح الدرك. وقال بعض الحكماء: بحسن الثاني تسهل المطالب. وقال بعض البلغاء: من صبر نال المنى ومن شكر حصن النعمى. وقال محمد بن بشير:

إن الأمور إذا سدّت مطالبها فالصبر يفتق منها كل ما ارتتجا^(١)
لا تياسن وإن طالت مطالبه إذا استعنت بصبر أن ترى فرجا
أخلق بذى الصبر أن يحظى بحاجته ومدمن القرع للأبواب أن يلجا

والقسم السادس الصبر على ما نزل من مكروه أو حل من أمر مخوف فبالصبر في هذا تنفتح وجوه الآراء وتستدفع مكاييد الأعداء فإن من قل صبره عذب رأيه واشتد جزعه فصار صريع همومه وفريسة غمومه. وقد قال الله تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ وروى عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: «إن استطعت أن تعمل لله بالرضا في اليقين فافعل وإن لم تستطع فاصبر فإن في الصبر على ما تكره خيراً كثيراً واعلم أن النصر مع الصبر والفرج مع الكرب واليسر مع العسر» وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: الصبر مستأصل الحدثان^(٢) والجزع من أعوان الزمان. وقال بعض الحكماء: بمفتاح عزيمة الصبر تعالج مغاليق الأمور. وقال بعض البلغاء: عند انسداد الفرج تبدو مطالع الفرج. وروى ابن عباس رضي الله عنهما أن سليمان بن داود عليهما السلام لما استكد شياطينه في البناء شكوا ذلك إلى إبليس لعنه الله فقال: أستم تذهبون فرغاً^(٣) وترجعون مشاغيل قالوا بلى قال: ففي ذلك راحة فبلغ ذلك سليمان على نبينا وعليه السلام فشغلهم ذاهبين وراجعين فشكوا ذلك إلى إبليس لعنه الله فقال: أستم تستريحون بالليل قالوا بلى قال: ففي هذا راحة لكم نصف دهركم فبلغ ذلك سليمان عليه السلام فشغلهم بالليل والنهار فشكوا ذلك إلى إبليس لعنه الله فقال: الآن جاءكم الفرج فما لبثوا أن أصيب

(١) ارتتجا: استفلق.

(٢) الحدثان: بكسر الحاء: نوائب الدهر ومصائبه، والاستئصال قلع الشيء من أصله.

(٣) فرغاً: جمع فارغ، كركع وراكع.

سليمان عليه السلام ميتاً على عصاه فإذا كان هذا في نبي من أنبياء الله يعمل بأمره ويقف على حدّه فكيف بما جرت به الأقدار من يد عادية وساقه القضاء من حوادث نازلة هل تكون مع التناهي إلّا منقرضة وعند بلوغ الغاية إلّا منحسرة. وأنشد بعض الأدباء لعثمان بن عفان رضي الله عنه:

خليلي لا والله ما من ملمة	تدوم على حيّ وإن هي جلت
فإن نزلت يوماً فلا تخضعن لها	ولا تكثر الشكوى إذا النعل زلت
فكم من كريم قد بلى بنوائب	فصار برهاً حتى مضت واضمحلت
وكم غمرة ^(١) هاجت بأمواج غمرة	تلقيتها بالصبر حتى تجلت
وكانت على الأيام نفسي عزيزة	فلما رأيت صبري على الذل ذلت
فقلت لها يا نفس موتي كريمة	فقد كانت الدنيا لنا ثم ولت

ولتسهيل المصائب وتخفيف الشدائد أسباب إذا قارنت حزماً وصادفت عزماً هان وقبحها وقل تأثيرها وضررها. فمنها استشعار النفس بما تعلمه من نزول الفناء وتقضي المسار وأن لها أجالا منصومة ومددا منقضية إذ ليس للدنيا حال تدوم ولا لمخلوق فيها بقاء. وروى ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «ما مثلي مثل الدنيا إلّا كمثّل راكب مال إلى ظل شجرة في يوم صائف ثم راح وتركها». وسئل علي بن أبي طالب رضي الله عنه عن الدنيا فقال: تغرّ وتضرّ وتمرّ وسأل بعض خلفاء بني العباس جليساً له عن الدنيا فقال: إذا أقبلت أدبرت وقال عمرو بن عبيد: الدنيا أمد والأخرة أمد. وقال أنوشروان: إن أحببت أن لا تغتم فلا تقتن ما به تهتم فأخذه بعض الشعراء فقال:

ألم تر أن الدهر من سوء فعله	يكدر ما أعطى ويسلب ما أسدى
فمن سرّه أن لا يرى ما يسوءه	فلا يتخذ شيئاً يخاف له فقدا

وأنشد بعض الحكماء

لحكيمنا بقراط خير قضية ووصية تنفي الهموم الركدا^(٢)

(١) الغمرة: الشدة.

(٢) الركدا: جمع راكد، وهو المجتمع، أي تنفي تلك القضية الهموم المجتمع.

قال الهموم تكون من طبع الوري في لبث^(١) ما في طبعه أن ينفدا
فإذا اقتنيت من الزجاجة قابلاً للكسر فانكسرت فلا تك مكمدا

وأنشدني بعض أهل العلم لسعيد بن مسلم:

إنما الدنيا هبات وعوار مستردّه
شدة بعد رخاء ورخاء بعد شدّه

ولما قتل بزرجمهر وجد في جيب قميصه رقعة فيها مكتوب: إذا لم
يكن جدّ فقيم الكدّ وإن لم يكن للأمر دوام فقيم السرور وإذا لم يرد الله
دوام ملك فقيم الحيلة وقال ابن الرومي:

رأيت حياة المرء رهناً بموته وصحته رهناً كذلك بالسقم
إذا طاب لي عيش تنغص طيبه بصدق يقيني أن سيذهب كالحلم
ومن كان في عيش يراعي زواله فذلك في بؤس وإن كان في نعم
ومنها أن يتصوّر انجلاء الشدائد وانكشاف الهموم وإنها تتقدر بأوقات
لا تنصرم قبلها ولا تستديم بعدها فلا تقصر بجزع ولا تطول بصبر وإن كان
كل يوم يمرّ بها يذهب منها بشطر ويأخذ منها بنصيب حتى تنجلي وهو عنها
غافل. وحكي أن الرشيد حبس رجلاً ثم سأل عنه بعد زمان فقال للموكل
به: قل له كل يوم يمضي من نعيمك يمضي من بؤسي مثله والأمر قريب
والحكم لله تعالى فأخذ هذا المعنى بعض الشعراء فقال:

لو أن ما أنمو فيه يدوم لكم ظننت ما أنا فيه دائماً أبداً
لكنني عالم أنني وأنكم سنستجد خلاف الحالين غداً
وأنشد لبعض الشعراء:

عواقب مكروه الأمور خيار وأيام ضرّ لا تدوم قصار
وليس بياق بؤسها ونعيمها إذا كرّ ليل ثم كرّ نهار
وأنشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين حضرته الوفاة:

(١) اللبث: المكث.

ألم تر أن ربك ليس تحصي أياديه الحديثة والقديمة
تسلّ عن الهموم فليس شيء يقوم ولا همومك بالمقيمة
لعل الله ينظر بعد هذا إليك بنظرة منه رحيمه

ومنها ان يعلم أن فيما وقى من الرزايا وكفى من الحوادث ما هو
أعظم من رزيتة وأشدّ من حادثته ليعلم أنه ممنوح بحسن الدفاع ولذلك قال
النبي ﷺ: «إن الله تعالى في أثناء كل محنة^(١) منحة^(٢)». وقيل للشعبي في نائبة
كيف أصبحت قال: بين نعمتين خير منشور وشر مستور. وقال بعض
الشعراء:

لا تكره المكروه عند حلوله إن العواقب لم تزل متايينه
كم نعمة لا تستقل بشكرها لله في طيّ المكاره كامنه

ومنها أن يتأسى بذوي الغير^(٣) ويتسلى بأولي العبر^(٤) ويعلم أنهم
الأكثر عدداً والأسرعون مدداً فيستجدّ من سلوة الأسى وحسن العزا ما
يخفف شجوه ويقلّ هلمه^(٥). وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: الصقوا
بذوي الغير تنسع قلوبكم وعلى مثل ذلك كانت مرثي الشعراء قال
البحثري:

فلا عجب للأسد إن ظفرت بها كلاب الأعادي من فصيح وأعجم
فحربة وحشيّ سقت حمزة الردى وموت عليّ من حسام ابن ملجم
وقال أبو نواس

المرء بين مصائب لا تنقضي حتى يوارى جسمه في رسمه
فمؤجل يلقي الردى في أهله ومعجل يلقي الردى في نفسه

(١) محنة: بليّة.

(٢) منحة: عطية.

(٣) الغير: بوزن غيب: اسم من غير الشيء فتغير، وهو عبارة عن تغير الحال، وانتقالها من
الصالح إلى الفساد.

(٤) العبر: جمع عبرة: وهي اسم من الاعتبار، أي الإنعاض مع التعجب.

(٥) الهلم: الجزع، وفزعه عند الكربة.

ومنها أن يعلم أن النعم زائلة وأنها لا محالة زائلة وأن السرور بها إذا أقبلت مشوب الحذر من فراقها إذا أدبرت وأنها لا تفرح بإقبالها فرحاً حتى تعقب بفراقها ترحاً فعلى قدر السرور يكون الحزن. وقد قيل في منشور الحكم: المفروح به هو المحزون عليه. وقيل: من بلغ غاية ما يحب فليتوقع غاية ما يكره. وقال بعض الحكماء: من علم أن كل نائبة إلى انقضاء حسن عزائه عند نزول البلاء. وقيل للحسن البصري رحمه الله: كيف ترى الدنيا قال: شغلني توقع بلاتها عن الفرح برخائها فأخذ أبو العتاهية فقال:

تزيده الأيام إن أقبلت شدة خوف لتصاريفها
كأنها في حال إسعافها تسمعه وقعة تخويفها

ومنها أن يعلم أن سروره مقرون بمساءة غيره وكذلك حزنه مقرون بسرور غيره إذا كانت الدنيا تنتقل من صاحب إلى صاحب وتصل صاحباً بفراق صاحب فتكون سروراً لمن وصلته وحزناً لمن فارقتة وقد قال النبي ﷺ: «ما قرعت عصا على عصا إلا فرح لها قوم وحزن آخرون» وقال البحرى:

متى أرت الدنيا نباهة خامل فلا ترتقب إلا خمول نبيه
وقال المتنبي

بذا قضت الأيام ما بين أهلها مصائب قوم عند قوم فوائد
وأنشد بعض أهل الأدب

ألا إنما الدنيا غضارة^(١) أليكة^(٢) إذا أخضر منها جانب جف جانب
فلا تفرحن منها لشيء تفيده سيذهب يوماً مثل ما أنت ذاهب
وما هذه الأيام إلا فجائع وما العيش واللذات إلا مصائب
ومنها أن يعلم أن طوارق الإنسان من دلائل فضله ومحنه من شواهد

(١) الغضارة: النعمة والسعة، والخصب والوفرة في المعيشة.

(٢) الأليكة: مفرد الأيك، وهو الشجر الملتف الكثير.

نبه وذلك لاحدى علتين إما لأن الكمال معوز والنقص لازم فإذا تواتر الفضل عليه صار النقص فيما سواه. وقد قيل: من زاد في عقله نقص من رزقه. وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «ما انتقصت جارحة من إنسان إلا كانت ذكاء في عقله» وقال أبو العتاهية:

ما جاوز المرء من أطرافه طرفاً ألا تخونه^(١) النقصان من طرف
وأشدني بعض أهل الأدب لإبراهيم بن^(٢) هلال الكاتب:

إذا جمعت بين أمرئين صناعة فأحببت أن تدري الذي هو أحق^(٣)
فلا تتفقد منهما غير ما جرت به لهما الأرزاق حين تفرق
فحيث يكون النقص فالرزق واسع وحيث يكون الفضل فالرزق ضيق
وإما لأن ذا الفضل محسود وبالأذى مقصود فلا يسلم في بره من معاد
واشتطاط مناو^(٤). وقال الصنوبري:

محن الفتى يخبرن عن فضل الفتى كالنار مخبرة بفضل العنبر
وقلما تكون محنة فاضل إلا من جهة ناقص وبلوى عالم إلا على يد
جاهل وذلك لاستحكام العداوة بينهما بالمباينة وحدوث الإنتقام لأجل التقدّم
وقد قال الشاعر:

فلا غرو^(٥) أن يمنى عليم بجاهل فمن ذنب التنين تنكسف الشمس

(١) تخونه : والتخون التعهد، وبنائه للتجسس كأنه جانب الخيانة.
(٢) إبراهيم بن هلال: هو أبو اسحاق الصايء، كان كاتباً للخليفة العباسي، ولعز الدولة بن
بختيار، له مكاتيب مشهورة، وأشعاره لطيفة مشحونة بالبلاغة. قال التفتازاني: اختلف في التفضيل
بين الصاحب والصايء والحق أن الصاحب كان يكتب ما يريد، والصايء يكتب ما يؤمر، وبين
المقامين بون بعيد. ورثاه الشريف الرضي بقصيدة طويلة مطلعها:

أرأيت من حملوا على الأعواد - أرأيت كيف خبا ضياء الوادي
ولم يسمع شريف رثى مشركاً غيره.

(٣) أحق: الخلق التعلم والمهارة في الشيء.

(٤) مناو: يقال: ناواه إذا عاداه.

(٥) فلا غرو: فلا عجب.

ومنها ما يعتاضه من الارتياض بنوائب عصره ويستفيده من الحنكة^(١) ببلاء دهره فيصلب عوده ويستقيم عموده ويكمل بأدنى شدته ورخائه ويتعظ بحالة عفوه وبلائه. حكى عن ثعلب قال: دخلت على عبيد الله بن سليمان ابن وهب وعليه خلع الرضا بعد النكبة^(٢) فلما مثلت بين يديه قال لي يا أبا العباس اسمع ما أقول:

نوائب الدهر أدبني	ولانما يرعظ الأديب
قد ذقت حلواً وذقت مرّاً	كذاك عيش الفتى ضروب
لم يمض بؤس ولا نعيم	إلا ولي فيهما نصيب
كذاك من صاحب الليالي	تغدوه من درّها الخطوب

فقلت لمن هذه الأبيات قال لي ومنها أن يختبر أمور زمانه ويتنبه على صلاح شأنه فلا يغتر برخاء ولا يطمع في استواء ولا يؤمل أن تبقى الدنيا على حالة أو تخلو من قلب واستحالة فإن من عرف الدنيا وخبر أحوالها هان عليه بؤسها ونعيمها. وأنشد بعض الأدباء:

إنني رأيت عواقب الدنيا	فتركت ما أهوى لما أخشى
فكرت في الدنيا وعالمها	فإذا جميع أمورها تفنى
وبلوت أكثر أهلها فإذا	كل أمرىء في شأنه يسعى
أسنى منازلها وأرفعها	في العز أقربها من المهوى
تعفو مساوئها محاسنها	لا فرق بين النعي والبشرى
ولقد مررت على القبور فما	ميزت بين العبد والمولى
أتراك تدري كم رأيت من الأ	حياء ثم رأيتهم موتى

فإذا ظفر المصائب بأحد هذه الأسباب تخففت عنه أحزانه وتسهلت عليه أشجانه فصار وشيك السلوة قليل الجزع حسن العزاء. وقال بعض

(١) الحنكة: بضم الحاء: استحكام الرأي والعقل بالتجارب.

(٢) النكبة: هي الحادثة الشديدة، والناتبة المؤثرة.

الحكماء: من حاذر^(١) لم يهلع^(٢) ومن راقب لم يجزع ومن كان متوقفاً لم يكن متوجعاً. وقال بعض الشعراء:

ما يكون الأمر سهلاً كله إنما الدنيا سور وحزون
هون الأمر تعش في راحة قلما هونت إلا سيهون
تطلب الراحة في دار العنا ضلّ من يطلب شيئاً لا يكون

فإن أغفل نفسه عن دواعي السلوة ومنعها من أسباب الصبر تضعف عليه من شدة الأسى وهم الجزع ما لا يطيق عليه صبراً ولا يجد عنه سلوا. وقال ابن الرومي:

إن البلاء يطاق غير مضاعف فإذا تضاعف صار غير مطاق

فإذا ساعده جزعه بالأسباب الباعثة عليه وأمدّه هلعه بالذرائع الداعية إليه فقد سعى في حتفه وأعان على تلفه. فمن أسباب ذلك تذكر المصائب حتى لا يتناساه وتصوّره حتى لا يعزب عنه ولا يجد من التذكار سلوة ولا يخلط مع التصوّر تعزية. وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لا تستفزوا الدموع بالتذكر. وقال الشاعر:

ولا يبعث الأحزان مثل التذكر

ومنها الأسف وشدة الحسرة فلا يرى من مصابه خلفاً ولا يجد لمفقوده بدلاً فيزاد بالأسف ولها^(٣) وبالْحسرة هلعاً^(٤). ولذلك قال الله تعالى: ﴿لَكَيْلًا تَأْسَوْا^(٥) عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾. وقال بعض الشعراء:

إذا بليت فثق بالله وأرض به إن الذي يكشف البلوى هو الله

(١) من حاذر: من صار ذا حذر.

(٢) لم يهلع: لم يجزع على شرمه.

(٣) ولها: يقال: وله الرجل إذا ذهب عقله حزناً.

(٤) هلعاً: الهلع أفحش الجزع.

(٥) تأسوا: تحزنوا.

إذا قضى الله فاستسلم لقدرته ما لأمري حيلة فيما قضى الله
اليأس يقطع أحياناً بصاحبه لا تياسن فإن الصانع الله

ومنها كثرة الشكوى وبث^(١) الجزع فقد قيل في قوله تعالى: ﴿فاصبر
صبراً جميلاً﴾ انه الصبر الذي لا شكوى فيه ولا بث. روى أنس بن مالك
أن النبي ﷺ قال: «ما صبر من بث». وحكى كعب الأحبار أنه مكتوب في
التوراة من أصابته مصيبة فشكا إلى الناس فإنما يشكوا ربه. وحكى أن
أعرابية دخلت من البادية فسمعت صراخاً في دار فقالت ما هذا؟ فقيل لها:
مات لهم إنسان فقالت: ما أراهم إلا من ربهم يستغيثون ويقضائه يتبرمون^(٢)
وعن ثوابه يرغبون. وقد قيل في مثور الحكم: من ضاق قلبه اتسع لسانه.
وأنشد بعض أهل العلم:

لا تكثر الشكوى إلى الصديق وارجع إلى الخالق لا المخلوق
لا يخرج الغريق بالغريق

وقال بعض الشعراء:

لا تشك دهرك ما صححت به إن الغنى هو صحة الجسم
هبك الخليفة كنت منتفعاً بغضارة الدنيا مع السقم^(٣)
ومنها اليأس من جبر مصابه ودرك طلابه فيقترن بحزن الحادثة قنوط
الاياس فلا يبقى معهما صبر ولا يتسع لهما صدر. وقد قيل: المصيبة
بالصبر أعظم المصيبتين. وقال ابن الرومي:

إصبري أيتها الندفس فإن الصبر أحجى^(٤)
ربما خاب رجاء وأتى ما ليس يرجى
وأنشدني بعض أهل العلم:

(١) بث: أي نشر بلاءه.

(٢) يتبرمون: يتضجرون.

(٣) السقم: المرض.

(٤) أحجى: أحرى واليق.

أتحسب أن البؤس للحر دائم ولودام شيء عده الناس في العجب
لقد عرفتكَ الحادثات ببؤسها وقد أدبت إن كان ينفعك الأدب
ولو طلب الإنسان من صرف دهره دوام الذي يخشى لأعياء ما طلب

ومنها أن يغرى^(١) بملاحظة من حيطت سلامته وحرست نعمته حتى التحف^(٢) بالأمن والدعة واستمتع بالثروة والسعة ويرى أنه قد خص من بينهم بالرزية بعد أن كان مساوياً وأفرد بالحادثة بعد أن كان مكافياً فلا يستطيع صبراً على بلوى ولا يلزم شكراً على نعمى ولو قابل بهذه النظرة ملاحظة من شاركه في الرزية وسأواه في الحادثة لتكافأ الأمران فهان عليه الصبر وحان منه الفرج. وأنشدت لامرأة من العرب:

أيها الإنسان صبرا إن بعد العسر يسرا
كم رأينا اليوم حرّاً لم يكن بالأمس حرّاً
ملك الصبر فأضحى مالكاً خيراً وشرّاً
إشرب الصبر وإن كا ن من الصبر أمراً
وأنشدت لبعض أهل الأدب:

يراع الفتى للخطب تبدو صدوره فيأسى وفي عقباه يأتي سروره
ألم تر أن الليل لما تراكمت^(٣) دجاء بدا وجه الصباح ونوره
فلا تصحبين اليأس إن كنت عالماً لبياً فإن الدهر شتى أموره

واعلم أنه قل من صبر على حادثة وتماسك في نكبه إلا كان انكشافها وشيكاً وكان الفرج منه قريباً. أخبرني بعض أهل الأدب أن أبا أيوب الكاتب حبس في السجن خمس عشرة سنة حتى ضاقت حيلته وقل صبره فكتب إلى بعض إخوانه يشكو له طول حبسه فردّ عليه جواب رقعة بهذا:

صبر أبا أيوب صبر مبرح فإذا عجزت عن الخطوب فمن لها

(١) أن يغرى: أن يولع بحرص.

(٢) التحف: تسربل وتغطف.

(٣) تراكمت: يقال تراكم الشيء إذا اجتمع على آخره، والدجى: الظلام.

إن الذي عقد الذي انعقدت له عقد المكاره فيك يملك حلها
صبراً فإن الصبر يعقب راحة ولعلها ان تنجلي ولعلها
فأجابه أبو أيوب يقول:

صبرتي ووعظتي وأنا لها وستجلي بل لا أقول لعلها
ويحلها من كان صاحب عقدها كرماً به إذ كان يملك حلها
فلم يلبث بعد ذلك في السجن إلا أياماً حتى أطلق مكرماً. وأنشد ابن
دريد عن أبي حاتم:

إذا اشتملت على اليأس القلوب وضاق لما به الصدر الرحيب
وأوطنت^(١) المكاره وأطمأنت وأرست^(٢) في مكانتها الخطوب
ولم ير لانكشاف الضرّ وجهاً ولا أغنى بحيلته الأريب^(٣)
أتاك على قنوط منك غوث يمنّ به اللطيف المستجيب
وكل الحادثات إذا تناهت فموصول بها الفرج القريب
(الفصل الثالث في المشورة) اعلم أن من الحزم لكل ذي لب أن لا
يرم أمراً ولا يمضي عزماً إلا بمشورة ذي الرأي الناصح ومطالعة ذي العقل
الراجح فإن الله تعالى أمر بالمشورة نبيه ﷺ مع ما تكفل به من إرشاده ووعد
به من تأييده فقال تعالى: ﴿وشاورهم في الأمر﴾.

قال قتادة: أمره بمشاورتهم تألفاً لهم وتطبيعاً لأنفسهم. وقال الضحاك أمره
بمشاورتهم لما علم فيها من الفضل. وقال الحسن البصري رحمه الله
تعالى: أمره بمشاورتهم ليستن به المسلمون ويتبعه فيها المؤمنون وإن كان
عن مشورتهم غنياً. وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «المشورة حصن من
الندامة وأمان الملامة». وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: نعم

(١) أوطنت: اتخذت وطناً.

(٢) أرست: ثبتت.

(٣) الأريب: العاقل الحاذق الماهر.

المؤازرة وبش الإستعداد والاستعداد. وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: الرجال ثلاثة: رجل ترد عليه الأمور فيسدّها برأيه. ورجل يشاور فيما أشكل عليه وينزل حيث يأمره أهل الرأي. ورجل حائر بأمره لا ياتمر رشداً ولا يطيع مرشداً. وقال عمر بن عبد العزيز: إن المشورة والمناظرة بابا رحمة ومفتاحا بركة لا يضل معهما رأي ولا يفقد معهما حزم. وقال سيف بن^(١) ذي يزن: من أعجب برأيه لم يشاور ومن استبدّ برأيه كان من الصواب بعيداً. وقال عبد الحميد: المشاور في رأيه ناظر من ورائه. وقيل في مشور الحكم: المشاورة راحة لك وتعب على غيرك. وقال بعض الحكماء: الإستشارة عين الهداية وقد خاطر من استغنى برأيه. وقال بعض الأدباء: ما خاب من استخار ولا ندم من استشار. وقال بعض البلغاء: من حق العاقل أن يضيف إلى رأيه آراء العقلاء ويجمع إلى عقله عقول الحكماء فالرأي الفذ^(٢) ربما زل والعقل الفرد ربما ضل. وقال بشار بن برد:

إذا بلغ الرأي المشورة فاستعن برأي نصيح أو نصيحة حازم
ولا تجعل الشورى عليك غصاصة^(٣) فإن الخوافي^(٤) قوّة للقوادم^(٥)

فإذا عزم على المشاورة ارتاد لها من أهلها من قد استكملت فيه خمس خصال: إحداهنّ عقل كامل مع تجربة سالفة فإنه بكثرة التجارب تصح الروية. وقد روى أبو الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «استرشدوا العاقل ترشدوا ولا تعصوه فتندموا». وقال عبد الله بن الحسن لابنه محمد: احذر مشورة الجاهل وإن كان ناصحاً كما تحذر عداوة العاقل إذا كان عدواً فإنه يوشك أن يورطك^(٦) بمشورته فيسبق إليك مكر

(١) سيف بن ذيزن: هو من ملوك حمير وكان شريفاً من أهل اليمن، وقد أهدى إلى النبي ﷺ حلة.

(٢) الفذ: الفرد.

(٣) غصاصة: ذلاً ومنقصة.

(٤) الخوافي: الذي يتقدمه الجيش.

(٥) للقوادم: للعسكر القوادم على الأعداء.

(٦) يورطك: يلقيك في الورطة والمهلكة.

العاقل وتوريط الجاهل. وقيل لرجل من عبس ما أكثر صوابكم قال: نحن ألف رجل وفينا حازم ونحن نطيعه فكأننا ألف حازم. وكان يقال: إياك ومشاورة رجلين شاب معجب بنفسه قليل التجارب في غيره أو كبير قد أخذ الدهر من عقله كما أخذ من جسمه. وقيل في مشور الحكم: كل شيء يحتاج إلى العقل والعقل يحتاج إلى التجارب ولذلك قيل: الأيام تهتك لك عن الأستار الكامنة. وقال بعض الحكماء: التجارب ليست لها غاية والماعل منها في زيادة. وقال بعض الحكماء: من استعان بذوي العقول فاز بدرك المأمول. وقال أبو الأسود الدؤلي:

وما كل ذي بمؤتيك نصحه ولا كل مؤت نصحه بليب
ولكن إذا ما استجمعا عند صاحب فحق له من طاعة بنصيب

والخصلة الثانية - أن يكون ذا دين وتقى فإن ذلك عماد كل صلاح وباب كل نجاح ومن غلب عليه الدين فهو مأمون السريرة موفق العزيمة. روى عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «من أراد أمراً فشاور فيه أمراً مسلماً وفقه الله لأرشد أموره». والخصلة الثانية - أن يكون ناصحاً ودوداً فإن النصيح والمودة يصدقان الفكرة ويمحضان الرأي. وقد قال بعض الحكماء: لا تشاور إلا الحازم غير الحسود والليب غير الحقود وإياك ومشاورة النساء فإن رأيهن إلى الأفن^(١) وعزمهن إلى الوهن. وقال بعض الأدباء: مشورة المشفق الحازم ظفر ومشورة غير الحازم خطر. وقال بعض الشعراء:

أصف ضميراً لمن تعاشره واسكن إلى ناصح تشاوره
وآرض من المرء في مودته بما يؤدي إليك ظاهره
من يكشف الناس لا يجد أحداً تصح منهم له سرائره
أوشك أن لا يدوم وصل أخ في كل زلاته تنافره
والخصلة الرابعة - أن يكون سليم الفكر من هم قاطع وغم شاغل فإن

(١) الأفن: الفساد.

من عارضت فكره شوائب الهموم لا يسلم له رأي ولا يستقيم له خاطر. وقد قيل في مثور الحكم: كل شيء يحتاج إلى العقل والعقل يحتاج إلى التجارب. وكان كسرى إذا دهمه أمر بعث إلى مرازيته^(١) فاستشارهم فإن قصروا في الرأي ضرب قهارمته^(٢) وقال: أبطأتم بأرزاquem فأخطأوا في آرائهم. وقال صالح بن عبد القدوس:

ولا مشير كذى نصيح ومقدرة في مشك الأمر فاختر ذاك منتصحا
والخصلة الخامسة - أن لا يكون له في الأمر المستشار غرض يتابعه
ولا هوى يساعده فإن الأغراض جاذبة والهوى صاذ^(٣) والرأي إذا عارضه
الهوى وجاذبته الأغراض فسد. وقد قال الفضل بن العباس بن عتبة بن أبي
لهب:

وقد يحكم الأيام من كان جاهلاً ويردي الهوى ذا الرأي وهو لبيب
ويحمد في الأمر الفتى وهو مخطيء ويعذل في الإحسان وهو مصيب
فإذا استكملت هذه الخصال الخمس في رجل كان أهلاً للمشورة
ومعدناً للرأي فلا تعدل عن استشارته اعتماداً على ما تتوهمه من فضل رأيك
وثقة بما تستشعره من صحة رأيك فإن رأي غير ذي الحاجة أسلم وهو من
الصواب أقرب لخلوص الفكر وخلو خاطر مع عدم الهوى وارتفاع الشهوة.
وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «رأس العقل»^(٤) بعد الإيمان بالله التودد
إلى الناس وما استغنى مستبداً برأيه وما هلك أحد عن مشورة فإذا أراد الله
بعبد هلكة كان أول ما يهلكه رأيه». وقال علي بن أبي طالب رضي الله
عنه: الإستشارة عين الهداية وقد خاطر من استغنى برأيه. وقال لقمان
الحكيم لابنه: شاور من جرب الأمور فإنه يعطيك من رأيه ما قام عليه
بالغلاء وأنت تأخذه مجاناً. وقال بعض الحكماء: نصف رأيك مع أخيك

(١) مرازيته: جمع مرزبان، وهو لفظ فارسي، أي حافظ الحدود.

(٢) قهارمته: جمع قهرمان، أي صاحب الحكم.

(٣) صاذ: مانع وصارف عن استقامة الرأي.

(٤) رأس العقل: الحديث رواه البيهقي عن سعيد بن المسيب مرسلًا.

فشاوره ليكمل لك الرأي. وقال بعض الأدباء: من استغنى برأيه ضل ومن اكتفى بعقله زلّ. وقال بعض البلغاء: الخطأ مع الاسترشاد أحمد من الصواب مع الاستبداد. وقال الشاعر:

خليليّ ليس الرأي في صدر واحد أشيرا عليّ بالذي تريان

ولا ينبغي أن يتصور في نفسه أنه ان شاور في أمره ظهر للناس ضعف رأيه وفساد رويته حتى افتقر إلى رأي غيره فإن هذه معاذير النوكى^(١) وليس يراد الرأي للمباهاة به وإنما يراد للإنتفاع بنتيجته والتحرّز عن الخطأ عند زلله وكيف يكون عاراً ما أدى إلى صواب وصدّ عن خطأ. وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «لقحوا عقولكم بالذاكرة واستعينوا على أموركم بالمشارة». وقال بعض الحكماء: من كمال عقلك استظهارك^(٢) على عقلك. وقال بعض البلغاء: إذا شكلت عليك الأمور وتغير لك الجمهور فارجع إلى رأي العقلاء وافزع إلى استشارة العلماء ولا تأنف من الاسترشاد ولا تستنكف من الاستمداد فلأن تسأل خير لك من أن تستبدّ وتندم. وينبغي أن تكثر من استشارة ذوي الألباب ولا سيما في الأمر الجليل فقلما يضل عن الجماعة رأي ويذهب عنهم صواب لأن إرسال الخواطر الثاقبة وإجالة الأفكار الصادقة لا يعزب عنها ممكن ولا يخفى عليها جائز. وقد قيل في مشور الحكم: من أكثر المشورة لم يعدم عند الصواب مادحاً وعند الخطأ عاذراً وإن كان الخطأ من الجماعة بعيداً. فإذا استشار الجماعة فقد اختلف أهل الرأي في اجتماعهم عليه وانفراد كل واحد منهم به فمذهب الفرس أن الأولى اجتماعهم على الإرتياء^(٣) وإجالة الفكر ليذكر كل واحد منهم ما قدحه خاطره وأنتجه فكره حتى إذا كان فيه قدح عورض^(٤) أو توجه عليه ردّ

(١) النوكى: على وزن سكري، جمع أنوك، وهو الأحمق.

(٢) استظهارك: طلبك ظهيراً أو معيناً.

(٣) الارتياء: النظر والبحث.

(٤) عورض: والمعارضة لغة هي المقابلة على سبيل الممانعة، واصطلاحاً هي إقامة الدليل على خلاف ما أقام الدليل عليه الخصم.

نوقض^(١) كالجدل الذي تكون فيه المناظرة وتقع فيه المنازعة والمشاجرة^(٢) فإنه لا يبقى فيه مع اجتماع القرائح عليه خلل إلاّ ظهر ولا زلل إلاّ بان .
 وذهب غيرهم من أصناف الأمم إلى أن الأولى استسرار كل واحد بالمشورة ليجيل كل واحد منهم فكره في الرأي طمعاً في الحظوة بالصواب فإن القرائح إذا انفردت استكدها الفكر واستفرغها الاجتهاد وإذا اجتمعت فوّضت وكان الأوّل من بدائنها متبوعاً . ولكل واحد من المذهبين وجه ووجه الثاني أظهر . والذي أراه في الأولى غير هذين المذهبين على الإطلاق ولكن ينظر في الشورى فإن كانت في حال واحدة هل هي صواب أم خطأ كان اجتماعهم عليها أولى لأن ما تردّد بين أمرين فالمراد منه الاعتراض على فسادّه أو ظهور الحجة في صلاحه وهذا مع الاجتماع أبلغ وعند المناظرة أوضح . وإن كانت الشورى في خطب قد استبهم صوابه واستعجم جوابه من أمور خافية وأحوال غامضة لم يحصرها عدد ولم يجمعها تقسيم ولا عرف لها جواب يكشف عن خطئه وصوابه فالأولى في مثله انفراد كل واحد بفكره وخلوّه بخاطره ليجتهد في الجواب ثم يقع الكشف عنه أخطأ هو أم صواب فيكون الاجتهاد في الجواب منفرداً والكشف عن الصواب مجتمعاً لأن الانفراد في الاجتهاد أوضح والاجتماع على المناظرة أبلغ فهكذا هذا وينبغي أن يسلم أهل الشورى من حسد أو تنافس فيمنعهم من تسليم الصواب لصاحبه ثم يعرض المستشار ذلك على نفسه مع مشاركتهم في الارتياء والاجتهاد فإذا تصفّح أقاويل جميعهم كشف عن أصولها وأسبابها وبحث عن نتائجها وعواقبها حتى لا يكون في الأمر مقلداً ولا في الرأي مفوضاً فإنه يستفيد بذلك مع ارتياضه بالاجتهاد ثلاث خصال : إحداهنّ معرفة عقله وصحة رويته والثانية معرفة عقل صاحبه وصواب رأيه والثالثة وضوح ما استعجم من الرأي وافتتاح ما أغلق من الصواب فإذا تقرّر له الرأي أمضاه ولا يؤاخذهم بعواقب الاكداء فيه فإنما على الناصح الاجتهاد وليس عليه

(١) نوقض : والنقض لغة هو الكسر ، وفي الاصطلاح هو بيان تخلف الحكم المدعى ثبوته أو نفيه عن دليل المعلن الدال عليه في بعض من الصور .

(٢) والمشاجرة : هي المنازعة .

ضمنان النجاح لا سيما والمقادير غالبية ومتى عرف منه تعقب المشير وكل إلى
رأيه وأسلم إلى نفسه فصار فرداً لا يعان برأي ولا يمدّ بمشورة. وقد قالت
الفرس في حكمها: أضعف الحيلة خير من أقوى الشدة وأقل الثاني خير من
أكثر العجلة والدولة رسول القضاء المبرم^(١) وإذا استبدّ الملك برأيه عميت
عليه المرأشدة. وإذا ظفر برأي من خامل لا يراه للرأي أهلاً ولا للمشورة
مستوجباً اغتنمه عفواً فإن الرأي كالمضالة تؤخذ أين وجدت ولا يهون لمهانة
صاحبه فيطرح فإن الدرة لا يضعها مهانة غائصها والمضالة لا تترك لذلة
واجدها وليس يراد الرأي لمكان المشير به فيراعي قدره وإنما لانتفاع
المستشير وأنشد أبو العيناء عن الأصمعي:

النصح أرخص ما باع الرجال فلا تردد على ناصح نصحاً ولا تلم
إن النصائح لا تخفى مناهجها على الرجال ذوي الألباب والفهم
ثم لأوجه لمن تقرر له رأي أن يني في إفضائه فإن الزمان غادر
والفرص منتهزة^(٢) والثقة عجز. وقيل لملك زال عنه ملكه: ما الذي سلبك
ملكك قال: تأخيرى عمل اليوم لغد. وقال الشاعر:

إذا كنت ذا رأي فكن ذا عزيمة ولا تك بالترداد للرأي مفسداً
فإني رأيت الريث^(٣) في العزم هجنة^(٤) وإنفاذ ذي الرأي العزيمة أرشداً

وينبغي لمن أنزل منزلة المستشار وأحل محل الناصح المواد حتى
صار مأمول النجاح مرجو الصواب أن يؤدي حق هذه النعمة بإخلاص
السريرة ويكافئ على الاستسلام ببذل النصيح. فقد روي عن النبي ﷺ أنه
قال: «إن من حق المسلم على المسلم إذا استنصحه أن ينصحه» وربما
أبطرته المشاورة فأعجب برأيه فاحذره في المشاورة فليس للمعجب رأي
صحيح ولا روية سليمة وربما شح في الرأي. لعداوة أو حسد أو مكر فاحذر

(١) المبرم: المحكم من أبرم الأمر إذا أحكم.

(٢) منتهزة: مغتنمة، ومختلة.

(٣) الريث: من راث يريث إذا أبطأ.

(٤) الهجنة: العيب.

العدو ولا تثق بحسود ولا عذر لمن استشاره عدو أو صديق أن يكتم رأياً وقد استرشد ولا أن يخون وقد أؤتمن. روى محمد بن المنكدر عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: «المستشير معان والمستشار مؤتمن». وقال سليمان بن دريد:

وأجب أخاك إذا استشارك ناصحاً وعلى أخيك نصيحة لا تزدد

ولا ينبغي أن يشير قبل أن يستشار إلا فيما مس ولا أن يتبرع بالرأي إلا فيما لزم فإنه لا ينفك من أن يكون رأياً متهماً أو مطرحاً وفي أي هذين كان وصمة^(١) وإنما يكون الرأي مقبولاً إذا كان عن رغبة وطلب أو كان لباعث وسبب. وروى أبو بلال العجلي عن حذيفة بن اليمان عن النبي ﷺ أنه قال «قال لقمان لابنه يا بني إذا استشهدت فاشهد وإذا استعنت فأعن وإذا استشرت فلا تعجل حتى تنظر». وقال بيهس^(٢) الكلابي:

من الناس من ان يستشرك فتجتهد له الرأي يستغشك ما لا تريعه
فلا تمنحن الرأي من ليس أهله فلا أنت محمود ولا الرأي نافعه

(الفصل الرابع في كتمان السر) اعلم أن كتمان الأسرار من أقوى أسباب النجاح وأدوم لأحوال الصلاح. روي عن النبي ﷺ أنه قال: «استعينوا على^(٣) الحاجات بالكتمان فإن كل ذي نعمة محسود» وقال علي ابن أبي طالب كرم الله وجهه: سرّك أسيرك فإن تكلمت به صرت أسيره. وقال بعض الحكماء لابنه: يا بني كن جواداً بالمال في موضع الحق ضئيلاً بالأسرار عن جميع الخلق فإن أحمد جود المرء الإنفاق في وجه البر والبخل بمكتوم السر. وقال بعض الأدباء: من كتم سره كان الخيار إليه ومن أفشاه كان الخيار عليه! وقال بعض البلغاء: ما أسرك^(٤) ما كتمت سرّك. وقال

(١) وصمة: الرخصة العيب.

(٢) بيهس: على وزن حيدر، رجل يضرب به المثل في ادراك الثار، وأخذ الانتقام.

(٣) استعينوا على الحاجات: رواه الطبراني والبيهقي على معاذ بن جبل.

(٤) أسرك: أفضى إليك حديثاً.

بعض الفصحاء: ما لم تغيبه الأضالع فهو مكشوف ضائع. وقال أنس بن أسيد:

ولا تفش سرّك إلّا إليك فإن لكل نصيح نصيحاً
فلإني رأيت وشاة الرجا ل لا يتركون أديماً صحيحاً
وكم من إظهار سر أراق دم صاحبه ومنع من نيل مطالبه ولو كتّمه كان
من سطوته آمناً وفي عواقبه سالماً ولنجاح حوائجه راجياً. وقال أنوشروان:
من حصن سره فله بتحصيله خصلتان الظفر بحاجته والسلامة من السطوات
 وإظهار الرجل سر غيره إقبح من إظهار سر نفسه لأنه يئوئ بِلأحدى وصمتين
الخيانة إن كان مؤتمناً أو النميمة إن كان مستودعاً فأما الضرر فربما استويا
فيه أو تفضلا وكلاهما مذموم وهو فيهما ملوم وفي الإسترسال بإبداء السر
دلائل على ثلاثة أحوال مذمومة: إحداها ضيق الصدر وقلة الصبر حتى انه
لم يتسع لسر ولم يقدر على صبر. وقال الشاعر:

إذا المرء أفشى سره بلسانه ولام عليه غيره فهو أحمق
إذا ضاق صدر المرء عن سر نفسه فصدر الذي يستودع السر أضيق
والثانية - الغفلة عن تحذر العقلاء والسهو عن يقظة الأذكياء. وقد قال
بعض الحكماء: إنفرد بسرك ولا تودعه حازماً فيزل ولا جاهلاً فيخون.

والثالثة - ما ارتكبه من الغرر واستعمله من الخطر. وقد قال بعض
الحكماء: سرّك من دمك فإذا تكلمت به فقد أرقته * واعلم أن من الأسرار
ما لا يستغنى فيه عن مطالعة صديق مساهم واستشارة ناصح مسالم فليختر
العاقل لسره أميناً إن لم يجد إلى كتّمه سبيلاً وليتحرّر في اختيار من يأتّمه
عليه ويستودعه إياه فليس كل من كان على الأموال أميناً كان على الأسرار
مؤتمناً والعفة عن الأموال أيسر من العفة عن إذاعة الأسرار لأن الإنسان قد
يذيع سر نفسه بمبادرة لسانه وسقط كلامه ويشح باليسير من ماله حفظاً له
وضناً به ولا يرى ما أضاع من سره كبيراً في جنب ما حفظه من يسير ماله مع
عظم الضرر الداخل عليه فمن أجل ذلك كان أمناء الأسرار أشدّ من كتّم
الأسرار أشدّ تعذراً وأقلّ وجوداً من أمناء الأموال وكان حفظ المال أيسر من
كتّم الأسرار لأن أحرّاز الأموال منيعة وأحرّاز الأسرار بارزة يذيعها لسان ناطق

ويشيعها كلام سابق . وقال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه : القلوب أوعية الأسرار والشفاه أفلها والألسن مفاتيحها فليحفظ كل امرئ مفتاح سره . ومن صفات أمين السر أن يكون ذا عقل صاّد ودين حازم ونصح مبذول وودّ موفور وكتوماً بالطبع فإن هذه الأمور تمنع من الإذاعة وتوجب حفظ الأمانة فمن كملت فيه فهو عنقاء^(١) مغرب . وقيل في منشور الحكم : قلوب العقلاء حصون الأسرار . وليحذر صاحب السر أن يودع سره من يتطلع إليه ويؤثر الوقوف عليه فإن طالب الوديعة خائن . وقال صالح بن عبد القدّوس :

لا تدع سراً إلى طالبه منك فالطالب للسر مضيع
وليحذر كثرة المستودعين لسره فإن كثرتهم سبب الإذاعة وطريق إلى
الإشاعة لأمرين : أحدهما أن اجتماع هذه الشروط في العدد الكثير معوز ولا
بدّ إذا كثروا من أن يكون فيهم من أخل ببعضها . والثاني أن كل واحد منهم
يجد سبيلاً إلى نفي الإذاعة عن نفسه وإحالة ذلك على غيره فلا يضاف إليه
ذنب ولا يتوجه عليه عتب^(٢) . وقد قال بعض الحكماء : كلما كثرت خزان
الأسرار ازدادت ضياعاً . وقال بعض الشعراء :

وسرك ما كان عند امرئ وسر الثلاثة غير الخفي
وقال آخر :

فلا تنطق بسرك كل سر إذا ما جاوز الأثنين فاشي
ثم لو سلم من إذاعتهم لم يسلم من إدلالهم واستطالتهم فإن لمز
ظفر بسر من فرط الإدلال وكثرة الإستطالة ما إن لم يحجزه عنه عقل ولم
يكفه عنه فضل كان أشدّ من ذلّ الرق وخضوع التعبد . ولذلك قال بعض
الحكماء : من أفشى سره كثر عليه المتأمرون فإذا اختار وأرجو أن يوفق
للإختيار واضطر إلى استيداع سره وليته كفى الإضطرار وجب على المستودع
له أداء الأمانة فيه بالتحفظ والتناسي له حتى لا يخطر له ببال ولا يدور له

(١) عنقاء مغرب : معروف وصفه ، معدوم شخصه وهو طير معروف الاسم مجهول الجسم .

(٢) عتب : لوم وتوبيخ .

في خلد ثم يرى ذلك حرمة يرعاها ولا يدل إدلال اللثام. وحكي أن رجلاً
أسر إلى صديق له حديثاً ثم قال أفهمت قال: بل جهلت قال أحفظت قال:
بل نسيت. وقيل لرجل: كيف كتمانك للسر قال: أجحد المخبر وأحلف
للمستخير. وقال بعض الشعراء:

ولو قدرت على نسيان ما اشتملت مني الضلوع على الأسرار والخبر
لكنت أول من ينسى سرائره إذا كنت من نشرها يوماً على خطر
وحكي أن عبد الله بن طاهر تذاكر الناس في مجلسه حفظ السر
فقال ابنه:

ومستودعي سرّاً تضمنت سره فأودعته من مستقر الحشا قبراً
ولكنني أخفيه عني كأنني من الدهر يوماً ما أحطت به خبراً
وما السر في قلبي كميّ بحفرة لأنني أرى المدفون ينتظر النشراً

(الفصل الخامس من المزاح والضحك) اعلم أن للمزاح إزاحة عن
الحقوق ومخرجاً إلى القطيعة والعقوق يصم^(١) المازح ويؤذي الممازح
فوصمة المازح أن يذهب عنه الهيبة والبهاء ويجرى عليه الغوغاء والسفهاء
وأما أذية الممازح فلأنه معقوق بقول كريبه وفعل ممض إن أمسك عنه أحزن
قلبه وإن قابل عليه جانب أدبه فحق على العاقل أن يتقيه وينزه نفسه عن
وصمة مساويه. وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «المزاح استدراج من
الشیطان واختداع من الهوى». وقال عمر بن عبد العزيز: اتقوا المزاح فإنه
حمقة تورث ضغينة. وقال بعض الحكماء: إنما المزاح سباب إلا أن صاحبه
يضحك وقيل: إنما سمي المزاح مزاحاً لأنه يزيح عن الحق. وقال إبراهيم
النخعي: المزاح من سخف أبو بطر. وقيل في منشور الحكم: المزاح يأكل
الهيبة كما تأكل النار الحطب. وقال بعض الحكماء: من كثر مزاحه زالت
هيئته ومن كثر خلافه طابت غيبته. وقال بعض البلغاء: من قل عقله كثر
هزله. وذكر خالد بن صفوان المزاح فقال: يصك أحدكم صاحبه بأشد من

(١) يصم المازح: من وصم إذا عابه.

الجنادل وينشقه أحرف من الخردل ويفرغ عليه أحر من المرجل ثم يقول
إنما كنت أمازحك. وقال بعض الحكماء: خير المزاح لا ينال وشره لا يقال
فنظمه النيسابوري في قصيدته الجامعة للأداب فقال وزاد:

شر مزاح المرء لا يقال وخيره يا صاح لا ينال
وقد يقال كثرة المزاح من الفتى تدعو إلى التلاحي
إن المزاح بلؤه حلاوه لكنما آخره عداوه
يحتد منه الرجل الشريف ويجتري بسخفه السخيف

وقال أبو نواس

خل جنبيك لرام وامض عنه بسلام
مت بداء الصمت خير لك من داء الكلام
إنما السالم من ألج م فاه بلجام
ربما استفتح بالمز ح مغاليق الحمام
والمنايا آكلات شاربات للأنام

واعلم أنه قلما يعرى من المزاح من كان سهلاً فالعاقل يتوخى بمزاحه
إحدى حالتين لا ثالثة لهما: إحداهما إيناس المصاحبين والتودد إلى
المخالطين وهذا يكون بما أنس من جميل القول ويسط من مستحسن
الفعل. وقد قال سعيد بن العاص لابنه: اقتصد في مزاحك فإن الإفراط فيه
يذهب البهاء ويجري عليك السفهاء وإن التقصير فيه يفض عنك المؤانسين
ويوحش منك المصاحبين. والحالة الثانية أن ينفي بالمزاح ما طرأ عليه من
سأم وأحدث به من هم فقد قيل: لا بد للمصدور أن ينفث. وأنشدت لأبي
الفتح البستي:

أفد طبعك المكدود بالجدّ راحة يجم وعله بشيء من المزح
ولكن إذا أعطيته المزح فليكن بمقدار ما يعطى الطعام من الملح
وقد كان النبي ﷺ يمزح على هذا الوجه روي عنه ﷺ أنه قال: «إني

لأمزح^(١) ولا أقول إلا حقاً» فمن مزاحه ﷺ ما روي أن عجزاً من الأنصار أتته فقالت يا رسول الله أدع لي بالمغفرة فقال: أما علمت أن الجنة لا يدخلها العجائز فصرخت فتبسم رسول الله ﷺ وقال: أما قرأت من القرآن قول الله عز وجل ﴿إنا أنشأناهم إنشأً فجعلناهم أذكراً عرباً^(٢) أتراباً^(٣)﴾ وأنته أخرى في حاجة لزوجها فقال لها: ومن زوجك فقالت: فلان فقال لها: الذي في عينه بياض فقالت لا فقال بلى فانصرفت عجلت إلى زوجها وجعلت تتأمل عينيه فقال لها: ما شأنك فقالت: أخبرني رسول الله ﷺ أن في عينيك بياضاً فقال: أما ترين بياض عيني أكثر من سوادهما. وسئل الشعبي عن أكل لحم^(٤) الشيطان فقال: نحن نرضى منه بالكفاف وقيل له: ما اسم امرأة إبليس لعنه الله فقال: ذلك نكاح ما شهدناه وقال رجل لغلام: بكم تعمل معي قال: بطعامي فقال له: أحسن قليلاً قال: فأصوم الاثنين والخميس. وقد كان أبو هريرة رضي الله عنه مسترسلاً في مزاحه. وروى ابن قتيبة في المعارف أن مروان ربما كان يستخلفه على المدينة فيركب حماراً قد شدَّ عليه برذعة^(٥) فيسير فيلقى الرجل فيقول: الطريق قد جاء الأمير وربما أتى الصبيان وهم يلعبون لعبة الأعراب فلا يشعرون حتى يلقى نفسه بينهم ويضرب برجله فيفزع الصبيان فينفرون وهذا خروج عن القدر المستسمح به ويوشك أن يكون لهذا الفعل منه تأويل سائغ. وقد كان صهيب^(٦) بن سنان مزاحاً فقال له النبي ﷺ: أأكل تمرأ وبك رمد فقال يا رسول الله إنما أمضغ على الناحية الأخرى وإنما استجاز صهيب أن يعرض لرسول الله ﷺ بالمزح في جوابه لأن استخباره ﷺ قد كان يتضمن المزح

(١) إني لأمزح: رواه الترمذي عن ابن عباس.

(٢) عرباً: جمع عرب، وهي التحية إلى زوجها.

(٣) أتراباً: مستويات في السن.

(٤) في اللحم: في الصغائر.

(٥) برذعة: هي الجهل واللبد الذي يوضع تحت السرج لوقايته من العرق.

(٦) صهيب بن سنان: أبو يحيى من قدماء الصحابة والسابقين في الاسلام، كان أبوه وعمه في

خدمة كسرى ولذا أسر في أيدي الروم ونشأ بينهم فنسي العربية وتكلم لكنة الرومية وتلفظ الحاء هاء، ولذا لقب بالرومي توفي بالمدينة سنة ٣٨.

فأجابه عن استخباره بما يوافقه مساعدة لغرضه وتقرباً من قلبه وإلا فليس لأحد أن يجعل جواب رسول الله ﷺ مزحاً لأن المزح هزل ومن جعل جواب رسول الله ﷺ المبين عن الله عز وجل أحكامه المؤدي إلى خلقه أوامره هزلاً ومزحاً فقد عصى الله ورسوله وصهيب كان أطوع لله سبحانه وتعالى من أن يكون بهذه المنزلة فقد قال ﷺ: «أنا سابق العرب وصهيب سابق الروم وسلمان سابق الفرس وبلال سابق الحبش» وليحذر أن يسترسل في مازحة عدو فيجعل له طريقاً إلى إعلان المساواة هزلاً وهو مجدّ ويفسح له في التشفي مزحاً وهو محق. وقد قال بعض الحكماء: إذا مازحت عدوك ظهرت عيوبك.

وأما الضحك فإن اعتياده شاغل عن النظر في الأمور المهمة مذهل عن الفكر في النوائب الملمة وليس لمن أكثر منه هية ولا وقار ولا لمن وسم به خطر ولا مقدار. روى أبو إدريس الخولاني عن أبي ذر الغفاري قال: قال رسول الله ﷺ: «إياك وكثرة الضحك فإنه يميت القلب ويذهب بنور الوجه». وروى عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاؤها﴾ أن الصغيرة الضحك. وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: من كثر ضحكك قلت هيئته وقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: إذا ضحك العالم ضحكة مج من العلم مجة^(١). وقيل في منشور الحكم: ضحكة المؤمن غفلة من قبله والقول في الضحك كالقول في المزاح إن تجافاه الإنسان نفر عنه وأوحش منه وإن ألفه كانت حاله ما وصفناه فليكن بدل الضحك عند الإيناس تبسماً وبشراً. وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: التبسم دعابة وهذا أبلغ في الإيناس من الضحك الذي قد يكون استهزاء وتعجباً وليس ينكر منه المرة النادرة لطارئ استغفل النفس عن دفعه. هذا رسول الله ﷺ وهو أملك الخلق لنفسه قد تبسم حتى بدت نواجذه^(٢) وإنما كان ذلك منه ﷺ على الوجه الذي ذكرناه.

(الفصل السادس في الطيرة والفأل) اعلم أنه ليس شيء أضرّ بالرأي

(١) مجة : مج الشراب من فيه : رماه.

(٢) نواجذه : جمع ناجذ وهي الأسنان الأربعة التي تحصل بعد البلوغ وعلى قول هي الأضراس.

ولا أفسد للتدبير من اعتقاد الطيرة^(١) ومن ظن أن خوار بقرة أو نعيب غراب يردّ قضاء أو يدفع مقدوراً فقد جهل. وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر». فالعدوى ما يظنه الناس من تعدي العلل والأمراض فأخبر أنه لا تعدي فليل يارسول الله إنا نرى النقبة من الجرب في مشفر^(٢) البعير فتتعدى إلى جميعه فقال ﷺ: فما أعدى الأول. وأما الهامة فهو ما كانت العرب في الجاهلية تعتقده من أن القتل إذا طلّ دمه فلم يدرك بثأره صاحته هامة في القبر إسقوني. قال الزبرقان بن زيد يعنيها:

يا عمرو إلاً تدع شتمي ومنقصتي أضربك حتى تقول الهامة إسقوني
وقال إبراهيم بن هرمة

وكيف وقد صاروا عظاماً وأقبرا يصيح صداها بالعشي وهامها
تفانوا ولم يبقوا وكل قبيلة سريع إلى ورد الفناء كرامها
وأما الصفر فهو كالحية يكون في الجوب يصيب الماشية والناس وهو
أعدى عندهم من الجرب وفيه يقول الشاعر:

لا يمسك الساق^(٣) من أين^(٤) ولا وصب^(٥) ولا يعض على شرسوفة^(٦) الصفر
وروى أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إذا ظننتم فلا
تحققوا وإذا حسدتم فلا تبغوا^(٧)» وإذا تطيرتم فامضوا وعلى الله فتوكلوا» وقال
الشاعر:

(١) الطيرة: بكسر الطاء وفتح الياء: التشاؤم بالشيء. واستعمالها في المكروه، والفأل بالعكس.
(٢) مشفر البعير: شفته الإبل.

(٣) الساق: هو ما بين الكعب والركبة.

(٤) أين: على وزن «زين» المشقة، يقال: آن يئن إذا أعيا.

(٥) الوصب: هو المرض.

(٦) شرسوفة: هو على وزن عصفور: غضروف معلق بكل ضلع، أو هو مقط الضلع، وهو الطرف المشرف على البطن، والغضروف العظم الرخو الذي يؤكل...

(٧) فلا تبغوا: أي لا تظلموا المحسود، ولا تؤذوه.

طيرة الناس لا تردّ قضاء فاعذر الدهر لا تشبه^(١) بلوم
 أي يوم تخصه بسعود والمنايا ينزلن في كل يوم
 ليس يوم إلا وفيه سعد ونحوس تجري لقوم وقوم
 وقد كانت الفرس أكثر الناس طيرة وكانت العرب إذا أرادت سفراً
 أنفرت أول طائر تلقاه فإن طار يمنة سارت وتيمنت وإذا طار يسرة رجعت
 وتشاءمت فنهى النبي ﷺ عن ذلك وقال: «أقروا الطير على وكناتها^(٢)» .
 وحكى عكرمة قال: كنا جلوساً عند ابن عباس رضي الله عنهما فمرّ طائر
 يصيح فقال رجل من القوم خير فقال ابن عباس: لا خير ولا شر. وقال
 لبيد:

لعمرك ما تدري الضوارب الحصى ولا زاجرت الطير ما الله صانع

واعلم أنه قلما يخلو من الطيرة أحد لا سيما من عارضته المقادير في إرادته
 وصده القضاء عن طلبته فهو يرجو اليأس عليه اغلب ويأمل والخوف إليه
 أقرب فإذا عاقه القضاء وخانه الرجاء جعل الطيرة عذر خيبته وغفل عن قضاء
 الله عز وجل ومشيتته فإذا تطير أحجم عن الاقدام ويشس من الظفر وظن أن
 القياس فيه مطرد وأن العسرة فيه مستمرة ثم يصير ذلك له عادة فلا ينجح له
 سعي ولا يتم له قصد. فأما من ساعدته المقادير ووافقه القضاء فهو قليل
 الطيرة لإقدامه ثقة بإقباله وتعوبلاً على سعادته فلا يصده خوف ولا يكفه
 خور^(٣) ولا يؤوب إلا ظافراً ولا يعود إلا منجحاً لأن الغنم بالإقدام والخيبة
 مع الإحجام فصارت الطيرة من سمات الإدبار واطراحها من أمارات الإقبال
 فينبغي لمن مني به وبلي أن يصرف عن نفسه وساوس النوكى ودواعي
 الخيبة وذرائع الحرمان ولا يجعل للشيطان سلطاناً في نقض عزائمه ومعارضة
 خالقه ويعلم أن قضاء الله تعالى عليه غالب وأن رزقه له طالب وأن الحركة

(١) لا تشبه: لقول: أشابه الحزن إذ ابيض شعره، وشابت رؤوس الأكام ورأيت الجبال شيباً
 تريد بياض الصقيع والثلج.

(٢) وكناتها: جمع وكنة وهي العش.

(٣) خور: صيحة.

سبب فلا يثنيه عنها ما لا يضر مخلوقاً ولا يدفع مقدوراً. وليمض في عزائمه واثقاً بالله تعالى أن أعطى وراضياً به أن منع. فقد روى أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن في الإنسان ثلاثة الطيرة والظن والحسد فمخرجه من الطيرة أن لا يرجع ومخرجه من الظن أن لا يحقق ومخرجه من الحسد أن لا يبغي». وروى عنه ﷺ أنه قال: «كفارة الطيرة التوكل على الله تعالى». وقيل في منشور الحكم: الخير في ترك الطيرة وليقل أن عارضه في الطيرة ريب أو خامره فيها وهم ما روي عن النبي ﷺ أنه قال: «من تطير فليقل اللهم لا يأتي بالخيرات إلا أنت ولا يدفع السيئات إلا أنت ولا حول ولا قوة إلا بالله». وقد روي أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ فقال يا رسول الله: إنا نزلنا داراً فكثر فيها عددنا وكثرت فيها أموالنا ثم تحوّلنا عنها إلى أخرى فقلت فيها أموالنا وقل فيها عددنا فقال النبي ﷺ: ذروها فهي ذميمة. وليس هذا القول منه ﷺ على وجه الطيرة ولكن على طريق التبرك بما فارق وترك ما استوحش منه إلى ما أنس به. وأما الفأل ففيه تقوية للعزم وباعث على الجدّ ومعونة على الظفر فقد تفاعل رسول الله ﷺ في غزواته وحروبه. وروى أبو هريرة أن رسول الله ﷺ سمع كلمة فأعجبته فقال: أخذنا فالك^(١) من فيك. فينبغي لمن تفاعل أن يتأول الفأل بأحسن تأويلاته ولا يجعل لسوء الظن على نفسه سبيلاً فقد قال النبي ﷺ: «إن البلاء موكل بالمنطق» روي أن يوسف عليه السلام شكّا إلى الله تعالى طول الحبس فأوحى الله تعالى إليه يا يوسف أنت حبست نفسك حيث قلت: رب السجن أحب إليّ ولو قلت العافية أحب إليّ لعوفيت. وحكي أن المؤمل بن أمّيل الشاعر لما قال يوم الحيرة:

شَفَّ المؤمل يوم الحيرة النظر ليت المؤمل لم يخلق له بصر

عمي فأتاه آت في منامه فقال له: هذا ما طلبت. وحكي أن الوليد ابن يزيد بن عبد الملك تفاعل يوماً في المصحف فخرج له قوله تعالى:

(١) فالك: كلامك الحسن.

﴿واستفتحوا﴾^(١) وخاب^(٢) كل جبار عنيد ﴿فمزق﴾^(٣) المصحف وأنشأ يقول:

أتوعد كل جبار عنيد فها أنا ذاك جبار عنيد
إذا ما جئت ربك يوم حشر فقل يارب مزقني الوليد
فلم يلبث إلا أياماً حتى قتل شر قتلة وصلب رأسه على قصره ثم على
سور بلده فتعوذ بالله من البغي ومصارعه والشيطان ومصايدِهِ وهو حسبنا وعليه
توكلنا.

(الفصل السابع في المروءة) اعلم أن من شواهد الفصل ودلائل الكرم
المروءة^(٤) التي هي حلية النفوس وزينة الهمم فالمروءة مراعاة الأحوال التي
تكون على أفضلها حتى لا يظهر منها قبيح عن قصد ولا يتوجه إليها ذم
باستحقاق. روي عن النبي ﷺ أنه قال: «من عامل الناس فلم يظلمهم
وحدّثهم فلم يكذبهم ووعدهم فلم يخلفهم فهو ممن كملت مروءته وظهرت
عدالته ووجبت أخوته». وقال بعض البلغاء: من شرائط المروءة أن يتعفف
عن الحرام ويتصلف^(٥) عن الآثام وينصف في الحكم ويكف عن الظلم
ولا يطمع فيما لا يستحق ولا يستطيل على من لا يسترق ولا يعين قوياً على
ضعيف ولا يؤثر دنيئاً على شريف ولا يسر ما يعقبه الوزر والأثم ولا يفعل ما
يقبح الذكر والاسم. وسئل بعض الحكماء عن الفرق بين العقل والمروءة
فقال: العقل يأمرك بالأنفع والمروءة تأمرك بالأجمل.

ولن تجد الأخلاق على ما وصفنا من حد المروءة منطبعة ولا عن
المراعاة مستغنية وإنما المراعاة هي المروءة لا ما انطبعت عليه من فضائل
الأخلاق لأن غرور الهوى ونازع الشهوة يصرفان النفس أن تركب الأفضل من
(١) واستفتحوا: واستنصروا الله على أعدائهم.

(٢) وخاب: وخسر وهلك.

(٣) فمزق المصحف: مزقه ظمناً وعتواً، نعوذ بالله تعالى.

(٤) المروءة: هي تعاطي المرء ما يستحسن، وتجنب ما يسترذل. كالخرف الدنيئة، والملابس
الخسيسة، والجلوس في الأسواق، أو صيانة النفس عن الأدناس، أو ما يشين عند الناس،
أو آداب نفسانية تحمل مراعاتها الإنسان على الوقوف عند محاسن الأخلاق، وجميل العادات،
فالمروءة كما قال السيد الشريف: هي قوة للنفس مبدأ لصدور الأفعال الجميلة منها المستتعبة
للمدح شرعاً وعقلاً وفرعاً.

(٥) ويتصلف: أي يعرض وينصرف عنها.

خلائقها والأجمل من طرائقها وإن سلمت منها وبعيد أن تسلم إلا لمن
استكمل شرف الأخلاق طبعاً واستغنى عن تهذيبها تكلفاً وتطبعاً. وقال
الشاعر:

من لك بالمحض^(١) وليس محض يخبث بعض ويطيب بعض
ثم لو استكمل الفضل طبعاً وفي المعوز أن يكون مستكماً لكان في
المستحسن من عادات دهره والموضوع من اصطلاح عصره من حقوق
المروءة وشروطها ما لا يتوصل إليه إلا بالمعانة ولا يوقف عليه إلا بالتفقد
والمراعاة فثبت أن مراعاة النفس على أفضل أحوالها هي المروءة وإذا كانت
كذلك فليس ينقاد لها مع ثقل كلفها إلا من تسهلت عليه المشاق رغبة في
الحمد وهانت عليه الملاذ حذراً من الذم ولذلك قيل: سيد القوم
أشقاؤهم^(٢). وقال أبو تمام الطائي:

والحمد شهد^(٣) لا يرى مشتاره^(٤) يجنيه^(٥) إلا من نقيع الحنظل
غُل^(٦) لحامله ويحسبه الذي لم يؤه^(٧) عاتقه خفيف المَحْمَل
وقد لحظ المتنبي ذلك في قوله:

لولا المشقة ساد الناس كلهم الجود يفقر والإقدام قتال
وله أيضاً:

وإذا كانت النفوس كباراً تعبت في مرادها الأجسام
والداعي إلى استسهال ذلك شيئان: أحدهما علو الهمة والثاني شرف
النفس أما علو الهمة فلأنه باعث على التقدم وداع إلى التخصيص أنفة من

(١) المحض: الخالص من اللب و مراده الخالص من كل شيء.

(٢) أشقاؤهم: أكثرهم تحملاً للمشقة.

(٣) الشهد: العسل.

(٤) مشتاره: هو اسم فاعل من الاشتيار، وهو استخراج العسل من الوقة.

(٥) يجنيه: يتناوله ويجمعه.

(٦) غل: هو الطوق الذي يجعل في عنق المجوس.

(٧) ولم يؤه: ولم يضعف.

خمول الضعة واستنكاراً لمهانة النقص ولذلك قال النبي ﷺ: «إن الله يحب معالي الأمور وأشرافها ويكره دنيها وسفاسفها»^(١). وروي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: لا تصغرن هممكم فإنني لم أر أقعد عن المكرمات من صغر الهمم. وقال بعض الحكماء: الهممة راية الجد. وقال بعض البلغاء: علو الهمم بذر النعم. وقال بعض العلماء: إذا طلب رجلان أمراً ظفر به أعظمها مروءة. وقال بعض العلماء: من ترك التماس المعالي بسوء الرجاء لم ينل جسيماً. وأما شرف النفس فإنه به يكون قبول التأديب واستقرار التقويم والتهذيب لأن النفس ربما جمحت^(٢) عن الأفضل وهي به عارفة ونفرت عن التأديب وهي له مستحسنة لأنها عليه غير مطبوعة وله غير ملائمة فتصير منه أنفر ولضده الملائم أثر. وقد قيل: ما أكثر من يعرف الحق ولا يطيعه وإذا شرفت النفس كان للآداب طالبة وفي الفضائل راغبة فإذا مازجها^(٣) صارت طبعاً ملائماً فنما واستقر فأما من منى بعلو الهممة وسلب شرف النفس فقد صار عرضة لأمر أعوزته آلتة وأفسدته جهالته فصار كضرب يروم تعالم الكتابة وأخرس يريد الخطبة فلا يزيده الاجتهاد إلا عجزاً والطلب إلا أعوزاً^(٤) ولذلك قال النبي ﷺ: «ما هلك امرؤ عرف قدره». وقيل لبعض الحكماء من أسوأ الناس حالاً قال: من بعدت همته واتسعت أمنيته وقصرت آلتة وقلت قدرته. وقال أفنون^(٥) التغلبي:

ولا خير فيما يكذب المرء نفسه وتقواله للشيء ياليت ذا ليا
لعمرك ما يدري أمرؤ كيف يتقى إذا هو لم يجعل له الله واقيا
وقال بعض الحكماء: تجنبوا المنى فإنها تذهب بيهجة ما خولتم^(٦)
وتستصغرون بها نعمة الله عليكم. وقيل في منشور الحكم: المنى من بضائع

(١) سفاسفها: سفاسف على وزن ثرثار: الحقير والرديء.

(٢) جمحت: يقال جمع الفرس اذا اعتز فارسه وغلبه.

(٣) مازجها: خالطها.

(٤) أعوزاً: اشتداداً.

(٥) أفنون: على وزن اسلوب لقب صريم بن معشر.

(٦) خولتم: يقال: خوله الله المال أي أعطاه إياه متفضلاً.

النوكى فإن صادف بهمه حظاً نال به أملاً كان فيما ناله كالمغتصب وفيما وصل إليه كالمغلب إذ ليس في الحظوظ تقدير لحق ولا تمييز لمستحق وإنما هي كالسحاب الذي يمسك عن منابت الأشجار إلى مغاوص^(١) البحار وينزل حيث صادف من خيىث وطيب فإن صادف أرضاً طيبة نفع وإن صادف أرضاً خبيثة ضر كذلك إن صادف نفساً شريفة نفع وكان نعمة عامّة وإن صادف نفساً ذنية ضر وكان نقمة طامة^(٢). وحكي أن موسى بن عمران عليه السلام دعا على قوم بالعذاب فأوحى إليه قد ملكت أسفلها على أعلاها فقال: يارب كنت أحب لهم عذاباً عاجلاً فأوحى الله تعالى الله تعالى إليه ليس هذا كل العذاب العاجل الأليم. فأما شرف النفس إذا تجرد عن علو الهمة فإن الفضل به عاقل والقدر به خامل وهو كالقوة في الجلد الكسل والجبان الفشل تضعيف قوته بكسله وجلده بفشله وقد قيل في منثور الحكم: من دام كسله خاب أمله وقال بعض الشعراء:

إذا أنت لم تعرف لنفسك حقها هواناً بها كانت على الناس أهونا
ففسك أكرمها وإن ضاق مسكن عليك لها فاطلب لنفسك مسكنا
وإياك والسكنى بمنزل ذلة يعدّ مسيئاً فيه من كان محسنا

وشرف النفس مع صغر الهمة أولى من علو الهمة مع دناءة النفس لأن من علت همته مع دناءة نفسه كان متعدياً إلى طلب ما لا يستحقه ومتخطياً إلى آلتماس ما لا يستوجه ومن شرفت نفسه مع صغر همته فهو تارك لما يستحق ومقصر عما يجب له وفضل ما بين الأمرين ظاهر وإن كان لكل واحد منهما من الذم نصيب. وقد قيل لبعض الحكماء ما أصعب شيء على الإنسان قال: أن يعرف نفسه ويكتم الأسرار فإذا اجتمع الأمران واقرن بشرف النفس علو الهمة كان الفضل بهما ظاهراً والأدب بهما وافراً ومشاق الحمد بينهما مسهلة وشروط المروءة بينهما متينة. وقد قال الحصين بن المنذر الرقاشي:

(١) مغاوص البحار: الأماكن البعيدة عن الساحل.

(٢) طامة: داهية عظيمة.

إن المروءة ليس يدركها امرؤ ورث المكارم عن أب فأضاعها
أمرته نفس بالدناءة والخنا ونهته عن سبل العلا فأطاعها
فإذا أصاب من المكارم خلة بيني الكريم بها المكارم باعها

واعلم أن حقوق المروءة أكثر من أن تحصى وأخفى من أن تظهر لأن منها ما يقوم في الوهم حساً ومنها ما يقتضيه شاهد الحال حدساً ومنها ما يظهر بالفعل ويخفى بالتغافل فلذلك أعوز استيفاء شروطها إلّا جملاً يتنبه الفاضل لها ليقظته ويستدل العاقل عليها بفطرتة وإن كان جميع ما تضمنه كتابنا هذا من حقوق المروءة وشروطها وإنما نذكر في هذا الفصل الأشهر من قواعدها وأصولها والأظهر من شروطها وحقوقها محصوراً في تقسيم جامع وهو ينقسم قسمين:

أحدهما شروط المروءة في نفسه. والثاني شروطها في غيره. فأما شروطها في نفسه بعد التزام ما أوجبه الشرع من أحكامه فيكون بثلاثة أمور: وهي العفة والنزاهة والصيانة. فأما العفة فنوعان: أحدهما العفة عن المحارم والثاني العفة عن المآثم فأما العفة عن المحارم فنوعان: أحدهما ضبط الفرج عن الحرام والثاني كف اللسان عن الأعراض. فأما ضبط الفرج عن الحرام فلأن عدمه مع وعيد الشرع وزاجر العقل معرة فاضحة^(١) وهتكة^(٢) واضحة ولذلك قال النبي ﷺ: «من وقى شرَّ ذَنْبِهِ وَلَقَلَّه وَقَبَّه فَقَدْ وَقَى» يريد بذنبه الفرج وبلقلقه اللسان وبقبه البطن. وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «أحب العفاف إلى الله تعالى عفاف الفرج والبطن» وحكي أن معاوية رضي الله عنه سأل عمراً عن المروءة فقال: تقوى الله تعالى وصلة الرحم وسأل المغيرة فقال: هي العفة عما حرم الله تعالى والحرفة فيما أحل الله تعالى وسأل يزيد فقال: هي الصبر على البلوى والشكر على النعمى والعفو عند القدرة فقال معاوية: أنت مني حقاً. وقال أنوشروان لابنه هرمز فقال الكامل المروءة من حصن دينه ووصل رحمه وأكرم إخوانه. وقال بعض الحكماء: من أحب المكارم اجتنب المحارم. وقيل: عار الفضيحة يكدر

(١) معرة فاضحة: اثم ظاهر وجناح مكشوف.

(٢) وهتكة واضحة: الهتكة على وزن غرفة: الخرق، الذي في الستر.

لذتها. وقد أنشدني بعض أهل الأدب للحسن بن علي رضي الله عنهما:

الموت خير من ركوب العار والعار خير من دخول النار
* والله من هذا وهذا جاري *

والداعي إلى ذلك شيثان: أحدهما إرسال الطرف والثاني إتباع الشهوة وقد روي عن النبي عليه السلام أنه قال لعلي بن أبي طالب كرم الله وجهه: يا علي لا تتبع النظرة والنظرة فإن الأولى لك والثانية عليك وفي قوله لا تتبع النظرة النظرة تأويلان: أحدهما لا تتبع نظر عينيك نظر قلبك. والثاني لا تتبع الأولى وقعت سهواً بالنظرة الثانية التي توقعها عمداً. وقال عيسى بن مريم عليه السلام: إياكم والنظرة بعد النظرة فإنها تزرع في القلب الشهوة وكفى بها لصاحبها فتنة. وقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: العيون مصايد الشيطان. وقال بعض الحكماء: من أرسل طرفه استدعى حتفه. وقال بعض الشعراء:

وكنتم متى أرسلت طرفك رائداً لقلبك يوماً أتعبتك المناظر
رأيت الذي لا كله أنت قادر عليه ولا عن بعضه أنت صابر

وأما الشهوة فهي خادعة العقول وغادرة الأبواب ومحسنة القبائح ومسولة الفضائح وليس عطب إلا وهي له سبب وعليه ألب ولذلك قال النبي عليه السلام: «أربع من كن فيه وجبت له الجنة وحفظ من الشيطان: من يملك نفسه حين يرغب وحين يرهب وحين يشتهي وحين يغضب». وقهرها عن هذه الأحوال يكون بثلاثة أمور: أحدها. غض الطرف عن إثارتها وكفه عن مساعدتها فإنه الرائد المحرك والقائد المهلك. روى سعيد بن سنان عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ أنه قال: «تقبلوا إليّ بستم أتقبل إليكم بالجنة قالوا وما هي يا رسول الله قال: إذا حدث أحدكم فلا يكذب وإذا وعد فلا يخلف وإذا أؤتمن فلا يخون غصوا أبصاركم واحفظوا فروجكم وكفوا أيديكم». والثاني ترغيبها في الحلال عوضاً وإقناعها بالمباح بدلاً فإن الله ما حرّم شيئاً إلا وأغنى عنه بمباح من جنسه لما علمه من نوازع الشهوة وتركيب الفطرة ليكون ذلك عوناً على طاعته وحاجزاً عن مخالفته. وقال عمر بن

الخطاب رضي الله عنه: ما أمر الله تعالى بشيء إلا وأعان عليه ولا نهى عن شيء إلا وأغنى عنه. والثالث إشعار النفس تقوى الله تعالى في أوامره وإتقاؤه في زواجره وإلزامها ما ألزم من طاعته وتحذيرها ما حذر من معصيته وإعلامها أنه لا يخفى عليه ضمير ولا يعزب عنه قطمير^(١) وأنه يجازي المحسن ويكافئ المسيء وبذلك نزلت كتبه وبلغت رسله. روى ابن مسعود أن آخر ما نزل من القرآن ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ وآخر ما نزل من التوراة «إذا لم تستح فاصنع ما شئت» وآخر ما نزل من الإنجيل «شر الناس من لا يبالي أن يراه الناس مسيئاً» وآخر ما نزل من الزبور «من يزرع خيراً يحصد زرعه غبطة» فإذا أشعرها ما وصفت إنقادات إلى الكف وأذعنت بالإتقاء فسلم دينه وظهرت مروءته فهذا شرط. وأما كف اللسان عن الأعراض فلأن عدمه ملاذ السفهاء وانتقام أهل الغوغاء وهو مستسهل الكلف وإذا لم يقهر نفسه عنه برادع كاف وزاجر صَادَّ تَلْبَطُ^(٢) بمعارَهِ وتخطب بمضارَهِ وظن أنه لتجافي الناس عنه حمى يتقى ورتبة ترتقى فهلك وأهلك. فلذلك قال النبي ﷺ: «ألا إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرام عليكم حرام عليكم» فجمع بين الدم والعرض^(٣) لما فيه من إيغار الصدور وإبداء الشرور وإظهار البذاء واكتساب الأعداء ولا يبقى مع هذه الأمور وزن لموموق ولا مروءة لملحوظ ثم هو بها موتور^(٤) موزور ولأجلها مهجور مزجور. وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «شر الناس من أكرمه الناس آتقاء لسانه» وقال بعض الحكماء: إنما هلك الناس بفضول الكلام وفضول المال. وما قدح في الأعراض من الكلام نوعان: أحدهما ما قدح في عرض صاحبه ولم يتجاوزه إلى غيره وذلك شيثان الكذب وفحش القول. والثاني ما تجاوزه إلى غيره وفلك أربعة أشياء: الغيبة والنميمة والسعاية والسبب بقذف أو شتم وربما كان السب

(١) قطمير: بكسر القاف: الجلد الرقيق .

(٢) تلبط : أي تمرغ في أثمه .

(٤) العرض : موضع المدح والذم من الانسان .

(٥) موتور موزور: صغد من آثم .

أنكاهها للقلوب وأبلغها أثراً في النفوس ولذلك زجر الله عنه بالحدّ تغليظاً وبالتفسيق تشديداً وتصعباً وقد يكون ذلك لأحد شيئين إما انتقام يصدر عن سفه أو بذاء يحدث عن لؤم. وقد روى أبو سلمة عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «المؤمن غرّاً»^(١) كريم والفاجر خبّ لئيم». وقال ابن المقفع: الإستطالة لسان الجهالة. وكف النفس عن هذه الحال بما يصدّها من الزواجر أسلم وهو بذئ المروءة أجمل فهذا شرط. وأما العفة عن المآثم فنوعان: أحدهما الكف عن المجاهرة بالظلم والثاني زجر النفس عن الأسرار بخيانة. فأما المجاهرة بالظلم فعتوّ مهلك وطغيان متلف وهو يؤول ان استمر إلى فتنة أو جلاء فأما الفتنة في الأغلب فتحيط بصاحبها وتنعكس على البادئ بها فلا تنكشف إلّا وهو بها مصروع كما قال الله تعالى: ﴿ولا يحق المكر والسيء إلّا بأهله﴾. وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «الفتنة نائمة فمن أيقظها صار طعاماً لها». وقال جعفر بن محمد: الفتنة حصاد للظالمين وقال بعض الحكماء: صاحب الفتنة أقرب شيء أجلاً وأسوأ شيء عملاً. وقال بعض الشعراء:

وكنّت كعنز السوء قامت لحتفها إلى مديّة^(٢) تحت الثرى تسثيرها
وأما الجلاء فقد يكون من قوّة الظالم وتطاؤل مدّته فيصير ظلمه مع الممكنة جلاء وفناء كالنار إذا وقعت في يابس الشجر فلا تبقى معها مع تمكنها شيئاً حتى إذا أفنت ما وجدت أضمحلت وخمدت فكذا حال الظالم مهلك ثم هالك. والباعث على ذلك شيثان الجراءة والقسوة ولذلك قال النبي عليه السلام: «إطلبوا الفضل والمعروف عند الرحماء من أمتي تعيشوا في أكنافهم» والصادّ عن ذلك أن يرى آثار الله تعالى في الظالمين فإن له فيهم عبراً ويتصوّر عواقب ظلمهم فإن فيها مزدجراً. وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «من أصبح ولم ينو ظلم أحد غفر الله له ما اجترم». وروي جعفر ابن محمد عن أبيه عن جدّه قال: قال رسول الله ﷺ «يا علي اتق دعوة

(١) غرّ: أي يغره كل أحد. ويغير كل شيء.

(٢) المديّة: بحركات الميم الشفرة والسكين.

المظلوم فإنه إنما يسأل الله حقه وإن الله يمنع ذا حق حقه». وقيل في منشور الحكم: ويل للظالم من يوم المظالم. وقال بعض البلغاء: من جار حكمه أهلكه ظلمه. وقال بعض الشعراء:

وما من يد إلا يد الله فوقها وما من ظالم إلا سيلى بظالم
وأما الأسرار بالخيانة فضعة لأنه يبذل الخيانة مهين ولقلة الثقة به
مستكين. وقيل في منشور الحكم: من يخن يهن. وقال خالد الربيعي^(١):
قرأت في بعض الكتب السالفة أن مما تعجل عقوبته ولا تؤخر الأمانة تخان
والإحسان يكفر والرحم تقطع والبغي على الناس. ولو لم يكن من ذم
الخيانة إلا ما يجده الخائن في نفسه من المذلة لكفاه زاجراً ولو تصوّر عقبي
أمانته وجدوى ثقته لعلم أن ذلك من أرباح بضائع جاهه وأقوى شفعاء تقدّمه
مع ما يجده في نفسه من العز ويقابل عليه من الاعظام. وقد روي عن النبي
ﷺ أنه قال: «أدّ الأمانة إلى من ائتمك ولا تخن من خانك» وروى سعيّد بن
جبير قال لما نزلت هذه الآية: ﴿ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقناطر يؤدّه
إليك ومنهم من أن تأمنه بدينار لا يؤدّه إليك إلا ما دمت عليه قائماً ذلك
بأنهم قالوا ليس علينا في الأميين سبيل﴾ يعنون أن أموال العرب حلال لهم
لأنهم من غير جهل الكتاب قال رسول الله ﷺ: كذب أعداء الله ما من
شيء كان في الجاهلية إلا وهو تحت قدمي إلا الأمانة فإنها مؤداة إلى البر
والفاجر. ولا يجعل ما يتظاهر به من الأمانة زوراً ولا ما يبديه من العفة
غروراً فينهتك الزور وينكشف الغرور فيكون مع هتكه للتدليس أقبح والمعرّة
الرياء أفضح. وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «لا تزال أمتي بخير ما لم
تر الأمانة مغنماً والصدقة مغرماً» وقال بعض الحكماء: من آلتبس أربعاً
بأربع التمس ما لا يكون. من التمس الجزاء بالرياء التمس ما لا يكون ومن
التمس مودة الناس بالغلظة التمس ما لا يكون ومن التمس وفاء الإخوان بغير
وفاء التمس ما لا يكون ومن التمس العلم براحة الجسد التمس ما لا يكون.
والداعي إلى الخيانة شيثان: المهانة وقلة الأمانة فإذا حسمهما عن نفسه بما
وصفت ظهرت مروءته فهذا شرط قد استوفينا فيه أقسام العفة. وأما النزاهة

(١) الربيعي: بكسر فسكون: منسوب لبطن من غطفان.

فنعان: أحدهما النزاهة عن المطامع الدنية والثاني النزاهة عن مواقف الريبة فأما المطامع الدنية فلأن الطمع ذل والدناءة لؤم وهما أدفع شيء للمروءة. وقد كان النبي ﷺ يقول في دعائه: اللهم إني أعوذ بك من طمع يهدي إلى طبع. وقال بعض الشعراء:

لا تخضعن لمخلوق على طمع فإن ذلك نقص منك في الدين
واسترزق الله مما في خزائنه فإنما هو بين الكاف والنون
والباعث على ذلك شيثان الشره وقلة الأنفة فلا يقنع بما أوتي وإن كان كثيراً لأجل شرهه ولا يستنكف مما منع وإن كان حقيراً لقلة أنفته وهذه حال من لا يرضى لنفسه قدرأ ويرى المال أعظم خطراً فيرى بذل أهون الأمرين لأجلهما مغنماً وليس لمن كان المال عنده أجل ونفسه عليه أقل إصغاء لتأنيب ولا قبول لتأديب. وروي أن رجلاً قال يارسول الله أوصني قال: عليك باليأس مما في أيدي الناس وإياك والطمع فإنه فقر حاضر وإذا صليت صلاة فصل صلاة مودع وإياك وما يعتذر منه. وقال بعض الشعراء:

ومن كانت الدنيا مناه وهمه سبته المني واستعبده المطامع
وحسم هذه المطامع شيثان: اليأس والقناعة. وقد روى عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ أنه قال: «إن روح^(١) القدس نفث في روعي^(٢) أن نفساً لن تموت حتى تستوفي رزقها فاتقوا الله وأجملوا في الطلب ولا يحملنكم إبطاء الرزق على أن تطلبوه بمعاصي الله تعالى فإن الله عز وجل لا يدرك ما عنده إلا بطاعته». فهذا شرط. وأما مواقف الريبة فهي التردد بين منزلتي يحمد وذم والوقوف بين حالتي سلامة وسقم فتوجه إليه لائمة المتوهمين ويناله ذلة المريبين وكفى بصاحبها موقفاً إن صح إفتضح وإن لم يصح إمتهن وقد قال النبي ﷺ: «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك» وسئل محمد^(٣) بن علي عن المروءة فقال: ألا تعمل في السر عملاً تستحي منه في العلانية وقال حسان بن أبي سنان: ما وجدت شيئاً هو أهون من الورع قيل له وكيف

(١) ان روح القدس: ورواه أبو نعيم في الحلية عن أبي أمامة الباهلي.

(٢) في روعي: في خلدي وبالي.

(٣) محمد بن علي: هو الباقر.

قال: إذا آزَبْتُ بشيء تركته. والداعي إلى هذه الحال شيثان: الإسترسال وحسن الظن والمانع منهما شيثان: الحياء والحذر وربما انتفت الريبة بحسن الثقة وارتفعت التهمة بطول الخبرة. وقد حكى عن عيسى بن مريم عليه السلام أنه رآه بعض الحواريين وقد خرج من منزل امرأة ذات فجور فقال: يا روح الله ما تصنع هنا فقال الطبيب إنما يداوي المرضى. ولكن لا ينبغي أن يجعل ذلك طريقاً إلى الإسترسال وليكن الحذر عليه أغلب وإلى الخوف من تصديق التهم أقرب فما كل ريبة ينفىها حسن الثقة. هذا رسول الله ﷺ وهو أبعد خلق الله من الريب وأصونهم من التهم وقف مع زوجته صفية ذات ليلة على باب المسجد يحدثها وكان معتكفاً فمرَّ به رجلان من^(١) الأنصار فلما رأياه أسرعَا فقال لهما: على رسلكما^(٢) إنها صفية بنت حيي فقالا: سبحان الله أفيك شك يا رسول الله فقال مه. إن الشيطان يجري من أحدكم مجرى لحمه ودمه فخشيته أن يقذف في قلبكما سوءاً. فكيف من تخالجت فيه الشكوك وتقابلت فيه الظنون فهل يعرى في مواقف الريب من قاذح محقق ولائم مصدق. وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا لم يشق المرء إلّا بما عمل فقد سعد» وإذا استعمل الحزم وغلب الحذر وترك مواقف الريب ومظان التهم ولم يقف موقف الاعتذار ولا عذر لمختار لم يختلج في نزاهته شك ولم يقدح في عرضه إفك. وقد قال الشاعر:

أصونك أن أدل عليك ظناً لأن الظن مفتاح اليقين
وقال سهل بن هرون مؤونة المتوقف أيسر من تكلف المتعسف. وقال بعض الحكماء: من حسن ظنه بمن لا يخاف الله تعالى فهو مخدوع. وأنشدني بعض أهل الأدب لأبي بكر الصولي رحمه الله قوله:

أحسن ظني بأهل دهري فحسن ظني بهم دهاني
لا آمن الناس بعد هذا ما الخوف إلّا من الأمان
فهذا شرط استوفينا فيه نوعي النزاهة. وأما الصيانة وهي الثالث من

(١) رجلان من الأنصار: هما أسيد بن حضير وعباد بن بشر.

(٢) على رسلكما: بكسر الراء وسكون السين أي امشيا على هيتكما. فليس شيء تكرهانه.

شروط المروءة فنوعان : أحدهما صيانة النفس بالتماس كفايتها وتقديم ماداتها والثاني صيانتها عن تحمل المنن والإسترسال في الإستعانة . فأما التماس الكفاية وتقدير المادة فلأن المحتاج إلى الناس كل^(١) مهتضم وذليل مستثقل وهو لما فطر عليه محتاج إلى ما يستمده ليقوم إود نفسه ويدفع ضرورة وقته ولذلك قالت العرب في أمثالها : كلب جوال خير من أسد رابض^(٢) . وما يستمده نوعان : لازم وندب . فأما اللازم فما قام بالكفاية وأفضى إلى سدّ الخلة وعليه في طلبه ثلاثة شروط : أحدها استطابته من الوجوه المباحة وتوقي المحظورة فإن المواد المحرمة مستخبثة الأصول ممحوقة المحصول أن صرفها في برّ لم يؤجر وإن صرفها في مدح لم يشكر ثم هو لأوزارها محتقّب^(٣) وعليها معاقب . وقد قال رسول الله ﷺ : « لا يعجبك رجل كسب مالا من غير حله فإن أنفقه لم يقبل منه وإن أمسكه فهو زاده إلى النار » . وقال بعض الحكماء : شر المال ما لزمك إثم مكسبه وحرمت أجر إنفاقه . ونظر بعض الخوارج إلى رجل من أصحاب السلطان يتصدّق على مسكين فقال : أنظر إليهم حسناتهم من سيئاتهم^(٤) . وقال علي بن الجهم :

سرّ من عاش ماله فإذا حا سبه الله سرّه الإعدام
والثاني طلبه من أحسن جهاته التي لا يلحقه فيها غرض ولا يتدنس له بها عرض فإن المال يراد لصيانة الأعراض لا لأبتذالها ولعز النفوس لا لإذلالها . وقال عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه : يا حبذا المال أصوب به عرضي وأرضي به ربي . وقال أبو بشر الضرير :

كفى حزناً أني أروح وأغتدي ومالي من مال أصون به عرضي
وأكثر ما ألقى الصديق بمرحبا وذلك لا يكفي الصديق ولا يرضي
وسئل ابن عائشة عن قول النبي ﷺ : « أطلبوا الحوائج من حسان

(١) كلّ : ثقل عاجز لا خير فيه .

(٢) رابض : قاعد .

(٣) محتقّب : محتمل .

(٤) من سيئاتهم : من مناصبهم أو من رشاهم .

الوجوه» فقال معناه من أحسن الوجوه التي تحل. والثالث أن يأتي في تقدير مادته وتدبير كفايته بما لا يلحقه خلل ولا يناله زلل فإن يسير المال مع حسن التقدير وإصابة التدبير أجدى نفعاً وأحسن موقعاً من كثيرة مع سوء التدبير وفساد التقدير كالبذر في الأرض إذا روعي يسيره زكا وإن أهمل كثيره إضمحل. وقال محمد بن علي رضي الله عنه: الكمال في ثلاثة: العفة في الدين والصبر على النوائب وحسن التدبير في المعيشة. وقيل لبعض الحكماء فلان غني فقال: لا أعرف ذلك ما لم أعرف تدبيره في ماله فإذا استكمل هذه الشروط فيما يستمدّه من قدر الكفاية فقد أدّى حق المروءة في نفسه. وسئل الأحنف بن قيس عن المروءة فقال: العفة والحرفة. وقال بعض الحكماء لابنه: يا بني لا تكن على أحد كلاً فإنك تزداد ذلاً واضرب في الأرض عوداً، ولا تأسف لمال كان فذهب ولا تعجز عن الطلب لو صب^(١) ولا نصب^(٢) فهذا حال اللازم. وقد كان ذوو الهمم العالية والنفوس الأبية يرون ما وصل إلى الإنسان كسباً أفضل مما وصل إليه إراثاً لأنه في الإرث في جدوى غيره وبالكسب مجدٌ إلى غيره وفرق ما بينهما في الفضل ظاهر. وقال كشاجم:

لا أستلذ العيش لم أدب له	طلباً وسعيّاً في الهواجر ^(٣) والغلس ^(٤)
وأرى حراماً أن يؤاتيني الغني	حتى يحاول بالعناء ويلتمس
فاصرف نوالك عن أخيك موفراً	فالليث ليس يسبغ إلّا ما افترس

وأما النذب فهو ما فضل عن الكفاية وزاد على قدر الحاجة فإن الأمر فيه معتبر بحال طالبه فإن كان ممن تقاعد عن مراتب الرؤساء وتقاصر عن مطاولة النظراء وانقبض عن منافسة الأكفاء فحسبه ما كفاه فليس في الزيادة إلّا شره ولا في الفضول إلا نهم وكلاهما مذموم. وقد قال النبي ﷺ: «خير

(١) لو صب: لم رض.

(٢) نصب: تعب.

(٣) في الهواجر: جمع هاجرة، وهو وقت نصف النهار.

(٤) والغلس: بفتحين ظلمة آخر الليل.

الرزق ما يكفي وخير^(١) الذكر الخفي». وقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: الدنيا كل على العاقل. وقال عبد الله بن مسعود: المستغني عن الدنيا بالدنيا كمطفىء النار بالتبن. وقال بعض الحكماء: اشتر ماء وجهك بالقناعة وتسلب عن الدنيا بتجافئها عن الكرام. فإن كان ممن مني بعلو الهمم وتحركت فيه أريحية الكرم وأثر أن يكون راساً مقدماً وأن يرى في النفوس معظماً ومفخماً فالكفاية لا تقله حتى يكون ماله فاضلاً ونائله فائضاً فقد قيل لبعض العرب ما المروءة فيكم قال: طعام مأكول ونائل مبذول وبشر مقبول. وقد قال الأحنف بن قيس:

فلو مدَّ سَرُويَ بمال كثير لجدت وكنت له باذلاً
فإن المروءة لا تستطاع إذا لم يكن مالها فاضلاً

وأما صيانتها عن تحمل المن والالترسال في الإستهانة فلأن المنه استرقاق الأحرار تحدث ذلة في الممنون عليه وسطوة في المان والالترسال في الإستهانة تثقل ومن ثقل على الناس هان ولا قدر عندهم لمهان. وقال رجل لعمر رضي الله عنه: خدمك بنوك فقال: أغناني الله عنهم. وقال علي ابن أبي طالب رضي الله عنه لابنه الحسن في وصيته له: يا بني إن استطعت أن لا يكون بينك وبين الله ذو نعمة فافعل ولا تكن عبد غيرك وقد جعلك الله حراً فإن اليسير من الله تعالى أكرم وأعظم من الكثير من غيره وإن كان كل منه كثيراً. وقال زياد لبعض الدهاقين^(٢): ما المروءة فيكم قال: إجتنب الريب فإنه لا ينبل مريب وإصلاح الرجل ماله فإنه من مروءته وقيامه بحوائجه وحوائج أهله فإنه لا ينبل من احتاج إلى أهله ولا من احتاج أهله إلى غيره. وأنشد ثعلب:

من عف خف على الصديق لقاءه وأخو الحوائج وجهه مملول
وأخوك من وفرت ما في كيسه فإذا عبثت به فأنت ثقيل
وإن كان الناس لحمة لا يستغنون عن التعاون ولا يستقلون عن

(١) خير الذكر: رواه أحمد بن حنبل والبيهقي عن سعد بن مالك وابن أبي وقاص.

(٢) الدهاقين: جمع دهقان بكسر الدال وضمها: أمير القرية وهو بمنزلة شيخ القبيلة من العرب.

المساعد والمظافر فإنما ذلك تعاون ائتلاف يتكافأون فيه ولا يتفاضلون وربما كان المستعين فيه مفضلاً والمعين مستفضلاً كاستعانة السلطان بجنده والمزارع بأكرته (١) فليس من هذا بدّ ولا لأحد عنه غنى وإنما الذي يتصوّن عنه الكرام تعاون التفضيل فينقبضون عن أن يستعينوا لئلا يكون عليهم يد ويسارعون أن يعينوا لأن يكون لهم يد ومن أقدم من غير اضطرار على الاستعانة بجاه أو بمال فقد أوهى مروءته واستبدل صيانتة ومن دعاه الإضطرار لنائب ألم أو حادث مجم إلى الإستعانة بمن يتنفس به من خناق كربيه ويتخلص به من وثاق نوائبه فلا لوم على مضطر فإن أغنته الإستعانة بالجاه عن الاستعانة بالمال فلا عذر له في التعرّض للمال ويعدل إلى ولاية الأمور فإن الحوائج عندهم أنجح وهي عليهم أسهل وهم لذلك مندوبون فهم لا يجدون لهم مساوياً وليصبرنّ على ابطائهم فإن تراكم الأمور عليهم يشغلهم الا عن الملح الصبور ولذلك قيل: قدّم لحاجتك بعض لحاجتك . وقال أبو سارة سحيم بن الأعرف:

تعدّ قرابة وتعدّ صهراً ويسعد بالقرابة من رعاها
وما زرناك من عدم ولكن يهش إلى الإمارة من رجاها
وأيا ما فعلت فإن نفسي تعدّ صلاح نفسك من غناها
فإن تعذر عليه صلاح حاله إلّا بمال يستعين به على نوائبه كان له مع
الضرورة فسحة لكن ان وجده قرضاً مردوداً لم يأخذ صلة وجوداً فإن القرض
مستسمح به في المروءات . هذا رسول الله ﷺ مع ما أعلى الله من قدره
وفضله على خلقه قد اقترض ثم قضى فأحسن وقال ﷺ: «من أعياه رزق
الله تعالى حلالاً فليستدن على الله وعلى رسوله» وقال ﷺ: «المستدين تاجر
الله في أرضه» . وقال البحري:

إن لم يكن كثر فقلّ عطية يبلغ بها باغي الرضا بعض الرضا
أو لم يكن هبة فقرض يسرت أسبابه وكواهب من أقرضا

(١) بأكرته: جمع أكار الحراث وزناً ومعنى.

ولئن كان الدين رقا فهو أسهل من رق الافضال. وقد روي عن علي ابن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: من أراد البقاء ولا بقاء فليباكر الغداء وليخفف الرداء قليل وما في خفة الرداء من البقاء قال: قلة الدين فإن أعوزه ذلك إلّا استمناحاً فهو الرق المذل ولذلك قيل: لا مروءة لمقل وقال بعض الحكماء: من قبل صلتك فقد باعك مروءته وأذل لقدرك عزه وجلالته. والذي يتماسك به الباقي من مروءة الراغبين واليسير التافه^(١) من صيانة السائلين وإن لم يبق لذي رغبة مروءة ولا لسائل تصون أربعة أمور هي جهد المضطر: أحدها أن يتجافى ضرع السائلين وأبهة المستقلين فيذل بالضرع ويحرم بالأبهة وليكن من التجميل على ما يقتضيه حال مثله من ذوي الحاجات. وقد قيل لبعض الحكماء متى يفحش زوال النعم قال: إذا زال معها التجميل. وأنشد بعض أهل الأدب لعلي بن الجهم:

هي النفس ما حملتها تتحمل وللدهر أيام تجور وتعذل
وعاقبة الصبر الجميل جميلة وأحسن أخلاق الرجال التفضل
ولا عار إن زالت عن الحرّ نعمة ولكنّ عاراً أن يزول التجميل

والثاني أن يقتصر في السؤال على ما دعته إليه الضرورة وقادته إليه الحاجة ولا يجعل ذلك ذريعة إلى الاغتنام فيحرم باغتنامه ولا يعذر في ضرورته. وقد قال بعض الحكماء: من ألف المسألة ألفه المنع. والثالث أن يعذر في المنع ويكشر على الإجابة فإنه إن منع فعما لا يملك وإن أجيب فإلى ما لا يستحق. فقد قال النمر بن^(٢) تولب:

لا تغضبن على امرئ في ماله وعلى كرائم صلب مالك فاغضب

والرابع أن يعتمد على سؤال من كان للمسألة أهلاً وكان النجح عنده مأمولاً فإن ذوي المكنة كثير والمعين منهم قليل. ولذلك قال النبي ﷺ «الخير كثير وقليل فاعله». والمرجو للإجابة من تكاملت فيه خصالها وهي

(١) التافه: اليسير القليل.

(٢) ابن تولب: علي وزن جعفر الذهلي، يكنى أبا ربيعة، مقل مجيد، كان أبو عمرو يسميه الكيس من حسن شعره. وكان يشبه بشعر حاتم الطائي، مخضرمي، وله صحبة، كان حوذاً.

ثلاثة : إحداهن كرم الطبع فإن الكريم مساعد واللئيم معاند . وقد قيل :
المخذول من كانت له إلى اللئيم حاجة . والثانية سلامة الصدر فإن العدو
إلب على نكبتك وحب في نائتك وقد قيل : من أوغرت صدره استدعيت
شره فإن رق لك بكرم طبعه ورحمك بحسن ظفره فأعظم بها محنة أن يصير
عدوك لك راحماً . وقد قال الشاعر :

وحسبك من حادث بامرئ نرى حاسديه له راحمين
والثالث ظهور المكنة فإن من سأل مالا يمكن فقد أحال وكان
كمستهض المسجون ومستسعف المديون وكان بالرد خليقاً وبالحرمان
حقيقاً . وقد قال علي كرم الله وجهه : من لا يعرف لا حتى يقال له لا فهو
أحمق . ووصى عبد الله بن^(١) الأهم ابنه فقال : يا بني لا تطلب الحوائج
من غير أهلها ولا تطلبها في غير حينها ولا تطلب ما لست له مستحقاً فإنك
إن فعلت ذلك كنت حقيقاً بالحرمان . وقال الشاعر :

ولا تسألن أمراً حاجة بحاول من ربه مثلها
فيترك ما كنت حملته ويبدأ بحاجته قبلها
فهذا ما يختص بشروط المروءة في نفسه . وأما شروط المروءة في
غيره فثلاثة :^(٢) المؤازرة والإفضال . أما المؤازرة فنوعان : أحدهم
الإسعاف بالجاء والثاني الإسعاف في النوائب . فأما الإسعاف بالجاء فقد
يكون من الأعلى قدراً والأنفذ أمراً وهو أرخص المكارم ثمناً وألطف الصنائع
موقعاً وربما كان أعظم من المال نفعا وهو الظل الذي يلجأ إليه المضطرون
والحمى الذي يأوي إليه الخائفون فإن أوطاه^(٣) إتسع بكثرة الأنصار والشييع
وان قبضه انقطع بنفور الغاشية والتبع فهو بالبدل ينمي ويزيد وبالكف ينقص
ويبيد فلا عذر لمن منح جاهاً أن ييخل به فيكون أسوأ حالاً من البخيل بماله
الذي قد يعدّه لنوائبه ويستبقيه للذته ويكنزه لذريته . وبضد ذلك من بخل

(١) عبد الله بن الأهم : من بني مضر ، كان خطيباً ذا مقامات ، ووفادات .

(٢) المؤازرة : المعاونة .

(٣) أوطاه : هياه وسهله .

بجاهه لأنه قد أضاعه بالشح وبدده بالبخل وحرّم نفسه غنيمة مَكَنَّتْه وفرصة قدرته فلم يعقبه إلاّ ندماً على فائت وأسفاً على ضائع ومقتاً يستحكم في النفوس وذمّاً قد ينتشر في الناس. وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «الخلق كلهم عيال الله وأحب خلق الله تعالى إليه أحسنهم صنيعاً إلى عياله». وقال بعض الحكماء: اصنع الخير عند إمكانه يبق لك حمده عند زواله وأحسن والدولة لك يحسن لك والدولة عليك واجعل زمان رخائك عدّة لزمان بلائك. وقال بعض البلغاء: من علامة الإقبال إصطناع الرجال. وقال بعض الأدباء: بذل الجاه أحد الحباءين. وقال ابن الأعرابي: العرب تقول من أمل شيئاً هابه ومن جهل شيئاً عابه. وبذل الجاه قد يكون من كرم النفس وشكر النعمة وضدّه من ضدّه وليس بذل الجاه لالتماس الجزاء بذلاً مشكوراً وإنما هو بائع جاهه ومعاوض على نعم الله تعالى وآلائه فكان بالذم أحق. وأنشد بعض الأدباء لعلي بن عباس الرومي رحمه الله:

لا يبذل العرف حين يبذله كمشتري الحمد أو كمتعاضه
بل ينعل العرف حين يفعله لجوهر العرف لا لأعراضه

وعلى من أسعد بجاهه ثلاثة حقوق يستكثر بها الشكر ويستمدّ بها المزيد من الأجر: أحدها أن يستسهل المعونة مسروراً ولا يستثقلها كارهاً فيكون بنعم الله تعالى متبرماً وإحسانه متسخطاً. فقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «من عظمت نعمة الله تعالى عليه عظمت مؤونة الناس عليه» فمن لم يحتمل تلك المؤونة عرض تلك النعمة للزوال. والثاني مجانية الإستطالة وترك الإمتنان فإنهما من لؤم الطبع وضيق الصدر وفيهما هدم الصنيع وإحباط الشكر. وقد قيل للحكيم اليوناني من أضيق الناس طريقاً وأقلهم صديقاً قال: من عاشر الناس بعبوس وجهه واستطال عليهم بنفسه. والثالث أن لا يقرن بمشكور سعيه تقريعاً بذنب ولا توبيخاً على هفوة فلا يفي مضض التوبيخ بإدراك النجح ويصير الشكر وجداً والحمد عيباً ولذلك قال النبي ﷺ: «أقيلوا ذوي الهيئات عثراتهم^(١)» وقال النابغة الجعدي:

(١) عثراتهم: صغائر ذنوبهم.

ألم تعلموا أن الملامة نفعها قليل إذا ما الشيء ولى فأدبرا
وأما الإسعاف في النوائب فلأن الأيام غادرة والنوازل غائرة^(١)
والحوادث عارضة والنوائب راکضة فلا يعذر فيها إلاّ عليم ولا يستنقذه منها
إلاّ سليم وقد قال عدي بن حاتم:

كفى زاجراً للمرء أيام دهره تروح له بالواعظات وتغتدي
فإذا وجد الكريم مصاباً بحوادث دهره حثه الكرم وشكر النعم على
الإسعاف فيها بما استطاع سبيلاً إليه ووجد قدرة عليه. روي عن النبي ﷺ
أنه قال: «خير من الخير معطيه وشر من الشر فاعله» وقيل لبعض الحكماء:
هل شيء خير من الذهب والفضة قال: معطيها والإسعاف في النوائب
نوعان: واجب وتبرع. فأما الواجب فيما اختص بثلاثة أصناف وهم: الأهل
والإخوان والجيران أما الأهل فلمماسة الرحم وتعاطف النسب وقد قيل لم
يسد من احتاج أهله إلى غيره. وقال حسان بن ثابت:

وإن امرأ نال المنى لم ينل به قريباً ولا ذا حاجة لزهد
وإن امرأ عادى الرجال على الغنى ولم يسأل الله الغنى المحسود
وأما الإخوان فلمستحكم الود ومتأكد العهد. وسئل الأحنف بن قيس
عن المروءة فقال: صدق اللسان ومؤاساة الإخوان وذكر الله تعالى في كل
مكان. وقال بعض حكماء الفرس: صفة الصديق أن يبذل لك ماله عند
الحاجة ونفسه عند النكبة ويحفظك عند المغيب. ورأى بعض الحكماء
رجلين يصطحبان لا يفترقان فسأل عنهما ففيل هما صديقان فقال: ما بال
أحدهما فقير والآخر غني. وأما الجار فلدنوّ داره واتصال مزاره قال علي كرم
الله وجهه: ليس حسن الجوار كف الأذى بل الصبر على الأذى. وقال
بعض الحكماء: من أجار جاره أعانه الله وأجاره. وقال بعض البلغاء: من
أحسن إلى جاره فقد دل على حسن نجاره. وقال بعض الشعراء:

وللجار حق فاحترز من أذاته وما خير جار لم يزل لك مؤذياً

(١) غائرة: من الغارة.

فيجب من حقوق المروءة وشروط الكرم في هؤلاء الثلاثة تحمل أثقالهم وإسعافهم في نوائبهم ولا فسحة لذي مروءة عند ظهور المكنة أن يكلهم إلى غيره أو يلجئهم إلى سؤاله وليكن سائل نفسه عنهم فإنهم عيال كرمه وأضياف مروءته فكما أنه لا يحسن أن يلجئ عياله وأضيافه إلى الطلب والرغبة فهكذا من عاله كرمه وأضافته مروءته. وقال بعض الشعراء:

حق على السيّد المرجو نائله والمستجار به في العرب والعجم
أن لا ينيل الأفاصي صوب^(١) راحته حتى يخص به الأدنى من الخدم
إن الفرات^(٢) إذا جاشت^(٣) غواربه روى السواحل ثم امتد في الأمم

وأما التبرع فيمن عدا هؤلاء الثلاثة من البعداء الذين لا يدلون بنسب ولا يتعلقون بسبب، فإن تبرع بفضل الكرم وفائض المروءة فنهض في حوادثهم وتكفل بنوائبهم فقد زاد على شروط المروءة وتجاوزها إلى شروط الرياسة. وقيل لبعض الحكماء أي شيء من أفعال الناس يشبه أفعال الإله قال: الإحسان إلى الناس. وإن كف تشاغلاً بما لزم فلا لوم ما لم يلجأ إليه مضطر لأن القيام بالكل معوز والتكفل بالجميع متعذر فهذا حكم المؤازرة. وأما المياسرة فنوعان: أحدهما العفو عن الهفوات والثاني المسامحة في الحقوق. فأما العفو عن الهفوات فلأنه لا مبرأ من سهو وزلل ولا سليم من نقص أو خلل ومن رام سليماً من هفوه والتمس بريئاً من نبوه فقد تعدى على الدهر بشططه^(٤) وخادع نفسه بغلظه وكان من وجود بغيته^(٥) بعيداً وصار باقتراحه فرداً وحيداً. وقد قالت الحكماء: لا صديق لمن أراد صديقاً لا عيب فيه. وقيل لأنوشروان هل من أحد لا عيب فيه قال: من لا موت له وإذا كان الدهر لا يوجد ما طلب ولا ينيله ما أحب وكان الوحيد في الناس

(١) الصوب: بفتح وسكون الإنصباب، الراحة الكف وصوب والراحة كناية عن الجود والعطية.
(٢) الفرات: نهر الكوفة - والغوارب جمع غارب وهو ما بين الكتفين بمعنى الكاهل، وغوارب الماء، عبارة عن أعالي أمواجه -

(٣) وجاشت: فاضت.

(٤) الشطط: بفتحيتين، التباعد عن الحق.

(٥) البغية: بكسر الباء: المطلوب والحاجة.

مرفوضاً قصياً^(١) والمنقطع عنهم وحشياً لزمه مساعدة زمانه في القضاء ومياسرة إخوانه في الصفح والأغضاء. روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الله تعالى أمرني بمداواة الناس كما أمرني بأداء الفرائض». وقال بعض الأدباء: ثلاث خصال لا تجتمع إلا في كريم حسن المحضر واحتمال الزلة وقلة الملal. وقال ابن الرومي:

فعذرک مبسوط لذنب مقدّم وودّک مقبول بأهل ومرحب
ولو بلّغْتَنِي عنک أدني أقمْتُها لديّ مقامُ الكاشح^(٢) المتكذب
فلستُ بتقليب اللسان مُصارماً خليلاً إذا ما القلب لم يتقلب

وإذا كان الاغضاء حتماً والصفح كرمًا ترتب بحسب الهفوة وتنزل بقدر الذنب. والهفوات نوعان: صغائر وكبائر. فالصغائر مغفورة والنفوس بها معذورة لأن الناس مع أطوارهم المختلفة وأخلاقهم المتفاضلة لا يسلمون منها فكان الوجد فيها مطرحاً والعتب مستقبحاً. وقد قال بعض العلماء: من هجر أخاه من غير ذنب كان كمن زرع زرعاً ثم حصده في غير أوانه. وقال أبو العتاهية:

وشر الأخلاء من لم يزل يعاتب طوراً وطوراً يذم
يريك النصيحة عند اللقاء ويريك في السرّ بري القلم
وأما الكبائر فنوعان أن يهفو بها خاطياً ويذل بها ساهياً فالحرج فيها مرفوع والعتب عليها موضوع لأن هفوة الخاطيء هدر ولومه هذر^(٣). وقال بعض الحكماء: لا تقطع أخاك إلا بعد عجز الحيلة عن استصلاحه. وقال الأحنف بن قيس: حق الصديق أن تحمل له ثلاثاً: ظلم الغضب وظلم الدالة وظلم الهفوة. وحكى ابن عون أن غلاماً هاشمياً عربد على قوم فأراد عمه أن يسيء به فقال يا عم: إني قد أسأت وليس معي عقلي فلا

(١) قصياً: بعيداً.

(٢) الكاشح: مضمّر العداوة.

(٣) هذر: بفتحتين: عبث.

تسيء بي ومعك عقلك . وقال أبو نواس :

لم أؤاخذك إذ جنيت لأنني واثق منك بالإخاء الصحيح
فجميل العدو غير جميل وقبيح الصديق غير قبيح
فإن تشبه خطوة بالعمد وسهوه بالقصد تثبت ولم يلم بالتوهم فيكون
ملوماً ولا يلوم بالظن فيصير مذموماً ولذلك قيل : التثبت نصف العفو . وقال
بعض الحكماء : لا يفسدك الظن على صديق أصلحك اليقين له وقال بعض
شعراء هذيل :

فبعض الأمر تصلحه ببعض فإن الغث^(١) يحمل السمين
ولا تعجل بظنك قبل خبر فعند الخبر تنقطع الظنون
تري بين الرجال العين فضلاً وفيما أضمروا الفضل المبين
كلون الماء مشتبهاً وليست تخبر عن مذاقته العيون

والثاني أن يعتمد ما اجترم من كبائره ويقصد ما اجترح من سيئاته ولا
يخلو فيما أتاه من أربع أحوال : فالحال الأولى أن يكون موتوراً قد قابل على
وترته وكافاً على مساءته فاللائمة على من وتره عائدة وإلى البادئ بها راجعة
لأن المكافى أعذر وإن كان الصفح أجمل ولذلك قال النبي ﷺ : «إياكم
والمشاركة^(٢) فإنها تميت الغرة^(٣) وتحيي الغرة^(٤)» . وقال بعض الحكماء : من
فعل ما شاء لقي ما لم يشأ . وقال بعض الأدباء : من نالته إساءتك همه
مساءتك وقال بعض البلغاء : من أولع بقبح المعاملة أوجع بقبح المقابلة .
وقال صالح بن عبد القدوس :

إذا وترت أمراً فاحذر عدواته من يزرع الشوك لا يحصد به عنباً
إن العدو وإن أبدى مسالمة إذا رأى منك يوماً فرصة وثباً

(١) الغث : يقال ضأن غث أي مهزول .

(٢) ومشاركة الناس : من الشر .

(٣) الغرة : الصفات والأعمال الصالحة المشبهة بغزة الفرس .

(٤) الغرة : بعين مهملة مضمومة : القدر .

والاغضاء عن هذا أوجب وإن لم تكن المكافأة ذنباً لأنه قد رأى عقيب إساءته فإن واصل الشر واصلته المكافأة. وقد قيل: باعتزالك الشر يعتزلك ويحسن النُصفه^(١) يكون المواصلون. وقال بعض الحكماء: من كنت سبباً لبلائه وجب عليك التلطف له في علاجه من دائه. وقد قال أوس ابن حجر:

إذا كنت لم تعرض عن الجهل والخنا أصبت حليماً أو أصابك جاهل
والحال الثانية أن يكون عدوّاً قد استحكمت شحناؤه واستوعرت^(٢) سراؤه
واستخشنت ضراؤه فهو يتربص بدوائر السوء انتهازاً فُرصه ويتجرع بهمانه
العجز مرارة غُصَصِه فإذا ظفر بنائبة ساعدها وإذا شاهد نعمة عاندها فالبعد
منه حذراً اسلم والكف عنه متاركة أغنم فإنه لا يسلم من عواقب شره ولا
يفلت من غوائل مكره. وقد قالت الحكماء: لا تَعْرِضْ لعدوك في دولتك فإذا
زالت كفيت شره. وقال لقمان لابنه: يا بني كذب من قال إن الشر بالشر
يطفاً فإن كان صادقاً فليوقد نارين ولينظر هل تطفىء أحدهما الأخرى وإنما
يطفىء الخير الشر كما يطفىء الماء النار. وقال جعفر بن محمد: كفاك من
الله نصراً أن ترى عدوك يعصي الله فيك. وقال بعض الحكماء: بالسيرة
العادلة يقهر المعادي وقال البحري:

وأقسم لا أجزيك بالشر مثله كفى بالذي جازيتني لك جازيا
والحال الثالثة أن يكون لئيم الطبع خبيث الأصل قد أغراه لؤم الطبع
على سوء الاعتقاد وبعثه خبث الأصل على إتيان الفساد فهو لا يستقبح الشر
ولا يكف عن المكروه فهذه الحالة أطم^(٣) لأن الإضرار بها أعم ولا سلامة من
مثله إلاّ بالبعد والانقباض ولا خلاص منه إلاّ بالصفح والاعراض فإنه كالسبع
الضاري في سوارح الغنم وكالنار المتأججة في يابس الحطب لا يقر بها إلاّ
تألف ولا يدنو منها إلاّ هالك. روى مكحول عن أبي أمامة رضي الله عنه

(١) النُصفه: اسم من أنصفه، أي عامله بالعدل والقسط.

(٢) واستوعرت: الوعر: ضد السهل.

(٣) أطم: أشد طامة وداهية من طم الشيء إذا كثر حتى علا وغلب.

عن النبي ﷺ أنه قال: «الناس كشجرة ذات جنى»^(١) ويوشك أن يعودوا كشجرة ذات شوك إن ناقدتهم^(٢) ناقدوك وإن هربت منهم طلبوك وإن تركتهم لم يتركوك قيل يا رسول الله وكيف المخرج قال: أقرضهم من عرضك ليوم فافتك». وقال عبد الله بن العباس: العاقل الكريم صديق كل أحد إلا من ضره والجاهل اللئيم عدو كل أحد إلا من نفعه وقال: شر ما في الكريم أن يمنعك خيره وخير ما في اللئيم أن يكف عنك شره. وقال بعض البلغاء: أعداؤك داؤك وفي البعد عنهم شفاؤك. وقال بعض البلغاء: شرف الكريم تغافله عن اللئيم. ووصى بعض الحكماء ابنه فقال: يا بني إذا سلم الناس منك فلا عليك أن لا تسلم منهم فإنه كلما أجمعت هاتان النعمتان. وقال عبد المسيح بن نفيلة:

الخير والشر مقرونان في قرن فالخير متبع والشر محذور
والحال الرابعة أن يكون صديقاً قد استحدث نبوة وتغيراً أو أخاً قد استجد جفوة وتنكراً فأبدي صفحه عقوقه وأطرح لازم حقوقه وعدل عن بر الأخاء إلى جفوة الأعداء فهذا قد يعرض في المودات المستقيمة كما تعرض الأمراض في الأجسام السليمة فإن عولجت أقلعت وإن أهملت أسقمت ثم أتلفت ولذلك قالت الحكماء: دواء المودة كثرة التعاهد. وقال كشاجم:

أقل ذا الودّ عشرته وقفه على سنن الطريق المستقيمة
ولا تسرع بمعتبه إلية فقد يهفو ونيته سليمة

ومن الناس من يرى أن متاركة الإخوان إذا نفروا أصلح وإطراحهم إذا فسدوا أولى كأعضاء الجسد إذا فسدت كان قطعها أسلم فإن شح بها سرت إلى نفسه وكالثوب إذا خلق كان إطراحه بالجديد له أجمل. وقد قال بعض الحكماء: رغبتك فيمن يزهد فيك ذل نفس وزهدك فيمن يرغب فيك صغر همة. وقد قال بزرجمهر: من تغير عليك في مودته فدعه حيث كان قبل معرفته. وقال نصر بن أحمد:

(١) جنى: ثمر.

(٢) المناقذة: التدقيق والاستقصاء في المحاسبة.

صل من دنا وتناس من بعدا لا تكرهنّ على الهوى أحدا
قد أكثرت حواء إذ ولدت فإذا جفا ولد فخذ ولدا

فهذا مذهب من قل وفاؤه وضعف إخاؤه وساءت طرائقه وضافت
خلائقه ولم يكن فيه فضل الإحتمال ولا صبر على الإدلال فقابل على الجفوة
وعاقب على الهفوة واطرح سالف الحقوق وقابل العقوق بالعقوق فلا بالفضل
أخذ ولا إلى العفو أخذ وقد علم أن نفسه قد تطغي عليه فترديه وأن جسمه
قد يسقم عليه فيؤلمه ويؤذيه وهما أخص به وأحنى عليه من صديق قد تميز
بذاته وانفصل بأدواته فيريد من غيره لنفسه ما لا يجده من نفسه لنفسه هذا
عين المحال ومحض الجهل مع أن من لم يحتمل بقي فرداً وانقلب الصديق
فصار عدوّاً وعداوة من كان صديقاً أعظم من عداوة من لم يزل
عدوّاً ولذلك قال النبي ﷺ: «أوصاني ربي بسبع الإخلاص في السر
والعلانية وأن أعفو عمن ظلمني وأعطي من حرمني وأصل من قطعني وأن
يكون صمتي فكراً ونطقي ذكراً ونظري عبرة». وقال لقمان لأبنه: يل بني لا
ترك صديقك الأول فلا يطمئن إليك الثاني يا بني إتخذ ألف صديق والألف
قليل ولا تتخذ عدوّاً واحداً والواحد كثير. وقيل للمهلب بن أبي صفرة ما
تقول في العفو والعقوبة قال: هما بمنزلة الجود والبخل فتمسك بأيهما
شئت. وأنشد ثعلب:

إذا أنت لم تستقبل الأمر لم تجد بكفيك في إدباره متعلقا
إذا أنت لم تترك أخاك وزلة إذا زلها أوشكتما أن تفرقا

فإذا كان الأمر على ما وصفت فمن حقوق الصفع الكشف عن سبب
الHFة ليعرف الداء فيعالجه فإن من لم يعرف الداء لم يقف على الدواء.
كما قد قال المتنبي:

فإن الجرح ينغر بعد حين إذا كان البناء على فساد
وإذا كان ذلك كذلك فلا يخلو حال السبب من أن يكون لملل أو زلل
فإن كان لملل فموذات الملول ظل الغمام وحلم النيام. وقد قيل في مثير
الحكم: لا تأمن لملول وإن تحلى بالصلة وعلاجه أن يترك عنى ملله فيمل

الجفاء كما مل الإخاء. وإن كان لزلل لوحظت أسبابه فإن كان لها مدخل في التأويل وشبهة تؤول إلى جميل حملة على أجمل تأويل وصرفه إلى أحسن جهة كالذي حكى عن خالد بن صفوان أنه مرّ به صديقان له فعرج عليه أحدهما وطواه الآخر فقبل له في ذلك فقال: نعم عرج علينا هذا بفضلنا وطوانا ذلك بثقتنا بنا. وأنشد بعض أهل الأدب لمحمد بن داود الأصفهاني:

وتزعم للواشين أني فاسد عليك وأنني لست فيما عهدتني
وما فسدت لي يعلم الله نية علك ولكن ختنتي فاتهمتني
غدرت بعهدي عامداً وأخفتني فخفت ولو آمنتني لآمنتني

وإن لم يكن لزلله في التأويل مدخل نظر حاله بعد زلله فإن ظهر ندمه وبان خجله فالندم توبة والخجل إنابة ولا ذنب لتائب ولا لوم على منيب ولا يكلف عذراً عما سلف فيلجأ إلى ذل التحريف أو خجل التعنيف ولذلك قال النبي ﷺ: «إياكم والمعاذر فإن أكثرها مفاجر» وقال علي رضي الله عنه: كفى بما يعتذر منه تهمة. وقال مسلم بن قتيبة لرجل اعتذر إليه: لا يدعونك أمر قد تخلصت منه إلى الدخول في أمر لعلك لا تخلص منه. وقال بعض الحكماء: شفيح المذنب إقراره وتوبته اعتذاره. وقال بعض البلغاء: من لم يقبل التوبة عظمت خطيئته ومن لم يحسن إلى التائب قبحت إساءته. وقال بعض الحكماء: الكريم من أوسع المغفرة إذا ضاقت بالذنب المعذرة. وقال بعض الشعراء:

العذر يلحقه التحريف والكذب وليس في غير ما يرضيك لي أرب
وقد أسأت فبالنعمى التي سلفت إلّا مننت بعفو ما له سبب

وإن عجل العذر قبل توبته وقدم التئصل قبل إناته فالعذر توبة والتئصل إنابة فلا يكشف عن باطن عذره ولا يعنف بظاهر غدره فيكون لثيم الظفر سيء المكافأة. وقد قيل: من غلبته الحدة فلا تغتر بمودته. وقال بعض الحكماء: شافع لمذنب خضوعه إلى عذره. وقال بعض الشعراء:

إقبل معاذير من يأتيك معتذراً ان برّ عندك فيما قال أو فجرا

فقد أطاعك من يرضيك ظاهره وقد أجلك من يعصيك مستترا وإن ترك نفسه في زلله ولم يتداركه بعذره وتنصله ولا محاه بتوبته وإنابته راعيت حاله في المتاركة فستجده لا ينفك فيها من أمور ثلاثة أحدها أن يكون قد كف عن سيء عمله وأقلع عن سالف زلله فالكف إحدى التوبتين والاقلاع أحد العذرين فكن أنت المعتذر عنه بصفحك والمتنصل له بفضلك. فقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: المحسن على المسيء أمير. والثاني أن يكون قد وقف على ما أسلف من زلله غير تارك ولا متجاوز فوقوف المرض أحد البرئين وكفه عن الزيادة إحدى الحسينين^(١) وقد استبقى بالوقوف عن التجاوز أحد شطريه فعول به على صلاح شطره الآخر وإياك وإرجاءه فإن الأرجاء يفسد شطر صلاحه والتلافي يصلح شطر فساده فإن من سقم من جسمه ما لم يعالجه سرى السقم إلى صحته وإن عالجه سرت الصحة إلى سقمه. والثالث أن يتجاوز مع الأوقات فيزيد فيه على مرور الأيام فهذا هو الداء العضال^(٢) فإن أمكن استدراكه وتأتي استصلاحه وذلك باستنزاله عنه إن علا وبإرغابه إن دنا ويعتبه إن ساوى وإلا فأخر الداء العياء الكي ومن بلغت به الأعذار إلى غايتها فلا لائمة عليه والمقيم على شقاؤه باغ مصروع. وقد قيل: من سل سيف البغي أغمدته في رأسه فهذا شرط. وأما المسامحة في الحقوق فلأن الاستيفاء موحش والاستقصاء منفر ومن أراد كل حقه من النفوس المستصعبة بشح أو طمع لم يصل إليه إلا بالمنافرة والمشاقة ولم يقدر عليه إلا بالمخاشنة والمشاقة لما استقر في الطباع من مقت من شاقها ونافرها وبغض من شاحها ونازعها كما استقر حب من ياسرها وسامحها فكان أليق لأمر المروءة استلطاف النفوس بالمياسرة والمسامحة وتآلفها بالمقاربة والمساهلة. قال بعض الحكماء: من عاشر إخوانه بالمسامحة دامت له موداتهم. وقال بعض الأدباء: إذا أخذت عفو القلوب زكا ريعك^(٣) وإن استقصيت أكديت. والمسامحة نوعان في عقود

(١) إحدى الحسينين: تشية حسنى.

(٢) الداء العضال: على وزن غراب المرض المشكل الذي يعجز الأطباء.

(٣) زكا ريعك: غما زرعك وكثر ربحك.

وحقوق فأما العقود فهو أن يكون فيها سهل المناجزة قليل المحاجزة^(١) مأمون الغيبة بعيداً من المكر والخديعة. روي عن النبي ﷺ أنه قال: «أجملوا»^(٢) في طلب الدنيا فإن كلا ميسر لما كتب له منها». وقال ﷺ: «ألا أدلكم على شيء يحبه الله تعالى ورسوله قالوا بلى يا رسول الله قال التغابن للضعيف». وحكى ابن عون أن عمر بن عبيد الله اشترى للحسن البصري إزاراً بسته دراهم ونصف فأعطى التاجر سبعة دراهم فقال ثمنه ستة دراهم ونصف فقال إني اشتريته لرجل لا يقاسم أخاه درهماً. ومن الناس من يرى أن المساهلة في العقود عجز وأن الاستقصاء فيها حزم حتى أنه لينافس في الحقير وإن جاد بالجليل الكثير كالذي حكى عن عبد الله بن جعفر وقد ماكس^(٣) في درهم وهو وجود بما وجود به فقيل له في ذلك فقال: ذلك مالي أجود به وهذا عقلي بخلت به. وهذا إنما يسوغ من أهل المروءة في دفع ما يخادعهم به الأدياء ويغابنهم به الأشحاء وهكذا كانت حال عبد الله بن جعفر. فأما مماكسة الإستنزال والاستسماح فكلما لأنه مناف للكرم ومباين للمروءة. وأما الحقوق فتتنوع المسامحة فيها نوعين: أحدهما في الأحوال والثاني في الأموال. فأما المسامحة في الأحوال فهي إطراح المنازعة في الرتب وترك المنافسة في التقدّم فإن مشاحة النفوس فيها أعظم والعناد عليها أكثر فإن سامح فيها ولم ينافس كان مع أخذه بأفضل الأخلاق واستعماله لأحسن الآداب أوقع في النفوس من أفضاله برغائب الأموال ثم هو أزيد في رتبته وأبلغ في تقدّمه وإن شاح فيها ونازع كان مع ارتكابه لأخشن الأخلاق واستعماله لأهجن الآداب أنكى في النفوس من حدّ السيف وطعن السنان ثم هو أخفض للمرتبة وأمنع من التقدّم. حكى أن فتى من بين هاشم تخطى رقاب الناس عند ابن أبي داود فقال: يا بني إن الآداب ميراث الأشراف ولست أرى عندك من سلفك إراثاً. وأما المسامحة

(١) المحاجزة: الممانعة.

(٢) أجملوا في الطلب: اطلبوا الرزق طلباً جميلاً، بأن تحسنوا السعي بلا كد ولا تكالب.

(٣) ماكس: المماكسة الحرص والصفة في البيع والشراء.

في الأموال فتتنوع ثلاثة أنواع: مسامحة إسقاط لعدم ومسامحة تخفيف لعجز ومسامحة إنكار لعسرة وهي مع اختلاف أسبابها تفضل ماثور وتآلف مشكور وإذا كان الكريم قد يوجد بما تحويه يده وينفذ فيه تصرفه كان أولى أن يوجد بما خرج عن يده فطاب نفساً بفراقه. وقد تصل المسامحة في الحقوق إلى من لا يقبل البر ويأبى الصلة فيكون أحسن موقعاً وأزكى محلاً وربما كانت المسامحة فيها آمن من ردّ السائل ومنع المجتدي لأن السائل كما اجترأ على سؤالك فسيجترئ على سؤال غيرك إذ رددته وليس كل من صار أسير حقك ورهين دينك يجد بداً من مسامحتك ومياسرتك ثم لك مع ذلك حسن الشاء وجزيل الأجر. وقال محمود الوراق رحمه الله:

المرء بعد الموت أحوثة يفتنى وتبقى منه آثاره
فأحسن الحالات حال امرئ تطيب بعد الموت أخباره

فهذه حاك المياسرة. وأما الافضال فنوعان: إفضال اصطناع وإفضال استكفاف ودفاع، فأما إفضال الإصطناع فنوعان: أحدهما ما أسداه جوداً في شكور والثاني ما تآلف به نبوة نفور وكلاهما من شروط المروءة لما فيهما من ظهور الإصطناع وتكاثر الأشياء والأتباع ومن قلت صنائعه في الشاكرين وأعرض عن تآلف النافرين كان فرداً مهجوراً وتابعاً محقوراً ولا مروءة لمتروك مطرح ولا قدر لمحقور مهتضم. وقال عمر بن عبد العزيز ما طاوعني الناس على شيء أردته من الحق حتى بسطت لهم طرفاً من الدنيا. وقال بعض الحكماء: أقل ما يجب للمنعم بحق نعمته أن لا يتوصل بها إلى معصيته. وأنشدت لبعض الأعراب:

من جمع المال ولم يجده وترك المال لعام جده
هان على الناس هوان كلبه

وقال اسحق بن^(١) إبراهيم الموصلي:

يبقى الشاء وتذهب الأموال ولكل دهر دولة ورجال

(١) اسحق الموصلي: أطبع المغنين التأخرين، كما أن معبد بن وهب أطبع المغنين المتقدمين، كان محل اسحق من العلم والأدب والرواية وتقدمه في الشعر وسائر المحاسن أشهر من أن

ما نال محمداً الرجال وشكرهم إلا الجواد بماله المفضل
لا ترض من رجل حلاوة قوله حتى يصدق ما يقول فعال
فإن ضاقت به الحال عن الاصطناع بماله فقد عدم من آلة المكارم
عمادها وفقد من شروط المروءة سنادها فليواس بنفسه مواساة المسعف^(١)
وليسعد بها إسعاد المتألف. قال المتنبي:

فليسعد النطق إن لم تسعد الحال

وإن كان لا يراها وإن أجهدا إلا تبعاً للمفضلين قليلة بين الكثيرين
فإن الناس لا يساوون بين المعطي والمنع ولا يقنعهم القول دون الفعل ولا
يغنيهم الكلام عن المال ويرونه كالصدي إن ردّ صوتاً لم يجد نفعاً كما قال
الشاعر:

يجود بالوعد ولكنه يدهن من قارورة فارغة
فكل ما خرج عندهم عن المال كان فارغاً وكل ما عدا الإفضال به
كان هيناً وقد قدّمنا من القول في شروط الإفضال ما أقنع. وأما إفضال
الإستكفاف فلأن ذا الفضل لا يعدم حاسد نعمة ومعاند فضيلة يعتريه الجهل
بإظهار عناده ويبيعه اللؤم على البذاء بسفهه فإن غفل عن إستكفاف السفهاء
وأعرض عن استدفاع أهل البذاء صار عرضه هدفاً للمثالب^(٢) وحاله عرضة
للنوائب وإذا استكف السفه واستدفع البذي صان عرضه وحمى نعمته. وقد
روى عن النبي ﷺ أنه قال: «ما وقى به المرء عرضه فهو صدقة» وقالت
عائشة رضي الله عنها: ذبّوا بأموالكم عن أحسابكم. وامتدح رجل الزهري
فأعطاه قميصه فقال له رجل: أعطني على كلام الشيطان فقال: من ابتغى
الخير اتقى الشر ولذلك قال النبي ﷺ: «من أراد بر الوالدين فليعط
الشعراء» وهذا صحيح لأن الشعر سائر يستر به ما ضمن من مدح أو هجاء

= يوصف، وأما الغناء فكان أصغر علومه وأدنى ما وسم به، وكان أجود الناس بالمال، وأغلبهم
بالغناء، ومات وهو أشعر أهل زمانه.

(١) المسعف: المصافي والمعادن.

(٢) للمثالب: جمع مثلبة، بفتح الميم وفتح اللام وضمها: اسم للخصلة التي يلام بها ويعاب
عليها. ضد لمنقبة.

ومن أجل ذلك قيل: لا تؤاخ شاعراً فإنه يمدحك بشمن ويهجوك مجاناً. ولاستكفاف السفهاء بالافضال شرطان: أحدهما أن يخفيه حتى لا تنتشر فيه مطاعم السفهاء فيتوصلوا إلى اجتذابه بسبه وإلى ماله بثلبه^(١). والثاني أن يتطلب له في المجاملة وجهاً ويجعله في الإفضال عليه سبباً لئلا يرى أنه على السفه واستدامة البذاء. واعلم أنك ما حييت ملحوظ المحاسن محفوظ المساوىء ثم من بعد ذلك حديث منتشر لا يراقبك صديق ولا يحامي عنك شقيق فكن أحسن حديث ينشر يكن سعيك في الناس مشكوراً وأجرك عند الله مذكوراً. فقد روى زياد بن^(٢) الجراح عن عمر بن ميمون أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «اغتنم^(٣) خمسا قبل خمس: شبابك قبل هرمك وصحتك قبل سقمك وغناك قبل فقرك وفراغك قبل شغلك وحياتك قبل موتك» فهذا ما اقتضاه هذه الفصل من شروط المروءة وإن كان كل كتابنا هذا من شروطها وما اتصل بحقوقها والله سبحانه وتعالى أعلم.

(الفصل الثامن في آداب مثورة) إعلم أن الآداب مع اختلافها بتنقل الأحوال وتغير العادات لا يمكن استيعابها ولا يقدر على حصرها وإنما يذكر كل إنسان ما بلغه الوسع من آداب زمانه واستحسن بالعرف من عادات دهره ولو أمكن ذلك لكان الأول قد أغنى الثاني عنها والمتقدم قد كفى المتأخر تكلفها وإنما حظ الأخير أن نتغنى حفظ الشارد وجمع المفترق ثم بعرض ما تقدم على حكم زمانه وعادات وقته فيثبت ما كان موافقاً وينفي ما كان مخالفاً ثم يستمدّ خاطره في استنباط زيادة واستخراج فائدة فإن أسعف بشيء فاز بدركه وحظي بفضيلته ثم يعبر عن ذلك كله بما كان مألوفاً من كلام الوقت وعرف أهله فإن لأهل كل وقت في الكلام عادة تؤلف وعبرة تعرف ليكون أوقع في النفوس وأسبق إلى الأفهام ثم يرتب ذلك على أوائله ومقدماته ويثبت على أصوله وقواعده حسب ما يقتضيه الجنس فإن لكل نوع

(١) بثلبه: بذمه وقدهه.

(٢) زياد بن الجراح: هو أبو عبد الله الكوفي، أدرك زمن النبي ﷺ، ولم يلقه، وحجّ مائة حجة وعمرة، وأدى صدقته إلى عمال رسول الله ﷺ، وهو الذي رأى قردة، زنت في الجاهلية، فاجتمعت القردة فرجوها.

(٣) اغتنم خمساً: الحديث مرسل من طريقه، رواه: الحاكم عن أبي عباس.

من العلوم طريقة هي أوضح مسلكاً وأسهل مأخذاً فهذه خمسة شروط هي حظ الأخير فيما يعانیه وكذلك القول في كل تصنيف مستحدث ولولا ذلك لكان تعاطي ما تقدم به الأول عناء ضائعاً وتكلفاً مستهجنأ ونرجو الله أن بمدنا بالتوفيق لتأدية هذه الشروط وتنهضنا المعونة بتوفية هذه الحقوق حتى نسلم من ذم التكليف ونبرأ من عيوب التقصير وإن كان اليسير مغفوراً والخطيء معذوراً فقد قيل من صنف كتاباً فقد استهدف فإن أحسن فقد استعطف وإن أساء فقد استقذف وقد مضت أبواب تضمنت فصولاً رأيت اتباعها بما لا أحب الإخلال به . فمن ذلك حال الإنسان في مأكله ومشربه فإن الداعي إلى ذلك شيثان حاجة ماسة وشهوة باعثة . فأما الحاجة فتدعو إلى ما سدّ الجوع وسكن الظمأ وهذا مندوب إليه عقلاً وشرعاً لما فيه من حفظ النفس وحراسة الجسد ولذلك ورد الشرع بالنهي عن الوصال بين صوم اليومين لأنه يضعف الجسد ويميت النفس ويعجز عن العبادة وكل ذلك يمنع منه الشرع ويدفع عنه العقل وليس لمن منع نفسه قدر الحاجة حظ من بر ولا نصيب من زهد لأن ما حرمها من فعل الطاعات بالعجز والضعف أكثر ثواباً وأعظم أجراً إذ ليس في ترك المباح ثواب يقابل فعل الطاعات وإتيان القرب ومن أخسر نفسه ربحاً موفوراً أو حرمها أجراً مذخوراً كان زهده في الخير أقوى من رغبته ولم يبق عليه من هذا التكليف إلا الشهوة بريائه وسمعته . وأما الشهوة فتتنوع نوعين شهوة في الإكثار والزيادة وشهوة في تناول الألوان اللذيذة فأما النوع الأول وهو شهوة الزيادة على قدر الحاجة والإكثار على مقدار الكفاية فهو ممنوع منه في العقل والشرع لأن تناول ما زاد على الكفاية نهم معر^(١) وشره مضر . وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال «إياكم والبطننة فإنها مفسدة للدين مورثة للسقم مكسلة عن العبادة» وقال علي رضي الله عنه إن كنت بطناً فعذ نفسك زمناً . وقال بعض البلغاء أقلل طعاماً تحمد مناماً . وقال بعض الأدباء الرغب لؤم والنهم شؤم . وقال بعض الحكماء أكبر الدواء تقديّة الغذاء . وقال بعض الشعراء :

(١) معر: معز .

فكم من لقمة منعت أخاها بلذة ساعة أكلت دهر
وكم من طالب يسعى لأمر وفيه هلاكه ولو كان يدري
وقال آخر

كم دخلت أكلة حشا شره فأخرجت روحه من الجسد
لا بارك الله في الطعام إذا كان هلاك النفوس في المعد

ورب أكلة هاضت^(١) الأكل وحرمته مآكل. روى أبو يزيد المدني عن
عبد الرحمن بن المرقع قال قال رسول الله ﷺ إن الله لم يخلق وعاء
ملئ شراً من بطن فإن كان لا بد فاعلاً فاجعلوا ثلثاً للطعام وثلثاً للشراب
وثلثاً للريح. وأما النوع الثاني وهو شهوة الأشياء اللذيذة ومنازعة النفوس إلى
طلب الأنواع الشهية فمذاهب الناس في تمكين النفس منها مختلفة فمنهم
من يرى أن صرف النفس عنها أولى وقهرها عن اتباع شهواتها أخرى لئلا
له قيادها ويهون عليه عنادها لأن تمكينها وما تهوى بطر يطغي وأشر يردي
لأن شهواتها غير متناهية فإذا أعطاها المراد من شهوات وقتها تعدتها إلى
شهوات قد استحدثتها فيصير الإنسان أسير شهوات لا تنقضي وعبد هوى لا
ينتهي ومن كان بهذه الحال لم يرج له صلاح ولم يوجد فيه فضل. وأنشدت
لأبي الفتح البستي:

يا خادم الجسم كم تشقى بخدمته لتطلب الربح مما فيه خسران
أقبل على النفس واستكمل فضائلها فأنت بالنفس لا بالجسم إنسان

وللحذر من هذه الحال ما حكى أن أبا(٢) حزم رحمه الله كان يمرّ
على الفاكهة فيشتتها فيقول موعذك الجنة. وقال آخر تمكين النفس من
لذاتها أولى وإعطاؤها ما اشتتهت من المباحات أخرى لما فيه من ارتياح
النفس بنيل شهواتها ونشاطها بإدراك لذاتها فتتحسر عنها ذلة المقهور وبلادة المجبور
ولا تقصر عن درك ولا تعصي في نهضة ولا تكل عن استعانة. وقال آخرون
بل توسط الأمرين أولى لأن في إعطائها كل شهواتها بلادة والنفس البليدة

(١) هاضت: أضعفت، وادخلت عليه هبضة، وهي القيء والاسهال.

(٢) أبا حازم. الأعرج.

عاجزة وفي منعها عن البعض كف لها عن السلاطة وفي تمكينها من البعض حسم لها عن البلادة وهذا لعمرى أشبه المذاهب بالسلام لأن التوسط في الأمور أحمد. وإذا قد مضى الكلام في المأكول والمشروب فينبغي أن يتبع بذكر الملبوس.

اعلم أن الحاجة وإن كانت في المأكول والمشروب ادعى فهي إلى الملبوس ماسة وبها إليه فاقة لما في الملبوس من حفظ الجسد ودفع الأذى وستر العورة وحصول الزينة. قال الله تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسَ التَّقْوَىٰ ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ فمعنى قوله أنزلنا عليكم لباساً أي خلقنا لكم ما تلبسون من الثياب يوارى سوءاتكم أي يستر عوراتكم وسميت العورة سوءة لأنه يسوء صاحبها إنكشافها من جسده وقوله وريشاً فيه أربعة تأويلات: أحدها أنه المال وهو قول مجاهد. والثاني أنه اللباس والعيش والنعم وهو قول ابن عباس رضي الله عنهما. والثالث أنه المعاش وهو قول معبد الجهني. والرابع أنه الجمال وهو قول عبد الرحمن ابن زيد. وقوله ولباس التقوى فيه ستة تأويلات. أحدها أن لباس التقوى هو الإيمان وهو قول قتادة والسدي. والثاني أنه العمل الصالح وهو قول ابن عباس رضي الله عنهما. والثالث أنه السمت الحسن وهو قول عثمان بن عفان رضي الله عنه. والرابع هو خشية الله تعالى وهو قول عروة بن الزبير. والخامس أنه الحياء وهذا قول معبد الجهني. والسادس هو ستر العورة وهذا قول عبد الرحمن بن زيد. وقوله ذلك خير فيه تأويلان. أحدهما أن ذلك راجع إلى جميع ما تقدّم من قوله قد أنزلنا عليكم لباساً يوارى سوءاتكم وريشاً ولباس التقوى ثم قال ذلك خير أي ذلك الذي ذكرته خير كله. والثاني أن ذلك راجع إلى لباس التقوى ومعنى الكلام أن لباس التقوى خير من الرياش واللباس وهذا قول قتادة والسدي فلما وصف الله تعالى حال اللباس وأخبره مخرج الإمتنان علم أنه معونة منه لشدة الحاجة إليه. وإذا كان كذلك ففي اللباس ثلاثة أشياء: أحدها دفع الأذى. والثاني ستر العورة. والثالث الجمال والزينة. فأما دفع الأذى به فواجب بالعقل لأن العقل يوجب دفع المضار واجتلاب المنافع وقد قال الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ

لكم مما خلق ظلالاً وجعل لكم من الجبال أكنناً وجعل لكم سراويل تقيكم الحرّ وسراويل تقيكم بأسكم ﴿ فأخبر بحالها ولم يأمر بها اكتفاء بما يقتضيه العقل واستغناء بما يبعث عليه الطبع ويعني بالظلال الشجر وبالأكنان جمع كن وهو الموضع الذي يستكن فيه ويعني بقوله سراويل تقيكم الحرّ ثياب القطن والكتان والصوف وبقوله وسراويل تقيكم بأسكم الدروع التي تقي البأس وهو الحرب. فإن قيل كيف قال تقيكم الحرّ ولم يذكر البرد وقال جعل لكم من الجبال أكنناً ولم يذكر السهل فعن ذلك جوابان أحدهما أن القوم كانوا أصحاب جبال وخيام فذكر لهم الجبال وكانوا أصحاب حرّ دون برد فذكر له معتمته عليهم فيما هو مختص بهم وهذا قول عطاء. والجواب الثاني أنه اكتفاء بذكر أحدهما عن ذكر الآخر إذ كان معلوماً أن السراويل التي تقي الحر أيضاً تقي البرد من اتخذ من الجبال أكنناً اتخذ من السهل وهذا قول الجمهور. وأما ستر العورة فقد اختلف الناس فيه هل وجب بالعقل أو بالشرع؟ فقالت طائفة وجب سترها بالعقل لما في ظهورها من القبح وما كان قبيحاً فالعقل مانع منه ألا ترى أن آدم وحواء لما أكلا من الشجرة التي نهاها عنها بدت لهما سوءاتهما وطفقا يخرصان عليهما من ورق الجنة تنبها بعقولهما لستر ما رآياه مستقبلاً من سوءاتهما لأنهما لم يكونا قد كلفا ستر ما لم يبد لهما ولا كلفاه بعد أن بدت لهما وقبل سترها. وقالت طائفة أخرى بل ستر العورة واجب بالشرع لأنه بعض الجسد الذي لا يوجب العقل ستر باقيه وإنما اختصت العورة بحكم شرعي فوجب أن يكون ما يلزم من سترها حكماً شرعياً. وقد كانت قریش وأكثر العرب مع ما كانوا عليه من وفور العقل وصحة الألباب يطوفون بالبيت عراة ويحرّمون على نفوسهم اللحم والودك ويرون ذلك أبلغ في القرية وإنما القرب ما استحسنت في العقل حتى أنزل الله تعالى: ﴿يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل (^١) مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين﴾ يعني بقوله خذوا زينتكم الثياب التي تستر عوراتكم وكلوا واشربوا ما حرّمتموه على أنفسكم من اللحم

(١) عند كل مسجد: عند كل صلاة أو طواف.

والودك. وفي قوله تعالى ولا تسرفوا تأويلان: أحدهما لا تسرفوا في التحريم وهذا قول السدي. والثاني لا تأكلوا حراماً فإنه إسراف وهذا قول ابن زيد فأوجب بهذه الآية ستر العورة بعد أن لم يكن العقل موجباً له فدل ذلك على أن سترها وجب بالشرع دون العقل. وأما الجمال والزينة فهو مستحسن بالغرف والعادة من غير أن يوجب عقل أو شرع وفي هذا النوع قد يقع التجاوز والتقصير. والتوسط المطلوب فيه معتبر من وجهين: أحدهما في صفة الملبوس وكيفيته والثاني في جنسه وقيمه. فأما صفته فمعتبرة بالعرف من وجهين أحدهما عرف البلاد فإن لأهل المشرق زياً مألوفاً ولأهل المغرب زياً مألوفاً وكذلك لما بينهما من البلاد المختلفة عادات في اللباس مختلفة والثاني عرف الأجناس فإن للأجناد زياً مألوفاً وللتجار زياً مألوفاً وكذلك لمن سواهما من الأجناس المختلفة عادات في اللباس وإنما اختلفت عادات الناس في اللباس من هذين الوجهين ليكون اختلافهم سمة يتميزون بها وعلامة لا يخفون معها فإن عدل أحد عن عرف بلده وجنسه كان ذلك منه خرقاً وحمقاً ولذلك قيل العري الفادح خير من الزي الفاضح. وأما جنس الملبوس وقيمه فمعتبر من وجهين أحدهما بالمكة من اليسار والإعسار فإن للموسر في الزي قدراً وللمعسر دونه والثاني بالمنزلة والحال فإن لذي المنزلة الرفيعة في الزي قدراً وللمنخفض عنه دونه ليتفاضل فيه على حسب تفاضل أحوالهم فيصيروا به متميزين فإن عدل الموسر إلى زي المعسر كان شحاً وبخلاً وإن العدل الرفيع إلى زي الدنيء كان مهانة وذلاً وإن عدل المعسر إلى زي الموسر كان تبذيراً وسرفاً وإن عدل الدنيء إلى زي الرفيع كان جهلاً وحمقاً ولزوم العرف المعهود واعتبار الحد المقصود أدل على العقل وأمنع من الذم ولذلك قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: إياكم لبستين لبسة مشهورة ولبسة محقورة. وقال بعض الحكماء: البس من الثياب ما لا يزدريك فيه العظماء ولا يعيبه عليك الحكماء. وقال بعض الشعراء:

إن العيون رمتك إذ فاجأتها وعليك من شهر الثياب لباس
أما الطعام فكل لنفسك ما تشاء واجعل لباسك ما اشتهاه الناس
واعلم أن المروءة أن يكون الإنسان معتدل الحال في مراعاة لباسه من

غير إكثار ولا إطراح فإن إطراح مراعاتها وترك تفقدها مهانة وذل وكثرة مراعاتها وصرف الهمّة إلى العناية لها دناءة ونقص وربما توهم بعض من خلا من فضل وعري عن تمييز أن ذلك هو المروءة الكاملة والسيرة الفاضلة لما يرى من تميزه بذلك عن الأكثرين وخروجه عن جملة العوام المسترذلين وخفي عليه أنه إذا تعدّى طوره وتجاوز قدره كان أقبح لذكره وأبعث على ذمه فكان كما قال المتنبي :

لا يُعجِبُنْ مضيماً حَسَنُ بَزَّتِهِ وهل يروق دفيناً جودة الكفن
وحكى المبرد أن رجلاً من قريش كان إذا اتسع لبس أرث ثيابه وإذا ضاق لبس أحسنها ف قيل له في ذلك إذا اتسعت تزينت الجود وإذا ضقت فالبهية . وقد أتى ابن الرومي بأبلغ من هذا المعنى في شعره فقال :

وما الحلّي إلا زينة لنقيصة يتم من حسن إذا الحسن قصراً
فأما إذا كان الجمال موفراً كحسنك لم يحتج إلى أن يزوراً
ولذلك قالت الحكماء : ليست العزة في حسن البزة . وقال بعض الشعراء :

وترى سفيه القوم يدنس^(١) عرضه سفهاً ويمسح نعله وشراكها
وإذا اشتد كلفه بمراعاة لباسه قطعة ذلك عن مراعاة نفسه وصار الملبوس عنده أنفس وهو على مراعاته أحرص . وقد قيل في منشور الحكم :
البس من الثياب ما يخدمك ولا يستخدمك . وقال خالد بن صفوان لياس ابن معاوية : أراك لا تبالي ما لبست فقال : ألبس ثوباً أقي به نفسي أحب إليّ من ثوب أقيه بنفسي . فكما أنه لا يكون شديد الكلف بها فكذا لا يكون شديد الإطراح لها . فقد حكى عن عائشة أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ فنظر إليه رث الهيئة فقال : ما لك ؟ قال : من كل المال قد آتاني الله فقال : إن الله تعالى يجب إذا أنعم على امرئ نعمة أن ينظر إلى أثرها عليه . وقد قيل : المروءة الظاهره في الثياب الطاهره . وهكذا القول في

(١) يدنس : يشين .

غلماناه وحشمه^(١) إن اشتد كلفه بهم صار عليهم قيماً ولهم خادماً وإن
اطرحهم قلّ رشادهم وظهر فسادهم فصاروا سبباً لمقتته وطريقاً إلى ذمه لكن
يكفهم عن سيء الأخلاق ويأخذهم بأحسن الآداب ليكونوا كما قال فيهم
الشاعر:

سهل الفناء^(٢) إذا مرت بيابه طلق اليدين مؤدّب الخدام

وليكن في تفقد أحوالهم على ما يحفظ تجملته ويصون مبتدله. فقد
روي عن النبي ﷺ أنه قال: «أدّهنوا يذهب البؤس عنكم والبسوا تظهر نعمة
الله عليكم وأحسنوا إلى ممالئكم فإنه أكبت لعدوكم» وليتوسط فيهم ما بين
حالة اللين والخشونة فإنه إن لان هان عليهم وإن خشن مقتوه وكان على
خطر منهم. وحكي أن المويذ سمع ضحك الخدام في مجلس أنوشروان
فقال: أما تمنع هؤلاء الغلمان فقال أنوشروان: إنما بهم يهابنا أعداؤنا.
وقال أبو تمام الطائي:

حشم الصديق عيونهم بحائه لصديقه عن صدقه ونفاقه
فلينظرن المرء من غلماناه فهم خلائفه على أخلاقه

واعلم أن للنفس حالتين حالة استراحة إن حرمتها إياها كلت^(٣) وحالة
تصرف إن أرحتها فيها تخلت فالأولى بالإنسان تقدير حاله حال نومه
ودعته^(٤) وحال تصرفه ويقظته فإن لهما قدراً محدوداً وزماناً مخصوصاً يضرّ
بالنفس مجاوزة أحدهما وتغير زمانهما. فقد روي عن النبي ﷺ أنه قال:
«نومة الصُّبْحَة^(٥) معجزة منفخة مكسلة مورمة مفشلة منساة للحاجة». وقال
عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: النوم ثلاثة: نوم خرق وهي الصُّبْحَة ونوم
خلق وهي القائلة ونوم حمق وهو العشي. وقد روى محمد بن يزدان عن

(١) حشمة: خاصة الذين يغضبون له من أهل وجيرة.

(٢) الفناء: ما اتسع من أمام الدار وأطرافها والسهل ضد الحزن

(٣) كَلَّتْ: شمت.

(٤) دعته: راحته وسكونه.

(٥) الصُّبْحَة: من طلوع الفجر إلى الزوال.

ميمون بن مهران عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «نوم الضحى خرق والقيلوله خلق ونوم العشي حمق». وقيل في مشور الحكم من لزِم الرقاد^(١) عدم المراد. فإذا أعطى النفس حقها من النوم والدعة واستوفى حقه بالتصرف واليقظة خلص بالإستراحة من عجزها وكلالها وسلم بالرياضة من بلادتها وفسادها. وحكي أن عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز دخل على أبيه فوجده نائماً فقال يا أبت أتنام والناس بالباب فقال يا بني نفسي مطيتي وأكره أن أتعبها فلا تقوم به. وينبغي أن يقسم حالة تصرفه ويقظته على المهم من حاجاته فإن حاجة الإنسان لازمة والزمان يقصر عن استيعاب المهم فكيف يبه إن تجاوز إلى ما ليس بهم هل يكون إلا:

كتاركة بيضها بالعراء^(٢) وملبسة بيض أخرى جناحاً

ثم عليه أن يتصفح في ليله ما صدر من أفعال نهاره فإن الليل أخطر للخطر وأجمع للفكر فإن كان محموداً أمضاه واتبعه بما شاكله وضاهاه إن كان مذموماً استدركه إن أمكن وانتهى عن مثله في المستقبل فإنه إذا فعل ذلك وجد أفعاله لا تنفك من أربعة أحوال: إما أن يكون قد أصاب فيها الغرض المقصود بها أو يكون قد أخطأ فيها فوضعها في غير موضعها أو يكون قصر فيها فنقصت عن حدودها أو يكون قد زاد فيها حتى تجاوزت حدودها وهذا التصفح إنما هو استظهار بعد تقديم الفكر قبل الفعل ليعلم به مواقع الإصابة ويتنزه به استدراك الخطأ وقد قيل من كثر اعتباره قل عثاره. وكما يتصفح أحوال نفسه فكذا يجب أن يتصفح أحوال غيره فربما كان استدراكه الصواب منها أسهل بسلامة النفس من شبهة الهوى وخلو الخاطر من حسن الظن فإن ظفر بصواب وجده من غيره أو أعجبه جميل من فعله زين نفسه بالعمل به فإن السعيد من تصفح أفعال غيره فاقتدى بأحسنها وانتهى عن سيئها. وقد روى زيد بن خالد الجهني عن رسول الله ﷺ أنه قال «السعيد من وعظ بغيره». وقال الشاعر:

(١) الرقاد: نوم الليل.

(٢) العراء: الفضاء.

إن السعيد له من غيره عظة وفي التجارب تحكيم ومعتبر
وأنشدني بعض أهل العلم لطاهر بن الحسين

إذا أعجبتك خصال أمرى فكنه يكن منك ما يعجبك
فليس على المجد والمكرمات إذا جثتها حاجب يحجبك

فأما ما يرومه من أعماله ويؤثر الإقدام عليه من مطالبه فيجب أن يقدم
الفكر فيه قبل دخوله فإن كان الرجاء فيه أغلب من الایاس منه وحمدت
العاقبة في سلوكه من أسهل مطالبه وألطف جهاته وبقدر شرفه يكون الإقدام
وإن كان الایاس أغلب عليه مع الرجاء ما شدة التفرير ودناءة الأمر المطلوب
فليحذر أن يكون له متعرضاً. فقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا هممت
بأمر ففكر في عاقبته فإن كان رشداً فامضه وإن كان غياً^(١) فانت عنه». وقالت
الحكماء طلب ما لا يدرك عجز. وقال بعض الشعراء:

فإياك والأمر الذي إن توسعت موارده ضاقت عليك المصادر
فما حسن أن يعذر المرء نفسه وليس له من سائر الناس عاذراً

وليعلم أن لكل حين من أيام عمره خلقاً وفي كل وقت من أوقات
دهره عملاً فإن تخلق في كبره بأخلاق الصغر وتعاطى أفعال الفكاهة والبطر
استصغره من هو أصغر وحتره من هو أقل وأحقر وكان كالمثل المضروب
بقول الشاعر:

وكل باز يمسه هرم تحراً على رأسه العصفير

فكن أيها العاقل مقبلاً على شانك راضياً عن زمانك سلماً لأهل دهرك
جارياً على عادة عصرك منقاداً لمن قدمه الناس عليك متحناً على من قدمك
الناس عليه ولا تباينهم بالعزلة عنهم فيمقتوك ولا تجاهرهم بالمخالفة لهم
فيعادوك فإنه لا عيش لمقوت ولا راحة لمعادي. وأنشد بعض أهل الأدب
لبعضهم:

(١) غياً: شراً منبياً عنه.

إذا اجتمع الناس في واحد وخالفهم في الرضا واحد
فقد دل إجماعهم دونه على عقله أنه فاسد

واجعل نصيح نفسك غنيمة عقلك ولا تداهنها بإخفاء عيبك وإظهار
عذرك فيصير عدوك أحظى منك في زجر نفسه بإنكارك ومجاهرتك من
نفسك التي هي أخص بك لإغرائك لها بأعذارك ومساءتك فحسبك سوء
رجل ينفع عدوه ويضر نفسه. وقال بعض الحكماء أصلح نفسك لنفسك
يكن الناس تبعاً لك. وقال بعض البلغاء من أصلح نفسه أرغم أنف أعدائه
ومن أعمل جدّه بلغ كنه أمانيه. وقال بعض الأدباء من عرف معابه^(١) فلا
يلم من عابه وأنشدني أبو ثابت النحوي لبعض الشعراء:

ومصروفة عيناه عن عيب نفسه ولو بان عيب من أخيه لأبصرا
ولو كان ذا الإنسان ينصف نفسه لأمسك عن عيب الصديق وقصرا

فهذب أيها الإنسان نفسك بافتكار عيوبك وانفعها كنفعك لعدوك فإن
من لم يكن له من نفسه واعظ لم تنفعه المواعظ. أعاننا الله وإياك على
القول بالعمل وعلى النصيح بالقبول وحسبنا الله وكفى.

(١) معابه: أي عيبه.

المحتوى

صفحة

باب فضل العقل وذم الهوى	٦
فصل: وأما الهوى فهو عن الخير صاّد الخ	٢٣
باب أدب العلم	٣٣
فصل: واعلم أن للعلوم تؤدي الى أواخرها	٥٣
فصل: وسأذكر طرفا مما يتأدب به المتعلم ويكون عليه العالم ...	٧٧
فصل: فأما ما يجب أن يكون عليه العلماء من الأخلاق الخ ...	٨٢
باب أدب الدين	٩٨
باب أدب الدنيا	١٤٣
فصل: وأما ما يصلح به حال الانسان فيها	١٦١
فصل: وأما المؤاخاة بالمودة الخ	١٧٥
فصل: وأما البر الخ	١٩٦
باب أدب النفس: وهو الخامس من الكتاب، وفيه ستة فصول	٢٤١
الفصل الأول: في مجانية الكبر والاعجاب	٢٤٦
الفصل الثاني: في حسن الخلق	٢٥١
الفصل الثالث: في الحياء	٢٥٦
الفصل الرابع: في الحلم والغضب	٢٦١
الفصل الخامس: في الصدق والكذب	٢٧٠
الفصل السادس: في الحسد والمنافسة	٢٧٧

فصل:	وأما آداب المواضعة والاصطلاح، وفيه ثمانية فصول	٢٨٢...
الفصل الأول:	في الكلام والصمت	٢٨٣.....
الفصل الثاني:	في الصبر والجزع	٢٩٤.....
الفصل الثالث:	في المشورة	٣٠٨.....
الفصل الرابع:	في كتمان السر	٣١٥.....
الفصل الخامس:	في المزاح والضحك	٣١٨.....
الفصل السادس:	في الطيرة والفأل	٣٢١.....
الفصل السابع:	في المروءة	٣٢٥.....
الفصل الثامن:	في آداب مشورة	٣٥٥.....